أنيس منصور

مِنْ أوّلْ نظرَة



دار الشروق

مِنْ أوّلِ نظْـرَة

فِي الجنسِ وَالحُبِّ وَالزواجِ

الطبعة الأولى
١٣٩٦هـ-١٩٦٦م

الطبعة الثانية
١٤١٠هـ-١٩٨٩م

الطبعة الثالثة
١٤١٤هـ-١٩٩٣م

الطبعة الرابعة
١٤٢٢هـ-٢٠٠١م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

أنيس منصور

مِنْ أوّل نظْرَة

فِي الجنسّ وَالحُبّ وَالزوَاجْ

دار الشروق

أحبك ... أحبك

من القصص الغريبة فى « ألف ليلة وليلة » قصة القصر الذى وضع عليه عدد كبير من الأقفال .

يقال : كانت فى الأندلس مدينة اسمها لبطه . وفى المدينة قصر . وعلى القصر حراس وعلى باب القصر قفل . والناس حريصون على أن يظل هذا القصر مقفلا . وكلما جاء ملك استجاب لرغبة الناس فوضع قفلا على القصر. وتوالى الملوك وتعددت الأقفال حتى صارت أربعة وعشرين قفلا . ثم جاء ملك أجنبى وحكم هذه المدينة . ولأنه أجنبي لم يكن حريصا على أن يظل القصر مقفلا . وحذره الناس وأخافوه ولكنه أصر. وحطم هذه الأقفال . ودخل القصر وهناك وجد صورا للفرسان العرب وخيولهم وأسلحتهم معلقة على الجدران ، وكتابا يقول : « إن الذى يفتح هذا الباب سيقتله الغزاة العرب » .

وجاء طارق بن زياد . وحكم البلاد واستولى على المدينة وعلى القصر. ووجد أحجارا كريمة وعشرات التيجان ووجد منضدة الملك سليمان . ووجد خرائط الكرة الأرضية وكتابا فى تحويل المعادن إلى ذهب .. ووجد مرآة من ينظر فيها يرى الدنيا كلها .

أما هذا الملك الذى فتح القصر وعرف مستقبل هذه البلاد فقد قتله القائد العربى طارق بن زياد ..

انتهت القصة وأدرك شهر زاد الصباح وسكتت عن الكلام المباح ..

والغريب فى هذه القصة أن هناك قصرا ساحرا أو مسحورا . الناس يريدون أن يعرفوا ما به ولكنهم يخافون . فلما جاء واحد وأراد أن يعرف ما به وعرف ، كان جزاؤه القتل .. كان جزاؤه ما لقيه آدم وحواء عندما أكلا من « شجرة المعرفة » المحرمة فهبطا من السماء إلى الأرض ..

ومن العجيب أيضا أن هذا الملك الذى تنبأ بمجيء العرب ، قتله العرب ! لماذا قتلوه مع أنه لم يكن سببا فى تعطيل دخولهم أو مقاومتهم ..

وهذا هو الظلم الوحيد فى القصة : إن الرجل الذى عرف وتنبأ عوقب مع أنه لم يرتكب جريمة ..

فهذا القصر المسحور يلتف حوله الناس ، ويطلقون خيالهم يفعل مايشاء .. وكان من الممكن أن يفتحوا القصر ويعرفوا الحقيقة . ولكن يبدو أن الناس يفضلون الخيال الذى يعذبهم . على الواقع الذى يريحهم !

إن هذا القصر المسحور كالحب .. كقلب المرأة ! .

الناس يقتربون منه ويستريحون إلى أنه : لغز .. فإذا حاول إنسان أن يقترب منه عاقبوه على ذلك ..

فالرجل الذى يريد أن يعرف المرأة يتعذب . والتى تريد أن تقترب من الرجل تتعذب .. كأن العذاب هو ثمن حب المعرفة .. أو حب الاستطلاع ..

ولكن الذى يفتح أقفال هذا اللغز أو هذا القلب الإنسانى يجد الكثير من الكنوز .. ويجد خريطة العلاقات الإنسانية .. ويجد قواعد للعلاقات الإنسانية .. ويجد المرآة التى إذا نظر فيها عرف نفسه .. وعرف غيره .. والمرآة الموجودة فى قلوب المحبين من نوع خاص .. إنها مرآة تجعل الصغير كبيرا ، والكبير صغيرا .

ومن الغريب أن شهر زاد يدركها الصباح وتنام بعد كل قصة .. ولكن .. قصة المرأة أو قلب الرجل يجب ألا تنام بعدها شهر زاد .. إنها قصة أيقظت الإنسانية وهدت حيلها .. فلا استراح الذى عرفها ، ولا استراح الذى وقف عند بابها .

والذين فى داخل القلب يريدون أن يخرجوا ، والذين فى خارجه يريدون أن يدخلوا ..

ولو كان القلب الإنسانى مثل هذا القصر ، ينفتح ولا يقاوم ، لهان أمر القلب .. ولكن القلب الإنسانى يقاوم ويدوخ .. ولا يسهل فتحه .. وليست أقفاله أربعة وعشرين .. بل أربعة وعشرين مليونا ، كلما انفتح قفل ظهر آخر .. إنها ملايين الأشياء التى بين الناس .. وهى ملايين الألغاز والصعوبات .. النفسية والجسمية .. والاجتماعية .. وكل العلم والفن والتاريخ والأدب محاولات لفتح هذه الأقفال ودخول هذا القلب الإنسانى دون أن تسيل قطرة دم .. ولكن كيف تخوض فى الدم ولا تتلوث ؟ كيف تخوض فى الوحل ولاتتسخ ؟.. كيف تكون هناك علاقة إنسانية ولا تكون حيوانية فى نفس الوقت ؟..

إن الكاتب الألمانى هوفمان له قصة خرافية تقول : إن أحد الرهبان اكتشف مادة سحرية إذا شربها الإنسان صار شريرا .. وإذا شربها إنسان آخر أصبحت أفكارهما متشابهة . وفى نفس الوقت أصبحا عدوين .. يحاول كل منهما أن يتخلص من الآخر . ولكى يتخلص منه لابد أن يقترب منه .. وأن يلتصق به .. تماما كالذى يريد أن يخنق إنسانا بيديه ، لابد أن يقترب منه .. وأن يلف يديه حوله .. وأن يميته .. أى لابد أن يكون قريبا جدا .. ليكون بعيدا جدا بعد ذلك ..

أليس هذا من أوجاع الحب ؟..

وأعود مرة أخرى إلى « ألف ليلة وليلة » ففيها قصة عن الرجل العادل معن بن زائدة فقد أهدى ثلاث غانيات ثلاثة سهام ذهبية .. وقررت الغانيات الثلاث أن يقلن فى هذه السهام الذهبية شعرا .. فقالت واحدة :

يركب فى السهام فصول تبر ويرمى للعدا كرما وجودا
فللمرضى علاج من جراح وأكفان لمن سكن اللحودا

وقالت الثانية :

ومحارب من فرط جود بنانه عمت مكارمه الأحبة والعدا
صيغت فصول سهامه من عسجد كيلا تعوقه الحروب عن الندا

وقالت الثالثة :

ومن جوده يرمى العداة بأسهم من الذهب الابريز صيغت فصولها
لينفقها المجروح عند دوائه ويشترى الأكفان منها قتيلها

والمعنى الذى أعجبت به الفتيات الثلاث هو أن معن بن زائدة رجل كريم . وهو بالفعل قد اشتهر بالكرم .. وقد بلغ من كرمه أن أعطى سلاحه الذهبى للغانيات .. وأصبح أمامهن أعزل من السلاح ..

والحب كهذه السهام الذهبية ..

والسهام مهما كانت مادتها فهى موجعة .. سواء كانت من فضة أو من ذهب أو من نحاس .. فهى توجع .. ولكن هذه السهام الغرامية تشبه الحقن الطائرة .. التى يطلقها الصيادون فى الغابة على الوحوش .. فهم بدلا من أن يطلقوا الرصاص أو السهام على الوحوش فتموت ، فإنهم يطلقون عليه حقنا من البنج .. لاتكاد الحقنة تصطدم بالحيوان حتى توجعه .. ثم بعد ذلك يفقد الإحساس بها وبأى شىء آخر .. وهنا يقبض عليه الصياد ، وبعد أن يكون

قد دخل القفص يسترد وعيه من جديد ..

فالحب هو هذه السهام الذهبية .. فكل إنسان موجوع من الحب .. ولكنه فى نفس الوقت يريده .. وينسى به كل شيء .. والحب نفسه أغلى من الذهب ..

فالحب هو النشوة الذهبية على شكل سهم ينطلق من قلب إلى قلب .. أو من جسم إلى جسم ..

وليس نوعا من الكرم أن يكون الحب من ذهب .. ولكن الكرامة هى التى تجعل الفريسة تطالب بأن تقع ضحية لأغلى أنواع السهام ..

فالمرأة تفضل أن تموت بسهم من ذهب ، على أن تموت بسهم من فضة ..

إنها تفضل أن يكون السلاح غاليا ، الأسلوب غاليا ، الثمن باهظا ..

إن هذا هو الذى يرضى كبرياءها وينفخ غرورها .. فإذا ماتت فى الحب .. ماتت بأغلى سهم .. بأغلى ثمن ..

* * *

ولكن ما هو الحب ؟..
من الذى يجيب عن هذا السؤال ؟..
ومن الذى يقول لنا ما صناعة الحب .. ماهو أسلوب الحب مع من نحب ؟..

هناك ملايين الإجابات من ملايين الناس العارفين والذين لايعرفون .. وسوف تكون هناك ما لا نهاية له من الإجابات عن هذا السؤال .. وسوف يقرأ الناس ويفكرون ويتساءلون أيضا : إن كان الذى قرأوه عن الحب

والمحبين معقولا أو واقعيا أو نافعا ! .

هناك اثنان من أساتذة الحب ..

لا أقول إنهما « الاثنان » الوحيدان . وإنما هما اثنان أعجبت بهما واسترحت إليهما : الشاعر اللاتينى أوفيد والعالم النفسى الكبير ايريش فروم ..

أحدهما أستاذ قديم جدا .. ربما كان أقدم أستاذ للحب .. لفن الحب .. وأسلوب الحب .. والاستيلاء على المحبوب .. وكيف يمكن التعامل معه ، قبل ذلك وبعد ذلك .

هذا الأستاذ الكبير هو الشاعر اللاتينى القديم أوفيد ولد قبل الميلاد بثلاثة وأربعين عاما ، ومات بعد الميلاد بثمانية عشر عاما .. أحب عشرات المرات وعاكس ألوف المرات .. وتزوج ثلاث مرات .. وكان يتمنى لو طال عمره ليتزوج مئات المرات ..

وقد سجل الشاعر أوفيد كل فلسفته فى الحب فى كتابه المشهور « فن الحب » .. ولايمكنك أن تقلب فى صفحاته دون أن تضحك ودون أن تختلف معه أيضا ! .

وأوفيد لايضيع وقته ولا وقت القارئ .. انه يهجم على القارئ .. ويمسكه من ذراعه .. ويشده .. ويفتح عينيه ويقول له : امش ورائى .. وأنا أقودك إلى شاطئ الأمان .. فالحب بحر .. وأنا ملاحه البارع ..

ويقول أوفيد : إننى أعلم أن الذئاب والصقور ليست لها شعبية .. ولكنى ذئب معجب بالصقور ..

والحب فن .. كما أن الملاحة وقيادة السفن فن .. وفلاحة الأرض فن ..

فإذا رأيت فتاة أعجبتك .. يجب أن تصارح نفسك بسرعة : هذه الفتاة يجب أن تكون لى .. تحت سيطرتى . يجب أن أرتبط بها . وهذا هو سر النجاح فى الحب .

وسوف تجد صعوبة فى العثور على فتاة تعجبك .. ولكن هذه الصعوبة

مؤقتة . صحيح أن السماء لاتمطر الشقراوات والسمراوات .. ولكن يجب أن تبحث .. يجب أن تهرش رأسك وأن تفتح دماغك وتفكر .. أين تكون الفتيات ؟.. هذا هو السؤال ؟..

إنهن فى الحفلات . وفى أيام الأعياد والمباريات وفى المسارح .. هذه هى السوق . وأنت المشترى . وهذا هو البحر وأنت الصياد .. وكأى صياد يجب أن تجهز شباكك . وكل نوع من السمك له شبكة وله طريقة . وله مكان وله موسم . وكل صياد له أسلوب . ولكن الصيادين جميعا يتفقون فى شىء واحد : الانتظار والصبر والسرعة .. والصياد يجب أن يتأكد من شباكه ويجب أن يعرف طبيعة الفريسة . والصياد البارع هو الذى يعرف أين ومتى وكيف .. وهو الذى ينجح فى الحب ..

وفى الأعياد والمواسم والحفلات تختلط كل أنواع الأسماك من كل الأحجام والألوان . كن قريبا من الفريسة . لا ترفع عينيك عنها . لاحظ ما الذى يهمها . اقترب منها أكثر . حاول أن تلمسها وليكن اعتذارك رقيقا . هذا الاعتذار يجب أن تكون قد فكرت فيه . واجعل اعتذارك خليطا من المعاكسة ومنتهى الأدب . هذا فن ويجب أن تكون عينك مثل النحلة تنتقل من شعرها إلى ذيل فستانها . وعندما تنشغل الفريسة بالنظر إلى الآخرين ، لاتنشغل بغيرها . إذا اهتمت بالخيول او الممثلين ، راقبها .

ويجب أن تقول لنفسك طول الوقت : أيتها الجميلة سوف تكونين لى ، كما كانت أمك فى فراش أبيك . هذا مؤكد .

وإذا لاحظت أن هذه الحميلة تنظر إلى أحد الخيول فى السباق ، اسأل عن اسم الحصان . وعن صاحبه . وليكن ذلك بصوت مرتفع يلفتها إليك . لا تنظر إليها إذا نظرت إليك . امش ورائى وأنت تصل إلى ماتريد . وإذا خرجت تابعها . سوف تتعثر فى مشيتها . هذا ضرورى . وإذا لم يكن فى

الأرض طوبة واحدة ، فإن المرأة تسقط هذه الطوبة من حقيبتها لكى تتعثر ، وتمتد إليها الأيدى والعيون . يجب أن تكون يدك أطول الأيدى. أما عيناك فهما منذ البداية قد التصقتا بكل جسمها.. فإذا تعثرت امتدت يدك وساندتها.. مع الاعتذار لها كأنك أنت الطوبة . أو كأنك الذى وضعت الطوبة .. وبسرعة ارفع ثوبها عن الأرض حتى لاتتعثر مرة أخرى .. أنت الآن إنسان سعيد لقد رأيت جانبا من ساقيها .. وهذا يتوقف على سرعتك فى النظر وفى رفع الثوب ..

وبسرعة جدا ادخل فى حديث . اخترع أى كلام . عليك أن تدعى العلم والمعرفة . فالعلم نفسه لايهم المرأة ، المرأة تفضل الذين يدعون العلم ، ويتكلمون كالعلماء. لأن العلماء أنفسهم لايحسنون الكلام . والمرأة تفضل الممثلين على الذين ألفوا الكلام للممثلين .. تفضل المطربين على الذين ألفوا لهم الأغانى ..

وإذا أحسست بشىء من الاضطراب ضع فى رأسك هذه الفكرة بسرعة جدا : لاتوجد امرأة لايمكن الاستيلاء عليها ، وأنك أنت تستطيع ذلك .. وأنه أسهل للإنسان أن يعتقد أن الطيور لا تغرد فى الربيع .. والفراشات لا تحوم فى الصيف ، والأرانب تطارد الثعالب من أن يتصور لحظة واحدة أن قلب المرأة لا يهتز أمام إنسان يعاكسها بألفاظ جميلة ..

قد تتصور أنها لاتريدك .. أنت مغفل .. ففى أعماق كل امرأة أنها تريد أن تستسلم . فالمرأة ممثلة بطبيعتها . وإذا لم نتقدم نحن منها ، فسوف تلقى بنفسها علينا .. تحت أقدامنا بعد ذلك ..

وإذا كنت تعرف خادمتها .. صادقها ..
وإذا كنت تعرف صديقتها صادقها ..

وإذا كانت مرتبطة بأحد غيرك ، ابعد عنها .. فالطائر المربوط من أحد جناحيه ، لايحلق بعيدا ..

وفن الصيد مثل فن فلاحة الأرض .. والفلاح البارع هو الذى يعرف أن هناك وقتا لحرث الأرض .. ووقتا لوضع البذرة .. ووقتا للحصاد .. وهو القادر على أن يراعى هذه القواعد .

ولاتنس .. لاتنس أبدا : الوعود .. الوعود .. وعشرات الألوف من الوعود .. وآه لو كانت عندى عشرات الألسنة .. عشرات الألوف من الألسنة لجعلتها كلها فى خدمة الفتاة التى اخترتها هدفا لحبى .. يجب أن يكون الإنسان مليونيرا فى وعوده . إنك لن تخسر شيئا . قل ما تشاء ولكن يجب أن تصدق أنت ماتقوله . فالأمل عند المرأة هو أعظم إله .. والأمل إله كذاب .. وكلنا آلهة لأننا جميعا كاذبون ! .

ولا تيأس .. سوف يلين لك كل شىء .. الحديد نفسه يتآكل .. الأرض نفسها تنشق تحت المحراث .. الماء يفتت الصخر .. إن طروادة نفسها ، قد استسلمت فى النهاية ..

وكل امرأة مهما كانت ليست إلا طروادة وقلاعها مهما كانت منيعة سوف تستسلم آخر الأمر .

حاول دائما أن تكون قريبا منها .. كلمها أو اكتب لها . وإذا طلبت ألا تكتب لها لاتصدقها إنها سوف تبكى إذا توقفت عن الكتابة . وإذا كتبت فلا تكتب كما لو كنت تخطب فى الجماهير .. كن رقيقا .. كن ناعما .. كن هادئا كالصياد . وفى الوقت المناسب كن صقرا .. كن ذئبا .. لاتضيع الفرصة المتاحة لك .. ولاتهتم بمظهرك .. كن بسيطا فقط .. كم من قلوب سقطت ببساطة ، وبسبب البساطة .

إن البطل بتسوس قد استولى على قلب إريان لأنه لم يهتم بشعر رأسه اهتماما زائدا .. فقد كان شعره منكوشا ، ولكنه كان نظيفا معطرا ..

واجعل أظافرك نظيفة وضع عطرا فى فمك .. ولا ترتد حذاء كبيرا .. أكبر من قدميك .. فالمرأة تنظر إلى حذائك قبل أن تنظر إلى وجهك .. ولاتندهش ولا تناقش هذا الموضوع الآن . سوف يكون عندك فيما بعد وقت تناقش فيه وجه الشبه بين جزمتك ووجهك وعقل المرأة ..

واعلم : أن المرأة تحب أن تكون ضحية .. ولذلك يجب أن تغدر بها . فهى غادرة بطبعها . وأنت وهى فى سباق مع الغدر .. من الذى يغدر أولا .. كن أنت الغادر الأول قبل أن تكون الضحية ..

إن مصر الفرعونية قد عاشت تسع سنوات تقاسى من القحط .. فذهب تراسبوس يقول لأحد ملوك مصر : إن حال مصر لن ينصلح إلا إذا ذبحتم رجلا أجنبيا ..

فقال له الملك : فعلا .. إذن لتكن أنت أول ضحية من أجل مصر ! !

وذبحوه ..

فلا تكن أنت الضحية ..

وأنا أعلم أنه ليس من السهل على الرجل أن يبكى .

فالمرأة أستاذة البكاء .. ولكن دموع الرجل أقوى أثرا فى نفس المرأة .. هنا فقط تستطيع أن تستدير وتضع أصبعك فى عينك .. إنها دمعة واحدة أو دمعتان .. وبعدها تنهار المرأة ..

وإذا كنت تتحدث إلى المرأة ، فلا تضع لمستقبلكما مشاريع خرافية .. لا تكن مثل الفتى ايكاروس الذى أراد أن يطير . فوضع لذراعيه ريشا طويلا .

وألصق هذا الريش بالشمع .. وحذره أبوه ألا يقترب من الشمس فى طيرانه . حتى لايذوب الشمع فى حرارتها .. وحذره ألا يقترب من البحر ، حتى لا يذوب الشمع فى بخار الماء .. ولكن ايكاروس طار فوق البحار وقريبا من الشمس .. فتساقط ريشه .. وسقط ..

ولاتنس أن المرأة متقلبة ..

ولذلك يجب مراعاة أساليب الاستيلاء على قلبها .. فكل أرض تصلح لنوع معين من الأشجار .. وكل سمكة لها ماء حلو أو ماء مالح .. وصيد الصغيرة يختلف عن صيد الكبيرة .. كل فريسة لها أسلوب تقع به ..

وليس جسم المرأة فقط هو الذى يجب أن تغزوه وإنما عقلها أيضا ..

والبطل عوليس لم يكن جميلا ، كان فصيحا ..

كانت كاليبسو تطلب إليه أن يروى لها القصة الواحدة ألف مرة .. لتسمعه .. وكان يروى القصة الواحدة كل مرة بأسلوب مختلف .. وفى إحدى المرات أمسك عودا من الحطب وراح يرسم على رمل الشاطىء كيف سيستولى على حصون طرواده .. فجاءت موجة ومسحت الرسم ..

فقالت له كاليبسو : إن البحر سوف يقضى على الجميع .. فاحترس !

وكان لابد أن يقول لها عوليس : ولكنك الشاطىء الذى يحمى الجميع من البحر ! .

وشعرت كاليبسو بأن قلبها يذوب من أجله لأن المرأة تحب المديح .. ولاتشبع من الكلام الحلو .. لاهى تشبع من كلام حلو يقوله الرجل ولاتشبع من كل شىء تقوله ضد الرجل ! .

والكلام هو « الطعم » الذى يجب ألا يختفى من سنارتك .

والصقور والذئاب ليست لها شعبية ، ولكن الحمامة الوديعة هى التى تفوز بقلب الجميع .. لأنها رقيقة ومسالمة . وفى نفس الوقت ضحية للصقور ..

والمرأة تحب أن تلعب دور الحمامة .. وليلعب الرجل دور الصقر . وتستسلم له فى النهاية . فتفوز وتثير شفقته فى نفس الوقت .

وتقوم بدور الضحية مع أنها هى الصقر الذى له ريش الحمامة !

والأغنياء ليسوا فى حاجة إلى نصائح .. فهداياهم فصيحة وبليغة ومقنعة ! ..

ويقول الشاعر أوفيد : إننى شاعر الفقراء ..

وإذا تمكنت من قلب الفتاة ، اختف عن أنظارها بعض الوقت .. ستثيرها . ستقلق عليك . ستفكر فيك . ستعرف قيمتك ..

ولاتنس أن الفلاح الناجح هو الذى يريح التربة بعض الوقت . والتربة إذا استراحت بعض الوقت كانت خصوبتها أقوى .. وغلتها أعظم ..

وكذلك قلب المرأة يجب أن تبتعد عنه بعض الوقت .. سوف يكون استعدادها للعطاء أكثر . وللاستسلام أعمق ..

فعندما ابتعد البطل عوليس عن زوجته بنيلوبه عشرين عاما انشغلت عنه كل هذه السنوات الطويلة .. ولكن عندما جاء كانت عند قدميه ..

وإذا قاومتك المرأة وضاقت بك ثم نظرت إلى نفسها فى المرآة ووجدت أن ملامحها ليست جميلة .. ثم إذا ضحكت وتظاهرت بالفرحة بلقائك ورأت ملامحها جميلة فى المرآة فإنها سوف تستسلم لك ..

إن الفتاة الإغريقية « بالامس » عندما راحت تنفخ فى الناى ، ونظرت إلى وجهها فى المرآة ، وجدت أن النفخ يفسد ملامح وجهها فحطمت

الناى ، وعدلت نهائيا عن هذا النوع من الموسيقى .. خوفا على جمال وجهها !

وكذلك كل امرأة ..

والشاعر أوفيد لايفوته أن يعلمك كيف تتخلص من المرأة .. فهو يقول لك :

ولا تنس أن المرأة لاتطيق أن ينشغل عنها الرجل . ولا تطيق أن يهملها ..

إذا أردت أن تهرب من المرأة انشغل عنها . والحب لايحب العمل .. لاشىء يقتل الحب إلا العمل .. فالعمل يأخذك من قلبك ويأخذك بعيدا عن قلب المرأة ولاتصدق أن المرأة تحب أن ينشغل عنها الرجل ولو كان ذلك بالله أو بالعلم .

إن المرأة تغار من الكتاب الذى يقرؤه الرجل . ومن القلم الذى يمسكه .

إن المرأة تريد الرجل الذى يتفرغ لها .. ولذلك ينجح العاطلون فى الحب . ولا ينجح العلماء والعباقرة ..

فوراء كل رجل عظيم امرأة تعيش فى ظل عظمته .. ولكنها تتمنى فى نفس الوقت ألا يكون عظيما ليتفرغ لها ..

إن العظمة تهم الرجل ولاتهمها .

إن المجد يهم المرأة ولكنه ليس أملها .

إن أورفيوس ذلك النافخ فى الناى ، والذى سحر الأسماك فخرجت من البحر تزحف وراءه على الشاطئ ، وتركت الطيور أوكارها لتستمع إلى موسيقاه .. هذا الساحر قد شغل الكائنات كلها عن حياتها وعن صغارها .. أحبته النساء وعندما انشغل عنهن ، قتلنه ! .

هذه نصائح شاعر الفقراء الذين لايملكون إلا عقولهم وحيلهم من أجل

الاستيلاء على المرأة .. فهم أصحاب هدف واحد هو الاستيلاء على المرأة بالحيلة والخديعة من أجل الحب .. أو من أجل الجنس ..

والشاعر أوفيد : صياد حب ولكنه ليس محبا . إنه لايناقش معنى الحب . لايهمه . ليس عنده وقت . إنه جائع يريد أن يأكل ، وعطشان يريد أن يرتوى .. ولأنه يشكو من الوحدة فهو يريد ألا ينسى أنه رجل يبحث عن امرأة ! .

إنه صقر . ذئب . صياد . بحار . فلاح . طبيب . ووحش أيضا .

والمرأة : لعبته وفريسته ! .

* * *

أما الأستاذ الثانى فى الحب . فهو عالم النفس المعاصر الكبير إيريش فروم .. وهو ليس صقرا ولا ذئبا . وإنما هو مفكر يسأل : مامعنى أن يكون الإنسان صقرا أو ذئبا ؟ ولماذا ؟.. ثم كيف نجح ؟.. ولماذا ؟.. ما هذا الذى يحس به ؟.. ولماذا ؟.. وما معنى هذه الخطوات المختلفة فى الحب وما هذا الذى يشتعل فى قلب الإنسان .. أو فى قلبين فى وقت واحد ؟..

والعالم ايريش فروم له أيضا كتاب جميل بنفس عنوان كتاب الشاعر أوفيد .. فعنوانه « فن الحب » .. ويستهل كتابه بهذه العبارة لكاتب قديم اسمه بارسياوس :

« من لايعرف ، لايحب شيئا ..
ومن لايستطيع أن يفعل شيئا ، لايفهم شيئا ..
ومن لايفهم شيئا لايساوى شيئا ..
ولكن الذى يفهم يحب ، يلاحظ .. يرى ..
وكلما كان الشيء مليئا بالمعانى ، كان الحب أقوى ..

والذى يتخيل أن كل الثمار تنضج فى وقت واحد ، لايعرف شيئا عن الفاكهة ..

فهل الحب علم ؟.. هل هو فن » .

الناس محاصرون بالحب والكلام عن الحب : الأفلام والقصص والكتب والأغانى . كل شيء حب فى حب . ولكن أحدا لايدرى أن فى استطاعته أن يتعلم الحب ، أو كيف يحب !! .

فكل الناس الذين يتحدثون عن الحب ، يقصدون كيف يكون الإنسان محبوبا لامحبا ، معشوقا لاعاشقا ..

والمشكلة ـ إذن ـ هى كيف يكون الإنسان محبوبا ؟ .

الرجال يريدون ذلك بأن يكون الواحد منهم ناجحا قويا غنيا .

والنساء بأن تكون الواحدة منهن جميلة أنيقة رشيقة ..

والرجل الجذاب : هو المهذب القادر على الحديث الرقيق والمسالم أيضا ..

وأسباب النجاح فى الحياة ، هى نفسها أسباب النجاح فى الحب .. فالناجح هو الذى يكسب الأصدقاء ويكون له أثر فى الناس .. والإنسان المحبوب هو الناجح عند الجنس الآخر . أى الذى تكون له جاذبية جنسية ..

وهناك أناس يرون أن الحب شيء .. سلعة .. وأن المرأة شيء . وأن الإنسان ليس فى حاجة إلى علم لكى « يحصل » على المرأة .. أو « يوفر » لنفسه الحب .. فالحب ممارسة . لذلك من السهل على أى إنسان أن يحب ، ومن الصعب عليه أن يحب الشخص الذى يستحق الحب ..

وفى القرن العشرين استولت « عقلية السوق » والبيع والشراء على حياة الناس وتفكيرهم . ولذلك كان الحب سلعة . وكانت المرأة أيضا .. وكانت العلاقات الإنسانية نوعا من المصالح المشتركة . والصفقات . والحياة الاجتماعية هى سوق العلاقات الإنسانية . وكل شيء : بيع وشراء . ومكسب وفرصة .

ولذلك فمعنى كلمة « الجاذبية » يتوقف على العصر الذى يعيش فيه ، وتتوقف على موضة العصر !

وفى عشرينيات هذا القرن ، كانت الفتاة الأوروبية أو الأمريكية التى تشرب الخمر وتدخن ، هى الفتاة المسترجلة .. أما الفتاة الغربية النموذجية : فهى الرقيقة الأنثى ..

وفى القرن التاسع عشر كان من الضرورى أن يبدو الرجل عنيفا طموحا .

أما الآن فمن الأفضل أن يكون اجتماعيا صبورا ، ليكون جذابا للمرأة .. ومن الممكن أن يقع اثنان فى الحب فى وقت واحد ، إذا وجد كل منهما أن الآخر هو « الصنف » الذى يناسبه ..

إنه « منطق السوق » الذى يستولى على الناس .. وما دام النجاح المادى هو الغاية الحقيقية فليس غريبا أن يكون نوعا من البيع والشراء والمساومة والكسب .

والحب فن . ويمكن أن نتعلمه . والحب مثل الموسيقى والرسم والتجارة والخياطة والطب والهندسة .. ويمكن أن ندرسه وأن نتفوق فيه إذا عرفنا قواعده وأصوله .

فهناك خطوات ضرورية لكى نتعلم الحب أو أى فن آخر ..

أولا ـ يجب أن نعرف الأسس النظرية ..

ثانيا ـ يجب أن نفهم تطبيق هذه الأسس .

فالطبيب مثلا يجب أن يعرف وظائف الجسم الإنسانى ويعرف الأمراض المختلفة .. والذى يعرف كل هذه العلاقات أو هذه الوظائف الإنسانية ، ويعرف كل الأمراض وأعراضها ، لا يكون طبيبا ، لأنه لابد من التجربة ..

لابد من الممارسة حتى تلتقى المعلومات النظرية ، والتجارب العملية ..

وهناك عنصر ثالث لكى ينجح الإنسان فى أى فن هو : الإصرار على التفوق فى هذا الفن . أى يجب أن يكون شاغله الوحيد هو : كيف أتفوق فى هذا الفن . ولايكون فى حياتى كلها شىء أهم من ذلك ..

ولكن ما الذى يجعل الناس ينشغلون عن الحب ، رغم حرصهم عليه ونجاحهم أو فشلهم فيه؟ .

السبب هو أنهم ينشغلون بأشياء أخرى أهم من الحب : مثل النجاح والمركز والمال والسلطة .

ولابد أن تعرف أن أية نظرية فى الحب يجب أن تبدأ بنظرية عن الإنسان وعن الوجود الإنسانى .

والإنسان قد وجد وهو لايعرف كيف حدث ذلك . وليس متأكدا من كل شىء . وإنما ماضيه فقط هو المؤكد . وفى مستقبله لاشىء مؤكد إلا الموت .. وبين الميلاد والموت لا يعرف الإنسان شيئا .

وسوف يموت الإنسان قبل أو بعد الذين يحبهم .

والإنسان يشعر بالوحدة فى هذه الحياة .. والوحدة ترميه على القلق أو ترميه بالقلق ويشعر بأنه منعزل .. منقطع أو مقطوع عاجز .. فالعالم كله قادر . وهو وحده عاجز . وهذا يؤدى إلى شعوره بالذنب والعار أيضا . فآدم وحواء بعد أن أكلا من شجرة المعرفة وبعد العصيان ـ بعد أن تمردا على الطبيعة الحيوانية جعلهما العصيان بشرا ـ شعرا بأنهما عاريان . وخجلا من ذلك ! .

والإنسان يريد أن يخرج من عزلته .. فالطفل تختفى عزلته عن طريق أمه ، ولذلك فالإنسان لابد أن يكون على صلة بأحد ، على علاقة بأحد . وأن يحرص على بقاء هذه العلاقة ، وهذه العلاقة هى أن يأخذ وأن يعطى بنفس

الدرجة . بل إن الحب عطاء أكثر أو سعادة بالعطاء ..

ومن أصدق العبارات وأغربها أيضا عبارة للفيلسوف الكبير كارل ماركس يقول « خذ الإنسان كإنسان ، وعلاقته بالعالم كعلاقة إنسانية . والحب بالحب . والثقة بالثقة . إذا أردت أن تستمتع بالفن يجب أن تكون شخصا مدربا على التذوق وإذا أردت أن تؤثر فى الناس يجب أن تتأثر بهم أيضا .. فالحب هو أن تعطى وأن تأخذ .. ويجب أن تعلم أن المدرس يتعلم من تلاميذه ، والممثل يتعلم من جمهوره ، والطبيب يتعلم من مرضاه » .

والعاشق يتعلم من معشوقته ، وهى منه أيضا ، فالحب علاقة تمتد فيها الأيدى لتأخذ ولتعطى فى نفس الوقت .. تماما كما تتلاقى الشفاه : فأنت عندما تقبل لاتعرف إن كنت أنت الذى يقبل أو أنت الذى تقبلك فتاة .. فأنت تعطى وتأخذ فى نفس اللحظة ..

ولكن ما عناصر هذه الكلمة التى تكررت عشرات المرات . ماعناصر الحب .. هذا الساحر العجيب ..

عناصر الحب هى : الاهتمام .. والمسئولية .. والاحترام .. والمعرفة .

واهتمام الأم بطفلها هذا هو الحب الحقيقى . فهى تهتم بصحته وطعامه . وهى مشغولة عليه ليلا ونهارا .. ولكن إذا قالت لنا سيدة إنها تحب الزهور جدا ، ثم نسيت أن ترويها فى أحد الأيام ، فإننا لانصدق أنها تحب الزهور . فالذى يحب هو المهتم والمهموم بمن يحب ..

وفى سفر « يونس » فى الكتاب المقدس نجد أن الله طلب إليه أن يذهب إلى أهل نينوى وأن يدعوهم إلى فعل الخير ، وأن ينذرهم وأن يحذرهم من غضب الله . ولكن يونس رفض أن يذهب . فقد خشى إذا طلب الناس من الله أن يغفر لهم ويعفو عنهم ، أن يستجيب الله لدعائهم – فهو بذلك رجل

يؤمن بالقانون . ويؤمن بأن الذى أخطأ يجب أن يلقى جزاءه . ولكنه لايحب هؤلاء الناس . لذلك وجد نفسه فى بطن الحوت . أى فى عزلة مخيفة بسبب فقدانه الحب لأحد من الناس . وأنقذه الله . ولكن حدث بعد ذلك ما كان يخشاه . وأنبت له الله شجرة . وذبلت الشجرة . فحزن عليها . فقال له الله : كيف تحزن على شجرة لم تغرسها ، ولاتحزن على ألوف الناس فى مدينة نينوى ؟ ! .

والعنصر الثانى هو المسئولية ..

والمسئولية معناها إذا سألنا أحد أجبناه ، إذا طلب منا أعطيناه فورا .

والنبي يونس ليس مسئولا عن أهل نينوى .. إذا طلبوا إليه فلن يجيب .. ويونس مثل قابيل الذى قتل أخاه .. ولما سأله الله : ماذا فعلت بأخيك ؟ قال : وهل أنا مسئول عن أخى ؟

والأم مسئولة « جسميا عن طفلها » .

والمحب « مسئول » نفسيا « عن محبوبته » .

والمسئولية من الممكن أن ينحط معناها فتصبح نوعا من السيطرة . ولذلك كان من الضرورى أن تتضمن المسئولية عنصرا آخر هو : الاحترام . والاحترام ليس معناه : الخوف والفزع . وإنما الاحترام معناه أن ننظر إلى الإنسان كما هو عليه وأن نحترم فرديته . والاحترام معناه أيضا : أن ننظر إلى الإنسان الآخر على أن له حرمة . وبذلك نحترم استقلاله . فإذا أنا أحببته كنت معه شخصا واحدا ، وفى نفس الوقت أحترمه كما هو ..

والحب كما يقول المثل الفرنسى ـ هو ابن الحرية ـ وليس ابن السيطرة والاستغلال ..

وأنت لاتحترم شخصا لا تعرفه ..

فالاحترام أعمى والمسئولية عمياء إذا لم تكن تعرف هذا الشخص . والمعرفة فارغة إذا لم يكن هناك اهتمام ..

والذى أحبه يجب أن أعرفه . وأعرف كل مايدور فى نفسه دون أن يصرح لى بذلك . لأننى قريب منه .. لأننى أهتم به . لأنى مسئول عنه . لأننى احترم همومه ، وفى نفس الوقت أرى من واجبى - واجب على وجدانى - أن أشاركه . أن أخفف عنه . أن أسعده .. وفى سعادته سعادة لى .. ولنا فى وقت واحد .. دون أن أضغط عليه ..

فإذا كان من الضرورى أن نكسر الأشياء المغلقة لكى نعرف ما فى داخلها ، تماما كما نكسر قشر البندق واللوز ، فنى الحب ليس هذا ضروريا .. فبين المحبين لاتوجد قشور .. ولا توجد أعماق .. فكل ما عند المحبين أعماق قريبة .. ملموسة .. مرئية .. ولذلك فأنا لا احتاج إلى أن أمزق حبيبى لأرى جلده ، ولا أن أمزق جلده لأرى قلبه ، ولا أن أكسر قلبه لأسمع دقاته .. إننى فى داخله فى كل لحظة وهو يتكلم بلسانى ويرى بعينى ، ويخفق بقلبى ، ويتخيل بعقلى ، ويمشى على ساق .. ويرانى دنياه ، وأراه دنياى .. فنحن معا دنيا لاثنين .. وفى نفس الوقت نحن - رغم ذلك - اثنان مختلفان ! .

وفى العصر الحديث حدث شىء غريب فى الحب ، والعلاقات بين المحبين .

فنى المجتمع الرأسمالى ، ماهو المطلوب من الناس ؟ .

ما الذى تقوله الإذاعة والتليفزيون والسينما والمجلات لكل مواطن : يجب أن يكون المواطنون متعاونين فى هدوء ، مختلفين بلا تعصب ، وأن يكون عددهم كبيرا ليستهلكوا أكثر .. ويجب أن تكون أذواقهم على نمط واحد .. ويمكن التأثير عليها وتوقعها . يجب أن يشعر الناس بأنهم أحرار مستقلون ،

لايقعون تحت أى ضغط للسلطة أو المبدأ أو الضمير. وعلى استعداد لأن ينفذوا كل أوامر تصدر إليهم . والمهم جدا : أن يكونوا مسامير فى آلة كبرى دون احتكاك . أو اصطدام ـ وأن توجههم الدولة والهيئات والمؤسسات والشركات بلا عنف ، وبلا قائد ، وأن تدفعهم بلا هدف ـ إلا هدفا واحدا هو أن يكونوا طيبين نشطين عاملين ومؤمنين بالتقدم ! .

فماذا كانت النتيجة ؟ .

لقد أصبح الإنسان الحديث بعيدا عن نفسه ، وعن الناس أيضا وعن الطبيعة وتحول إلى سلعة يستثمر قدراته ، ليحصل منها على الحد الأقصى من الربح فى ظروف السوق الراهنة . وأصبحت العلاقات الإنسانية آلية أيضا . كل إنسان يبنى بيته وحياته ضمن القطيع الكبير..

وإحساسه بأنه وحده . وأنه ليس على صلة بأحد ، هو الذى يدفعه إلى أن يحشر نفسه بين الناس ، وأن يكون على مقربة منهم ، دون أن يدور بينه وبينهم كلام . المهم أن يكون « مع » أحد .. أو « بالقرب » من أحد .. أو فى « ظل » أحد .. لأنه يضيق بهذه العزلة الرهيبة التى يعيشها ..

وفى المجتمع الرأسمالى : نظام . أو قيود العمل . أو على الأصح روتين فى غاية القسوة . هذا الروتين هو وحده الذى حول الناس إلى حيوانات ، إلى آلات : الأكل والشراب والنوم واللعب فى ساعات وبنظام . إنه الحرص على أن « يؤدى » الإنسان ما هو واجب . وما هو ضرورى . فالدافع هو أن يتخلص من رغباته .

فالتخلص هو الدافع وليس اللذة ..

والكاتب الانجليزى الكبير ألدوس هكسلى فى روايته المشهورة « عالم جديد شجاع » يصف حال الناس فى المستقبل : إنهم يأكلون جيدا ، ينشطون

جميعا ، علاقتهم بالآخرين أتفه ما يكون وشعارهم لا تؤجل لذة اليوم إلى غد ! .

واللذة : هى اللعب والشراء والفرجة والشرب والرقص والتدخين والاجتماعات والمحاضرات والكتب والمجلات والأفلام.. فالعالم كله شيء واحد لفتح الشهية أو لإشباع الشهوة . والناس جميعا : آكلون وشاربون يائسون أيضا . لأن الآلات لا تحب ، ونحن نتبادل المصالح فقط .

حتى الحب فى المجتمع الرأسمالى هو مجرد التفاهم والاتفاق فى الرأى بلا ضوضاء . أو بالاكتفاء دائما بأن يكون هناك رأى واحد ـ كل الكتب والمجلات والأفلام تؤكد للمواطنين ذلك .

فإذا اختلف الرجل وزوجته كان ذلك دليلا على الفشل ، وبسرعة يذهب أحد الطرفين ـ المرأة عادة ـ إلى الطبيب النفسى . وعند الطبيب تتمدد المرأة وتتساقط منها تاريخها وأسرارها . وفى النهاية يقول لها الطبيب : إن زوجك هو المريض فحاولى أن تعامليه برفق . وتذهب الزوجة وتعامل زوجها على أنه مريض .. وبذلك يصبح البيت العادى مستشفى بأمر الطبيب .. وينعدم معنى الحياة ومعنى الزوجية ويتبدد الحب لا لشيء .. إلا لأن الخلاف مرض ، والاختلاف خطر ..

مع أن الحب هو الملجأ الوحيد فى عواصف الحياة اليومية . والمحبان هما اثنان ضد العالم كله ..

وعدم وجود الحب هو الذى يوقعنا فى كثير من الأخطاء . ويقع الناس فى أخطاء جنسية ..

إنهم يتصورون أن الجنس والنجاح فى الجنس هو الذى يؤدى إلى الحب ويؤكده . ويجعله على أساس متين . مع أن العكس هو الصحيح : فالحب هو

الذى يجعل الجنس متعة . وراحة . والحب هو وحده القادر على تصحيح الأساليب التى تستخدمها فى الاستمتاع الجنسى . وهو المسئول عن الضعف الجنسى والعجز الجنسى .. بالحب يصبح الضعيف قويا ، والعاجز قادرا ويصبح البرود حرارة . والذى يجعل الجنس مؤلما هو الخوف والكراهية والعزلة . ومن الأخطاء أيضا أن نتصور : أن الرجل طفل لم يتم فطامه بعد . وهو يريد أن يكون محبوبا لامحبا معشوقا لاعاشقا .. وأن يكون مركزا للعطف والحنان والدفء والإعجاب . وهذا هو حب الصغار الذين لامسئولية عليهم . وهو الحب الذى لاينجح . يكفى أن يشعر الرجل بأن محبوبته لاتهتم به ولاتعجب به . أو عندما تحاول أن تمنع رجلا آخر على أن يمسها هو ويهتم بها .. ويرعاها ـ هنا يحدث انشقاق بين اثنين . وسبب الخطأ هو هذا التصور الموجود عند الرجل ، ودون أن يناقشه أو يفكر فيه ! .

وهذا يؤدى إلى خطأ آخر هو : تأليه الحب .. وتقديس المحبوبة نفسها أيضا .. وذلك بأن نأخذ صفة الآلهة ونعطيها للتى نحبها أو للذى نحبه .. ونبالغ فى هذه الصفات . وبذلك نخلق إنسانا لاهو إنسان ولا هو إله. وإنما هو الإثنان معا. وهذا يؤدى إلى صدمة عنيفة . عندما نكتشف أنه ليس إلها وإنما هو إنسان . إن هناك حادثة تاريخية مشهورة عندما ذهب توماس كوك إلى جزر هاواى ورآه السكان الأصليون يدخن السيجار . واندهشوا كيف يخرج الدخان من فمه ولايحرقه . وعندما رأوه يضع يديه فى جيوب بنطلونه .. فظنوا أنه يضعهما فى بطنه ويخرجهما دون أن يموت .. فركعوا وسجدوا له .. ولكن عندما كان عنيفا معهم .. تشجعوا وضربوه .. سال دمه . إذن ليس إلها .. إنه إنسان . فقتلوه .. قتلوه كإنسان وكإله أيضا وهذا ما يحدث للمحبوب الذى كإله وهو فى الحقيقة إنسان ..

إن مثل هذا الحب الملتهب الرومانسى الخيالى لا وجود له فى الواقع . إنه

موجود فقط فى الأغانى والأفلام وفى الروايات . وهذه الأعمال الفنية تخلق من الناس جيلا شاذا : تخلق منهم أناسا يتفرجون على المحبين والحب ولكن لايحبون ..

وأعجب من ذلك إنهم يحبون المحبين .. يحبون الحب .. وفى نفس الوقت يطلبون أن يكون لهم مثل هذا الحب .. فإذا لم يتيسر لهم ذلك .. فإنهم يرضون بالفرجة على الحب .. والمتعة أثناء الفرجة على جنات المحبين .. مع أنه لاحب مثل ذلك فى الواقع .. وأن الحب على الشاشة فقط .. أما فى الحياة : فلا حب ولا محبين ..

ويقع المحبون فى غلطة أخرى : إنهم يتصورون أن الحب مستحيل . وأن العذاب هو العلاقة بين الناس . وأن الواقع ـ إذن ـ أليم . فلابد من الهرب من الواقع إلى الماضى .. أو إلى المستقبل . إلى أوهام سعيدة وراءهم أو أمامهم .. أما البحث عن شىء فيهم فهذا مالايفعله أحد .. وعندما تخلو النفوس من الحب : تخلو الحياة من الحرارة .. وتمتلىء بالملل .. والقرف .

والحب فن يجب أن تتعلمه .. وتعلمه بأن تعرف أسسه وقواعده ..

ولكى تنجح فى تطبيق هذا الفن . فلابد من شروط أخرى .. ضرورية فى الحب وفى كل فن آخر ..

أول هذه الشروط أن يكون هناك نظام . فمن الممكن أن ينشغل الإنسان بأى فن . ولا يراعى أن يعمل فيه بدقة . وبنظام . وبذلك يكون الإنسان هاربا . على مزاجه .. على كيفه . هذا ممكن . وليس من الممكن أن يتفوق فى الفن . إننا نعرف أن دافنشى الفنان العظيم كان يعمل كأنه تلميذ مبتدئ .. ونعلم أن ميكل أنجلو نام على ظهره ينقش فى كنيسة القديس بطرس شهورا طويلة حتى تصلبت عروقه .. ونعلم أن الأديب فيكتور هيجو كان شعاره : سطر كل يوم ـ إنه يكتب سطرا كل يوم وبنظام دقيق ..

والنظام ضرورى فى أى فن .. وفى الحياة كلها ..

وفى العصر الحديث نجد الإنسان يعمل بنظام . ثمانى ساعات فى اليوم .. لابد أن يعملها . وبعد ذلك يستريح .. وبعد ذلك يلعب . وفى نهاية الأسبوع خارج البيت أو خارج المدينة . هذا نظام من حديد .. ولكن هذا النظام عام . إنه ليس خاصا بأى إنسان . وإنما هو مفروض عليه . ولكن فى الحب فإن النظام والانتظام فى هذه العلاقة واتباعها نحن الذين نختاره . ونحن الذين نفرضه على أنفسنا . ونراه قيدا محتما .. أو نراه حرية منظمة .. وبلا نظام تصبح الحياة فوضى ..

وبلا نظام لا تكون هناك قدرة على التركيز ..

والتركيز هو الشرط الثانى أيضا للنجاح فى تطبيق أى فن . والتركيز نادر فى حياتنا الحديثة . فأنت تقوم بأكثر من عمل فى وقت واحد . تقرأ الصحيفة وتدخن وتشرب القهوة وتنظر من النافذة أو تستمع إلى الراديو أو تجلس أمام التليفزيون .. كل ذلك فى وقت واحد . وهذا العجز فى القدرة على التركيز واضح جدا فى أننا لانستطيع أن نكون وحدنا . وإنما نحن حريصون على أن نكون معا نأكل ونشرب ونتكلم ونتفرج أيضا . والتدخين هو إحدى العادات التى تدل على عدم قدرتنا على التركيز : لأن التدخين يشغل اليد والفم والعين والأنف فى وقت واحد ..

ولكى تنجح فأنت فى حاجة إلى التركيز إلى أقصى درجة .. إلى أن تركز مشاعرك كلها على الفتاة التى تحبها . أن تنشغل بها . وتملأ عينيك وأذنيك ويديك وشفتيك .. وكلما ركزت عليها نجحت فى حبك .. وفى حبها أيضا ! .

وشرط ثالث : أن يكون عند الإنسان صبر وقدرة على الاحتمال . وفى نفس الوقت قبول للعذاب كضرورة للنجاح . والنجاح هو الراحة . والذى

يتعجل النتائج ليس هو الذى ينجح عادة . ولن يتعلم الإنسان أى فن ولن يتفوق فيه .. والصبر صعب جدا على الإنسان الحديث ، إنه أكثر صعوبة من قدرته على النظام والتركيز..

والمجتمع الصناعى يدفعنا إلى الاستعجال .. فكل شىء يجب أن ينطلق بسرعة . أن يتم بسرعة . وكلما كانت السيارة والطيارة والصاروخ أسرع كانت أفضل . وهناك أسباب اقتصادية لتفضيل المواصلات السريعة . وما يصلح فى عالم السيارات ، يصلح فى عالم الإنسان . لأن الإنسان الحديث يخشى إضاعة الوقت إذا لم يتحرك أو يتصرف بسرعة . فى حين أن الوقت الذى يتوفر له بعد ذلك ، لايستفيد منه ، وإنما يفكر فى قتله من جديد ! .

ومرة أخرى يجب أن يكون هناك شرط هام هو : الاهتمام الشديد . أن يهتم بهذا الفن وأن يهتم له .. أى أن يكون هذا الفن شاغله دائما . وإلا فلن يتفوق فيه ..

والمثل القديم يقول : إذا أنت أعطيت للعلم كل قدراتك ، أعطاك بعض أسراره ، وإذا أنت أعطيت للعلم بعض قدراتك ، لم يعطك العلم شيئا ..

وكذلك فى كل فن .. وفى الحب أيضا .. وأخيرا فالإنسان لايتعلم الفن مباشرة .. وإنما يصل إلى التفوق بأساليب غير مباشرة . فالذى يتعلم فن النجارة ، يتعلم كيف يقطع الخشب ، وكيف يسويه وكيف يصنفره وكيف يطليه .

ولذلك يجب أن يمارس الإنسان النظام والتركيز والصبر فى كل شىء .. لكى يتفوق فى الفن الذى يريده ..

وهناك تحذير هام يوجهه إلينا العالم الكبير ايريش فروم وهو : على المحب ألا يكون أنانيا .. ألا يكون مشغولا بنفسه . وألا يجعل نفسه مركز الدنيا . وأن

كل شيء يدور ويروح ويجيء من أجله .. وأن العالم كله فى خدمته . وأن الفتاة التى يحبها تقف فى طابور طويل من الحاشية الغريبة التى عينها لنفسه .. لأنه إذا فعل فكيف يكون موقفه إذا كان هذا هو رأى الفتاة فيه هو أيضا ، ثم إذا تواجه الاثنان وانتظر كل منهما أن ينحنى للآخر ويقول :

شبيك .. لبيك .. عبدك بين يديك ! .

ولم يفعل أحد منهما ذلك ..

إن الغلطة مشتركة . فلابد أن يمد أحد يده وأن يلقاه الآخر فى منتصف الطريق .. المهم أن يبدأ أحد ويتبعه الثانى . فالحب : لقاء والتقاء .. وتواجد .. وتعايش .. واستمرار .. وتعديل .. وتجديد .. والتقاء واستمرار .. كما تتلاقى الأيدى فى العناق .. والشفاه فى القبلات .. إن الحب : اثنان .. دائما .. متفقان .. ومختلفان .. ولكن عندهما استعداد للتضحية من أجل أن يكونا اثنين .. أحيانا .. وواحدا أحيانا ..

وإلا لقينا ما يلقاه كل أنانى ..

وأورع قصة للأنانية هى التى جاءت فى الأساطير الإغريقية .. يقال إن أبا عنده خمسون بنتا ، وله أخ عنده خمسون ولدا . واتفق الأخوان على أن يتزاوج أبناء وبنات العم ، وكانوا سعداء جميعا .. ولكن والد البنات قالت له العرافة إن واحدا من أزواج بناته سوف يقتله .. فانزعج الأب واتفق مع بناته أن يقتلن أزواجهن فى ليلة الزفاف .. وفى ليلة الزفاف قتلت كل واحدة زوجها . وحملت رأسه الدامى إلى أبيها .. وشعر الأب بسعادة لاحد لها . ولكنه قرر أن يعد الرءوس . ووجد رأسا ناقصا . وعرف أن إحدى بناته رفضت أن تقتل زوجها لأنها تحبه . وأن زوجها هرب بعيدا . وغضب الأب . وغضبت آلهة الإغريق وعذبوا البنات بأن وضعوهن فى بحيرة باردة . وطلبن إلى كل واحدة أن تملأ إناء مليئا بالثقوب ويسقط الماء وتظل تملؤه

ويتساقط الماء .. إلى الأبد .. أما الأب فقد عذبته الآلهة بأن يرى شبح الزوج الهارب كلما أغمض عينيه ، فيهب من نومه مذعورا .. إلى الأبد .. ! .

منتهى الأنانية من الأب ..

ومنتهى الطاعة العمياء من البنات ..

ومنتهى العذاب إلى الأبد .. والعذاب هو العقوبة .. أما الجريمة فهى الأنانية وكل ذلك باسم الحب .. باسم أنواع من الحب ! .

الذى طعمه شديد المرارة

الذى بين الناس

معظم العلاقات الإنسانية غير واضحة ..

ولا يوجد رأى قاطع فى هذه الصلات المعقدة بين الناس ..

بين الرجال أو بين النساء .. وأصعبها هى التى بين الرجال والنساء ..

ولايمكن أن تكون العلاقات بين الناس سهلة وواضحة كالتى بين قوالب الطوب فى حائط .. أو بين الأشجار فى حديقة .. أو بين الحيوانات فى حظيرة .. وتجربتنا اليومية مع الذين نعمل معهم أو نعيش بينهم تؤكد ذلك .. فكم من الجهد . من أجل توضيح أتفه الرغبات ؟.. كم من الوقت نبدده من اجل أن نشرح قصدا شريفا ؟.. كم من الدم نحرقه لكى نحصل على « براءة » يومية بحسن السير والسلوك ...؟

وهذا الغموض فى علاقات الناس هو المسئول عن ازدياد مشاكل الناس حتى ليمكن أن يقال إن التطور الإنسانى ليس فى حل مشاكل الإنسان ، ولكن فى تعقيدها وتأجيل حلها .. ولكن الإنسانية مستمرة .. واستمرارها لايدل على أننا حللنا مشاكلنا ، وإنما يدل على نوع من التطور .. وعلى نوع من تأجيل حل مشاكل أكثر صعوبة .. فالإنسان كان يركب الحمار فى تنقلاته وهو الآن يركب الطائرات ..

والإنسان فى الحالتين لا يفهم كيف يحمله الحمار من مكان إلى مكان ..

فالإنسان لا يفهم تكوينه ولا وظائف أعضائه .. وهو الآن ـ أكثر الناس ـ لا يعرف كيف تعمل الطائرة ..

ولكن المفهوم عند كل الناس أن الطائرة أسرع من الحمار . كيف ؟ هذه هى المشكلة التى لا يعرفها كل الناس .. ! .

وكثير من العلاقات الإنسانية يمكن وصفها بكلمة . فيقال : حب .. وزواج .. ويقال : حياة وموت .. ولكن تعال نشرح هذه الكلمات . ثم هيا بنا نحلم باليوم الذى سوف نتفق فيه على معنى واحد ! .

هناك دائما مشاكل .. وهناك دائما حلمنا الطويل بأن نفهمها وبأن نصل إلى رأى واحد على حلها ..

فمثلا يمكن أن يقال : إنه لاتوجد امرأة متزوجة .. وإنما توجد امرأة تريد أن تتزوج . وإذا تزوجت فهى لاتريد أن تستمر فى الزواج .. ولكن لماذا اختارت أن تتزوج ؟ إنها لم تختر الزواج .. ولكن المجتمع هو الذى اختاره . فالمرأة لاتختار الزواج .. وإنما تختار الزوج فقط . وعندما تختار المرأة زوجها ، فهى لاتختار أحسن الأزواج .. وإنما تختار أقربهم إليها ، وإلى ظروفها . فالمرأة لاتستطيع أن تمد يدها عبر القارات لتجد الرجل المناسب .. ولو استطاعت لاحتاجت إلى عمر النسور لكى تجد الرجل المناسب ، وقد تجده ولكنه لا يجدها أولا يريدها ..

ولذلك فالمرأة تختار الأقرب إلى اليد والعين والبيئة .. لأن هذا الاختيار يجىء فى ظروف نفسية غير عادية ، فإن الاختيار الذى تمليه العاطفة يندهش له العقل .. ولذلك فليس من الغريب أن ينظر الناس إلى كثير من الأزواج فى دهشة : ما الذى جمع الشامى على المغربى ؟ ما الذى جمع بين هذه الجميلة وهذا الدميم ؟ ما الذى رآه الواحد فى الآخر؟ وهذه الأسئلة بالعقل .. ولكن

الموقف ليس عقليا .. أنه موقف عاطفى فقد جاء نتيجة شىء من الغموض الحار ، أو الحرارة الغامضة .. ولقد تم الاختيار والاتفاق فى الشفق أو الغسق .

والذى يجعل هذا الاختيار غير دقيق ، أن هناك توعية غريبة تسبق الاختيار ، فالمجتمع من صنع الرجل ، والمجتمع الذى صنعه الرجل يقدس الرجل . ويضعه قبل المرأة بخطوة ويرفعه أعلى من المرأة درجة .. حتى بعد الموت . فأوراق البردى المعروفة باسم (كتاب الموتى) عند الفراعنة يقدس الإله أوزوريس الرجل ويطلب من كل الآلهة رجالا ونساء أن يمشوا وراء شبابه المتجدد . ووراء رجولته المضيئة .. حتى بعد أن أصبحت المرأة قادرة على العمل ، فهى لاتزال تطلب أن يكون دورها بعد الرجل . ولاتزال هذه نصيحة أمها وأبيها .

والذى يقرأ رسالة والد الملكة مارى أنطوانيت إلى عريسها المقبل يجد مثل هذه العبارات :

لقد علمناها على حبك . والإخلاص لك . وعلى أن ترعى آمالك وأحلامك .. وعلى أن تكون لك فى كل لحظة عند الصحة والمرض . فأنت قدرها ياسيدى ! .

أما رسالة مارى أنطوانيت إلى أختها فتقول :

إنه مكتوب على بنات الملوك أن يعشن فى أركان العالم الأربعة .. إن زواجى هذا نوع من النفى . إن أختنا التى تعيش فى نابولى معذورة عندما تقول إننا ألقينا بها فى البحر .. ولكننى أطوى خطاى وأطلب إليك أن تطوى لسانك وصدرك على سرى هذا . فحتى بنات الملوك هدايا للرجل ، وإن كانت الهدية نفسها ترفض أن تكون هدية ، وترفض الشخص الذى تهدى إليه .. ولكنها تقبل مصيرها فى النهاية ..

والنهاية هى أن الرجل سيدها وتاج رأسها .. وإن كان الرجل فى كل العصور لايزال يفضل المرأة التى ليس لها رأس ، لأنه لايريد أن يضع التاج على كتفيها .. إنه يريد أن يضعه على صدرها .. أو يوزعه على أماكن أخرى من جسمها .. ! .

والذى لايعرفه الرجل هو أن المرأة تتلقى الكثير من الهدايا بمناسبة زواجها ، أو رغبتها فى الزواج ، أو كراهيتها للزواج .. وأهم هذه الهدايا نصيحة من كل النساء قريباتها بأن تنجح بأى شكل ..

أى مطلوب من المرأة أن تنجح . وهذا الإصرار على النجاح يجعلها تستهين بالمشاكل وتهون من المصاعب وبذلك يصبح الإصرار ريشا طويلا قويا ينمو فى ذراعيها يجعلها تطير فوق الأرض ..

وهذا الإصرار على النجاح من جانب المرأة ، لا يقابله إصرار على النجاح من جانب الرجل أو حتى الإصرار على إتاحة الفرصة لها لكى تنجح ، كأن الزواج علاقة من جانب واحد : هو جانب المرأة دائما ! .

ولايزال هذا المعنى مسيطرا على الأفلام والقصص : فهى جميعا تنتهى نهاية سعيدة .. أى بالزواج . ومعنى ذلك أن الزواج هو التقاء كل الخيوط البيضاء فى فستان أنيق وطرحة فى ليلة من ليالى العمر : يرقص فيها كل شىء على موسيقى : واتمخطرى يا حلوة يازينة .. فى حين أن البداية الواقعية لهذه العلاقة بين رجل وامرأة تبدأ بالزواج .. فالزواج هو الباب المفتوح على كثير من العلاقات الحارة الحادة الغامضة .. والتى لم يتسع وقت الناس لتوضيحها للرجال أو للنساء ! .

ورغم عدم الوضوح فأكثر الأحداث انتشارا هو الزواج ، وهو أهم الأحداث الاجتماعية أيضا ..

واستمرار هذه العلاقة الاجتماعية لايدل على وضوحها ، وإنما يدل على أنه من الممكن أن تكون هناك أشياء كثيرة غامضة ولكنها لاتمنعنا من الحياة والاستمرار .. وأن أكثرنا لايعرف كيف يصنع هذا الورق ولا هذا الحبر .. ولا كيف تعمل عيناه ولا كيف يفكر عقله .. ولا كيف يبلع ريقه .. ومع ذلك فكل شيء مستمر ومتكرر كل لحظة وطول العمر .. وعندما تحاول المرأة أن تتمرد على وضع من الأوضاع الاجتماعية .. فكل ما تفعله هو أن تنتقل إلى حل قريب منه .. تماما كما تنتقل من مقعد إلى مقعد مجاور له .. فهى تتحرك ولكنها لاتنتقل .. أو على الأصح : هى تهتز ولكنها لاتتحرك ! .

فأميرات القرن العشرين عندما تزوجن ، ماذا فعلن ؟ .

إن أميرات بريطانيا وهولندا واليونان والدنمرك والسويد اخترن الرجل الذى يردنه مع اختلاف فى الدين أو فى الطبقة أو فى السن ، ونظرت العائلات المالكة إلى هذا الموقف من الفتيات على أنه تمرد خطير .. مع أنه ليس أكثر من تمرد أنيق .. تمرد فخم ، تماما كما يرفض أمير أن يركب السيارة الكاديلاك ، ويفضل عليها المرسيدس ، ويعلن أنه أمير شعبى ..

فليس هذا رفضا للفخامة ، ولكنه رفض لأعلى درجاتها فقط .. وقبول فى نفس الوقت لدرجة أخرى من الفخامة عالية أيضا . فما الذى اختارته الأميرات ؟ اختارت كل منهن حياة زوجية أعلى وأغنى .. ولكن فيها كل عناصر الحياة الإنسانية الغامضة .. كحياة البواب والسائق والجزار .. إنها نفس الروابط الحارة الحادة المتشابكة على الأرض فى شقة فى الدور الأرضى .. أو على الأرض فى شقة فى الدور المائة ..

إن الكاتبة العربية اندريه شديد تصف حال إحدى الأميرات فى مسرحيتها « برنيس المصرية » فتقول : « لقد كرهت الجدران التى تعزلنى عن العالم .. كرهت السقف الذهبى .. كرهت أعمدة الرخام الخانقة القاهرة .. كل هذه

الأشياء المذهبة تشل عقلى .. إننى معزولة عن الأرض والسماء .. منفية . إننى لا أرى فى هذه القصور إلا أقنعة كاذبة ، أقنعة واحدة ، إنها كجدران تعزلنى عن وجوه الناس .. كم من السجون تعيشها الأميرات ؟ »

أما الذى يفعله الشبان الصغار فهو شيء آخر .. إنهم بسرعة يتزوجون وبسرعة ينفصلون ولا يمكن أن يوصف هذا السلوك بأنه تبسيط لإجراءات الزواج والطلاق .. ولكنه تبسيط لمعالجة مشاكل الزواج والطلاق . وأسهل الطرق البسيطة لحل مشكلة : تجاهلها .. وإغماض العين عنها والاستسلام للنزوات .. ولا يمكن أن يكون الاستسلام لنزوة ، فهما لها .. وإنما هو رفض سلبى للفهم فهو ليس هجوما على المشكلة وإنما هو انهيار أمامها ..

بذلك يصبح زواج الشبان أكثر غموضا .. انه انتقال سريع بين النزوة وتحقيقها .. ولكن هذه السرعة ليست حلا سريعا ولكنها تجاهل سريع للمشكلة .. صحيح أنه من حق كل شاب أن يتزوج والزواج ممارسة لحريته فى الاختيار . ولكن هذه الحرية حولت الشاب إلى إنسان ذليل .. إنه يختار البهدلة والقذارة .. ويختار العبث بالمشاكل ..

ومع ذلك ينظر الشبان ــ فى أوروبا وأمريكا ــ إلى هذا الموقف على أنه نوع من العدل .. فهم يرفضون النظافة بالاكراه ، والزواج بالإكراه ، والصحة بالإكراه .. ويرون أن العدل الذى يختارونه هو : الحرية ورفض النظافة والصحة ..

ولكن هذا نوع من العدل الفاضح .. تماما كالفساتين المينى جيب .. التى تختصر من الفستان مساحة من القماش تضيفها إلى الأكمام .. فأكمام الفستان متدلية ، وذيل الفستان مرفوع .. فالذى أضيف إلى الأكمام حذف من الذيل .. منتهى العدل .. ولكنه عدل فاضح ! .

وكثيرا ماذهب الشبان إلى الكنيسة يطلبون الزواج من الفتاة التى يحبونها ..

والفتاة حامل . ومعنى ذلك أن الشاب يريد أن يعترف علنا بأنه إذا كان قد أخطأ فقد جاء يعترف بالخطأ ويصلحه وأنه لم يظلم الفتاة التى أحبها ؛ ولم ينكرها .. إنه عادل تماما .. ولكن بصورة فاضحة . وبسرعة ينفصل العروسان بعد ولادة أول طفل .. وطبيعى أن يحدث ذلك ، فلم يتسع لهما الوقت ليفكرا فى هذا الزواج أو هذا الطفل . ومن الممكن أن يسمع أحدهما يقول : لا أعرف لماذا تزوجت إنها حالة طيش .. والحقيقة أنها ليست طيشا . ولكن الطيش هو أن يدعى أى واحد منهما أنه يعرف بالضبط ما الذى أقدم عليه . والطيش أن يدعى أى شاب أنه يفهم بوضوح لماذا تزوج ولماذا انفصل عن زوجته .. ولكن عدم الفهم هو الطبيعى والغموض هو الصفة الواضحة المؤكدة لهذه العلاقات الإنسانية الملتهبة كالحديد ، أى المتينة المحرقة .

وحبوب منع الحمل فى هذا العصر : هى فرصة جديدة أتاحها العلم للأزواج أن يعيشوا بلا أولاد .. ولغير الأزواج أن يعيشوا بلا زوجة .. والأطفال هم وحدهم الذين يجعلون هذه العلاقة شيئا واضحا .. وظهور الأطفال فى حياة الزوجين ليس دليلا على شىء .. إنما دليل على أن هناك علاقة طبيعية بين ذكر وأنثى . ومهمة حبوب منع الحمل هى أنها تعطى فرصة للزوجين أن يفكرا : إن كانا يريدان أطفالا أو لايريدان .. أو إن كانت العلاقة التى بينهما هى علاقة ذكر بأنثى أو هى شىء آخر أكثر عمقا .. فإذا اتفقا على أن الذى بينهما أعمق من مجرد رجل وامرأة جاء الأطفال .. ومع ذلك فمن الممكن أن نجد رجالا ونساء يقولون : إنها لحظة جنون هى التى جعلتنا نفكر فى أن يكون لنا أطفال .. أى أن هذا القرار رغم التحفظات والموانع الطبية ، ليس موقفا عقليا واضحا .

واوضح أنواع الزواج : هو زواج المصلحة ..

فالرجل الذى يتزوج امرأة لفلوسها أو المرأة التى تتزوج رجلا لفلوسه ، موقف وأضح المعالم .

ولذلك ففشله مؤكد لأن العلاقات بين الرجل والمرأة ليست علاقة بائع بزبون .. وإنما هى أصعب وأعقد من ذلك بكثير .. ثم إن هناك مشاعر لايمكن شراؤها بالفلوس ..

وإذا كان الرجل عمليا واقعيا ، فإن المرأة ـ كل امرأة ـ ماتزال حالمة خيالية دقيقة معقدة ..

وزواج نجوم السينما هو أحسن الأمثلة على ذلك .. فعندما يتزوج نجوم السينما فهو زواج يأخذ طابع التعاون بين نجمين يريدان أن يكونا نموذجا على الحب اللامع والنجاح الدائم ..

والحقيقة أن نجوم السينما يتزوجون وقد أخفوا شيئا وراء ظهورهم .. فهم جميعا يتعاونون على أن يعطى كل منهما فرصة للآخر لكى يفكر فى أنسب الأوقات للانفصال من أجل فرصة أحسن .. فالنجوم يتزوجون ويتحفزون .. ولذلك فزواج النجوم أوضح النماذج الإنسانية على الفشل المتكرر .. وأساس الفشل أن كلا منهما قد وضح لنفسه الغرض من الزواج : هو الانتظار بالقرب من شخص إلى أن يجىء من هو أجمل وأغنى منه ! .

فزواج النجوم واضح النجاح وفاضح الفشل أيضا ..

وهناك عذر واحد مقبول بالنسبة للأزواج .. أو بالنسبة لكل العلاقات بين الرجال والنساء وهو أننا نعيش فى عصر الإثارة الجنسية .. وليس فى عصر الجنس .. فالجنس منذ ألف سنة كان أعنف وأقوى وأكثر تنوعا من الجنس الآن .. وفى استطاعتك أن ترجع إلى « ألف ليلة » .. وأن ترجع إلى شعر أبى نواس وإلى « منامات الوهرانى » وإلى كتاب « الروضة العطرة » .. وإلى قصور الملوك فى فرنسا .. إنها مليئة بأشكال وألوان من الجنس أكثر بكثير جدا مما جاء فى مؤلفات المركيز دى صاد . أما العصر الذى نعيش فيه فهو عصر الإثارة الجنسية .. عصر بلبلة العواطف .. وتقليب المشاعر وتضليلها .. الأغانى

مثيرة .. والمجلات والأفلام كذلك .. فمثلا أفلام : رجل وامرأة .. والرقص على الهيدروجين .. وانفجار .. ووادى العرائس .. كلها أفلام مثيرة ولكنها ليست أفلاما جنسية ..

وكل من يتلمس جيبه ويجد علبة الكبريت قد اشتعلت فلديه سبب وجيه وهو أن الجو حار .. شديد الحرارة .. والذى يدل على أن الشباب اليوم فى العالم كله هو فى حالة إثارة جنسية ، وليس فى حالة انحراف جنسى أو شذوذ ، إنه يتقدم للزواج بلا تردد . صحيح أن هذا الإقبال لايدل على فهم واضح ولكن من المؤكد أنه عمل إيجابى واضح . وبهذا العمل القاطع ينفى الشباب عن نفسه تهمة الانحراف .. وربما كان الانحراف الوحيد الذى نسجله للشباب هو أنه يندفع بلا تفكير واضح ..

والأرقام تؤكد أن نسبة الزواج بين طلبة الجامعة فى أمريكا مرتفعة جدا .. ونسبة الطلاق أيضا .. وقبل أن تخدعنا هذه الملاحظة يجب أن نتساءل : هل انتشار الزواج دليل على نضج الشبان ؟ هل انتشار الطلاق دليل على أن الشبان إنما أرادوا أن يتزوجوا ليصبحوا قادرين على الطلاق .. أى قادرين على أن يقولوا : لا .. للزوجة ولأسرتها ولطفلها وللمجتمع .. هل معنى ذلك أن الشبان فى أمريكا وأوروبا يؤمنون بقداسة : لا ، أكثر من إيمانهم بقداسة : نعم .

إن فيلسوف الطلبة هربرت ماركيوز يقول فى كتابه المشهور « الإنسان ذو البعد الواحد » لايمكن أن نصف نجاح الحياة عموما فى أمريكا على أنها مجتمع حر .. فالنجاح لايدل على الحرية الفردية .. بل إن هذا النجاح يرفض الحرية .. كما ينجح اللصوص وكما ينجح المخربون .. وكما ينجح الميكروب فى غزو جسم مريض .. ولايمكن أن تكون هناك حرية فى أمريكا لأناس قد فضحتهم أجهزة التجسس التى توضع على النوافذ وفى السقف وعلى الأرض

وفى الأكواب والأطباق .. لا حرية فى أمريكا فالحرية يجب أن تبدأ فى البيت قبل الشارع .. وفى غرفة النوم قبل غرفة الطعام .. وأول مبادئ الحرية أن يعرف الإنسان بالضبط : ما الذى يريده من غيره من الناس ولماذا ؟ وكيف يصون ما يحصل عليه .. ولماذا ؟ إذن ما هذا الذى بين الناس ؟ إن الذى بين الناس هو « مؤامرة صمت » كل واحد يجرب ويسكت .. كل واحد يسمع ويسكت . ويفشل ويسكت .. وكل واحد يمضى فى طريقه .. من البيت إلى العمل .. يحمل معه هموم العمل إلى البيت .. وهموم البيت إلى العمل .. فهو « شيال الهموم » وهو « حمال الأسية » وأقسى ما يحمله الإنسان ذهابا وإيابا أنه لايفهم شيئا .. ولا يدرى كيف يفهم ولايتسع وقته ليفهم .. ولا يجد أحدا يدله على الخطأ والصواب .. ولو وجد هذا الأحد ، فإن الهموم التى يحملها على ظهره قد جفت كظهر السلحفاة ، تجعله عاجزا عن الإدراك والحركة ..

إن الأديب الأمريكى تنسى ويليامز قد صور ذلك فى مسرحية « زمن التوافق » .. فأبطاله يقيمون فى بيت قائم على كهف .. وبين الحين والحين يهبط البيت قليلا وتتشقق الجدران .. فالبيت أى العلاقات الإنسانية قائمة على كهف .. وأغرب من ذلك أن كل بيوت المنطقة مقامة على كهوف ، وأن كل البيوت يصيبها نفس التشقق .. ولكن أصحاب البيوت قد اتفقوا على أن يخفوا هذه الحقيقة . لقد اتفقوا على السكوت .. تآمروا على الصمت .. حتى لايتردد أحد فى شراء هذه البيوت .. فإذا اشتراها أناس آخرون .. تكرر نفس الموقف الصامت ..

أما هذا الكهف الذى تحت البيوت الإنسانية ، فهو الغموض العميق .. فالناس جميعا من أهل الكهف .. يعيشون فوق الكهف ..

وأعود مرة أخرى إلى « كتاب الموتى » عند الفراعنة .. ففى النشيد الثانى والستين نجد فى السماء نهر النيل .. وهذا النهر يصبح ماؤه باردا إذا لمسه إنسان

صادق ويصبح ملتهبا إذا لمسه إنسان كاذب .. والنشيد يطلب من أوزوريس أن يجعل ماء النيل باردا على كل يد وكل إنسان .

والمصيبة أن الذى بين الناس ليس نهرا .. ولا بحرا .. إنه نهر وبحر ونار وظلام وحب وكراهية .. إنهم يمدون أيديهم إلى النهر كل يوم فلا يجدون هذا الماء .

والمرأة ليست ضعيفة وهى لذلك لاتحتاج إلى عضلات الرجل وشواربه لحمايتها . والمرأة ليست مقيدة وهى لذلك لاتحتاج إلى حصان أبيض يهرب بها من ابن عمها الذى فرضته الأسرة عليها .

ولذلك فالمرأة لاتختار الرجل القوى وإنما تختار الرجل الذى يجعلها تحس بأنها قوية ، بأنها أم ، بأنها قادرة على أن تعطى الحماية ، أن تجعل قلبها الأبيض مخبأ للرجل الذى تحبه والذى تهرب به .. « بعيد بعيد أنا وأنت .. بعيد بعيد وحدينا » إلى آخر أغنية أم كلثوم .

أما الفتيات الصغيرات فيما بين ١٠ ، ١٤ سنة فهن يفضلن الشاب الجميل .. أى الرجل الحلو .. الرجل الذى هو « وسط » بين الرجل والمرأة ولذلك فهو ليس خطرا ليس ذئبا . فالفتاة فى هذه السن ليست لها اهتمامات جنسية ولكنها فى نفس الوقت تخاف من الجنس . والشاب الحلو ، لأن فيه أنوثة هو وحده الذى يعطيها الأمان وهذا هو سر إقبال الملايين من الفتيات فى أوربا وأمريكا على الخنافس ، فهؤلاء الخنافس نموذج للشباب الناعم : أصوات ناعمة . وحركات رقيقة . الجاكتات قصيرة والشعر طويل والبنطلونات ضيقة والابتسامة عريضة وفيهم مرح وأغانيهم سعيدة . فهم مختلفون عن كل المطربين فى العالم : إنهم سعداء بحبهم فى حين أن كل المطربين يشكون من ألم الفراق ولذة التعذيب عند المحبوب .

ثم إن هؤلاء الخنافس جميعا يمثلون بالضبط كل الممنوعات عند الفتيات

الصغيرات . فالآباء يمنعون الفتيات من الكلام بصوت مرتفع ومن الحركات الكثيرة ومن تساقط الشعر على الجبين وكل ذلك يفعله الخنافس وسط تصفيق وصراخ جنونى ومقابل ملايين الجنيهات ونياشين وميداليات ملكية .

وانتقلت العدوى من الصغيرات إلى الكبيرات .. إلى الكبار وأصبح الانجليز لأول مرة يرددون أغانى ليست ملكية . وأعلن نقاد الموسيقى أن الخنافس قد أنعشوا التأليف الموسيقى وأن سنة ١٩٦٣ هى سنة الخنافس ـ تعتبر نقطة تحول فى الأغنية الشعبية فى انجلترا .

والذى يستمع إلى أغانى الخنافس يجد أنها رقيقة وأنها مرحة وأنها بسيطة وأن معانيها « محزقة » مثل بنطلوناتهم . فهى بالضبط تلتصق بكل شخص وكل قلب . ولذلك تردد فيها كثيرا كلمات أنا ، وأنت .. وأنا وأنت معا وحدنا .

وهؤلاء الشبان الخنافس نموذج لملايين الشبان فى العالم كله . إنهم فقراء أولاد سواقين وفلاحين وعمال .. وقد اختاروا الشعر الطويل. إنه شعر الطفل الصغير « أوليفر تويست » بطل القصة المعروفة التى كتبها ديكنز منذ ١٣٠ عاما . وهذا الطفل يتيم وقد وقع فى قبضة النشالين وحاولوا افساده . ولكنه استطاع أن يصمد حتى النهاية . وهؤلاء الخنافس يشبهون هذا الطفل اليتيم جاءوا من أقصى ليغزوا بريطانيا ويحتلوها ويقولوا بحق : إن انجلترا وقفت فى وجه الغزاة ألف سنة ولم تحتلها إلا هذه الخنافس وهم الذين اختاروا لأنفسهم أيضا اسم الخنافس ..

والخنافس هى أقدر الكائنات على التكيف .. وهى تعيش فى كل مكان وفى كل درجات الحرارة وقد اكتشف العلماء حفريات للخنافس فى روسيا واستراليا ترجع إلى ٢٠٠ مليون سنة قبل ظهور الإنسان . ومن المؤكد أن الخنافس ستبقى بعد اختفاء الإنسان من الأرض سواء بهجرته إلى الكواكب

الأخرى أو بفنائه نهائيا ، وإذا كان عدد الفقريات حوالى أربعين ألفا ــ السمك والزواحف والطيور والثدييات ــ فإن الخنافس وحدها تبلغ ربع مليون صنف .

وقد عرف الفراعنة الخنافس منذ ثلاثة آلاف سنة .. وعبدوها أيضا فى مدينة هليوبوليس .. وكانوا يعتقدون أن الخنافس هى رمز الوجود والحياة .. بل فعل الوجود عندهم هو : الخنفساء .. وكثير من الملوك قد وصف نفسه بأنه خنفساء : أى مبدع .. خلاق .. مجدد .

وانتقلت عبادة الخنافس وزينة الخنافس إلى كل عواصم العالم القديم . وكل الرومان ، يعتقدون أن الخنافس من الذكور فقط . فالخنافس هى رمز الرجولة ولذلك كنا نجد الجنود الرومان يضعون الخنافس فى خواتمهم .

وإذا أراد إنسان أن يتسلى لمعرفة تاريخ مصر الفرعونية فعليه أن يقلب فى الخنافس الصغيرة التى تركها الفراعنة . فعلى بطن كل خنفساء يجد عبارة أو جملة أو أمنية أو تسجيلا لحادثة سعيدة أو مؤلمة ..

وكثير من قواد الفراعنة والرومان كانت أسماؤهم : خنفساء ــ على فكرة .. زوجة الرئيس جونسون اسمها : لايدى بيرد ومعناها خنفساء . واللورد ويفل القائد المعروف معناه أيضا : خنفساء .

وجنون الخنافس أو الجنون بالخنافس أو مرض الخنفسية أصبح ظاهرة اجتماعية فى أوروبا وفى أمريكا .. ولكنها ليست مرضا على أى حال .. إنها نوع من المرح النظيف فليست حركات هؤلاء الشبان مبتذلة ولا عباراتهم نابية .. وإنما هم نموذج لشعور الإنسان بأنه صغير وبأنه رغم ذلك يستطيع أن يكون مرحا . فالشعور الذى يستبد بالناس بعد الحرب هو الضياع .. فالإنسان لايدرى إلى أين يتجه . لقد تعددت الطرق وتعددت الوسائل والغايات .. وتحيرت الإنسانية ورغم هذه الحيرة فإنها لم تعرف اليأس .. إنها تضحك . إنها

تخفى حيرتها فى ضحكتها .. وهذه الضحكة تظهر على وجوه هؤلاء الشبان .. وعلى وجوه شبان آخرين من « الأدباء الساخطين » فى انجلترا . و « الأدباء الصاخبين » فى أمريكا .

إن علماء النفس يشكرون هؤلاء الخنافس لأنهم استطاعوا أن يطلقوا رغبات مكبوتة فى نفوس الناس ولم يكن فى استطاعة علماء النفس أن يعرفوها .. لقد عرفنا ما الذى يعجب المرأة الصغيرة .. وقبل ذلك عرفنا ما الذى يعجب الرجل الصغير . لقد أعجب الرجال الصغار ببريجيت باردو .. وهى نموذج للفتاة التى ليست صارخة الأنوثة بل إنها نوع آخر من الخنفساء . شعرها طويل نظيف .. وهى أيضا « وسط » بين الشاب الحلو والفتاة ..

لقد انكشف ذوق الرجال الصغار بحبهم لبريجيت باردو .. تماما كما انكشف ذوق الفتيات الصغيرات بحبهن للخنافس .

إن الرجال والنساء قد تقاربت أذواقهم .. فهم جميعا يفضلون : المخلوق الجميل الذى هو وسط بين المرأة والرجل . إنهم جميعا يختارون الخنافس .

إنهم جميعا يختارون ذلك النوع من الكائنات البشرية التى تنبأ بها هـ . ج . ولز فى قصته « آلة الزمن » .. فقد تخيل وجود كائنات أخرى متقدمة علينا تهبط على الأرض فى عام ٢٨٠٠ ووصف هذه الكائنات بأنها رقيقة ناعمة فيها طفولة وأنوثة .. وسط بين الرجال والنساء وأكثر منها علما وأصدق منها إحساسا .

إذن هذه الكائنات التى ستهبط إلى الأرض أو التى ستنمو على الأرض .. نوع آخر من خنافس الرجال والنساء .

لقد أعجبنى الشاعر أودن وهو يعلق على الخنافس بقوله : إننى أفضل وجها من نوع خاص فى مكان عام على وجه عام فى مكان من نوع خاص .

أما الوجه الخاص فى المكان العام : فهم الخنافس ..

وقبل أن أنهى هذه السطور لى طلب صغير : انظر إلى وجوه الناس الذين فى يدهم أمور هذه الدنيا ، إنها وجوه ليست جادة فقط ولكنها مهمومة حزينة .. وجوه عرفت الشيخوخة أى عرفت نهاية الحياة رغم حرصها على حياتها وعلى حياة الآخرين .. إنهم شباب نسى أن يبتسم لأنه لم يعرف الضحك . وهو لم يعرف الضحك لأنه انتقل من الطفولة إلى الشيخوخة مرة واحدة . لقد أصبح الضحك غاليا . لقد أصبحت الراحة نادرة . الانتحار هو الباب الخلفى للراحة . الموت هو أوسع الأبواب .

هؤلاء الشبان الخنافس السعداء يؤكدون أن هناك أبوابا للراحة .. وهى أن يشعر الإنسان أنه قادر على الضحك . قادر على أن يتذكر أنه كان طفلا ومن حقه أن يكون شابا .

إن هؤلاء الشبان عبارة عن ابتسامة مغتصبة .. ضحكة مفتعلة .. ولكنها فرصة ليتعود الناس على الابتسام والضحك .. على أن يعطوا أنفسهم اجازة إجبارية من الروتين ، من الغم الروتينى .. أو الروتين الغم .

لقد جرب الناس أن يموتوا كمدا فلماذا لايجربون أن يموتوا ضحكا ؟.. أو أن يتعلموا الحب .. مهما كان غامضا .. ومهما كانت المرأة غامضة ، فليست هى الغموض الوحيد فى هذه الحياة .. أو فى هذا الكون ؟ .

الجنة الزائفة : ل . س . د .

جرام واحد من هذه العجينة قادر على أن يدوخ عشرة آلاف شخص .. وكيلو جرام واحد قادر على أن يحول كل سكان القاهرة إلى أناس يتشقلبون على الأرض ويرددون فى نفس واحد : احنا مبسوطين كده .

هذه المادة اسمها : ل .. س .. د

وقد اكتشفها طبيب سويسرى اسمه هوفمان منذ عشر سنوات واستخلصها من نبات عش الغراب المكسيكى .. وهى مادة شفافة لا لون لها ولا رائحة .. وجربها على نفسه . ولاحظ أنه بعد نصف ساعة من ابتلاعها يرى ألوانا غريبة ويسمع أصواتا عجيبة .. بل إنه يسمع صوت الألوان ويشم رائحة الموسيقى .. وينسى من هو ولا أين هو ولا معنى لشىء مما حدث .

وأعاد التجربة . وسكت وانتشرت أخبار هذه المادة المثيرة وأمكن لعدد من العلماء أن يستحضروها فى المعامل وانتقلت المادة من سويسرا إلى أمريكا .

وفى أمريكا تحمس لها أساتذة الجامعات . وأقام أحد الأساتذة مستعمرة خاصة بالشبان .. وخاصة بالذين قرروا أن « يسافروا » إلى العالم الآخر .. وهناك سفريات سريعة .. وسفريات بطيئة . فالذى يتعاطى هذه المادة فى حقنة « يسافر » بعد دقيقتين .. والذى يبتلعها فى مادة سكرية يسافر بعد نصف ساعة .. وهذه « السفرية » تستغرق عادة ثلاث أو أربع ساعات . والكمية التى يحتاج إليها الفرد هى جزء على عشرة آلاف من الجرام ..

ولا أحد يستطيع أن يحصى بالضبط عدد الشبان والشابات الذين يتعاطون هذا العقار العجيب .. إنهم بالملايين .. وكلهم من الشباب الذى لايتجاوز العشرين .. وليس على الشاب إلا أن يدفع دولارا ويأخذ تذكرة السفر إلى عالم آخر .. وحتى بعد أن يذهب مفعول ل . س . د . فإنه يظل سعيدا يسمع الأنغام والعطور من العالم الآخر .. تماما كالذى يهبط من الطائرة وأزيز محركاتها فى أذنيه .. أو الذى يبرح الباخرة إلى الشاطئ ويحس أن الأرض تشبه موج البحر تعلو وتهبط ..

ملايين الشباب يتمرغون على الأرض ويلتصقون بالجدران يستسلمون لهذه الجنات الزائفة . وعشرات الألوف من الأدباء والشعراء والأطباء الأمريكان يرون أن هذا سلوك طبيعى .

فليس أمام الشباب إلا أن يهربوا من المجتمع الكبير الذى يطحن القيم الإنسانية ، والذى يسحق كل شعور بالحرية الفردية .. ومادام الشبان الأمريكان يرون أن المجتمع لايعطيهم شيئا ، وأنه يسوقهم سوقا ، ويلسعهم بكرابيج الدعاية ، ويكويهم بالخوف من أعداء الرأسمالية فليس أمامهم إلا أن يركنوا بجوار الحوائط وإلا أن يهربوا من هذا العالم الصناعى الاحتكارى المخيف إلى عالم آخر ، ليس فيه أحد من الناس .. بل كل مافيه أشجار زرقاء وذهبية ودامية .. وثعابين تثمر على الأوراق .. وأوراق لها أفواه .. وأفواه لها

شوارع .. وشوارع لها حدائق ثمارها من نساء جميلات .. وكل شيء نائم هادئ .. وكل شيء يغني في هدوء .. وملايين من الصور الغريبة التي يتغذى عليها هذا الشباب الذي يشبه «طرح البحر» الأمريكي ..

وليس هذا أسلوب الهرب الوحيد الذي يلجأ إليه الشباب .. فمن كل عشرين شخصا في أمريكا ينتحر شخص حتى الموت ..

ولكن عشرة أمثال هذا العدد يحاولون الانتحار، ويتم انقاذهم بشكل أو بآخر ..

والهرب من المسئولية نوع من الانتحار ..

وإذا كان الهرب من المسئولية سلوكا اجتماعيا عاما، فإن هذا يعتبر نوعا من التخريب الاجتماعي .

وقد تندهش لهذا السلوك الفردي والجماعي من الشباب الأمريكي وقد تتساءل لماذا يهرب شباب أغنى دولة في العالم .. ما الذي ينقصهم .. ما الذي يخيفهم من الحاضر والمستقبل مع أن أمريكا حلم من أحلام المعذبين في الأرض ..

وهذه التساؤلات سببها طبعا مانراه في الأفلام الأمريكية : كل شيء جميل . وكل شيء سهل . وكل النساء في جمال كانديس برجن وكل الرجال أغنياء مثل روكفلر . محبون للسلام مثل كينيدي . ويبغضون العنف مثل مارتن كنج . وكل مشكلة لها حل : انظر ما يفعله جيمس بوند . وكل مرض يمكن علاجه بقرص سحري ..

لاشيء من هذا في أمريكا .. إنها جنات صناعية .. زائفة .. إنها أنواع من المخدرات الأنيقة . التي استغلت أروع ما وصل إليه الإنسان في صناعة العدسات والصوت والضوء والطباعة .

فى أمريكا عشرات الملايين من الجياع والمرضى . وفى أمريكا أناس لم يروا العواصم الكبرى . وفى أمريكا أناس يساقون كالأغنام إلى ميدان القتال وللدفاع عن قضايا لايعرفونها وضد شعوب لم يسمعوا عنها من قبل .. وفى أمريكا أناس اعترضوا على الحرب .. ورفضوا الاشتراك فى القتال .. ودخلوا مستشفيات الأمراض العقلية لأنها أهون من القتال المجنون .. وفى أمريكا هيئات منظمة لارتكاب الجريمة ضد الأبرياء .. وشركات وهمية للنصب والاحتيال .. وفيها أعظم تجارة للرقيق الأبيض .. وفيها أعظم شبكة لتجارة المخدرات .. وفيها يقتل كيندى فى عز الظهر فلا يدرى أحد من الذى قتله .. ولايبقى إلا أن تعلن أرملة كيندى أن زوجها انتحر .. وإلا أن تعتذر للشعب الامريكى الذى بدأ يضيق بالبحث عن القاتل ..

وفى أمريكا شباب ضال .. ضائع .. متشرد ..

وفى أمريكا أيضا هيئات تبحث عن أدوية لعلاج الضالين .. وشركات تبحث عن أدوية مضادة .

وتنشر الصحف والتليفزيون هذه الاعلانات : كيف تضيع وأنت سعيد ! وكيف تجد نفسك وأنت سعيد ! وكيف تكون سعيدا دون أن تدرى ؟ .

ولا يهم أبدا ما الذى يصيب الفرد .. ولكن المهم جدا هو أن يشترى الفرد هذه العقاقير .. هو أن يدفع .. هو أن تكسب هذه الشركات ولو راح ضحيتها ملايين الناس .. إن الناس تجارة تبيعها الشركات للشركات ، يبيعها النصابون للصوص ! .

إن أمريكا « الأخرى » هى التى يهرب منها الشبان .. وهربهم هذا يدلنا على أعماق المجتمع الأمريكى .. على حقيقة المجتمع الذى لانراه .. والذى يختفى وراء الشاشة .. ووراء ناطحات السحاب .. ! .

والصورة الصادقة للمجتمع الأمريكى هى التى تظهر على المسرح .. ولا يمكن أن تظهر على الشاشة .. فى المسارح تجد القتال والدم والعنصرية والظلم والبطش .. وتجد سخط الكتاب والفنانين على الحياة الآلية التى تطحن الإنسان فى كل أمريكا ..

ومثل هذه الصرخات الفنية العميقة لايمكن أن تظهر على الشاشة .. لأنها تفضح المؤامرات السينمائية الفخمة .. ولأنها « تغم » الناس .. وتؤكد لهم أنهم « مغفلون » .. ومثل هذه الاهانات المدروسة تطرد الناس من أمام شباك التذاكر .. ولذلك يجب أن تبقى المسرحيات كما هى .. أما الشاشة فهى « الجنة المزورة » وهى « الفردوس » الذى يحلم به الجائعون فى أمريكا وخارج أمريكا ..

ولكن الشباب الأمريكى اعتاد على هذه الجنات التى لايراها فى بلاده . وإن كانت الصحف والتليفزيون والكتب تؤكد له دائما كيف تصبح مليونيرا فى ٢٤ ساعة ؟.. كيف تملك نصف الولاية وأنت بائع متجول ؟ كيف تكون عضوا فى مجلس الشيوخ وأنت رئيس عصابة ؟.. أى أن كل شىء ممكن .. وأنه لا نهاية للطريق الذى يمشى فيه الإنسان .. وأن السماء قريبة جدا .. وأن الله إذا كان قد خلق سبع سماوات .. فإن أمريكا استطاعت أن تضيف سماء ثامنة .. هذه السماء هى التى يعيش فيها النجوم ومديرو الشركات وأعضاء الشيوخ ..

أما السماء التاسعة الجديدة .. والتى تقرب وتبعد حسب الطلب فهى من صنع هذا العقار ل . س . د .

وعشرات الكتب قد صدرت تؤكد أنه أعظم دواء .. وأعظم احتقار للمجتمع الأمريكى .. يكفى أن يبلع الشاب هذه الحبة الضئيلة جدا ليكون مثل أعظم الشيوخ وفى أحضان كواكب السينما .. مع أنه لم يبرح مكانه ولم

يتكلف إلا دولارا واحدا . وإذا كان المجتمع لا يعطيه شيئا ، فنى استطاعته أن يأخذ كل ما يريد . وفى الوقت الذى يريد .. وأن يكون مواطنا وحاكما فى دقائق .. وأن يكون اللص والعسكرى الذى يطارده .. ثم الذى يعانقه بعد ذلك ..

إذن لقد نجحت هذه التجربة .. وهى تجربة أن ينسحب من الحياة العامة ملايين الشبان وأن يحلموا وعيونهم مفتوحة بعالم أفضل ودنيا أحسن . وجنات تجرى من تحتها أو من فوقها الأنهار دون أن يموتوا .. بل وأن يعودوا إليها كلما أرادوا ذلك ..

ومادامت التجربة الخطيرة قد نجحت فى إسكات الشبان والإلقاء بهم على الأرض وفى الحدائق .. وقطعت ألسنتهم عن السخط على الانحلال والفساد والظلم فى المجتمع الأمريكى وحذفتهم نهائيا من الحساب ، فلابد من التوسع فى هذه التجربة .. والتوسع فى القاعدة التى تعتاد على السياسة الأمريكية .

إذن لابد من تصدير هذه الجنات المزيفة إلى الخارج ..

وفى الفصل الأخير من الكتاب الذى أصدره الدكتور سيدنى كوهين وعنوانه « ل . س . د . لكل الناس » تراه يقترح استخدام هذا العقار ضد العدو .. فمثلا إذا ألقت إحدى الطائرات كميات من ل . س . د . المركز على مستودعات المياه النقية فى أية مدينة ، فإن أهل هذه المدينة سيتحولون إلى جثث عاجزة عن الحركة . فكل من يشرب من هذا الماء أو يغسل به عينيه أو فمه .. أو يضعه فى شراب أو طعام سوف ينهار ويحلم كما يفعل الشبان الأمريكان .. بل إن أية طائرة تلقى بمسحوق من هذا العقار فى جو أية مدينة فإن استنشاق هذا العقار يؤتى نفس النتيجة . بل إنه من الممكن أن يحول الناس إلى جنون الضحك بلا توقف أو هيستيريا البكاء أياما .. أما القوات العسكرية فسوف تلقى نفس المصير ..

ويرى الدكتور كوهين أيضا أن فى استطاعة غواصة أن تقترب من الشاطئ وتطلق هذا المسحوق من أحد مدافعها ـ وتجيء الريح فتنقل هذا المسحوق إلى المدينة أو إلى أكثر من مدينة .. والنتيجة معروفة ..

وأكثر من ذلك أنه يكفى أن يذهب وفد دبلوماسى لمقابلة رسمية فى أية دولة .. وعن طريق الدخان الذى يتصاعد من السجائر يصاب هؤلاء المسئولون بجنون انفصال الشخصية .. إن الدكتور سيدنى كوهين يؤكد لنا أنه لانهاية للفوائد العظيمة التى تجنيها أمريكا من وراء استخدام هذه الحرب الكيميائية . فهى قادرة على إسكات الشبان الساخطين ، وعلى إسكات أعدائها فى أى ميدان ..

ويقول أيضا ـ من باب الرفق بالأعداء ـ إنه فى استطاعة أمريكا إذا أضافت بعض المواد الأخرى إلى ل . س . د أن تصيب أعداءها بجنون الضحك .. ومعنى ذلك أن تسقط المدن أمام القوات الأمريكية وتكون ضحكات الشعب المهزوم هى أعظم تحية لهم ! .

وفى نفس الوقت تكون هذه الحرب الكيميائية هى خير الطرق لكسب الحروب دون إراقة للدماء . ! !

وعلى ذلك فإن أمريكا لن تحتاج إلى إطلاق رصاصة ولن يفعل العدو ذلك أيضا .. لأن نسبة التركيز العالية لهذا العقار تصيب كل من يذوقه أو يستنشقه بالاستسلام التام ..

وإذا أراد الأمريكان أن يذهبوا إلى أبعد من ذلك فإنهم يستطيعون أن يحصلوا على كل المعلومات التى يريدونها من القواد العسكريين ورجال المخابرات العادية عن طريق حقنهم بهذا العقار .. وقد جرب الدكتور كوهين هذه الحقن فى الحصول على المعلومات فلاحظ أن تأثير هذه الحقن هائل . فيكفى أن تسأل الجندى أو القائد عن الخطة التى كانت عنده .. فيقول كل

شيء وبالتفصيل .. ومن الغريب أن هذا العقار يقوى الذاكرة وخصوصا فيما يتعلق بالأرقام .

وكل الشبان الأمريكان الذين يتعاطون هذا العقار يذهبون من تلقاء أنفسهم إلى أقسام البوليس ويعترفون ويذكرون أسماء زملائهم . والأماكن التي يسافرون منها .. أو يسافرون وهم نائمون على أرضها .. ولذلك لا يبذل البوليس الأمريكي مجهودا كبيرا فى معرفة أسرارهم . وهو ليس فى حاجة إلى أن يضع الميكروفونات الصغيرة فى جيوب الشبان أو فساتين السيدات ليعرف أخبارهم وأسرارهم .. إن الشبان يذهبون ويعترفون ولذلك فعقار ل . س . د . أحسن مادة يمكن استخدامها لغسيل المخ ..

ومن الغريب أن عددا كبيرا من أساتذة الجامعات والمحامين والقضاة ورجال الشرطة أصبحوا من مدمنى هذه الرحلات الخيالية ! .

إذن ليس الشبان وحدهم هم الذين قرروا الهرب من الدنيا الجديدة .. بل إن هناك عددا هائلا من الرجال العقلاء أيضا .. وليس الشبان المراهقون المتعجلون للنهاية السعيدة بلا مجهود كبير بل أصحاب التجارب أيضا ..

ولو كانت أمريكا جنة لأبنائها من الشبان والرجال ، لما « رحل » منها هذا العدد الكبير من الملايين .. لو كانت جنة حقيقية ، ما هرب أبناؤها إلى هذه الجنات الوهمية .. إن أمريكا شيء آخر وصورة أخرى غير التى تراها على الشاشة : إنها برواز توضع فيه صورة أنيقة لجنات وهمية .. ولكنها ذات ربح مؤكد ! .

وأمريكا كدولة صناعية كبرى تقوم بتصدير فائض الجنات . وبذلك تتحقق العدالة بين الناس فيتساوون فى البعد عن الحقيقة ، وفى محبة المخدرات .. والاستسلام لأصحاب الشركات الأمريكية ! .

كلمات معقولة وأفواه مجنونة

الباب طويل وعريض ومظلم . ولابد أن الخيول والأبقار التى عبرت هذا الباب تعد بالألوف فما تزال آثارها ورائحتها عالقة بالباب والجدران .. أما الموسيقى التى تدفعنا إلى الشارع وتصدنا عن الدخول فهى صهيل وعواء ونباح وصياح وصراخ .

ولابد أن هذه الخيول قد أحرقوها لسبب ما ، فهناك رائحة لحم يحترق .. ولم يتسع الوقت لكى أعرف بالضبط ما الذى أشمه وما الذى أسمعه وما الذى أراه .. لقد مددت قدمى .. وتلمست الجدران وأعطيت التذكرة التى فى يدى .. وامتدت يد ومزقتها بعناية واضحة .. ودخلت . وانحشرت .. وكان لابد أن أمشى وراء أمواج الأجسام السمراء فى الظلام .

ودخلت ودخلت .. واتسع المكان وسالت دماء الصخور على الجدران .. وكأن السقف قد ضرب بألف سكين ، لأن كتلا من اللحم سنجابية اللون تتدلى منه .. ولأن عيونا مفتوحة وأعمدة فقرية وسيقانا مكسورة .. كلها تتدلى من السقف .. أو تنبت من الجدران .. وكلما شدتها جاذبية الأرض : ارتفعت الموسيقى فألصقتها فى مكانها من السقف أو من الجدران ..

ورأيت بعض الشبان قد أسندوا ظهورهم إلى الجدران على الأرض .. وبسرعة وجدت لى مكانا . وأعتقد أننى فقدت حاسة الشم والسمع والبصر .. فكل شىء ملىء بالضباب أو هو الضباب .. الأصوات كثيرة ومتداخلة . والروائح لم تعد خاصة بالحيوانات وإنما بالإنسان والدخان ولا أعرف أى أنواع الدخان هذا .. وكنت الوحيد الذى يعطس ويسعل .. وكنت ألمح العيون ترمقنى بدهشة ولحسن الحظ لم أكن وحدى وإنما غيرى كثيرون قد تسللوا بفضل شركات السياحة إلى هذا المعبد .. معبد الهيبز والساخطين على كل ما فى الحياة .. حياتهم وحياة آبائهم وأبنائهم ..

وتعالت الصرخات .. ولا أعرف مصدرها . وفى أحد الأركان وقف شاب .. طويل أبيض .. طويل الشعر .. ووضع أمامه إناء به بخور .. والبخور يلف جسمه .. جسمه العريان تماما .. تماما .. وتعالت أصوات تقول له : إنه يجب أن يخلع حذاءه أيضا .. ويظهر أن هذا الشاب قد نسى أن يخلع حذاءه .. أو هو حاول أن يلفت النظر إلى أن الهيبيز يجب أن يتجردوا من كل شىء .. وخلع الحذاء .. ثم اتخذ شكل رجال الدين .. ورفع رأسه إلى السقف .. فتدلى من السقف عدد كبير من الأحذية وعلامات الاستفهام وصور عدد من سفاحى البشرية وقد شنقوا جميعا .. وفى هدوء تام أعلن الشاب : أن الصلاة مستمرة .. والطقوس أبدية .. والغضب لا حد له .. والضمير قطعة غيار لامعنى لها .. فإذا كان هناك ضمير فليكن من نصيب كل الناس .. لانحن فقط .. الآباء أيضا .. الحكام أيضا .. وليس الصغار فقط .. والشبان فقط .. وتلفت فى هدوء وقد استدارت حول رأسه هالة من النور .. وارتفع على الحائط صليب وقال : إن المادة الأولى من البيان تقول : لايمكن أن يوصف الواحد منا بأنه « هيبى » إلا إذا كان حرا متحررا .. وإلا إذا كانت حريته مطلقة حتى الموت .. والموت أهون من حياة المحافظين الجامدين المتزمتين .. الذين لايتعبون من كلمات : يجب .. ولابد .. وحتما ..

ومن الضرورى .. ورغم أنفك .. والنار لك فى الآخرة ، واللعنة عليك فى الدنيا ..

وهنا صرخ الشبان .. ووقفوا يرفعون أيديهم تماما كما يفعل أهل جزيرة بالى .. وتساقطت الفتيات الصغيرات .. ولم تمتد يد لإنقاذ الفتيات بل ظللن يصرخن ويتوجعن .. ولم أستطع أمام العيون الحمراء والنظرات الزائغة لا أن أسأل ولا أن أنظر إلى الأمهات اللائى حملن أطفالهن الصغار .. والأطفال يبكون أيضا ..

وبسرعة غريبة انتقلت الفتيات وأطفالهن إلى الظل .. إلى شق مظلم فى الجدار .. ولم يعد أحد يسمع منهن شيئا ..

واختفى الشاب فى الظل .. ثم عاد بسرعة يقرأ وقد أدار ظهره للحاضرين : المادة الثانية تقول إن هذا المجتمع الأمريكى صناعته الكذب والذى يكذب أكثر يكسب أكثر. والذى يكذب على أكبر عدد من الناس ، يصل إلى أعلى المراكز .. إن جونسون كذاب .. كان وما يزال فى نظرنا .. إننا لانحارب من أجله .. ولا نحارب باسمه .. ولماذا لايذهب جونسون إلى الميدان الآن .. إنه قد أصبح عاطلا ـ يتقاضى مائة ألف دولار ..

وتعالت الصرخات .. وتناثرت كلمات لا أفهمها من كل مكان ..

وعاد الشاب إلى الكلام ..

وظهرت فتاة صغيرة حلوة .. عمرها لايزيد على عشر سنوات .. الوجه مستدير .. العينان زرقاوان .. الشعر ذهبى .. إن وجودها فى هذا المكان : جوهرة فى الوحل .. ملاك فى زريبة .. قمر على كوم تراب .. وتعالت ضربات الطبول من أجلها .. والتف حولها عدد من الشبان العراة وفى أيديهم المباخر وداروا حولها . وتطلعت الفتاة إلى السقف .. ثم انشدت قصيدة من نظمها

تقول فيها : الحب أن أقبل القدمين والساقين والشفتين .. وأن أخلع خجلى قبل أن أخلع ملابسى .. و ..

ومن المؤكد أن الذى أحسست به هو مغص شديد .. وقرف أغرقنى وفاض من عينى فلا أريد أن أرى وسددت أذنى ونفسى .. وأحسست أنها جريمة لا أستطيع أن أعترض عليها ولا أستنكرها .. ولا أعرف كيف أنساها .. ولكن بسرعة قامت عمليات تعويض فى داخلى .. وأضيفت هذه الجريمة إلى ملايين الجرائم الأخرى التى لا أعرفها ومن أناس أعرفهم .. واكتفيت فقط بأن أعلنت استنكارى بينى وبين نفسى ولم أكتف بالاستنكار بل رفعت صوتى عاليا وقلت : اخص ! ــ ولم يسمعها أحد طبعا .

ولكن من الضرورى أن يقول الإنسان أحيانا مثل هذه الكلمات ــ حتى بينه وبين نفسه ..

وظهر شاب آخر قصير القامة له كرش .. وقد تغطى صدره بالشعر الأسود .. ووقف منظاره الغليظ الأبيض على أنف حاد .. وكانت له حركة عصبية فى ذراعه اليسرى .. فهو يهزها يمينا وشمالا .. ثم يهرش .. ثم يعود إلى الاهتزاز . وأتوا له بمقعد فجلس .. وجاءت فتاة تبيع الورود .. وأعطته وردة .. وراح يرقص كأية راقصة ثم يلقى بالورود على الناس .. وفى براعة واضحة ألقى الورود على السياح الموجودين .. وأصابتنى وردة فى عينى ، وتخلصت منها بنفس السرعة .

وأخرج الشاب ورقة وراح يقرأ : شعارنا هذه الليلة : الشاى : جاى .. والقهوة : شهوة .. والحشيش : لذيذ ..

وراح يتحدث عن مضار القهوة والشاى وفوائد المخدرات وأسماء المشاهير الذين كانوا يتعاطونها فى التاريخ .. وأنه لولا أن بعض العظماء يصابون بالأرق الشديد ، لكانت الإنسانية أسعد حالا .. إن الخوف هو الذى يجعل

العظماء يخافون من النوم .. ولكن الخوف هو الذى يجعل الصغار يخافون من اليقظة .. ولذلك ينامون وينامون ..

ثم سقط على الأرض نائما .. وتساقط الحاضرون جميعا .. وناموا .

شبان وشابات .. لحوما بشرية تعلو وتهبط .. والموسيقى تغطيهم بأكداس من النشاز .. وتدقهم بالطبول .. وتدغدغهم بالنفير .. واعتدلوا .. وهدأت الصرخات .. وجاء شاب ثالث وضرب بقدميه ذلك الشاب النائم على الأرض .. فوقف فى هدوء وفى نغمة جميلة سليمة متزنة . قال : يتحدثون عن الحقيقة العارية .. أين هى الحقيقة العارية .. بل أين هى الحقيقة .. إننا لانجد إلا حقيقة عارية من كل حقيقة .. إننا تعلمنا فى المدارس « أن المسرح ـ مثلا ـ هو صورة المجتمع .. وأن المجتمع يجب أن يرى نفسه على المسرح » فلم أجد نفسى ولا وجدت أحدا أعرفه .. إن المسرحيات تفرض علينا أناسا لانعرفهم وتدق فى ألواحنا مسامير موجعة .. فمن الذى قال إن ألواحنا تستسلم لمساميرهم .. من الذى قال إن مساميرهم قد أعطيت حق الدخول والخروج فى وعينا .. إن الحقيقة العارية يا إخوانى هى أن هؤلاء الناس يجب أن يكونوا عراة لنبصق عليهم .. هذه هى حقيقتهم العارية .

وتعالت الصرخات وكدت أخفى وجهى فى يدى .. فقد توقعت أن يتصور أحد أننا نحن الأجانب قد جئنا إليهم مندوبين عن هؤلاء الذين يستحقون أن يكونوا عراة ليستحموا فى هذا الاحتقار . ولكن الهيبيز ظلوا جالسين .. وقد استعادوا بعض هدوئهم ورزانتهم ـ ان هذا الشاب ممتاز الأداء والفكر لولا هذه الصورة العارية البشعة التى اختارها إطارا لهذه الكلمات البليغة .

وابتلعه الظل .. فقد انطفأت الأنوار .. وجاء شاب كأنه يكتم الضحك . ولم يكد يراه الشبان حتى تضاحكوا أيضا . وضرب كرشه بيده .. ولم يكن له

كرش .. وشد أنفه بيده ، وكان أنفه قصيرا .. وحاول أن يعض شفتيه فلم يجد شفتيه فهما رفيعتان كأنه أكلهما قبل أن يجيء.. وقال: أنتم تعرفون أننى جئت من البيت توا .. ولابد أن يجيء الإنسان من مكان ـ ومعنا أناس جاءوا من أركان العالم .. واحد من الهند .. وثلاثة من اليابان .. وأربعة من هونج كونج وعشرون من فرنسا .. وواحد من انجلترا .. وواحد من مصر.

واندهشت لذلك فلم يدر بينى وبين أى إنسان أى كلام .. ولا أظن أن ملامحى فى الظلام مصرية صارخة .. ولكن لابد أن هذه المعلومات قد أخذوها من مكاتب السياحة .. وهذا يدل على أن هذا الذى أراه عرض منظم دقيق .. وأنها تجارة رابحة . وأنه ليس صحيحا أنهم جميعا قد فقدوا عقولهم .. وأن هناك إدارة تعرف كيف تدير .. وأنهم مثل البارمان الذى يقدم الخمر للناس ولايذوقها حتى لايخطئ فى الحساب .. أو لعله يستفيد من خطأ الزبائن السكارى .

وعاد يقول : لقد كان أبى وأمى يتشاجران .. إنها نفس القصة .. من الذى اختار الآخر .. أمى تقول إن والدى اختارها .. وأبى يقول إن أمى هى التى اختارته .. ولا أعرف كيف أن اثنين قد تورطا فى هذه القصة ثلاثين عاما .. ولكن حتى إذا لم يصلا إلى حل ، فعندى الحل : إننى لم أختر واحدا منهما .. ولو أتيحت لى الفرصة من جديد فإننى لن أخترهما .. إنهما لايشجعان أن يكونا مصدرا لحياتى .. إنهما صورة للرضا العاجز ، وأنا نموذج للسخط القوى .. إنهما الماضى الذى يجب أن ندفنه .. ونحن صورة للمستقبل الذى يجب أن نشيده .. إن هذه الوقاحة قد ورثتها عن أمى .. غير أن أمى تستخدمها فى شيء واحد فقط هى أن تفضح أبى كل يوم فى التليفون وتؤكد لكل الناس ولبائع اللبن بصفة خاصة أن أبى عاجز عن كل شيء بعد الغروب ومنذ أكثر من ثلاثين عاما ! .

ويتعالى الضحك والصراخ ويدور بينه وبينهم كلام لم أتبينه .. ويتراشقون بعبارات كالقنابل يتفجر لها الجميع بالضحكات .. ولولا هذه الضحكات لمات الجميع من الاختناق .. ويبتلعه الظل .. ويظهر شاب عملاق .. وتتسلط عليه الأنوار الحمراء .. وتتنقل فى جسمه وتتركز على قلبه .. ويبدو لنا كأنه يقطر دما ويتلفت الشاب .. ثم ينظر فى الجالسين أمامه .. إن عددهم لا يقل عن مائة شخص .. أكبرهم سنا لايزيد على ثلاثين عاما .. وأكثرهم من الفتيات فهن أطول شعرا وأنحف قواما .. وأشد إسرافا فى التدخين وأكثر الحاضرين ضحكا وصراخا .. وجرأة أيضا .. ويعود ينظر إلى الحاضرين ويختار من بينهم فتاة .. ويشير إليها فتنهض وينهض معها الفتى الذى تعلق فى فستانها القصير.. ولكنه يعود فيجلس وحده على الأرض .. وتنصب عليها الأنوار الدامية .. فتخلع حذاءها فقط .. ويقترب منها الشاب العملاق .. ويلعب فى شعرها ويغطى وجهها .. ويقبلها من فوق الشعر ومن تحت الشعر ويلفه حول أذنيها .. ثم يخنقها به .. ويقبلها ويقبلها .. ويبتلعها الظل .. ويعود هو إلى الأنوار التى أصبحت شاحبة .. ويمسح عرقه .. ويخرج ورقة ويقول : قالوا .. وقالوا .. وتعبوا وتعبنا .. وعادوا يقولون وتعبنا .. ولن يتعبوا .. ولذلك يجب أن نسد آذاننا وننشغل بشىء آخر .. وإذا كانوا يريدون أن نسمعهم بالقوة فلن نقطع آذاننا .. وإنما عليهم هم أن يقطعوا ألسنتهم وأن يريحوا ويستريحوا .. إن العالم يحكمه أناس لهم شعور قصيرة . ولذلك أطلنا شعورنا .. ويحكمه أناس لهم صلعات لامعة وقد تجاوزوا الثلاثين جميعا .. ولذلك يجب أن يكون هناك أناس أقل من الثلاثين يعيدون تنظيم الحياة .. وأناس يفكرون وهم يشمون القهوة .. ولذلك نكرهها .. ويذهبون إلى مكاتبهم بعد أن يمسحوا أجسامهم من كل مايجعل له رائحة الإنسان .. إنهم رجال من الصابون والعطور والبودرة والهدوء والهمس

واللمس والكذب .. ولذلك لانريد أن نكذب .. إننا نريد أن نكون الإنسانية التى لاتخجل من إنسانيتها .

وانتفض والفا يقول : من الذى يخجل من إنسانيته .

الجميع يقولون : لا .. وقد كان جالسا على ظهر شاب ضخم ولما صفق له الحاضرون وقف على ظهر الشاب لينحنى شكرا للذين أظهروا امتنانهم له بالتصفيق .. وابتلعها الظل .

ثم أخذت الأضواء تفتح عيونا فى الجدران .. وبدأت معالم المكان تظهر .. إننى الآن فى زريبة مضاءة بشكل مريح .. الجدران من الحجارة البارزة تبلغ عشرة أمتار فى سبعة أمتار .. والأرض مغطاة بالسجاجيد الحمراء اللون .. وقد تناثرت عليها طواجن من الفخار لإطفاء السجاير .. ولمحت عددا من الزجاجات على شكل شيشة .. أما الفرقة الموسيقية فهى فى جانب من المكان .. ولم أكن أتصور أن هناك فرقة موسيقية وإنما تصورت أن الموسيقى مسجلة وأنها تصدر عن ميكروفونات فى كل مكان .. وتذكرت يوم ذهبت إلى الغابة فى أقصى جنوب الهند .. وقال لى أحد الصيادين بعد لحظات سوف يزأر الأسد ويملأ صوته الغابة كلها فترتبك الحيوانات ولاتعرف أين تهرب لأن الصوت يجىء من كل جانب .. وكثيرا ما اتجهت الغابة إلى أنياب الأسد دون أن تدرى ..

أما ملامح الشبان فيمكن أن أصفها بوضوح .. إن الوجوه شاحبة .. والملامح لا أقول مجنونة وإنما شديدة الحساسية .. والفتيات لا أقول غانيات .. وإنما فتيات شابات حلوات .. لو ارتدت أية واحدة منهن فستانا جديدا وغسلت وجهها .. ووضعت رأسها تحت الدش ، وسحبت شعرها إلى الوراء قليلا ونزلت فى مطار القاهرة لتعاقد معها معظم المخرجين بالتليفون على عشرين فيلما وتنشر الصحف أن المخرجين قد تعاقدوا معها ومعهن مدى الحياة.

وكأن السماء قد صبت كل ما فى سحبها من مطر على هذه الأضواء فانطفأت فجأة .. ظلام تام .. وهدوء إلا من عطس وسعال انزعجت لها .. ولما عرفت أننى الذى أعطس وأسعل ، اعتذرت لمن حولى فى الظلام ..

وتحت ضوء مرتجف وقف شاب كان من الممكن أن يكون أحد القساوسة الذين أمروا بإحراق المسيحيين واليهود فى أسبانيا أيام محاكم التفتيش .. فنى عينيه قسوة وعلى وجهه هدوء .. وفى أصابعه رقة وفى ذراعيه عضلات .. وقفصه الصدرى يتسع لذئب وهو يمزق طفلا .. وأسنانه فى لون شفتيه : سوداء .. وانتظرنا ما الذى سوف يفعله .. إنه مايزال ينظر إلى السقف .. ثم يعود وينظر إلى السقف .. ثم يعود وينظر إلى السقف ثم يطيل النظر إلى جانب من القاعة .. لعله الباب .. ويخرج ورقة ويقرأ : ماهى هذه النكتة .. إن الذين جاءوا يتفرجون علينا قد ظنوا أننا حيوانات وأننا وحوش ، إننا لانختلف عنهم فى شىء إننا نحن الذين نتفرج عليهم .. إن عندنا الشجاعة أن نخلع ملابسنا .. وليست عندهم هذه الشجاعة .. إن أكثرنا يملك سيارة .. وفى السيارة خلع ملابسه .. وأكثر الزوار لايملكون سيارة .. إن سياراتهم أحذيتهم .. وملابسهم جدرانهم .. وهم كالمساجين يراقبهم البوليس إذا دخلوا وإذا خرجوا .. فلوسهم مودعة فى البنوك .. لأنهم يخافون أن يسرقهم أحد غيرنا .. ومع ذلك يجدون الشجاعة فى أن يقولوا إن كل الناس خارج هذا المكان لصوص .. وهم بالفعل لصوص .. هذه شجاعتنا وصراحتنا .

وعاد يقول : النكتة يا أصدقائى فى السلام .. وشركائى فى سرير النسيان .. وأحبائى فى متاهات الخوف .. والنكتة أن أحدا لابد أن يفهم هذا الذى نعمله .. إننا مطالبون بأن نقول للناس : ما معنى هذا كله .. ومعناه بصراحة ..

أننا حانقون .. أننا كارهون .. أننا ساخطون .. إن المجتمع الذى نعيش فيه ممزق نصفه يكذب على نصفه الآخر .. نصفه يعد بالجنة ونصفه الثانى يبنى النار .. نصفه يصنع الكباريهات ويبيع الرقيق الأبيض ، ونصفه ينتج السلاح ويكدس البارود .. نصفه يدفع الملايين من أجل أن يتمكن من الهرب من هذه الأرض إلى القمر ثلاثة أو أربعة أشخاص .. فليذهبوا إلى القمر إلى المريخ .. وليتركوا لنا الأرض .. إننا من أهل الأرض .. إننا ننام عليها ونولد فيها وندفن فيها ولا يفصلنا عنها قميص أو حذاء .. إن الهنود هم الذين علموا البشرية معنى الحياة والإحساس بالحياة ومعنى السلام .. ومعنى التحرر من سلطان المعدة .. ومن الجوع .. إننا خائفون يا سادة ..

وقبل أن يبتلعه الظلام ارتسمت على الجدران أعمدة السجن .. وفى الظلام ظهرت سلاسل وظهر سجان .. وسجان آخر .. وظهر جنود .. وتعالت الصرخات .. والدخان .. واختفت قضبان السجن فى الدخان ..

وظهر فى الضوء شاب آخر يحمل لافتة مكتوب عليها : من الضرورى أن يعرف الإنسان نفسه لكى يضبط رغباتها ويحددها ويحررها بعد ذلك .. ولكن الخائف كيف يعرف . وأبناء المجتمع الأمريكى خائفون .. ممزقون .. ساخطون .. إنهم يقرأون عن الحرية ولا يجدونها .. يقرأون عن الرخاء والأمان والمستقبل ولا يحسون به .. إنهم هاربون من التليفزيون والسينما والاعلانات والانتخابات والصواريخ .. إنهم مثل رواد الفضاء مسجونون فى أجهزة دقيقة .. تعلو بالخوف .. وتتحرك بالحذر وتهبط بالفزع .. وربما كان الفرق بينهم وبين رواد الفضاء .. أنهم هم الذين يهربون من السجن وهم فيه .. يهربون منه بالنوم أو بالمخدرات أو بمجرد الاعتراض على الخوف ومصدر الخوف ..

ويعطينا ظهره الذى تعرى تماما .. ثم يسكت ..

إنهم ضالون ضالون .. ولكن لهم أنبياء من الأطباء والأساتذة والفلاسفة مثل الشاعر جنزبرج والطبيب ليرى والفيلسوف هربرت ماركيوز .. وهم جميعا يرون أن هذا الذى يفعله الشبان شيء خطير إنهم لايقتلون أحدا ولا يوجعون أحدا .. ولكنهم يستخدمون كل مايستطيعون من أجل أن يقولوا : إننا نرفض المجتمع الأمريكى .. وليس صحيحا أن المجتمع هو الذى رفضهم .. وإذا كانت حياتهم فى الكهوف وإذا كانوا عراة .. فإن المجتمع الأمريكى قد صنع ملايين الكهوف المتوحشة التى اسمها : الكباريهات .. وتفنن فى تعرية النساء وبيعهن بالقطعة .. على الشاشة ومن غير الشاشة ..

فهم إذن صورة بسيطة صريحة ساذجة .. وهم أعراض لمرض اجتماعى واقتصادى وسياسى .. ولكنهم أعراض فقط ..

وليسوا هم مرضا ولكنهم لافتة مضيئة حية متحركة تقول : هنا يعيش مجتمع مريض .. يعيش بالوهم ، ويستمر على الخوف ويستتر بالقوة ويهتز بالعنف ، ويتستر على الجريمة ! .

ولم تعد فى نفسى أية رغبة لمزيد من الكلام العاقل الذى يقوله مجانين .. ولا العبارات الصافية التى تخنقها الموسيقى والدخان .. وخرجت أوقظ أذنى وأنبه أنفى وأفرك عينى .. وفى ظلام وبرودة وفراغ شوارع لندن جعلت أسأل نفسى : عقلاء أم مجانين ..

إننا جميعا سواء ؟! .

وأنت جميل تحب الجمال

لو فوجئت قبائل النوير فى السودان أو قبائل الأرونتا فى استراليا بوجود فتاة مثل أودرى هيبورن بينها ، فلن يفكر فى الزواج منها أحد ، وأول مايفكر فيه هؤلاء الناس الطيبون هو أن يبكوا من أجلها بعض الوقت . ويصلوا لله بعد ذلك ويشكروه لأنه لم يخلقهم بيض اللون مثل هذه الفتاة التى يرون أنها مريضة فقيرة . فهى مريضة لأنها نحيفة : ليس فى جسمها سوى أوقيتين أو ثلاث من اللحم ، وهى فقيرة لأنها نحيفة أيضا . فلو كان أبوها غنيا لأطعمها اللحم واللبن وجعلها تنام طول النهار حتى يمتلئ جسمها وتجعل فى خدمتها جاريتين تسندانها عندما تقف وعندما تجلس .

ولو عاشت أودرى هيبورن فى أيام الجاهلية لظلت طول عمرها فى ركن من أركان بيتها ، لا تخرج من البيت لأنها عورة وعار على أهلها . وأسوأ دعاية لقبيلتها ، يكفى أنها نحيفة . أى مجردة من الشحم واللحم ، أى مجردة من الجمال . ومن كل مايثير عين الرجل ويده . والرجل يثيره ماتراه العين فالإنسان حيوان بصرى يعتمد على عينيه . وعلى ما يملأ عينيه .. واللحم هو الذى يملأ العين . أما العظم « فيطرف » العين . ولايزال الرجل قادرا على أن يلمس المرأة

كلها بعينيه .. وكثيرا ما أحست المرأة أمام الرجل وهو ينظر إليها أن عينيه توجعانها وتجردانها من ملابسها ومن إرادتها أيضا . والرجل يتوكأ على عينيه إلى أن تقترب منه المرأه الجميلة فيعتمد على اللمس وبعد ذلك على الشم .. ثم بقية الحواس .

ولأن الرجل – حتى اليوم – يرى أن المرأة الجميلة هى « الشىء » الممتع فهو يريد أن يكون الجمال مستسلما ليتمكن من امتلاكه والسيطرة عليه .. حتى تكون المرأة على هواه .

ولكن المشكلة دائما كانت هى : ماهو « هوى » الرجل ؟ وما الذى يهواه ؟ ولماذا ؟..

فى معظم القبائل البدائية كان الرجال يفضلون المرأة المليانة جدا . ويرون أن الجمال هو اللحم والشحم .

وما دام الجمال هو اللحم والشحم فالمرأة الجميلة هى التى لاتستطيع أن تمشي . وإذا مشت وقعت . وإذا وقعت تساندت على جذع شجرة أو على كتف خادمة . وإذا حاولت أن تنهض لم تستطع ، ولذلك يجب أن تكون بالقرب من شجرة لتتساند عليها أو تخف لمساعدتها خادمة أو اثنتان أو ثلاث .. والعرب وصفوا هذه المرأة بأنها « شيلة جمل » .. وكانوا يقولون إن المرأة الجميلة هى التى إذا اقتربت منها كانت تمشى على ست .. وإذا ابتعدت عنها كانت تمشي على أربع . والست التى يقصدونها : الذراعان والنهدان والساقان .. والأربع هى : ساقاها وردفاها .

والذوق العام فى التاريخ العالمى تأثر بالجمال العربى . كما ظهر فى الشعر العربى وفى كتاب « ألف ليلة وليلة » .. وهو ليس كتابا عربيا فقط . إنه عربى وفارسي وهندى أيضا . وكذلك تأثر الذوق العام فى أوربا بمقاييس الجمال عند الاغريق والرومان .

وقد تحدثت ألف ليلة عن المرأة الممشوقة القوام مثل حرف الألف ، وشعرها ليل وبياضها قصة ووجهها قمر صيف فى إحدى ليالى الشتاء ، وصدرها عاج ، وأردافها مخدات . وأن خصرها يمكن خنقه بفتلة ..

وقد كان هذا نموذجا للذوق العربى مئات السنين ، ولا يزال ولكن فى نفس الوقت الذى صدرت فيه ألف ليلة ، لم تكن أوروبا كلها ترى أن من الضرورى أن تكون أرداف المرأة نوعا من المخدات أو أكياس الرمل . أو أكوام الرمل كما كان يقول العرب .

ومن المؤكد أن القليل جدا من الناس من يعرف ألف ليلة ، ولكن كل صفات المرأة الجميلة التى امتلأت بها صفحات ألف ليلة ، هى التى امتلأ بها خيال وأحلام الرجال فى الشرق . فلا تزال المرأة الجميلة عندهم هى « الأنثى » الجميلة . ولا يزال الرجل عندهم هو « الفحل » فالجمال حسى والمتعة حسية . والرجولة حسية . وبسبب هذه المعانى تسللت المخدرات إلى الشرق وأقامت طويلا ..

فيما عدا قبائل « الطوارق » فى شمال أفريقيا ، فهذه القبائل لاتحب الفتاة التى يشيلها الجمل . وإنما تفضل نوعا آخر اسمه « العرسى » نسبة إلى حيوان معروف باسم العرسة .

(وإذا كنت من أبناء المدن فسوف تجد هذا الحيوان فى الكتاب باسم « ابن آوى » ، وإذا كنت من أبناء الريف فأنت تجده تحت النافذة ..) والعرسة لها جسم مليان باللحم وخال من العضم ، ولكنها سريعة الحركة .. أما بنات الطوارق فلهن عادات غريبة فهن يشربن اللبن ويأكلن البلح . ثم يتمرغن ساعات طويلة على الرمل ، والتمرغ على الرمل رياضة وتدليك للجسم . ويمكن أن يقال إن فتيات الطوارق هن أجمل نساء الدنيا عندما

يبلغن السادسة عشرة .. وأية واحدة يمكن تتويجها كأجمل عرسة عرفتها كل حدائق الحيوانات وكل الغابات .

وفى نيجيريا يفضلن المرأة التى تمشى وكأنها تخوض فى البرك والمستنقعات ـ أى تمشى وتكاد من كثرة اللحم والشحم أن تقول إنها ليست امرأة واحدة ، وإنما هى امرأة وعلى صدرها طفلان وأمسك بثوبها من الخلف أربعة وتدلى من كتفيها اثنان أيضا .

وفى قبائل الماساى الأفريقية يرون أن المرأة النحيفة هى لعنة أصابت القبيلة ، ولذلك يجب التخلص منها بسرعة حتى لاتحل مصائبها على بقية النساء وعلى الحيوانات . إن هذه المرأة النحيفة تشبه التربة التى تنكر البذور فلا ينبت فيها شىء . ولذلك يقيمون الحفلات والولائم ويطعمونها بالقوة ثم يشعلون النيران حولها لعل العفاريت تهرب من جسمها ، ثم يتبادل الزواج منها عدد كبير من فتيان القبيلة .. فإذا ماتت فى النهاية ـ وهذا ما يحدث عادة ـ فإنها تكون قد أخذت الشر معها إلى قبرها ..

والعرب يتحدثون عن قصة الملك عمرو بن حجر ، وهو جد الشاعر الكبير امرئ القيس . فقد سمع عن فتاة جميلة . فأرسل إليها خاطبة ، وطلب إلى الخاطبة أن تأتى إليه بأخبارها وبكل شىء عنها ، كل شىء ، ولابد أن يكون الملك قد ضغط على حروف «كل شىء» وألقى بالذهب عند قدمى الخاطبة ، وإلا لماذا أصرت الخاطبة على أن ترى الفتاة عارية تماما ، وتراها واقفة وجالسة ونائمة .. الخ ، وسألت الخاطبة قبل أن تدخل بيت هذه الفتاة : هل تدخل من هذا الباب بسهولة ، وأشارت إلى باب واسع . وهنا قالت أمها مامعناه : فشر. وهل هى مريضة : إننا نحشرها فى هذا الباب حشرا .

ولما عادت الخاطبة للملك عمرو بن حجر قالت له : رأيت جبهة كالمرآة المصقولة ، يزينها شعر حالك مضفور ، وحاجبين كأنهما مرسومان بقلم وقد

تقوسا على عين ظبية ، وأنفا كحد السيف المصقول ، لا يعيبه قصر ولا طول ، ووجنتين كالأرجوان ، وفما كالخاتم: لذيذ المبتسم ، فيه أسنان كالدر ، وريق كالخمر يتقلب فيه لسان فصيح ، وشفتين حمراوين كالورد ، وعنقا كإبريق الفضة ، وصدرا كتمثال دمية يتصل به عضوان ممتلئان لحما مكتنزان شحما . وذراعين ليس فيهما عظم يمس ولا عرق يجس ، وقد تربع فى صدرها حقان كأنهما رمانتان .. ولها خصر يكاد يتحول ، تحته كفل يقعدها إذا نهضت ، وينهضها إذا قعدت . كأنه كيس رمل .. فأما ماسوى ذلك فلا داعى لوصفه .. فهو شيء ليس له مثيل .. الخ .

وأهم هذه الصفات جميعا عند الملك وأهل العروس فى ذلك الوقت أنها مليانة :. أما بقية الصفات فهى « اكسسوار » أى أشياء إضافية فقط .

ومن المعروف أن السيدة عائشة ــ رضى الله عنها ــ كانت نحيفة عندما خطبها الرسول عليه السلام ، فحرصت أمها على أن تسمنها فقد كان المثل الأعلى للجمال فى الجاهلية والإسلام : المرأة السمينة ، ولذلك كانت تطعمها بالقثاء والبلح واللبن .

وبعد ذلك أخذ العرب يختارون ملامح الجسم ويفضلون بعضها على بعض .. فالحجاج هو صاحب العبارة الشهيرة التى تقول : لا يكمل حسن المرأة حتى يعظم ثدياها فتدفئ الضجيع وتروى الرضيع .

والمعلومات التى لدينا عن معنى هذا الجمال فى جميع أنحاء العالم ، قد كتبها أناس أوربيون .. كلهم رحالة وعلماء ومبشرون ومغامرون ، ولذلك فهى لاتخلو من التحيز ، أى فرض الذوق الأوربى . ولذلك كانت هذه المعلومات ناقصة ، فمثلا نجد أن الكابتن كوك الذى اكتشف استراليا وجزر هاواى يتحدث عن قبائل التونجا فى المحيط الهادى فيقول : لم أجد فرقا واضحا بين

الرجال والنساء . فالأجسام ممدودة ممشوقة والعضلات واحدة ، فالكل يعمل ، بل إن بعض الرجال فى غاية الرقة لدرجة يصعب عليك أن تعرف إن كانوا رجالا أو نساء .. وربما كان الشيء الوحيد الذى يلفت العين هو أن أصابع النساء رقيقة جدا ، بل إن هذه الأصابع أجمل ما فى المرأة .

وهذا ولا شك ذوق خاص ، فهو يرى أن أجمل مافى المرأة أصابع يديها ولكنه لم يدرك أن جمال المرأة فى هذه القبائل هو ظهرها الذى تنقشه وتكتب عليه اسم الرجل الذى يحميها ـ أى الذى تحبه .

أما القبائل الاسترالية فهى لاترى أن الجمال هو ضخامة الجسم ، وإنما الجمال هو جمال الصدر ولذلك تحرص المرأة على أن تكشف عن صدرها . والمرأة الاسترالية ـ لأنها تحمل كل أمتعتها على رأسها ـ أصبح قوامها ممدودا ممشوقا ، وعنقها مرفوعا وصدرها بارزا .. (ملحوظة خبيثة : إذا ذهبت إلى الريف وجلست إلى جوار ترعة عند الغروب ورأيت الفلاحات وقد حملن البلاليص أو الحلل وتفرجت عليهن باهتمام شديد وهن عائدات إلى البيت ، لوجدت أن كل واحدة قد تعمدت أن يسقط الماء على صدرها ، لأن الماء إذا سقط على الصدر التصق الجلباب بجسمها .. وإذا التصق الجلباب فإن النهدين يبرزان فى فزع وهذا هو المطلوب ..) .

وفى جزيرة بالى فى أندونيسيا تمشى نساء الجزيرة عاريات الصدر ، وكل الذين يترددون على هذه الجزيرة من السياح لمشاهدة هذا الشيء الغريب ولا يوجد فى هذه الجزيرة أية معالم سياحية .. لاشيء بالمرة ... ونشرات الدعاية الأندونيسية كاذبة والسياح كاذبون . فهم جميعا يحاولون أن يوهموا العالم أن فى الجزيرة مشاهد أخرى غريبة .. وأنا ذهبت إلى هذه الجزيرة ولم أجد شيئا غريبا .. سوى النساء العاريات الصدر . وهناك أسطورة تقول إن الفتاة عندما تبلغ الثانية عشرة من عمرها فإنها يجب أن تجعل القمر من أبنائها .. ومعنى

ذلك أن كل فتاة يجب أن تتعرى فى الليل وتعطى صدرها العارى للقمر لكى يرضع منه . ويؤمنون أيضا بأن القمر يجب ألا تفطمه الفتاة إلا عندما تتزوج ، ويقولون إنه لاشىء يجعل الصدر جميلا شابا سوى القمر الرضيع ..

أما كتاب « الرمايانا » الهندى فهو يعيد الجمال إلى شكله المعروف فى ألف ليلة : فالفتاة الجميلة هى ذات الأسنان البيضاء والعينين الواسعتين أما رجلاها فمثل ساق الفيل .

وفى سفر « نشيد الإنشاد » فى الكتاب المقدس نجد صفات مثيرة لجمال الرجل أو جمال المرأة أو للجمال الإنسانى عموما : حبيبى رأسه ذهب ابريز ، عيناه كالحمام على مجارى المياه ، مغسولتان باللبن ، خداه كخميلة الطيب ، شفتاه سوسن تقطران مرا مائعا ، يداه حلقتان من ذهب مرصعتان بالزبرجد ، بطنه عاج أبيض مغلف بالياقوت الأزرق ، ساقاه عمودا رخام مؤسسان على قاعدتين من ابريز .. طلعته مثل لبنان ، حلقه حلاوة .. وكله مشتهيات.. الخ ..

والجمال هنا جمال الجسم كله .. بل هو عبادة للجسم من أوله لآخره .. فكل شىء جميل .. الشعر والعرق والريق والنوم على الأرض ورعى الأغنام .. والفقر أيضا ..

أما عند الإغريق فلا نجد تماثيل لنساء جميلات وإنما نجد تماثيل لنساء رشيقات فقط ، بل إن أجسام النساء عند الإغريق كانت أقرب إلى ملامح الرجال . فالقوام طويل مختصر . والصدر صغير ، والأرداف ضامرة ، وليس الخصر مخنوقا . والإغريق كانوا يفضلون جمال الرجل على جمال المرأة بل إنهم لايجدون فى المرأة أى جمال ، ولذلك حرصت النساء على أن يقلدن الشبان الصغار يقصرن الشعر . ويعملن رجيما قاسيا لعلهن يعجبن الرجال ..

بل إننا وجدنا الفيلسوف سقراط العظيم يتغنى بجمال الرجل . ويعترف صراحة أنه يحب غلاما جميلا ، وأرسطو العظيم لا يخفى هو الآخر حبه لهذا النوع من الجمال ..

وكان الإغريق يكتبون أسماء الشبان على أعمدة الجدران ، وكان من المألوف أن يكتب الرجل اسم الشاب الذى يحبه على باب بيته .

وسقراط كان أعنف الفلاسفة الذين دعوا إلى احتقار الجسد . ولذات الجسد . وجمال الجسد . وجمال المرأة . وتأثرت بأفكاره الحضارة الأوربية كلها . حتى بعد المسيحية ، ازداد احتقار الناس لكل ماهو حسى . وكان على المرأة أن تتوارى وتضغط معالمها الحسية حتى لاتظهر ، فظهورها شر ، والخطيئة امرأة ، والمتعة خطيئة والزواج يجب أن يكون من أجل إنجاب الأطفال ، وليس من حق الرجل أن يشعر بالمتعة إذا تزوج ، ولذلك يجب ألا تحاول زوجته إغراءه ، ويجب ألا تظهر له شيئا من جسمها .

وكان من العادات المألوفة فى العصور الوسطى أن تضع المرأة على صدرها لوحا من المعدن تحت ملابسها . فإذا نام زوجها إلى جوارها لايدرى بالضبط إن كان قد استدار إلى زوجته أو أنه أعطى وجهه للحائط .

وهذا يفسر لماذا أعدموا القديسة أجاثا بهذه الصورة المروعة : فقد نزعوا ملابسها . وقطعوا ثديها بالسكين فالثديان مظهر من مظاهر الأنوثة . والأنوثة شر . ويجب أن نقضى على الشر تحت ملابسنا وتحت ملابس النساء . والجمال صورة زائفة ، والإثارة استدراج إلى الخطيئة ، ولذلك فكل ماهو حسى هو قبيح .. والجمال الحقيقى هو جمال الرجل . وكان الرجال والنساء ينامون معا بالملابس الكاملة .. الكاملة ! ! خوفا من أن يتلامس الجسدان لأى سبب !

أما الرومان فكانوا حسيين ، ولذلك أحبوا الأجسام الممتلئة ، وأقاموا

مسابقات الجمال للنساء العاريات ، ولكن الرومان إذا كانوا يفضلون المرأة المليانة ، فهم لايحبون السمينة الجاهلية .. ولا السمينة الأندلسية .

وفى الأندلس كانوا يفضلون المرأة التى يصلح حزامها إسورة لذراعها ـ أى ذات الخصر المخنوق ، وكانوا يفضلون العيون على بقية الأعضاء ، وعندما استمع أحد الأمراء عن جمال امرأة ساعة بعد ساعة ، لم يسأل إلا عن شىء واحد : حدثنى عن عينيها ، فقيل له : كحلاء ـ أى سوداء الحدقة .. وحوراء ـ أى شديدة السواد .. والبياض .. ونجلاء ـ أى واسعة العينين .. ووطفاء ـ أى طويلة الرموش ..

ونهض الأمير ليقول : ستكون زوجتى ..

وقد حدث فى بلاط يوليوس قيصر أن اقترح أحد الضباط أن تكون للإمبراطور عشيقة جميلة ، وكان الإمبراطور مولعا بالشباب ـ وكان الشبان مولعين به .. فسأل الإمبراطور : كم مرة تذهب إلى الحمام فقيل له : إنها قرموط سمك يا مولانا ـ أى أنها لاتترك الماء ، وعاد يوليوس قيصر ليقول : وإذا حدثتها فكيف تنظر إليك ؟ فقيل له : فى عينيك تماما يا مولانا .

ورفضها الإمبراطور فهو لايريد امرأة ترفع عينيها عن قدميه ، إنه يفضل المرأة التى لاترى . لأنه يريد ـ ككل رجل ـ أن يكون هو عينيها .

ومن المألوف أننا عندما نصف الجمال فإننا نتحدث عن جمال المرأة ، ولانتحدث عن جمال الرجل والسبب فى ذلك هو أن الرجل هو الشاعر والفنان والملك وهو الذى يختار وهو الذى يصف ويتكلم ويتغنى ولذلك لانجد تمثالا لجمال الرجل . وإنما نجد تماثيل لجمال المرأة . وكذلك دراسات طويلة عميقة لجمال المرأة .

والرجل يفضل المرأة الجميلة .. لاشك فى هذا . وإن كانت هناك نساء

يفضلن الرجل الدميم ، بل إن المرأة لا تحب الرجل الجميل . وجماله لايغريها ولايثيرها . وربما أثارتها نظافة أظافر الرجل ..

بل إن هناك ألوف الأمثلة فى حياتنا العادية للرجل القبيح الذى يتغلب على أكثر الرجال جمالا . فتحبه المرأة دون أن تدرى أنه قبيح .

والعالم الكبير داروين يؤكد أن إناث الطيور والحيوانات تفضل الذكر الجميل . فالديك أجمل من الدجاجة والدجاجة تستجيب للديك الجميل الريش الزاهى الألوان .

والمرأة تختار الرجل القوى . القوى الجسم والقوى الشخصية . القوى المركز . والمرأة تتوهم ـ عاده ـ أن قوة الجسم تدل على قوة الرجولة وهذه إحدى كوارث المرأة فى حياتها الزوجية .

ولا يوجد سبب علمى لحرص النساء على مشاهدة الملاكمة والمصارعة والرياضة إلا المتعة فى مشاهدة شبان أقوياء . والنظر بالعين إلى هذه القوى الشابة : متعة .

وكثيرا ما تزوجت أجمل الفتيات رجالا رياضيين . وكان الزواج نفسه نموذجا من الفشل والخيبة . كما حدث لمارلين مونرو ولانا تيرنر .. وغيرهما .

والمرأة لا ترى الرجل العريان شيئا جميلا ولا مثيرا . على عكس الرجل . فالمجلات تنشر الصور العارية للمرأة . والكباريهات تعرض الأجسام العارية . والراقصات فى المعابد وفى صناديق الليل . يئن الجوع فى الرجل إلى أن يملأ عينيه باللحم الحى المتحرك .

وعندما ينظر رجل وامرأة إلى راقصة عارية فكل منهما يرى شيئا مختلفا . أما الرجل فهو مبسوط . وإن كان يحاول أن يخفى انبساطه الحقيقى وراء ستار أخلاقى كاذب . وذلك بأن يستنكر الرقص العريان وهو فى الحقيقة يتمسح فى

الأخلاق . لأن الأجسام العارية والصور العارية تعجب الرجال وتثيرهم . أما المرأة فتحب أن ترى المرأة العارية . ولكن تشعر أمامها بشيء من الخجل . كما يشعر الحاوى أمام حاو آخر ، فالمرأة هى الحاوى الذى يخفى جماله بحساب ويظهره بحساب . والمرأة كالحاوى أيضا لاتحب أن يجيء حاو آخر ويكشف السر أمام الناس .

والتقرير الخطير الذى كتبه الدكتور كنزى عن الجمال والدلال عند النساء والرجال يقول فيه إن ٨٥٪ من الرجال يفضلون الصور العارية والاستعراض العريان .. وإن ٢٠٪ من النساء يفضلن الصور العارية للرجال .. وأنهن لايشعرن بأى ضيق إذا نظرن إلى رجال عراة يستعرضون عضلاتهم .

ولاشك أن السينما هى المسئولية الآن عن فرض نماذج من الجمال على الناس . فهى تفرض الرجل الأصلع نموذجا للرجولة .. وتفرض الخنافس نموذجا للشباب .. وتفرض ذات الصدر الضخم مثل جين مانسفيلد وجين رسل وجينا لولو بريجيدا .. وتفرض السيقان الطويلة مثل صوفيا لورين .. وتفرض العيون الواسعة مثل كلوديا كاردينالى .. وتفرض القوام النحيف مثل أودرى هيبورن .. وبريجيت باردو ..

إن الذوق يجيء من فوق .. من الشاشة الفضية بألوانها وموسيقاها وزواياها . وما تفعله النجوم فى أمريكا وأوروبا يصبح إطار الجمال فى كل الدنيا ..

وإذا كان الرجال قد اختاروا المرأة ذات الصدر العالى ، فلأن الرجل ما يزال طفلا . يحن إلى صدر دافئ . وما تزال المرأة أما ، ولاتتعب من أن تكون أما لأى إنسان .. ولأى قط أو لأى كلب . بل إن الموت نفسه لو نام على صدرها لأرضعته .

ولكن المرأة التى تعلمت وعملت الآن يجب أن تكون خفيفة الحركة . وأن

تكون أزياؤها متناسبة مع هذه الحركة ومع هذه الحياة الجديدة .. ولذلك فلم تعد المرأة السمينة مثلا أعلى . بل إن المرأة المختصرة المركزة الأعضاء هى نموذج الجمال عند الرجل . أى قريبة من الرجل . فالرجل يحب أن يعمل وأن يتحرك ولذلك كان رشيقا خفيفا ، والمرأة أيضا .

ولم يحدث فى تاريخ الذوق الجمالى عند الإنسان أن التقت نماذج ألف ليلة ونماذج الإغريق كما حدث فى عصرنا هذا . فالمرأة التى تعجب الرجل هى التى تجمع بين الأنوثة والرجولة . إنها التى تشبه ذلك الغلام توت عنخ آمون . فهذا الملك له كل ملامح الفتاة والفتى . لا هو رجل ولاهو امرأة . هما معا . إنه هو أيضا مثل بريجيت باردو ومثل أودرى هيبورن . فى هذين الكوكبين توجد كل صفات الشاب والفتاة . فلا توجد فيهما أنوثة صارخة ولكن توجد أنوثة وجاذبية .. ولا توجد « رجولة » صارخة .. وإنما توجد صفات الأجسام الشابة الفتية ..

وعندما أصدرت الأديبة الوجودية سيمون دى بوفوار كتابها الصغير عن بريجيت باردو سجلت انحلالا فى ذوق الرجل ومرضا فى رجولته . فهى تقول : لقد عرفنا منذ وقت طويل أن الرجل يريد من المرأة أن تكون مستسلمة . أو تكون الاستسلام نفسه . ويحتفظ هو لنفسه بالحركة والعمل . وعرفنا أن هذا هو الفارق بين الرجل القوى والمرأة التى تنتظر سيدها دائما .. ولكن إعجاب الرجل بهذا المخلوق الغريب بريجيت باردو جعلنا نشك فى ذوق كل الرجال . فهى ليست الأنثى .. إنها أنثى من نوع خاص .. إن الرجال ليس فى استطاعتهم بعد اليوم أن يهربوا من تهمة الشذوذ .. ولا من تهمة الذوق المريض الذى جعل فن الجمال عند الرجال مريضا .. إن بريجيت باردو قد كشفت الرجل وفضحت ذوقه .. إن الرجل فى العصر الحديث لم يعد له ذوق رجل .. كأنه لم يعد رجلا .. يا للعار ! .

وهذا الرأى يجعلنا نتصور أن الرجال يعجبهم فى ب . ب . أنها قريبة الشبه من الشاب أو من الرجل .. أبدا . إنما يعجبهم أنها أنثى من نوع خاص . إنها فاكهة ليست فى حجم البطيخة ولا فى حجم التوتة .. ولكنها فى حجم التفاحة مثلا . إنها فاكهة من نوع خاص وطعم خاص .. والذى يحب المايوه يحب الملابس الكاملة أيضا .. والذى يأكل السندوتش يستطيع أن يأكل الديك الرومى .. والذى يرى ب . ب . ويعجب بها ، لو رأى أمها لأعجب بها ولأحبها وتزوجها .. وفى استطاعة الرجل أن يغمض عينيه عن ب . ب . وعن كلوديا كاردينالى .. وأن يتخيل أنوثة الاغريق وكذلك ألف ليلة .

يقول شاعر ظريف متوجها إلى الله :

خلقت الجمال لنا فتنة وقلت لنا يا عبادى اتقون
وأنت جميل تحب الجمال فكيف عبادك لايعشقون

مرارة العسل

لم يعد هناك متسع من الوقت لكى يكون الإنسان زوجا ..

فالوقت الذى يجلس فيه الزوج مع زوجته وأولاده قصير جدا .. وهو لا يتعدى بضع دقائق وبعدها يترك الرجل بيته إلى الشارع أو المقهى أو إلى العمل مرة أخرى .. أو لينام أو ليأكل ..

وكل زوجة تشكو دائما من أن زوجها لم تعد تحس به .. لم تعد تراه .. فهو يجىء البيت فقط ليستريح ,ولا يريد أن يسمع كلمة واحدة عن أى شىء .. وتقف الزوجة حائرة وعلى لسانها عشرات الحكايات ، وعشرات الشكايات من الأولاد والجيران والطباخ والأقارب والبواب .. وشكايات منها هى شخصيا ضد الزوج .. ولكن كل ما يريده الزوج هو أن ينعم بالهدوء .. بالراحة .. لأنه مرهق .. وطول النهار يتكلم ويناقش ويصارع الآخرين .. إنه مهدود .. إن لسانه أصبح كالشريط الممسوح من كثرة دورانه فى فمه .. لقد تعب لسانه ، وتعبت أذناه ويتمنى أن يفقد كل انسان لسانه ورغبته فى الكلام خصوصا مع زوجته ..

وفى هذه اللحظات القليلة يضطر الزوج إلى أن يكون لطيفا ورقيقا وصبورا ، ومستمعا إلى حكايات وخناقات زوجته وأولاده .. وأن يحل كل المشاكل وهو تعبان ، وأن يفصل فى كل القضايا وهو مظلوم ! .

وإذا لم يفلح الزوج فى تحقيق هذه المعجزة ، فإن الزوجة تبكى ، وتتشنج وتهدد بترك البيت والأولاد والدنيا أيضا . والرجال العقلاء يعلمون بالتجربة أن دموع المرأة لا قيمة لها .. ولا تعنى شيئا ، فالمرأة تبكى كما تمطر السماء .. وهى تتشنج وتهدد لأن الرجل يسد فمها .. ولأن الرجل يدوس على لسانها .. والمرأة تتنفس من لسانها ..

فالرجل الذى لايستمع إليها يقتلها .. والرجل الذى لا يناقشها يخنقها .. فشكوى المرأة سببها ضيق الوقت الذى خصصه الرجل لزوجته لكى تتكلم ..

ومن الممكن أن تنحل هذه المشكلة ، لو أن الزوجة هى الأخرى تعمل .. فسيكونُ عندها هى الأخرى مشاغل ومتاعب .. ستظل طول اليوم تتكلم وتناقش ، حتى تنهد قواها .. فإذا عادت إلى البيت ، وأصبح «بوزها» فى «بوز» زوجها .. لم تجد ما تقوله .. تماما كالرجل ..

وفى أوربا وأمريكا اقتنع الأزواج بسخافة الحياة فى البيت .. وبسخافة تناول الغداء أو العشاء فى البيت .. فمن الممكن أن يعمل الاثنان فى مكانين بعيدين .. فالأفضل لهما أن يلتقيا فى أى مطعم .. أو فى إحدى دور السينما .. كأنهما .. صديقان أو عاشقان .. وهذا التغيير لاشك يقضى على الملل والروتين الزوجى .. وفى أمريكا يلتقى الآباء والأبناء فى المطاعم أو دور السينما ..

فلم يعد للبيت كل هذا المعنى المقدس .. ولا هذا المعنى السحرى .. فلا شىء اسمه .. البيت .. فالزوج مشغول والزوجة أيضا .. والزوج يعمل والزوجة أيضا تعمل .. والزوجة لا تربى الأطفال ولا تطبخ ولا تغسل ولا تكنس .. وليس عندها وقت .. وحتى لو كانت عندها رغبة فلا أحد يشجعها ،

ولا أحد يطلب منها أن تكون زوجة ولا ست بيت ولا حتى ست ..

وإنما مفهوم الزواج هو : اثنان تفاهما ورأيا من الأفضل أن يرتبطا برباط أمام الناس .. فتعاقدا على الحياة معا ..

وهذه «الشركة» أو هذا «العقد» لم يقرأه الزوجان .. ولم ينص فى هذا العقد على أشياء كثيرة ..

فلم ينص فى العقد على الراحة المطلوبة لكل منهما ..

لم ينص فى هذا العقد على ضرورة الكلام فى ساعات الراحة والاستماع إلى شكايات الزوجة ، وإعطائها الفرصة لكى تستخدم لسانها يمينا وشمالا .. وترضى هواية الكلام بلا معنى ..

إن الزوجة الأمريكية إذا أرادت أن تشكو وأن تبكى فإنها تذهب إلى الطبيب النفسى وتتحدث وتظل تبكى وترتجف حتى تتساقط كل متاعبها ..

ويودعها الطبيب إلى الباب ، لتجد زوجها يقرأ الصحيفة ..

ثم تدفع الزوجة قيمة العلاج .. وفى الطريق إلى البيت يسألها الزوج : هه .. وماذا قلت للطبيب ..

وترد الزوجة : شكوت له من الوحدة .. وأننى أقضى معظم الوقت وحدى .. ورويت له كثرة أعمالك ..

وتنتهى المشكلة عند هذا الحد . وهذا ما نراه فى الأفلام الأمريكية :

فالزوحة تذهب إلى الطبيب كما يذهب الناس إلى القسيس ويعترفون .. وتشكو الزوجة من زوجها ، ومتاعبها معه .. ويرى الزوج أن هذه المشكلة طبيعية وأنه لا حل لها .. فيذهب معها إلى العيادة وينتظرها ويرى من الأدب أن يسألها عما حدث لها ..

وتبقى الزوجة مريضة .. ويعذرها الزوج ، ولا يفكر فى حل لذلك . فرض الوحدة للزوجة . تماما كأمراض الوحم والحمل وآلام الوضع .. كل هذه أمراض نسوية .. أمراض تحتمها طبيعة المرأة ، وكذلك الوحدة والوحشة : آلام يحتمها الزواج واشتغال الزوجين معا ..

* * *

قرأت فى قصة طويلة للأديب الأمريكى الساخط «جون . ف . لا ندبرج » أن سيدة تزوجت مهندسا من مدينة شيكاغو .. وأن هذه السيدة تركت الديانة المسيحية .. وعادت إلى الوثنية .. تماما كالإنسان من ألوف السنين .. ولما سئلت عن السبب قالت : إننى أريد أن أتحدث إلى أحد .. فلما سألوها : ولكن التمثال الذى تعبدينه لا يتحدث ..

فقالت : ولكن عندى أمل فى أن يتحدث .. ولكنه لا يقاطعنى وأنا أتكلم .. لا يدخن سيجارة .. ولا يفتح التليفزيون.. لا يتركنى وينام .. لا يلعب الورق .. لا يصيبنى بالحمل والولادة مرة كل ثلاث سنوات .. وليس بينى وبينه أى عقد ! .

وهى تقصد زوجها طبعا ..

أذكر أننى قابلت فى هوليود فتاة تعمل فى أحد البنوك ..

وبدون مناسبة روت لى الفتاة كيف أنها تتردد كل أسبوع على طبيب نفسى اسمه الدكتور محمدالسنوسى .. وهو طبيب مصرى يعيش منذ وقت طويل فى أمريكا وله سمعة طيبة ممتازة . ولما سألتها عن متاعبها .. قالت : إننى لا أذهب وحدى ، وإنما أذهب أنا وزوجى معا .. نختلف دائما وقررنا أن نحتكم إلى الطبيب .. فنحن نذهب معا ونتناقش فى حضور الطبيب ..

ثم راحت تضحك .. وقالت : فى أول الأمر كان زوجى يقاوم .. ولكنه الآن لم يعد يحتمل ..

وشرحت لى أسباب الخلاف مع زوجها .. لقد كان زوجها يقاوم عندما تثور عليه زوجته وتلعنه وتحمله مسئولية خياناتها المتكررة .. وفى كل مرة كانت تعلن عن خيانتها لزوجها ، كان يثور ويهددها بالقتل أمام الطبيب .. وأخيرا أقنعه الطبيب بأن يستمع لمغامرات زوجته حتى نهايتها .. ثم ربطه الطبيب فى سرير وجعله يستمع إلى اعترافات زوجته بالقوة ..

وتقول الزوجة بعد هذه الاعترافات : استرحت جدا .. وأن زوجها استراح الآن .. ولم يعد بينهما سوى مشاكل بسيطة جدا ، وهى أن الزوج لا يزال يغار من ماضيها ؟ .

وسواء كانت الزوجة على حق أو كان الزوج ، فإن الوسيلة الوحيدة لاجتماع الزوجين ، فى أمريكا ، هى أن يتمدد الاثنان على سريرين وبينهما طبيب .. هى تتهم .. وزوجها يستمع بالقوة .. والطبيب هو حكم هذه المباراة التى لا يفوز فيها الطرفان بأى هدف من الأهداف ..

ولكى تفوز الزوجة بوقت أطول من حياة الرجل .. فإنها تحاول دائما أن تشده إلى البيت ، أن تربطه بأولاده ، أن تهدده .. أن تخيفه .. لكى يهتم ، لكى يثور لكى يثأر ..

والمرأة ــ عادة ــ لا تتعب من إثارة الرجل .. فإنها تحرص دائما على أن تربطه بها ، أو أن ترتبط به ..

المهم أن يكون الرباط متينا .. ولا يهم أن يختنق الزوج أو يموت فى يديها .. ولكن الأهم عند المرأة ، هو ألا تكون وحدها .. هو ألا تكلم نفسها .. لابد أن يكون هناك أحد يسمعها ، ويرى دموعها ، ويلعنها أو تلعنه ..

وأسلم الطرق عند المرأة هي إثارة الرجل جنسيا ..

فإغراق الرجل فى عالم الجنس ، هو الوسيلة الوحيدة لكى تضمنه بين ذراعيها ضعيفا مستسلما لها .. وهو بين ذراعيها تحكى له وتقول له .. وتطلب إليه أن يقول كل ما لم يقله .. تطلب إليه أن يقول لها : إنه يحبها .. إنه يعبدها .. إن الحياة من غيرها مستحيلة .. إنها صاحبة فضل على حياته .. إنها التى جعلته يتغير ويتبدل .. وأنه اختارها دون سائر النساء .. لماذا ؟ .

ويجب أن يرد على هذا السؤال وأن يكرر ذلك كل يوم ..

* * *

فى إحدى أساطير اليونان كان البطل كلما عانق محبوبته هربت منه .. وكان يسألها : أنا أحبك ..

فترد عليه : وأنا أعرف ..

ويسألها : إذن لماذا تبتعدين عنى ..

فترد عليه : ولكنك لا تقول ذلك ..

ــ ولكنى قلت ذلك ألف مرة ..

ــ فلماذا لا تقولها الآن ؟؟

ــ ...

لابد أن يقول لها الآن إنه يحبها .

أى وهو يقبلها .. أى وهو يعانقها .. وهو فى لحظة ضعف ..

والمرأة لا يهمها إن كان الرجل صادقا فيما يقول .. ولكن يجب أن يقول .. أنها تطلب من الرجل أن يكذب عليها .. والرجل طبعا لا يكون فى حالة طبيعية وكل ما يقوله لا يمكن أن يكون طبيعيا .. ولكنها تريد منه أن يقول الكلام الذى يعجبها ، فى الوقت الذى يعجبها .. حتى ولو كان كذبا ..

ويغرق الرجل فى الجنس ..

والجنس هو نوع من الهرب من الواقع .. فالرُجل فى الجنس .. ينسحب من العالم .. ويغرق فى بحار حارة مظلمة من العرق .. والملح .. والكذب ..

وتستريح المرأة إلى غرق الرجل .. فهو لا يمكن أن يكون قريبا إليها أكثر من هذا ...إنه ملتصق بها .. إنها تحس بكل خلاياه .. إنه لها .. وهى تطلب إليه أن يؤكد لها دائما : أنه لها .. تماما .. كما هى له ..

ويؤكد لها الرجل ذلك ..

ويستريح الرجل جسميا .. ولكنه يتفكك عقليا .. فالجنس يريح . ولكنه يفك الأعصاب والعضلات .. ويفركش مراكز التركيز فى عقله ..

ويصبح الرجل المفكر أو الفنان ــ وهو أكثر حساسية للجنس ــ قماشا أبيض مغسولا نظيفا ، ليس عليه كلمة واحدة .. ولا رسم ولا إشارة ولا أى معنى ..

ويصبح عقل الرجل المفكر أو الفنان .. تماما كأصابع اليد .. مفتوحة .. وهذه اليد المفتوحة لا يمكن أن تمسك شيئا .. أن تقبض على شىء ..

وفى اللغة اللاتينية نجد أن كلمة : « يمسك » مرادفة لكلمة « يفهم » .. فالذى أمسكه ، هو الذى أحيط به ، وأحس به ، وأفهمه ..

والعقل الذى يشبه الأصابع المفتوحة ، لا يمسك شيئا أى لا يحيط بشىء .. وهذه هى المأساة التى يقع فيها الفنان مع زوجته ..

إنه زوج ، وهو حساس ، وهوعادة هارب من الواقع إلى عالم الخيال ، يفكر ويتأمل على مهل ..

والجنس حق وواجب وهروب ..

ويطلب الفنان الجنس ويؤدية ، ويهرب به ..

أى ينتقل بالضبط إلى الأرض التى اختارتها الزوجة ، التى تعبت من اللقاء به والجلوس إليه ، والشكوى له ..

ويحار الفنان بين عزلته الفنية ، وبين حياته الزوجية ..

بين أن يجلس وحده . مجرد أن يجلس وحده ولو لم يكن لديه أى عمل .. مجرد أن يتلمس ذراعيه هو : ورجليه هو ، يتحرك دون أن تنظر إليه عين ، ودون أن تسمعه أذن .. مجرد أن يستمتع بالوحدة .. يقتسم الهواء والوحدة ..

والزوجة ترضى بالقسمة .. أى قسمة ما دامت هى تحصل على النصف ، نصف أى حاجة ، ولا يهددها أحد فى هذا النصف .

ولكن زوجة الفنان لا تحس ولا تتصور أن وجودها معه يضايقه وتقول : كيف أضايقه . وأنا أعمل على راحته .. وأنا أحبه .. وهو يحبنى .. لقد قال لى ألف مرة إنه يحبنى ، وإنه لا حياة له من غيرى .. فكيف يقول هذا الكلام ، وهو الآن يريد أن يكون وحده .. لقد تغير .. لابد أن يكون هناك شىء .. الخ .

ولكن الفنان لا يطمع فى أكثر من وحدته .. وهذه هى طبيعة الفن والفكر .. إنه عمل فردى .. عمل يقوم به فرد واحد ، وعلى الطريقة التى يستريح بها ، وفى الوقت الذى يختاره ..

الفن كده .. وبالشكل ده .. فى كل مكان وفى كل وقت ..

والعزلة ضرورة بالنسبة للفنان ..

وهذا ما لا تفهمه الزوجة .. أى زوجة ..

* * *

حكى لى أديب مصرى معروف «ى » .. : أنه تعب فى إقناع زوجته على أن

يكون وحده يوما فى الأسبوع .. وطلب إليها أن تختار هذا اليوم .. وغضبت الزوجة .. وأصر على أن يكون له يوم .. واقتنعت الزوجة .. ولكنها عملت المستحيل لكى تشغله فى هذا اليوم .. فالدعوات تنهال عليهما فى هذا اليوم والضيوف .. وأعياد الميلاد والأفراح .. ومرضها .. ومرض أولادها .. ولم يفلح الأديب «ى .. » فى أن يفوز بيوم واحد فى أسبوع ..

وأصر على السفر إلى أى مكان فى هذا اليوم ..

ووافقت الزوجة .. ثم عاد فأخبرها بمكانه .. وكانت تلاحقه بالسؤال عن صحته .. وأن إحدى قريباتها رأت له فى المنام حلما ، وأنها تخشى مما جاء فى هذا الحلم ..

وأصر الزوج أن يكون المكان الذى يختاره سرا لا تعرفه زوجته ..

وشكت الزوجة من زوجها .. وقالت لابد أن تكون هناك مغامرة عاطفية وبكت وانتقلت من بيتها إلى بيت والدها .. وإلى بيوت أخواته .. ففضحته وكان معها دليل واحد هو أن زوجها لم يكتب حرفا واحدا فى كل هذا الوقت .. فماذا كان يعمل ؟ إذن .. هناك مغامرة .. ويقول الأديب «ى.. » إن زوجته طبعا لم تتصور ، أنه كان فى حالة ضيق منعه من أن يفكر فى أى شىء .. وفى قرف من حياته معها ، وفى قرف من الكتابة والقراءة .. وقرف من الدنيا كلها ..

وأخيرا قرر أن يكتب ويقرأ خارج البيت وأن يتجاهل دموعها ، وأن يطرد من أذنيه كلامها ..

ولم يحتمل طويلا .. ولم تحتمل هى أيضا .. ولكنه اعتاد أن يدوسها وأن يهملها .. فقد تزوج شيئا أهم وأخطر منها : الفن ..

* * *

وفى إحدى قصص البرتو مورافيا واسمها «الحب الزوجى» يتفق الزوجان على أن ينفصلا انفصالا تاما أثناء اشتغاله بأى عمل فنى .. فإما الزوجة وإما الكتابة .. وإما البيت وإما المكتب .. وإما الجنس وإما الفن .. فالفن رهبنة .. اعتزال .. انشغال تام ..

والزواج خيانة للفن .. والمرأة لا تكره شيئا قدر كراهيتها للفن والفكر الذى يخطف زوجها منها .. ولذلك نجد معظم زوجات الفنانين والمفكرين تعيسات ..

لأن زوجة الفنان مشكلتها أنها دائما أمام : بقايا رجل .. بعد أن أنهكه العمل ، وسلبه الفكر ، ولم يترك إلا هذا الجسم المرهق ، والعقل الشارد والرغبة فى أن يهرب .. أن يهرب منها بالنوم وحده ، أو إلى جوارها .. أو بالعزلة بعيدا عنها !..

* * *

وكان الفيلسوف جان جاك روسو يعتقد أن الفنان يجب أن يعيش وحده .. ألا يعتمد فى راحته على المرأة ، فهى تقاضيه الثمن غاليا .. إنها تستسلم له ، ولكنها تمتصه .. تمتص كل القوى التى توقد فكره ، وتشغل خياله ..

وكان يقول : إن أنـم وحدى .. يد هنا ويد هناك ، ورجل هنا ورجل هناك .. أحسن ألف مرة من أن يقاسمنى الفراش سمسار عاطفى ! .

وأعتقد أن الاتفاق الذى تم بين الدكتور فاوست وبين الشيطان .. وهو أن يعطيه الشيطان خمس أو عشر سنوات يعيشها كما يريد فى مقابل عشرين أو أربعين سنة من عمره .. هو اتفاق يتمناه أى فنان متزوج .. إنه يتمنى عشر سنوات فى وحدة ، على أربعين عاما مع زوجته أيا كانت هذه الزوجة .. عشر

سنوات من العزلة والحرية ، على عشرات السنين مع الأحضان والبلادة العقلية .. والأصابع المفتوحة التى لا تمسك ولا تحيط بشىء .. عشر سنوات بأصابع ملتهبة مرتجفة ، خير من عشرات السنين بأصابع مداعبة هادئة مستريحة .. ولكنها مجرد أصابع لا تكتب ولا ترسم ولا تساوى الماء الذى تغسل به ..

* * *

وهناك مشكلة أخرى .. ليست هى مشكلة الصراع بين الجنس والفن أو بين الزواج والإبداع ..

إنها مشكلة الزوجة نفسها .. زوجة الفنان ..

يرى الدكتور كنزى أنه وجد أن هناك ثلاثة أنواع من الزوجات لا يصلحن للرجل المفكر أو الرسام أو الموسيقار أو المحامى ..

وهو يؤكد أن هذه الفئات هى أصعب وأعقد فئات المجتمع وأن زواجهم فى الغالب مشكلة نفسية واجتماعية ..

الفتاة التى يحبها .. لا
الفتاة التى تحبه .. لا ..
الفتاة الطموح .. لا ..
فهو يجب ألا يحب فتاة ويتزوجها .. فهذا الحب يربك حياته كلها ..

والفتاة التى تحبه ، لا تقنع بالقبل .. فالحب يعطيها سلطات قضائية وحقوقا إنسانية عريضة ، فيشعر دائما أنه مقصر وأنه مدين وأنه فاته أن يعطى وأنه مخطئ ..

والفتاة الطموح مشكلة المشاكل .. فهى ترى فى زوجها وسيلة من وسائل

تحقيق آمالها .. إنها تريد أن تدفعه إلى الأمام .. تريد أن تحمله على السلالم بالقوة .. إن أية مقاومة لرغباتها أو آرائها هي وقوف فى طريقها هي .. وهي تتنازع مع زوجها دائما .. فهي تريده أن يكون كذا ، ولكنها تريد أن يحقق ذلك بالقوة .. بقوتها .. بإرادتها .. وتنسى أن زوجها هذا ليس طوبة ولا ظلطة .. إنه الآخر له رأى .. له موقف .. له برنامج .. وإنه يعرف من حياته ومن فنه أكثر مما تعرف هي فتثور عليه .. وتحاول تحطيمه .. لأنه يقاوم طموحها ، لأنه يهدم آمالها ..

وفى رأى الدكتور كنزى أن الزوجة التى تناسب الفنان هى الزوجة « المخدة » أو « الوسادة » .. أى التى تعطيه الراحة فقط دون أن تفتح فمها بكلمة .. أى التى تتنازل عن آدميتها من أجل راحته .. التى تضحى من أجله بإنسانيتها .. بأن تتحول إلى مجرد حيوان ..

وليس من السهل أن يجد الفنان هذا الحيوان ..

إن الرسام جوجان تزوج فتاة بدائية .. من جزر تاهيتى .. لا تعرف لغته .. ولا تعرف صناعته .. وعاش وكان سعيدا مع هذا الحيوان الجميل ..

الشاعر رامبو عندما هرب إلى الحبشة واشتغل فى تجارة الجلود ، كانت له زوجة .. لا تعرف كيف تنطق اسمه .. وظل سعيدا بها حتى مات ..

وفى جزيرة بالى رأيت زوجة لفنان بلجيكى عالمى .. إنها فتاة بدائية .. لها قيمة سياحية للجزيرة .. أحبها الفنان البلجيكى وتزوجها وعلمها كيف تتكلم بعض الكلمات الفرنسية ورسمها فى ألوف اللوحات .. وعندما تتحدث عنه تقول : الخنزير ..

وهو سعيد جدا .. بعض لوحاته كان يوقع عليها كلمة : الخنزير .. أو هذا رأى زوجتى . ! .

إنها لا تفتح فمها .. إنها لا تحطم رأسه .. إنها لا تمسك يده عن الرسم .. إنها لا تفتح فمه بالقوة ليقول لها : أحبك .. إنها تريح فقط .. وسادة من الريش تحت رأس مليان بأفكار كالنحل والنمل ..

وحتى إذا وجد الفنان هذه الوسادة المريحة .. فإنه سيثور عليها مرة أخرى .. إنه لا يريدها هكذا جامدة .. خامدة .. مجرد حيوان لا يتكلم .. لا ينطق .. لا يحس به .. لا يفهمه ..

إن الفنان بيجماليون عندما صنع التمثال الجميل للمرأة المثالية ثم لما اكتمل التمثال ، راح يبكي ويصلي للآلهة أن يمنحوا التمثال الجميل نعمة الكلام .. إن التمثال الجميل لا ينطق لا يتكلم .. وطال بكاؤه ونواحه حتى ذابت قلوب الآلهة ووهبوها الحياة .. وسارت إلى جواره عروسا له ..

إنه لا يطيق الحياة مع أجمل إنسان لا يتكلم ..

وحتى لو تكلم التمثال ، فإن الفنان سيضيق بهذا الكائن الجميل الذى لا يكف عن الكلام ولا يكف عن امتصاص حريته وحيويته .. وفنه ! .

* * *

فماذا يريد الفنان أو المفكر ؟ .

إنه يريد حياة تجمع كل هذه المزايا وكل هذه العيوب .. قيود واسعة ، وأفواه تتكلم عندما لا يريد .. ووسادة خالية منه .. ومليئة به .. إنه المر الحلو ، والحلو المرير ..

إنه يطلب المستحيل .. ولذلك فلا سعادة لفنان .. فلا فن مع الزواج ، ولا زواج مع الفن ! .

مغامرات تاريخية

على الطريقة الإيطالية

قالوا للاسكندر : ماذا ستفعل بعد أن تغزو مصر؟ .
فأجاب : أغزو بلاد الفرس .
ـ وبعد بلاد الفرس ؟ .
ـ أغزو بلاد الهند
ـ وبعدها ؟ .
ـ بعدها أستريح
فقالوا له : ولماذا لا تستريح من الآن .. ؟ .

هذه هى إحدى قصص الأديب الايطالى بوكاتشيو. وهى من أكثر القصص دلالة على فلسفته فى الحياة . فهو يرى أنه ما دام من الضرورى أن يعيش الإنسان ، فلماذا لا يعيش الآن وفورا ؟ ..

وبوكاتشيو ابن غير شرعى ـ مثل صوفيا لورين .

ولد فى باريس ١٣١٣ ، أمه فرنسية وأبوه ايطالى . وبعد ولاته اختلف أبوه وأمه معا فأخذه الأب إلى ايطاليا . والأب يعمل فى التجارة . وكان يطمع أن يكون الابن تاجرا . فكان فاجرا وهو كما ترى تغيير بسيط جدا فى الحروف ! .

وكانت للابن ميول أدبية مبكرة . حتى عندما حبسه أبوه فى غرفة وربطه بالحبال أصر الابن على أن يكون أديبا ـ وشعر بسعادة لا حد لها عندما

استطاع بخياله وأفكاره أن يهرب من هذه الحبال فلم تستطع الحبال أن تخنق خياله ولم تستطع الجدران أن تقتل أفكاره .

وبوكاتشيو هو أول كاتب قصة قصيرة فى الأدب العالمى ..

له أول قصة فى التحليل النفسى .. وأول قصة واقعية .. وأول قصة لها نهاية مفاجئة .. وهو أول من جعل نهاية القصص على شكل مفارقات .. ثم إنه مؤلف أشهر مجموعة قصصية فى العالم كله وهى (الديكاميرون) .. وهى كلمة مأخوذة من اليونانية ومعناها (الأيام العشرة) أو (العشريات) ومن (جو) هذه (الأيام العشرة) أخذت القصص الثلاث التى صورت فى فيلم (بوكاتشيو ٧٠) الذى عرض فى مصر باسم (إغراء الأنثى) وهذه القصص المعروضة فى الفيلم ليست من تأليف بوكاتشيو وإنما فقط على طريقته ومستوحاة من جو (الأيام العشرة) .

والأيام العشرة كتبها (بوكاتشيو) عندما اجتاح الموت الأسود أوروبا . وقضى على مدينة نابلى بالذات . وقد ماتت فى الطاعون الأسود حبيبته ماريا إحدى حفيدات القديس توماس الاكوينى .. كما ماتت حبيبة الشاعر الإيطالى العظيم بترارکه واسمها لورا : وهى إحدى جدات المركيز دى صاد الذى نسبت إليه كلمة «الصادية» أى التعذيب الجنسى الشاذ .

وتخيل بوكاتشيو أن سبع سيدات وثلاثة رجال قد هربوا من الطاعون إلى أحد البيوت .. وراح كل واحد من هؤلاء العشرة يروى قصة كل ليلة ولمدة عشرة أيام . فبلغ عدد القصص التى قيلت على سبيل التسلية مائة قصة . وكان من عادة هؤلاء العشرة أن يختاروا كل ليلة ملكا وملكة والملك هو الذى يختار موضوع القصص العشر . فتجىء قصص الليلة الأولى فى المقالب مثلا وقصص الليلة السابعة فى الخيانة الزوجية . وتجىء قصص الليلة العاشرة فى الأساطير القديمة .. فالملك هو الذى يختار نوع القصص .. وقد جعل بوكاتشيو

حبيبته ماريا إحدى بطلات (الديكاميرون) وجعل اسمها فياميتا : أى الشعلة الصغيرة ..

والفتاة فياميتا هذه هى أيضا ابنة غير شرعية ..

فقد حدث خلاف بين ملك نابلى فى ذلك الوقت وبين أحد المواطنين على بنوة هذه الفتاة وأعلن الملك أنه منذ تسعة شهور كان على علاقة بأمها .. وأعلن المواطن الآخر أنه كان أيضا منذ ذلك الوقت على علاقة بالأم . وثار الملك ثم ثار المواطن وقال للملك : حتى لو كان لك بها علاقة فأنت عاجز عن أن تكون أبا .

وبعد سبعة عشر عاما من هذا الحادث رآها بوكاتشيو فى الكنيسة . وأعجب بها . ولما رأته أخفت وجهها . وأحس بوكاتشيو أن قلب الفتاة قد اهتز . فعندما يهتز قلب المرأة فإنها تغطى وجهها . وفى اليوم التالى عادت نفس الفتاة إلى الكنيسة . وقد غيرت لون ثيابها . فأدرك بوكاتشيو أنه قد تسلل إلى قلبها . فهذه الألوان دليل على أن المعانى التى تدور فى رأسها قد تغير لونها وطعمها . وكان بينهما غرام عنيف . وتردد على بيتها . وأصبحت عشيقة له ولغيره . وجاء الموت الأسود وأخذها وعشرات الألوف من الفتيات الجميلات . وكتب بوكاتشيو القصص الجميلة على لسانها ومن أجلها وأحيانا ضدها .

فمثلا قصة الملك الذى علم بأن فتاة جميلة قد تركها زوجها وحدها : ذهب الملك لزيارتها وعندما رآها ازداد هياما بها . وفوجئ بأن هذه السيدة قد أعدت له عشرات الأطباق من طعام واحد ... لقد كان الطعام من الدجاج .. الدجاج فقط .. فسألها الملك ألا يوجد عندك ديك واحد؟ ..

فقالت : لكن الدجاج هنا وفى كل مكان واحد .. لا فرق بين دجاجة ودجاجة .. وغضب الملك وأحس أنها تسخر منه وتوبخه وخرج غاضبا ..

ولكن هذه القصة تعنى أيضا أن بوكاتشيو : يرى أن كل الدجاج من غير ريش متشابه . ولا فرق بين واحدة سمراء وواحدة بيضاء وواحدة تحبها وواحدة تحبك .. وأن فياميتا هذه ، ككل النساء من غير ريش سواء .

ومن (جو) الجنس والاثارة والاعترافات العارية التى جاءت فى قصص بوكاتشيو خرج فيلم (إغراء الأنثى أو بوكاتشيو ٧٠) .

وبوكاتشيو ٧٠ معناها لو عاش بوكاتشيو إلى سنة ١٩٧٠ لكانت له قصص شبيهة بقصص هذا الفيلم (ومن الصدف الغريبة أن قصص الديكاميرون هذه قد نشرت لأول مرة فى كتاب سنة ١٤٧٠ أى من خمسة قرون . وكانت قبل ذلك عبارة عن أوراق مكتوبة باليد يتناقلها الناس .. النساء خصوصا) .

والفيلم (بوكاتشيو ٧٠) هو أحسن نموذج لمدارس الإخراج الايطالى . فالقصة الأولى واسمها (عذاب الدكتور أنطونيو) من إخراج فللينى . وهو الذى أخرج قصة (الحياة الحلوة) بطولة أنيتا اكبيرج أيضا .

وفللينى من أنصار مدرسة : إن المخرج يجب أن يفرض الواقع على الناس بالقوة الجميلة .

وهذه القصة اشترك فى تأليفها مع فللينى أثنان آخران هما اينو فاليانى وتوليو بنللك .. وهى أجمل القصص الثلاث من ناحية الحوار واللعب بالألفاظ ..

ومن تصوير مصور عظيم جدا هو أوتيللو مارتيللى .

إن هذه القصة تدور حول قصة مسيحية معروفة جرت أحداثها فى مصر . وهى قصة القديس أنطونيو الذى عاش فى القرن الرابع الميلادى هنا . وقد عاش راهبا . وفى يوم تعب من الرهبانية وقرر أن يعود إلى الحياة وخرج من صومعته .. وفى يده لقمة من الخبز . فصور له الجوع مائدة فخمة . فاقترب منها فهربت . وصور له العطش بئرا صافية . فاقترب منها فهربت .. ووجد أمامه قطعة من

الذهب . ولما لمسها ظهرت تحتها قطعة ذهبية أخرى . وتخيل نفسه ملكا يحكم الناس . وهنا فقط أحس بأن الذهب على شكل حيوان .. واقترب من هذا الحيوان فهرب . وأخيرا ظهرت له بلقيس ملكة سبأ . فأقبل عليها . وسارت أمامه .. كانت جميلة معطرة مثيرة . تناديه ويجرى وراءها . وتعثر فى طوبة فسقط على الأرض واكتشف أنه كان واهما . وعاد إلى لقمة العيش . فأمسكها . ودخل بها صومعته .. وانتهت فتنة القديس أنطونيو بانتصاره على نفسه وعلى جسمه .

والقصة الأولى من هذا الفيلم هى صورة حديثة جميلة جدا لعذاب القديس أنطونيو .

فنحن أمام رجل متزمت جدا اسمه الدكتور أنطونيو .. وهى يرى الرذيلة فى كل شىء ..

وهذه القصة تروى حكاية أوهام تسلطت على رأس هذا الدكتور أنطونيو .. وهى أوهام قوية . أقوى من الواقع . فقد حدث فى أحد الأيام أن وضعوا إعلانا عرضه ٥٠ قدما للممثلة أنيتا اكبرج . وفوق الإعلان كتبت هذه العبارة : أشرب لبنا أكثر .

والصورة ضخمة وليست عارية . ولكنها مثيرة .

وهنا ثار الدكتور أنطونيو على الصورة وعلى الاعلان وفن الاعلان الذى يفسد الشباب . وثار على الموسيقى والتراتيل الوثنية حول هذه الصورة . وكتب ضد الاعلان وضد الشركة وحاول أن يمنع الناس بالقوة وأخيرا اقتنعت السلطات بأن تغطى هذه الصورة بطبقة من الصمغ لكى تحجب هذه الفتنة . والسلطات البوليسية التى لجأ إليها الدكتور أنطونيو مهتمة أيضا بالجنس ففى مكاتب رجال البوليس صور عارية وفيها سيدات بوليس جميلات جدا ..

وسقطت الأمطار وغسلت الصمغ وعادت المرأة المثيرة كما كانت .. عارية .. مثيرة .. وتسلطت هذه المرأة على رأس الدكتور أنطونيو ، لدرجة أنه كان يراها تجلس وتقف .. وتعرى صدرها أكثر وأخيرا خرجت المرأة عن الاعلان وراحت تطارده فى الشوارع .. طويلة هائلة وراح يلعنها ويقول لها : أنت ملكة سبأ .. أنت سالومى .. أنت كليوباترا .. أنت كل الشرور فى كل مكان .. أنت سودوم .. أنت عمورة ..

وسودوم وعمورة مدينتان وصفهما الكتاب المقدس بأن اللعنة هبطت عليهما بسبب الانحلال الأخلاقى .

وكانت المرأة الجميلة تطارده .. وتطارده حتى وقع على صدرها .. وأحبها وسقط عند قدميها وأحب قدميها .. والأرض تحت قدميها ..

وينتهى الفيلم الجميل جدا باعتقال الدكتور أنطونيو وإدخاله مستشفى الأمراض العقلية ..

فليس الفيلم إلا صورة لأوهامه هو .. أوهام حقيقية . فهو رجل يصرخ من سيطرة الجنس على الناس وخوفه على أن يفسد كل الناس .

وأسلوب المخرج فللينى فى هذا الفيلم هو أن يجعل الواقع قويا .. قويا حتى ليحس به كل الناس. فالناس لايستطيعون أن يدركوا كل شىء إلا إذا جعلناه ضخما هائلا صارخا .. وليس ذلك بسبب ضعف فى عيون الناس .. وإنما بسبب بلادة كل إحساسات الناس ؟ .

والمخرج فللينى هذا قد فاز بجائزة أوسكار عن فيلم (الشارع) وقد بدأ حياته كاتب سيناريو مع المخرج روسللينى الزوج الثانى لأنجريد برجمان . واشترك معه فى فيلم (مدينة مفتوحة) وفللينى شعاره فى الإخراج : لا أنتظر الواقع ولكن أجعل

الواقع ينتظرنى . وأنا أهمس فى أذن الواقع لكى يصرخ بالحركة واللون والمعنى الصريح ..

أما القصة الثانية اسمها (الوظيفة) اشترك فى كتابتها : سوسو داميكو والمخرج فيسكونتى . ومن تصوير مصور عظيم جدا هو : جيسبه روتونو ..

ومعظم التحف واللوحات الموجودة فى هذه القصة قد نقلها المخرج من بيته هو ..

وكل أحداث القصة فى (الداخل) .. ومعظم الغرف لها مرايا والألوان هادئة لأن القصة تدور بين الرجل وامرأته .. أحد الأغنياء فى حياته العادية المملة ..

الممثلة بطلة القصة من أسرة كل أفرادها من الممثلين . فأمها ما تزال ممثلة فى مسارح فيينا وأبوها أيضا . وجدتها كانت ممثلة واسمها السينمائى رومى اشنيدر . وهى ألمانية ولدت فى فيينا وقد اكتشفها المخرج فى أحد مسارح باريس . وكل فساتينها من دار شانيل وقصة شعرها من تصميم الكسندر حلاق باريس المشهور . وقد اعتقله المخرج فى الاستوديو أسبوعين كاملين تقاضى عنهما عشرين ألف دولار .

هذه أسرة غنية جدا .. الزوج ايطالى والزوجة ألمانية . يعود إلى بيته الفخم جدا فى نفس اليوم الذى تنشر فيه الصحف فضيحة أخلاقية له . فقد اكتشفت الصحف أنه على علاقة ببعض الفتيات .. نوع معين من الفتيات اسمهن : فتيات آلو .. أى الفتاة التى تطلبها بالتليفون وتعطيها عنوانك فتجىء لك مقابل مبلغ كبير من المال .. هذا الزوج دفع ألف دولار لإحدى فتيات الآلو .

حاول الزوج أن يخفى هذه الفضيحة عن زوجته ..

احتار تماما .. ما الذى ستعمله الزوجة .. ماذا ستقول .. ففوجىء بأن الزوجة

سعيدة جدا بما حدث لأن الذى حدث قد حل لها مشكلة نفسية عنيفة . حاول الزوج أن يقول لها إنه فعل ذلك بسبب الملل ليعود إليها زوجا .. فكأنه يعالج نفسه بنفسه يتعاطى بعض السموم لكى يكون صحيحا .. كأنه شجرة فاكهة لابد أن تنبت من طين أسود لكى تكون ثمارها ناضجة ولو إلى حين ..

ولكن الزوجة لم تكن تنتظر هذا التعليل .. لم تكن تنتظر هذا العذر .. لقد صارحته بأنها عرفت عددا من الفتيات التى عرفهن الزوج .. لأنها شخصيا معجبة بهن .. وما دام زوجها قد فضل عليها هذه الفتيات .. فلابد أن تكون لهن مزايا خاصة .. ولكنها لا تعرف هذه المزايا الخاصة . إنها شابة وجميلة وأنيقة .. ومع ذلك يخونها زوجها .. إذن ما هو الفرق ؟ .

اكتشفت الزوجة أن الفرق الوحيد هو أن زوجها يدفع لكل فتاة أجرا على الوقت الذى تقضيه معه .. وقررت الفتاة أن يعاملها زوجها .. مثل أى فتاة أخرى .. يكلمها فى التليفون ويقول لها : آلو وترد عليه وتقول آلو .. فى الطريق إليك .. الخ ..

وكانت مفاجأة للزوج . ولكنه حريص على إرضاء الزوجة الغنية جدا .. وطلبت إليه أن يحاسبها على كل المرات التى التقيا فيها منذ تزوجا . ووافق الزوج . وذهب ليحضر لها شيكا . والزوجة سعيدة فقد وعدها أبوها إذا استطاعت أن تجد لها عملا لمدة سنة سيعطيها مبلغا كبيرا من المال .

وأخيرا وجدت الوظيفة .. وظيفة الزوجة والعشيقة فى نفس الوقت .. وجاء الزوج يدق بابها .. وفى يده الشيك . وعندما يدخل إلى غرفتها يجدها تبكى .

وتنتهى القصة ..

وقد كانت نهاية القصة : دخول الزوج وفى يده الشيك .

ولكن فى هذه الحالة تكون الزوجة شاذة لأن المتفرج سوف يشعر بأنها نوع ردىء من النساء ..

ولكن المخرج عاد وأضاف لها «لقطة» واحدة بقيت الزوجة وجاءت الدموع التى نزلت على خدها ، فمسحت كل المعانى الرديئة التى تراود المتفرج . هذه الدموع قد غسلت كل صورة كريهة لكل بنت ذوات قد ارتفعت بدموعها إلى أعلى من مستوى الزوج .. إلى مستوى الزوجة التى لها كرامة فأحست بالهوان . فلم تكن تتصور أن زوجها سيتصرف هكذا ..

ولكن عندما بكت أصبحت سيدة محترمة والمخرج فيسكونتى واقعى أيضا ولكنه لم يجعل الواقع يفرض نفسه بقوة . إنما هو شاعر واقعى فمن الممكن أن يكون الإنسان واقعيا ورقيقا جدا .. فليس أسهل من أن تمتد يد الزوجة وتصفع زوجها بالقلم . وهنا يستريح المتفرج . وما أسهل أن يجعل المخرج هذا القلم يرن . ويرن ويكون له دوى فى أذن كل رجل .

ولكن فيسكونتى يفضل أن يكون الواقع قويا وجميلا أيضا .. والجمال نفسه قوة .. ولذلك فشعار المخرج فيسكونتى : هو أننى أرفض قسوة الواقع وأرفض أن أكون قاسيا على الواقع .. إننى أفضل أن أتغزل فيه .

. والقصة الثالثة والأخيرة من إخراج دى سيكا وبطولة صوفيا لورين .. ومن تصوير نفس مصور القصة الأولى .

ودى سيكا وصوفيا لورين هما ثنائى جوائز الأوسكار والأفلام الإيطالية والعالمية الناجحة جدا ..

ودى سيكا هو أحد معالم الإخراج فى ايطاليا وهو ممثل مسرحى ممتاز وممثل سينمائى عظيم وهو وكاتب السيناريو زفاتينى هما ثنائى المرتبة الأولى فى اختيار الكلمة والهمسة البليغة وهذه القصة من تأليف دى سيكا وزفاتينى . ودى سيكا أخرج فيلم (سارقو الدراجات) وزفاتينى هو كاتب الحوار والسيناريو .. وكان ذلك سنة ١٩٤٨ وأخرج دى سيكا فيلم معجزة ميلانو سنة ١٩٥١ .. وأخرج فيلم (أوبرطو .. د ..) سنة ١٩٥٢ وأخرج فيلم محطة روما فى نفس السنة أيضا وأخرج

قصة البرتو مورافيا التى اسمها (امرأتان) سنة ١٩٦٢ وقد فازت فيها صوفيا لورين بالأوسكار كأحسن ممثلة على الإطلاق ..

وأخرج أيضا للفيلسوف .. سارتر (سجناء الطونا) سنة ١٩٦٣ وأخيرا أخرج أمس واليوم وغدا بطولة صوفيا لورين وحوار زفاتيني ..

وهذه القصة الثالثة اسمها (الرهان) بطلة هذه القصة وزوجة منتج الفيلم هى صوفيا لورين التى لم تتجاوز حياتها الفنية ١٢ عاما . وظهرت لأول مرة على الشاشة فى فيلم اسمه (رواد الحب) وهى فى هذه القصة فتاة جميلة بسيطة من نابلى لا تقرأ ولا تكتب وتعمل فى إحدى مدن الملاهى المتجولة فى وادى نهر البو فى ايطاليا .

وتعمل فى دكان لإطلاق البنادق على أرقام فى لوحة . وهى اللعبة المعروفة باسم لعبة النشان . وبداية الفيلم تشبه بداية فيلم «ايرما الغانية» .. فهى سوق لحوم أبقار وجواميس بيع لحوم حيوانية، وبعد ذلك بيع اللحوم البشرية. وقد جرت العادة كل يوم سبت أن الذى يفوز فى الرهان أو فى اليانصيب يفوز بهذه الفتاة «زؤيه» . ـ أى صوفيا لورين ـ وكلمة زؤية هذه كلمة يونانية معناها : الحياة ـ وربما كانت هذه التسمية هى الشىء الوحيد الذى يذكرنا بالأديب بوكاتشيو .. الذى كان يستخدم الألفاظ اليونانية ، كما كان يفعل أدباء عصر النهضة فى إيطاليا ـ وتوزع تذاكر الرهان على المواطنين . وكل واحد ـ طبعا ـ يتمنى أن يفوز بصوفيا لورين ليلة .. ويذهب الفلاحون لرؤية صوفيا لورين ويطلبون إليها أن تعرض أى شىء من جسمها ما داموا سيفوزن بها يوم السبت .. ولكنها ترفض .. وتقاوم . وتصر على أن اطلاق النار يستمر ويجرى سحب اليانصيب ويفوز واحد من رجال الكنيسة .. ويثور الناس على هذا المحظوظ ويذهبون فى إحدى الجنازات ليزفوا إليه هذا النبأ .. ويحاولوا أن يشتروا منه التذكرة ليحلوا محله .. ويرفض وتجرى مزايدة على ثمن التذكرة .. ولكن رجل الكنيسة يرفض وتجىء أمه ـ أم رجل الدين ـ وتطلب إليه أن يذهب

وينبسط .. وفى هذه الأثناء ترفض صوفيا لورين ولكن زوجة صاحب العمل ترجوها .. وتقول لها : إننى حامل .. مريضة .. سأموت .. وتوافق صوفيا لورين . وتنتظر مجىء الفائز وهو رجل قبيح المنظر . بليد . جثة هامدة . ويدخل السيارة الكبيرة التى تعيش فيها صوفيا لورين . وهنا ترى المرارة والقرف والسخرية فى عينى صوفيا لورين . ولكنها فى نفس الوقت لا تدرى ما الذى تفعله . وتطلب إليه أن يقترب منها . ويقترب وتطلب منه أن يقبلها .. وفى هذه اللحظة تتحرك السيارة الكبيرة .. لقد ركب السيارة شاب كانت قد أحبته صوفيا لورين لأول مرة .. ويهرب بالسيارة . وتتساقط صوفيا لورين وهذا الفائز الغلبان . وسيارات المدينة كلها تطارد عربة اللذة هذه .. وفى مكان مهجور يتوقف السائق الولهان .. وأمام عجز الفائز على أن يفعل شيئا ترفض صوفيا لورين أن تكون له .. وفى نفس الوقت بدلا من أن تأخذ كل ما معه من فلوس ، أى كل ما كسبه فى الرهان ، تعطيه كل ما عندها من فلوس .. فلوسها . وفلوس صاحب السيارة .. وكل ما كسبه محل النيشان من أموال . وتعده بأن تعلن للناس جميعا أنه أمضى معها ليلة جميلة .. وشكرها رجل الدين .. وينزل من السيارة وأمام الناس بدأ يفك ياقة القميص والكرافتة وينكش شعره .. وكأن شيئا قد حدث ! .

ويحمله أهل المدينة على الأعناق ويدورون به فى الشوارع يهتفون للرجل البطل . وتعود صوفيا لورين ــ طبعا ــ إلى الشاب الذى أحبته .. وتنتهى القصة والفيلم .

وصوفيا لورين فى هذه القصة ليست فتاة من (إياهن) أبدا . إنها لا تعرض نفسها على الناس .. إنها تخضع لقوانين اللعبة .. أى الرهان . وهى فى نفس الوقت لا تختار واحدا يتقدم إليها . وإنما قوانين اللعبة تفرض عليها المنتصر . الفائز . وهذه اللعبة ليست خاصة بهذه المدينة وحدها . وإنما هى لعبة الدولة كلها .. ففى الدولة آلاف المسابقات والمراهنات . ثم إن صوفيا لورين فتاة

ساذجة ، سمعت كثيرا : أن الوصول إلى الهدف بأية وسيلة لا عيب فيه . وسمعت أيضا : أن الألف جنيه الأولى هى أصعب شىء وبعد ذلك تجىء الألوف من تلقاء نفسها . ثم إن صوفيا لورين عندما أعطت رجل الدين كل أموالها هى ، وكل أموال صاحب العمل . قد أنقذت نفسها .. قد اشترت إنسانيتها واستردت كرامتها . فهى ليست من (إياهن) وإنما فتاة عندها كرامة . فهى ليست لحما يباع ولكنها تعيش فى مجتمع كله منحل وهذا الانحلال له قانون .. وقد انطبق عليها هذا القانون واستطاعت هى أن تقول للقانون : لا .. وبفلوسها .

ودى سيكا هو من رواد المدرسة الواقعية فى إيطاليا . وكل أحداث هذا الفيلم تجرى فى الشارع .. وفى الخارج .. فالقصة الأولى من الفيلم تجرى فى الداخل وفى الخارج والقصة الثانية فى الداخل كلها .. أما القصة الثالثة فكلها فى الخارج ..

وشعار دى سيكا : هو أن أترك الواقع يتكلم إننى أستمع إليه . وأطيل الاستماع والكلمة الأولى والأخيرة له .. ومهمة المخرج فقط هى أن يجرى وراء الواقع ويرسم له فقط العلامات فى الأرض .. فالواقع ليس إلا صورة . مهمة المخرج أن يجد لها البرواز المناسب .

وكنت أتمنى أن يكون هذا الفيلم من أربع قصص . وتكون القصة الرابعة للمخرج الممتاز أنطونيونى .. الذى أخرج فيلم : الليل أو الملل ، والمغامرة ..

وأنطونيونى هذا المخرج الذى يشعر بأن الإنسان ـ وخصوصا فى المدن ـ إنسان غريب .. والمسافة التى بينه وبين الناس .. متباعدة جدا . وأن مشكلة الإنسان هى أن يكون على صلة بالناس . ولكن مهما حاول الإنسان .. فإنه يجد الناس غير راغبين .. الناس فى حالة ملل . إنهم يقرفون من أنفسهم . يقرفون من الصلات والعلاقات ..

إن فلسفة أنطونيونى هى : أن كل ما ليس مرئيا عميقا يجب أن يكون ملونا .. وهو فى .فيلم (الصحراء الحمراء) الذى ظهر له أخيرا قد جعل لون الدنيا كما يراها البطل والبطلة أزرق مثلا فكل مشاعر البطل لا يعرفها أحد . قد جعلها تنعكس على الدنيا حوله .. حتى هذا اللون ليس إلا رأيا يريد أن يقوله البطل .. ولكنه قرفان من أن يقول شيئا يائس من أن يكون له رأى .. إنه الملل نفسه .

لو كانت هناك قصة جنسية رابعة لأنطونيونى لكان هذا الفيلم أعظم وثيقة فنية أهدتها ايطاليا للعالم كله ..

شعار هذا المخرج أنطونيونى وهو واقعى أيضا : أنا لا يطاردنى الواقع ولا أطارده ولا أتغزل فيه ولا أستسلم له .. وإنما فقط أجعله يتثاءب .. تماما ككل الناس فى بيوتهم وفى مكاتبهم .. إن كل إنسان لا يكاد يرى غيره .. حتى يتثاءب .. إنه لا يريد أن ينام .. وإنما هو فقط يتخذ من التثاؤب فرصة لكى يغمض عينيه حتى لا يراك .. وهذا الذى لا يريد أن يراه هو بالضبط ما أريد أن يخرجه على الشاشة .. لكى يراه .. وتراه .. وأراكما معا ..

الحب له تاريخ والمحبون لهم جغرافيا

.. ما الذى يريد أن يقوله هذا الرجل فى كل أعماله الأدبية ؟ .
لو سألته : هل تحب الحب ؟ .
لأجاب : أكرهه ! .
ـ ولماذا ؟ .
ـ لأنه مضيعة للوقت .
ـ إذن ما الذى لا يضيع معه الوقت ؟ .
ـ الحياة .
ـ وهل يعيش الناس بغير حب ..؟ .
ـ بل أن يكون الحب حياتهم ! .
ـ قصدك أن تكون الحياة حبهم ؟ .
ـ هكذا أفضل .
ـ ما الفرق بين المعنيين ؟ .
ـ أنت تضيع وقتى فى مناقشات لفظية .. دعنى .. فأنا على موعد مع فتاة جميلة .
ـ أنت لا تستطيع أن تتمنى ما لا تعرفه .. وما لا تحس به .. فالسعادة شعورى الشخصى !.

ـ إذن .. هل أعتذر عن هذا التدخل فى حياتك ؟ .

ـ من الأفضل أن تؤجل الاعتذار إلى ما بعد .. فليس عندى وقت يتسع للكلام .

ـ سؤال أخيرقبل أن تذهب إلى محبوبتك : ألا يدور بينك وبينها كلام .. ألا تحدثها عن نفسها .. وعن نفسك . هل تقسم بشرفك أنك لن تروى لها كلمة واحدة مما دار بينى وبينك ؟ .

ـ لا أستطيع . لأننى لابد أن أروى لها ذلك ! .

ـ ولماذا ؟ .

ـ لأننى لا أكذب .

ـ فإذا لم تسألك عن شىء ؟ .

ـ سأجد نفسى أتحدث عما دار بيننا .

ـ لماذا ؟ .

ـ لأن المحبين يتحدثون عن كل شىء .

ـ عن السعادة ؟ .

ـ إنهم يشعرون بها فقط .

ـ عن الحب ؟ .

ـ إنهم لا يتحدثون عن الحب .. إننا نحب فقط أما أنتم فتتحدثون عن حبنا .. نحن شعراء الحب .. وكل الناس مؤرخون للحب ! .

ـ وهل شعراء الحب يكرهون تاريخ الحب ؟ .

ـ نعم .. لأن المؤرخين يكذبون .. وهم يخترعون قصصا لا نعرفها .. ويصفون لنا أسماء لا نحبها .. نحن نحب فقط .. هذا كل مانفعله .. أما الحب الذى له أول وله آخر .. وله قواعد وله مبادئ .. فهذا هو الحب الذى لا أحبه .. إننى لا أخضع لقاعدة .. ولا أعرف أحدا من الناس ..

ولا أراهم .. عندما أجلس .. إلى محبوبتى فليس فى الدنيا غيرها .. عندما أستمع إليها .. فالكون كله قد ابتلع لسانه .. لا همس إلا همسها .. لا صوت إلا صوتها .. لا وجه إلا وجهها .. لا سعادة إلا معها .. لا زمن .. لا حاضر .. لا ماض .. لا مستقبل .. لا تاريخ .

ـ ألا تلاحظ أنك رغم حرصك على أن تنطلق إلى محبوبتك قد بقيت معى بعض الوقت ..

ـ لم أكن معك لحظة واحدة .. إننى معها .. فليس حديثى معك إلا حفلة تكريم لها .. إلا تعميقا لشوقى إليها .. إلا محاولة لأن أحفظ كل ما قلته أنت وما قلته أنا لكى أرويه لها .. فالبعد عنها خطيئة .. والحديث إليها اعتراف دائم بالذنب .. وأكبر ذنب أن أكون بعيدا عنها مشغولا بغيرها ..

ـ ومع ذلك تقول إنك تكره الحب .

ـ نعم .. أكره الكلام عن الحب .. لأن الحب حريق وليس دخانا .. لأن الحب قلب حريص على أن ينزف ، وليس عقلا حريصا على أن يعرف !

هذه السطور من «مذكرات ضائعة صغيرة» للأديبة الإيطالية داتشيا ماريانى زوجة الأديب البرتو مورافيا .. والضياع فى عنوان الكتاب صفة للمذكرات .. والكراهية للحب هى التى جعلت بطلة القصة تستغرق فى الحب حتى تغرق .. دون أن تفتح فمها بكلمة كأنها تخشى على نفسها أن تصحو من حبها ..

وإذا كانت الكراهية للحب قد جاءت سطورا أو صفحات قليلة فى هذا الكتاب ، فإن الأديب الفرنسى الكبير استندال هو الكاره الأكبر للحب . وليست أعماله الأدبية المعروفة إلا تأكيدا لهذا المعنى . فقد صدر لاستندال كتاب معروف اسمه «الحب» أو «شىء من الحب» منذ أكثر من قرن ونصف قرن . ولكن هذا الكتاب قد أعيد طبعه أكثر من سبعين مرة . وأحدث نسخة لهذا

الكتاب قد صدرت فى أوائل هذا العام . وفى المقدمة أن الأديب استندال (١٧٨٣ ـ ١٨٤٢) لا يزال جديدا . وأن لعناته التى صبها بأناقة على المرأة الفرنسية وعلى الرجل الفرنسى وعلى الحب نفسه ، ما تزال ذات دوى جارح ..

واستندال لا يستعرض الحب لأن تاريخ الحب هو تاريخ الكراهية . وإن كان الحب قد عاش قبل الكراهية بدقائق فقط ! .

ولكن استندال يتحدث عن الحب فى البلاد الأوروبية . وفى الشرق ، فهو ـ إذن ـ يتحدث عن جغرافية المحبين .. أشكالهم وألوانهم وأحجامهم وعطورهم وأزيائهم . وكيف يحبون وكيف يعجزون عن الحب .

وهو لا يتعب من الهجوم العنيف على المرأة الفرنسية .. فالرجل الفرنسى لا يملك إلا غروره ولذلك فهو يفضل المرأة التى تطارده ، على المرأة التى يطارها . فإذا طاردها فمن الواجب أن يكون الاستسلام السريع مكافأة على ذلك . وأكثر النساء يرفضن أن يكن ضحايا رخيصات لرجل لا يملك إلا النفخة الكاذبة . ولذلك انتقم الرجل الفرنسى من المرأة الفرنسية فاتجه إلى الغانيات .. أو اتجه إلى المرأة الفقيرة التى طحنتها ضرورات الحياة ، ولم يتسع وقتها لكى تتعلم أو لكى يكون عندها كبرياء .. فهى شديدة الحيوية فقط .

والغرور الفرنسى يجعل الرجل لا يتحدث بصراحة عن رغباته الجنسية المتعطشة . فهو يرى أن العار هو أن يقول إنه جائع إلى شيء . ولذلك كانت الغانيات أسهل أنواع الطعام أما إذا رفضت إحدى الغانيات رجلا فرنسيا فلن ينسى لها ذلك . ولكن الذى يقوله لأصدقائه هو نوع من «الفشر» الذى يعرفه الرجال والنساء أيضا .. فهو يقول إنه هو الذى تركها عند قدميه .. وعندما نهضت اصطدم رأسها بالباب الذى أغلقه فى وجهها بعنف ! .

وإذا كانت الحرارة الإيطالية والسماء الصريحة تذيب الجليد فى إيطاليا ، فإن البرود والحزن هما شعار القلوب الفرنسية ـ وكل ما ينقص الإيطاليين هو أن

« يجدوا » الفرصة ولكن الذى ينقص الفرنسيين هو « الرغبة » فى انتهاز الفرصة !

وفرنسا هى « الصالون الأدبى » لأوروبا كلها .. ولذلك فالفرنسيون أساتذة الكلام .. وفى البيت وفى الشارع وفى البرلمان .. ولكنهم لا يعرفون الشرف الحقيقى . إنهم يعرفون الشرف الكاذب . فهم يخافون من الناس .. يخافون من المجتمع . وهذا الخوف يجعلهم يذبحون ألوف القلوب الصغيرة على مذبح الثرثرة . والفرنسيون يحبون الثرثرة وهم ضحاياها أيضا .

ويرى الفرنسى أنه من العار أن ينفرد بنفسه ، مع أن الحب هو وحده الذى يحب العزلة . ففى العزلة يرى ويسمع ويقول ويحلم ويعيش مع محبوبته !.

أما فى إيطاليا .. فالرجل الايطالى لا يسأل أبدا : عن رأى الناس فى حياته الخاصة . أو فى سعادته فالسعادة هى الفاكهة فى فمه والموسيقى فى أذنه والفتاة بين أحضانه وهى اللحظة الحارة الخاطفة التى يجدها ..

ولكن الفرنسيين لأنهم يهتمون برأى الجار وجار الجار ، فمن النادر أن يتزوجوا عن حب لأن الحب فضيحة . وهم يخافون الفضيحة لأن الفضيحة هى محكمة شعبية تصدر أحكامها على الناس كل لحظة . والفرنسيون يفضلون البراءة الكاذبة على الجريمة الشريفة ! .

وأما ايطاليا فهى بلد الاستغراق فى الراحة ، تحت سماء صافية .. وكل المشاعر مفتوحة لاستقبال كل ما هو جميل .. والايطاليون يقبلون على الحب وهم يعرفونه . فمن المألوف أن تسمع فى ايطاليا من ينظر إلى أحد العشاق ويقول له : سوف تتعذب شهرا أو شهرين ثم تستريح بعد ذلك ! .

وإذا كانت المرأة الفرنسية رائعة لمدة ثلاثة أيام ومروعة فى اليوم الرابع ، فإن المرأة الايطالية أروع من ذلك بكثير .. ومع المرأة الفرنسية لا تجد السعادة وإنما تجد نوعا آخر من الامتلاء اسمه الشبع .. وليس بعد الشبع إلا الهرب ! .

وفى انجلترا يتباهى الرجل الانجليزى بأن زوجته مطيعة .. ولكن من الذى لا يمل عبدا مطيعا ؟ .

وأكبر دليل على أن الرجل قد مل طاعة الزوجة هو إسرافه فى الشراب .. فالرجل الذى يسرف فى الشراب هو رجل هارب من الروتين اليومى والطاعة البليدة . إنه يحاول أن يثير نفسه ليثور فيحطم كل ما حوله .. وأول ما يحطمه هو جمود السيدة حرمه . ثم إن هؤلاء الإنجليز يركبون خيولهم ساعات طويلة فى اليوم . وبذلك فهم أصحاب سيقان قوية وقلوب جامدة . ولهذا فهم حريصون على أن تكون زوجاتهم أرق عودا ، وأنعم ساقا وأقل حركة ! .

والمرأة الايطالية لا تحب المشى .. والذى تمشيه الإيطالية فى سنة تمشيه الانجليزية فى أسبوع .

والإيطالية ليست فى حاجة إلى المشى ، لأن ما تريده تستطيع أن تفعله وهى جالسة ..

والرجل الانجليزى قد رسم لنفسه صورة فى عين المرأة وهو لا يريد أن يخلع هذه الصورة لأنه حريص على أن يبدو مهذبا .. جنتلمان . ولذلك فالمرأة الإنجليزية تحرص على أن تكون مهذبة .. وأفضل لها أن تموت من العطش على أن تطلب كوب ماء .. وهى أيضا تفضل أن تحتفظ بفستانها القديم ، كما يحتفظ هو ببنطلونه المرقع جيلا بعد جيل ، على أن تكون كالفرنسية التى تغير كل يوم فستانا والتى ترى أن منتهى العقل هو أن تمشى وراء الموضة المجنونة ! .

ولابد أن هذا النوع من الحياة يناسب الانجليز ، وإلا فما سر هذا العدد الكبير من العظماء فى كل مجالات الفكر والفن والسياسة .. لابد أنهم سعداء – على طريقتهم – وأنا لا أحسدهم على ذلك .. فقد جاءت هذه العظمة من سوء فهمهم للحب والموسيقى ! .

أما فى أسبانيا فقد ولد الحب ليكون أسبانيا .. ليتمدد تحت ظلال أشجار الأندلس ولينتشى برائحة البرتقال والليمون .. وليتعلق بالفساتين السوداء البسيطة وليخرج من الأكمام المزركشة ، وليتكلم من العيون الواسعة العسلية ومن الرموش الطويلة ، وليموت على الوجوه الشاحبة ..

إن الأسبان هم الشعب الوحيد الذى قاوم نابليون .. إنهم شعب لا يعرف إلا الشرف الحقيقى . فقد اقتسموا مع الفرنسيين الشرف : الشرف الحقيقى لهم ، والشرف الكاذب لفرنسا .

وإذا كان الفرنسيون يعيشون على الغرور ، والإيطاليون على الحب والكراهية ، فإن الألمان يعيشون على الخيال . فالألمان عندما يفرغون من مشاكلهم اليومية يتناقشون فى الفلسفة .

وأهم ما فى الفلسفة الألمانية هو الحماس والإيمان . والحماس لأى شىء وطنى . وأهم ما فى الوطنية هو المجد .

وقد حدث أن اثنين من الضباط كانا يقفان وراء مدفع . فانطلقت من جانب العدو قذيفة أصابت أحدهما . ففرح الآخر وقال : سوف أنال ترقية .

ولكن الضابط المصاب نهض قائلا : لم يصبنى .. إنها مرت بجوارى فقط .

وحرص الضابط على الترقية ، قد أنساه الموقف الإنسانى .. وأنساه أن زميلا له وصديقا قد مات ! .

ولكنه المجد العسكرى ! .

وقد حدث أيضا أن رجلا قتل أحد منافسيه فى الحب .. وحكم بالإعدام على هذا الرجل فسارت الفتيات بالملابس البيضاء يلقين عليه الورد . لأنه أحب وأخلص وقتل فى حماس شديد ! .

وبسبب هذا الحماس والإيمان الشديد يظهر فى ألمانيا عبقرى كل عشر سنوات ..

وإذا كانت الوصية السادسة من الوصيا العشر تقول : لا تقتل ..فإن الألمان يرفضون هذه الوصية من أجل الوطن ومن أجل مجرد الحماس والإيمان بشىء ! .

وإذا كانت القيود تشعل الحب فإن الحرية تخمده ، وهذا واضح فى أمريكا ..

ففى أمريكا خمود عاطفى .. فالأب من الممكن أن يفاجأ بابنه الذى غاب عشر سنوات . ويستقبله ببرود كأنه انتقل من غرفة إلى غرفة ! .

وهذا الجمود العاطفى لم يقدم لنا كاتبا واحدا عظيما ولا شاعرا عبقريا ولا سياسيا فريدا . ولا موسيقيا خالدا ولا رساما ولا حبا عظيما .

إن السعادة ممكنة فى أمريكا .. ويقول استندال : إنها سعادة ممكنة .. سعادة من نوع منحط من الاهتمامات الإنسانية . لا أستنكرها ولا أتمناها لأحد من الناس ! .

أما فى سويسرا فيكفى أن أضرب هذه الأمثلة العادية وعليك أن تعرف أى نوع من الحب والحياة الزوجية والعلاقات العاطفية يعرفها هؤلاء الناس ..

لقد شكا أحد السويسريين من أن الثعالب قد أفسدت أشجار العنب فاقترح عليه أحد أصدقائه أن يشترى كلبا . فرفض الرجل بشدة قائلا : إن الكلب سيجعل بناتى عوانس .

ولم يفهم الصديق فسأله : ماذا تقصد ! .

فقال الرجل : إن وجود كلب فى الحديقة سيمنع الشبان من التسلل إلى نوافذ غرفة بناتى ! .

ويقال إن ضابطا كبيرا أعجبته فتاة جميلة فسألها إن كان يمكن أن يمضيا الليل سويا .

فقالت الفتاة : يجب أن أستأذن أمي .

وذهبت الفتاة إلى أمها . ووقف الضابط إلى جوار الباب يستمع إلى ما يدور بين الفتاة وأبويها .

فقالت الأم لزوجها : دعها تذهب . أنت تعرفه . أنه رجل وسيم .

وقال الأب : أعرف ذلك . ولكن كنت أفضل أن يكون لك أنت يا عزيزتي ..

ومالت الأم تشكر زوجها على هذه التحية . ثم قالت للفتاة : اذهبي .. ولكن احترسي من البرد ! .

وقال رجل سويسرى لصديقه الفرنسي : إن زوجتي سيدة فاضلة .. إنني أعرف من هم هؤلاء الذين أمضوا معها ليالى الشباب .. ولكنها فضلتني عليهم فى النهاية ! .

أما الحب عند العرب فيرى الأديب الفرنسى استندال أنه أرق وأعمق ما عرفت الإنسانية من حب . وأن الغربيين يشعرون أمامه بأنهم بدائيون وحوش .. فالعرب من البادية كانوا ينصبون خيامهم تحت السماء .. وفى عزلة صافية يولد الحب العفيف . فلم تعرف الإنسانية أن أحدا مات من أجل الحب .. أو أحب حتى مات إلا عند هؤلاء العرب .. عند قبيلة بنى عذرة ..

فأينما ذهب العربي البدوى فهو ضيف على كل إنسان .. فإذا كانت الصحراء واسعة فإن قلوب الناس أوسع .. وإذا كانت الرمال كثيرة ، فكرمهم وسخاؤهم أكثر ..

ولا أحد قد تفوق على العرب فى حياتهم البسيطة . وعلى عشقهم الصادق .

وأهم ما عثر عليه الفرنسيون فى مصر وأتوا به إلى فرنسا وإلى أوربا كلها كتاب «الأغانى» لأبى فرج الأصفهانى . ففى هذا الكتاب تاريخ الشعراء وحياتهم وقصائدهم وتاريخ المطربين والموسيقيين .. والغرب كله لم يكن يدرى شيئا عن ذلك . وليس لديه مثل هذا كله .. والذى يشك فى صحة هذه العبارات فليرجع إلى كتاب «الأغانى» وإلى كتاب «ألف ليلة وليلة» .. وليرجع أيضا إلى كتاب الشاعر التونسى المصرى ابن أبى حجالة صاحب «ديوان الصبابة» ..

ويتحدث استندال عن الشاعر جميل الذى أحب بثينة حتى الموت .. ولما سئل جميل عن سبب الحب حتى الموت قال ما معناه : إن نساء بنى عذرة جميلات وشبابها أطهار ! .

وفى قبيلة بنى عذرة مات ثلاثون من الشعراء العذريين بسبب الحب !

ومن أغرب قصص الحب أن واحدا أحب فتاة مسيحية ، وخاف ألا يلقاها يوم القيامة .. فغير دينه .. وخشيت هى ألا تلقاه يوم القيامة فغيرت دينها .. ومات الاثنان ! .

وفتاة أحبت ابن عمها أيضا وطلبت من يرسم لها صورته وعلقت صورته . وترددت عليها كل يوم تقبلها وتبكى أمامها .. ولما مات الحبيب .. وجدوها ميتة إلى جوار الصورة ! .

ومن أبيات جميل فى محبوبته بثينة :

هى البدر حسنا والنساء كواكب
وشتان ما بين الكواكب والبدر
لقد فضلت حسنا على الناس مثلما
على ألف شهر فضلت ليلة القدر

والعرب هم أول من عرف الحب العذرى وهم أول من علم الإنسانية كلها معنى الفروسية ومعنى الشهامة وأول من عرف أن الشرف هو أن يحب الإنسان حتى الموت .

أن يحب بلا مقابل .

والمقابل الوحيد للحب هو الحب .

.. وإذا كان الحب جريمة اجتماعية فالموت الشريف هو العقوبة التى يدفعها المحب راضيا سعيدا .

ولذلك كان الحب حياة عند العرب ، ولكنه تاريخ حياة عند الفرنسيين ! .

فارس فوق حصان يحترق !

هى نوع غريب من النساء : قوية وزوجها ضعيف أو فيها رجولة وزوجها فيه أنوثة .. أو هى تحب السيطرة وزوجها يحب الهوان .. فالكتب التى صدرت عن الإمبراطورة أوجينى كثيرة جدا .. سواء عنها كفتاة أسبانية أو كامبراطورة لفرنسا .

عندما أعطت يدها لقارئة الكف وهى فى الثانية عشرة من عمرها . قالت القارئة . سوف تعيشين مائة سنة . وتموتين فى الظل بعد أن تدفنى أعز الناس عليك .. وقبل ذلك ستعيشين فى خطر وفى عظمة ! .

وكان رد أوجينى : المهم أن أعيش فى عظمة ! .

وماتت أوجينى سنة ١٩٢٠ عن ٩٤ عاما . بعد أن دفنت ابنها الذى قتل فى حرب الزولو .. وبعد أن دفنت زوجها الامبراطور نابليون أيضا .. ولما ماتت هى دفنت فى نفس الكنيسة التى أقامتها فى بريطانيا .

وأصت أوجينى ألا يدفن أحد فى هذه الكنيسة ، ولم يدفن فيها أحد . وأوجينى دى مونتيخو ـ وهذا هو اسمها الأسبانى ـ ولدت فى غرناطة . والدها كان

ضابطا فى جيش نابليون الأول . أما أمها فهى ابنة القنصل الأمريكى فى مدينة ملقة الأسبانية أيضا . ولسبب غير واضح أدركت أمها وأسرتها أن هذه الفتاة سوف تكون ذات شأن . الفتاة نفسها تقول ذلك . والأحلام التى تراها أمها فى منامها تؤكد ذلك .. فى المدرسة كانت هناك لعبة تشترك فيها الفتيات فكل واحدة تروى ماذا تريد أن تكون عندما تكبر .. وكان من عادة كل فتاة أن تقول : سأكون زوجة وأمًّا لثلاثة أو عشرة من الأبناء. وكان من عادة الفتيات أن يقلن ذلك وهن جالسات وقد أغمضن العيون خجلا .. أو تمثيلا للخجل . ولكن أوجينى كانت تقف على مقعد وتقول : أريد أن أتزوج شابا جميلا غنيا ثم أجعله ملكا على أوربا كلها ! .

وكانت هذه النكتة التقليدية تتكرر كل سنة ! .

وانتقلت أم أوجينى إلى باريس .. ومعها أوجينى وأختها . وكانت باريس كلها تدور حول القصر الملكى حيث الثراء والقوة والأناقة .. وحيث الوجه الامبراطورى لفرنسا وأوروبا . وفى ذلك الوقت كان نابليون العاشق الولهان لعدد كبير من الفتيات والسيدات الفرنسيات والانجليزيات . وكانت النساء يتسابقن على إرضائه ..

وعندما كان نابليون رئيسا لجمهورية فرنسا أقام حفلة فخمة .. وذهبت الآنسة أوجينى مع أمها .. وكانت فى العشرين من عمرها . سمراء فى لون الشاى والورد معا . وشعرها أسود طويل . وصدرها مرفوع ــ أو على الأصح مرتفع فقد كانت أوجينى أول من علم نساء أوربا خلع السوتيان والكورسيه أيضا ــ وكتفاها ناعمتان مستديرتان .. وأصابعها ناعمة ملساء مسحوبة .. وكانت عندما تضطرب تنتفخ وجنتاها ويتحرك لسانها كأنها تحاول ابتلاع شىء فى هدوء حتى لا يراها أحد .

ورآها نابليون . وسأل من هى ؟ قيل له فتاة أسبانية . قال : جميلة ..

قالوا : تحت أمرك . قال : أريد ذلك . قالوا : حالا .. وكان نابليون أسرع من الجميع . واتجه إلى الفتاة التى استمعت إلى قصص نابليون الأول وهى جالسة على ساق الأديب استندال . كما أنها استمعت إلى مغامرات وبطولات نابليون الأول من الأديب مريميه عشيق أمها .. إنها مجنونة بنابليون .. أى نابليون .. ولمس الإمبراطور ذراعها .. وتحركت فى نفسها أحلامها .. إرادتها. وظن الامبراطور عندما رأى اللمعان الغريب فى عينيها أنها على مسافة خطوات من فراشه . ولكن الفتاة أكدت بهدوء قاطع أن المسافة بينهما يشغلها كرسى العرش فقط .. واندهش نابليون .. ولكنه فى نفس الوقت كان سعيدا بهذه المقاومة .. إنها شىء جديد . إنه لأول مرة يشعر أن سلطانه لا يقوى على هذه الفتاة . ولكنه قادر على أن يخطفها بالقوة . وتحدثت باريس .. وامتلأت بالشائعات .. وقيل إن الفتاة صفعت نابليون على خده فى الظلام . وقيل إنه قبل يديها . وقيل إن سيدة ذهبت إليها فى الليل تهددها بالموت إذا اقتربت منه أكثر ! .

ولكن أوجينى إلى جانب أنوثتها الواضحة جدا ، فيها رجولة خفية . فهى تقف منصوبة القوام . وهى تمشى بخطوات واسعة ناشفة . وهى عندما تمد يدها تفردها على آخرها وتضغط بأصبعها على اليد الأخرى وهذا كله غير مألوف . وعندما تركب الحصان فبلا لجام ! وعندما انتقد أحد النبلاء الانجليز طريقتها فى ركوب الحصان . قالت : عندى رد على هذا النقد . ودخلت وأحضرت سكينا وهرب النبيل الانجليزى .. وانتشرت الشائعات فى باريس أن المغامرة الأسبانية قد قتلت أحد الانجليز ودفنته فى حديقة بيتها . ولما سألها نابليون عن ذلك قالت : فى نيتى أن أفعل ذلك ! .

وفى إحدى حفلات نابليون .. اقترب منها الامبراطور ونزع غصنا من الياسمين ولفه حول عنقها . وتحدثت باريس . وقالوا : الامبراطور عانقها علنا . ويقال إنه عضها فى رقبتها أيضا ! .

وفى حفلة أخرى دخلت أوجينى مع أمها ـ وبحثت عن المكان المخصص لها . فجاءت إحدى سيدات البلاط وأجلستها فى مكان بعيد عن نابليون ولاحظ الامبراطور ذلك . فذهب إليها وأجلسها بالقرب من أفراد أسرته . وأثناء العشاء مالت عليها إحدى السيدات تقول لها : ابعدى عنه . هذا إنذار نهائى . وكان رد أوجينى : وإذا لم أفعل . فعادت الأولى تقول : قلت لك ابعدى عن طريقه ! وكان رد أوجينى : بل قولى له يبعد عن طريقى ! .

وعندما استدعاها نابليون لترقص وجدها حزينة . فسألها : مالك ؟ قالت : أهانونى . قال : من هم ؟ قالت : جلالتك تعرف من الذى أهاننى . ولذلك قررت ألا يهيننى أحد بعد اليوم سأرحل . وقال : دون أن ترحلى لن يهينك أحد بعد اليوم . سأتزوجك ! .

وتسلل نابليون وأوجينى بعض الوقت وخرجت الفتاة الأسبانية من الظلام سعيدة .

ولاحظ نساء ورجال القصر أن شيئا غريبا قد حدث لفستانها .. أنه تكرمش أو تكسر.. أو لم يعد مشدودا كما كان . وأصبح الفستان الذى لا يلتصق بالجسم موضة الامبراطورية .. إنه الفستان الذى لا يكترث بالجسم .. أو الذى يحرر الجسم من قيود التزى ! .

وعادت أوجينى إلى أمها فى البيت لتقول لها : عندى خبر هام . أهم خبر فى حياتك . معى رسالة من نابليون لك ..

وراحت تقرأ الرسالة :

«سيدتى مدام مونتيخو..

«منذ وقت طويل أحب ابنتك وقد فكرت كثيرا فى ذلك . ولابد أن أتزوج وقد أصبحت امبراطورا لفرنسا وأريد أن تجلس جوارى على العرش فتاة

جميلة ذكية . ولم أجد أفضل من ابنتك فأرجو أن تقبلى عظيم تحياتى وامتنانى » . والإمضاء طبعا : نابليون ا .

وكان ذلك يوم أول يناير سنة ١٨٥٣ .. وملأت الأم بيتها بالزهور والورد . وظلت ترقب من النافذة مجيء الامبراطور . ولم يحضر أول يناير . ومضى الثانى من يناير فى ضيق .. والثالث فى ملل .. والرابع فى قرف .. والخامس فى توتر شديد .. وجاء فرناند ديلسبس قريب الأم واقترح عليها أن ترحل بهدوء إلى أسبانيا ودون إذن منه . أما عشيق الأم الأديب مريميه والذى كتب عنها قصته المعروفة «كارمن» فكان من رأيه أن تبقى أوجينى فى باريس . فالامبراطور سوف يقيم إحدى الحفلات . ولابد أن يدعوها . وأن يجلسها إلى جواره . وعليها أن تخبره بقرارها وأنها فى حاجة إلى شيء من الراحة .. وجاء موعد الحفلة .. وجاءت الدعوة . وذهبت أوجينى وقد تعلقت فى ذراع المليونير جيمز روتشيلد . وبدأ كل من نساء ورجال الحاشية فى الغمز واللمز والهمس واللمس .. والسعال والعطس .. لقد دخلت أوجينى فى صمت فى قلب مقطوعة موسيقية مهينة . ولكن الامبراطور اقترب وسألها عن صحتها . واعتذر عن التأخير . وأكدت له رغبتها فى مغادرة البلاد . إنها لم تعد قادرة على احتمال النكت والأغانى الخليعة التى تسخر من علاقتها به ..

وفى يوم ٢٢ يناير سنة ١٨٥٣ أعلن الامبراطور زواجه الرسمى منها . وانخفضت البورصة ووقفت باريس على رجل . وأحس الفرنسيون بشيء من الهوان . فقد ضاعت النكت التى اخترعوها ضد أوجينى وأما الأغانى والمونولوجات الساخرة فلم تكن تضحك أحدا من الناس . إن أهل باريس قالوا إن الامبراطورة هى التى اختارت نابليون . وإنها وعدت بأن تجعله زوجا مثاليا . وكان زوجا مثاليا لستة أشهر . وبدأ يعاود حياته العريضة من جديد . ولكن الامبراطورة كانت قد تعلمت بسرعة فن الجاسوسية . فقد نشرت حوله

العيون والآذان .. وكان الامبراطور يندهش كيف كانت زوجته تعرف بالضبط ما الذى قاله الامبراطور فى كل لحظة من لحظات خيانته لها .. وفى إحدى المرات قالت : لم أكن أتصور أنك تقبل الأيدى التى لا تضع عطرا بين أصابعها .. كنت أظن أنك تفضل الأيدى القذرة بين الرجال فقط ! .

وفى مرة أخرى قالت له : إذا كانت هذه المرأة لا تضع السوتيان فلابد أنها تعمل هنا فى هذا القصر. فأنا أول من خلع القيد الشديد على الصدر . فمن هى ؟ .

وكانت فعلا احدى وصيفات القصر وأنجبت له ولى العهد سنة ١٨٥٦ .. وكان من عادة نابليون أن يأخذ بعض الدوسيهات إلى فراشه وكان يترك الدوسيهات ملقاة على الأرض وينام . وتعلمت أوجينى أن تقلب الدوسيهات . وكان يضحك لهذا الاهتمام السخيف بالحكم وبالعدالة ـ وفى أحد الأيام فوجئ بعدد كبير من الرجال فى داخل القصر . وسأل : من هؤلاء الناس فقيل له : ضيوف الامبراطورة ! .

ودخل القاعة حيث يجلسون . واكتشف أن الامبراطورة قد استدعت عشرة من الخبراء تطلب إليهم أن يفهموها الميزانية . فهى تريد أن تفهم . وكانت أقدر على فهم شئون الحكم والإدارة والسياسة من الامبراطور. وكانت أعمق فهما للدين من الامبراطور وربما كان إيمانها الشديد بالكاثوليكية هو الذى جعل العلاقة بين التاج والفاتيكان أقوى وأهدأ . وكان من رأيها أنه من الصعب أن يكون الإنسان ملكا وأن يكون عادلا . فالعدل صفة من صفات الله .. والعدل شرف يدعيه الملوك .. أو العدل كالشرف يدعيه الملوك أيضا ! .

وعندما يغيب نابليون عن باريس كانت هى الامبراطور. وقد حدث ذلك عدة مرات فى سنوات ١٨٥٩ و ١٨٦٥ و ١٨٧٠ ..

وأوجينى هذه ذكية جدا وعصبية جدا . ولذلك فهى سريعة الملل . ومن المؤكد أنها هى التى علمت نساء القصر أن يتكلمن بسرعة . فهى تريد أن تعرف بسرعة وفى إيجاز ولذلك انتشرت موضة الكلام السريع بين النساء . وأصبحت الموضة أن تقول المرأة كلاما مبهما وعلى الرجل أن يفهم بعد ذلك . وهذه السرعة فى الكلام والسرعة فى ارتداء الملابس وخلعها .. قد دفعتها إلى التخلص من كثير من الأربطة التى تشد الصدر والخصر والأرداف .

وهى صاحبة العبارة المشهورة التى تقول : إن فستان المرأة يجب أن يكون مثل ستارة المسرح يعلو ويهبط كثيرا وبسهولة فى كل يوم .. ! .

أما المشروعات الاقتصادية فكانت صداقتها لأسرة روتشليد اليهودية هى التى جعلتها تتجه إلى الشرق الأوسط وإلى المكسيك أيضا .

فى إحدى المرات فوجئت وهى تحمل مظلتها بشاب يتقدم منها . إنه شديد الأدب وجميل الملامح . وتذكرته فورا . إنه أسبانى وكان أول من رقص معها فى حفلة عيد ميلادها السادس عشر فى مدريد . حدثها عن المجد الذى يمكن أن ينتظر فرنسا إذا بعثت بقواتها إلى المكسيك والقضاء على الفساد هناك .. وقال لها : إن نابليون الثالث يحمل اسم نابليون أيضا . ويجب أن تكون له أمجاده التاريخية ..

ولعبت الفكرة برأسها طويلا . وانتقل اللعب إلى رأس الامبراطور .. وإلى رءوس عشرات القواد ...

وانتقل إلى المكسيك عشرات الألوف من الفرنسيين .. والمصريين أيضا . واحتلوا المكسيك . وكانت الكارثة الكبرى على فرنسا .

وفى المعرض الدولى الذى أقيم بباريس التقت أوجينى بالمستشار الألمانى بسمارك ونظرت إليه بعين فاحصة . فسألها : مولاتى تأمر بماذا ؟ .

فقالت : بأى شىء تظن أننى سآمرك ؟ .
وأجاب بسمارك : بالجلوس .
فقالت : لا
وقال : بالوقوف .
قالت : بالمزيد من الحب بين الشعوب .
وضحك بسمارك قائلا : أى بالانصراف .
وكانت الحرب بين بروسيا وفرنسا وأطاحت بالامبراطورية الثانية وهربت الامبراطورة إلى انجلترا .

ولحقها الامبراطور نابليون ومات هناك سنة ١٨٧٣ .
أما الاهتمام بالشرق الأوسط فقد استمعت إلى قضاياه ومشاكله من قريبها فردناند ديلسبس. كان مع عروسه .. هو فى الرابعة والستين وعروسه فى العشرين . وقد أنجب منها بعد ذلك اثنى عشر ولدا .

وبلغ اهتمامها قمته عندما قررت أن تجىء إلى مصر لتشهد افتتاح قناة السويس فى نوفمبر سنة ١٨٦٩ وجاءت إلى مصر يوم ٥ نوفمبر من الاسكندرية إلى القاهرة . ثم اتجهت إلى الصعيد لتشهد آثار الأقصر وأسوان وكان يرافقها الأثرى الكبير ماريبت . وهو الذى شرح لها معنى وقوف المرأة المصرية القديمة إلى جوار زوجها الملك ولماذا هى التى تحتضنه دائما . « نفس الملحوظة أبدتها الأديبة الفرنسية سيمون دى بوفوار عندما جاءت إلى القاهرة منذ سنوات » وكان من رأى ماريبت أن الرجل رجل .. أى أنه فى المقدمة وأن المرأة يجب أن تتمسك به .. وعلى الرجل أن يحبها ويحميها . وفى تلك الليلة قررت أوجينى أن تفعل شيئا فأرسلت برقية إلى زوجها الامبراطور تقول له : إنها تحبه رغم كل شىء . إن المرأة الفرعونية قد علمتها ذلك . وأنه من الممكن أن يتعلم هو ذلك من الرجل الفرعونى .

أما الرجل الذكى الذى كان يحكم مصر فى ذلك الوقت فهو مختلف جدا عن الرجل الفرعونى وعن الامبراطور الفرنسى إنه الخديو اسماعيل الذى أقام للامبراطورة قصرا فى الزمالك ـ مكان فندق عمر الخيام الآن ـ وفى القصر بنى لها عش غرام صغيرا . وكان الخديو يداعبها ويغازلها أمام كل الملوك والأمراء . وكان يقول لها : أنت فى رشاقة الغزال وجماله وحيويته .

وتساءلت الامبراطورة عن هذا الغزال .

وانتهز الخديو هذه الفرصة ليجعلها تتفرج على الغزال فى حديقة الحيوان ... ثم أتى لها بالغزلان فى قصرها لترى وجه الشبه بينها وبين الغزلان . واستراحت الامبراطورة إلى المعنى الجميل الذى قصده الخديو ... وعندما حدثها عن شفتيها وعن العطر الذى يفوح منها ، وعن أذنيها ، وعن عنقها ، وعن صدرها .. أما شعرها فإنه لم يجد له شبيها .. ورأت أوجينى أن الخديو كأى شرقى مبالغ فى كل شىء .. وأن هذا الإسراف فى المدح مثل أى شىء آخر .. إنه يشبه موائد الطعام الفخمة التى يقدمها لأربعين وتكفى ألوفا من الناس .

وفى إحدى الليالى بعث الخديو للامبراطورة أنه يريد أن يزورها فى قصرها ... وجعل موعد الزيارة ليلا .. وأدركت الامبراطورة أن الخديو قد تجاوز حدود اللياقة . فجمعت حاشيتها كلها من النساء وانتظرن الخديو . وتضايق الخديو اسماعيل .. واستمرت الزيارة نصف ساعة وخرج ولم يعد . ولكنه لم ينس . ولم يكف عن الإسراف فى المديح أيضا .

وفى الليل جاءها قسيسها الخاص واسمه باور وهو من أصل مجرى يهودى . وكان قبل ذلك رساما وموسيقيا وبحارا . وكان يعرف اللغة العربية أيضا . وكان يحدثها عن جمال المرأة المصرية . وكان شديد الأناقة لدرجة لا تليق برجل الدين .. وقد شوهد هذا القسيس المعجب يعاكس الفتيات المصريات . وقد بلغ الامبراطورة ذلك .

ولما سألته قال : أريد أن أختار لك مجموعة من الفتيات لترى الجمال المصرى الحقيق .

ولم تسترح الامبراطورة لذلك .. ولا الخديو اسماعيل .

وكان القسيس اليهودى من أقدر الناس على قراءة الكف . فاستأذن الامبراطورة فى أن يقرأ كفها . وقال لها : مولاتى يجب أن تعودى إلى فرنسا حالا .. فهناك أنباء غير سارة تنتظرك .

وغضبت الامبراطورة . وطردته بأدب . ولكن بعد ساعة جاءت برقية من الامبراطور يطلب إليها العودة فقد تضايق من سلوك الخديو اسماعيل . وتضايق من أنها تمادت فى تشجيعه . وأن باريس تتحدث عن غرام جديد بين الوالى المصرى والامبراطورة .

وعادت الامبراطورة وتوالت الكوارث على علاقتها مع الامبراطور . وتأزمت الأحوال السياسية الداخلية والخارجية حتى كانت الحرب السبعينية وتوالت هزائم القوات الفرنسية وخرج نابليون وخرجت الامبراطورة من فرنسا .. وسارا فى نفس الطريق الذى سار فيه نابليون الأول سنة ١٨١٥ .

وقالت أوجينى ما يقال فى هذه المناسبة : إن تاريخ فرنسا يعيد نفسه .. بل لقد مضى على فرنسا قرن من الزمان وحكامها يهربون إلى الخارج .

وفى انجلترا نزلت أوجينى ضيفة على الملكة فكتوريا ثم قررت الامبراطورة أن تكون لها حياة خاصة .

وكانت لها حياة خاصة .. وبعد أن مات زوجها وبعد أن قتل ابنها قررت أن تبنى لنفسها أحد الأديرة .. وتأوى إليه .. وتقدمت لها دور النشر تطلب مذكراتها . وكانت ترفض قائلة : كل المذكرات كذب .. وأنا لا أحسن الكذب .. ولذلك أترك هذه المهمة لعشرات الناس يكتبون ذلك ويقدرون عليه ! .

وفى أحد أيام الدير ، فوجئت بالقسيس اليهودى وقد تزوج فتاة يهودية أصغر منه بأربعين عاما . وفوجئت مرة أخرى بأنه عاد إلى الديانة اليهودية وأنه يعمل فى بنك روتشيلد فى لندن ! .

لقد كان جاسوسا على الامبراطورة ! .

ويقال إن المذكرات الخاصة بالامبراطورة أوجينى والتى نشرتها الصحف ثم كذبتها هى كانت من تأليف هذا القسيس اليهودى . ومعظم وقائعها صادقة ولم تشأ أن تكذبها ! .

وفى آخر أيام الامبراطورة أوجينى كانت تتحدث كثيرا عن معاهدة فرساى سنة ١٩١٩ .. وعن رأيها فى المتفاوضين .. ثم أصيبت بشىء من الجنون . مما اضطر بعض رجال الدين إلى أن يغلقوا عليها الأبواب .. ولكنها كانت تصرخ وتقول : لا أريد أن أموت هكذا .. ضعونى فوق ظهر حصان يحترق ! واتركوه يغرق فى المحيط ! .

وقبل أن يحترق الحصان .. اختفت الامبراطورية وظهرت الجمهورية . ولم تمت فرنسا .. وإنما مات وسقط وشنق حكامها ! .

وعندما كانت أوجينى على فراش الموت طلبت أحد رجال الدين وسألته : هل أنت من أصل يهودى ؟

فاندهش القسيس وقال : لا .. وعادت تسأله : ولا زوجتك ! .
فقال : لا ..
قالت : اطلب لى الرحمة ياأبى ! .
وطلب لها الرحمة .. ثم نشر هذا الحديث ! .

وراء كل عظيم: فتاة مراهقة

الفرنسيون الذين ثاروا من أجل الخبز ، فازوا بالقبلات . وكل شىء فى فرنسا يبدأ بالقبلات ولم يحدث أن اتخذ أى عظيم قرارا قبل أن يأوى إلى فراشه الجميل . فإذا نهض من فراشه كان القرار جاهزا وكانت شريكته فى الفراش هى صاحبة القرار .

ولم يحدث إسراف فى الدم وفى القبلات كما حدث بين ١٧٨٩ ، ١٧٩٣ وهى كل أعوام الثورة والإرهاب . ففى مواجهة الخوف تعانق الناس . وفى مواجهة الموت تمسك الناس بالحياة وفى مواجهة الرءوس التى تتساقط من المشانق كانت تهتز قلوب النساء الصغيرات .

فالمرأة ترتعش أمام الدم ولا تخاف منه . فهى تعرفه كل شهر . ولكن منظر الدم وإعدام الرجال كان يثيرها . وحول المشانق أقيمت حفلات الرقص .. واختلط الدم بالنبيذ . وذابت الفوارق بين الرجال والنساء .. الفقراء والأغنياء .. العذارى والمحترفات .. فى الشوارع والحدائق والسجون .. وكانت السجون هى أعظم مكان للمتعة . ففى السجون يلتقى أصحاب المبادئ ، ويلتقى الذين يريدون أن تكون لهم مبادئ .. ويلتقون جميعا فى أحضان النساء .

وكل شىء كان يغلى فى فرنسا .. الدم فى عروق الناس .. والناس فى حمامات الدماء .. وأعماق فرنسا تطفو على السطح .. والغانيات أكثر الناس وضوحا وأعلاهن صراخا وأكثرهن مطاردة للجيوش فى كل مكان .. وجاءت

الثورة الفرنسية فأعطت للغانيات شرف المبادئ ، وشهادة الوطنية . وا
الرذيلة أسلوبا سياسيا ..

وابتداء من ثورة ١٧٨٩ أصبحت كل ثورة تمردا ناجحا ، وأصبح
ثورة فاشلة .. وعندما تكون ثورة يتحرر الناس من القيود .. وتحررت ف
قيود الجنس والعائلة وشرف العائلة .. وأحس كل فرنسى أنه لكى
فرنسيا ، ويتشرف بالانتساب إلى فرنسا ، لابد أن يكون خبيرا فى
فالذى لا يعرف كيف يحب كثيرا ، ليس فرنسيا والذى لا يعرف أ
امرأة . إحداهما زوجته ، ليس فرنسيا .. ويوم يشعر الأب أن أحـ
لا يعرف إلا امرأة واحدة ، فإنه يتعجل زواجه وإذا تزوج فإنه يتعجل
لزوجته .. فإذا خانها شعر بالارتياح ومضى هو أيضا إلى سرير الخ

ولذلك من الطبيعى أن يكون الرجل الذى اسمه دوق أورليانز تعيس
علم أن ابنه الأكبر ليست له تجارب .. وهذه إهانة لفرنسا . وإهانة
المالكة الفرنسية . فهذا الدوق هو رئيس مجلس البلاط وهو الحاكم
لفرنسا . وليس بعيدا أن يكون ابنه ملكا بعد ذلك فكيف يكون ملكا و
فرنسيا أصيلا .. ولذلك قرر الدوق أن يبحث عن طريقة عملية ليك
رجلا وبسرعة .

وفى يوم ٢ مايو سنة ١٧٦٦ أرسل أحد رجال القصر إلى دار الأوبرا
رسالة موجهة إلى راقصة عمرها ١٥ سنة اسمها : روزالى . وقيل إن هذ
ذات شأن خطير فى فنون الحب . وقد سمع الدوق عشرات من قصصها
من شباب البلاط .

وفى اليوم التالى وقفت روزالى هذه أمام القصر المالكى . فرآه
الحراس . وقبل أن يسألها قالت أنا على موعد مع الدوق .. إنه ينتظرنى .
الحارس إلى وجهها وانزلق إلى صدرها وقبل أن يقول كلمة واحدة كانت

قد دخلت القصر. واتجهت إلى غرفة الدوق .

ووقف الدوق وانحنى . وسلم وقبل يد الفتاة ـ أقصى درجات الأدب والرقة ـ وقال لها : أنت تعرفين لماذا استدعيناك ! قالت الفتاة : لا أعرف . ولكن فى استطاعتى أن أقوم بأية خدمة تراها . قال الدوق : إنها مشكلة ابنى . لا يعرف شيئا من متعة الحب . وأنا مستعجل جدا . وكل شىء بثمن . وإذا نجحت أعطيتك ما تريدين .

وبكل ثقة واضحة طلبت الفتاة أن ترى ذلك الشاب الذى سيغير ملامح التاريخ الفرنسى . وفرح الدوق . واستدعى ابنه الأمير فيليب . الذى اشتهر بعد ذلك باسم فيليب بطل المساواة .

واختفى الأمير والفتاة فى احدى الغرف . ولم تضع روزالى وقتها . وبدأت فى الدروس العملية للحب .. ولابد أنها وجدت صعوبة أول الأمر . لكن تلاشت الصعوبات بعد ذلك .. درسا درسا . ولعبة وراء لعبة ..

ولم يمض سوى أسبوع حتى جاءت الفتاة تطلب المكافأة وقال لها الدوق أنا أعرف قدراتك الخارقة .

وبدأ الدوق يرقب الأمير من بعيد وشعر بالسعادة . واستراح إلى مستقبل ابنه . ولما لاحظ الدوق أن ابنه قد أسرف جدا فى الشهور التالية قرر أن يزوجه بسرعة واختار أبوه إحدى الأميرات من حفيدات الملك لويس ١٤ من عشيقته مدام مونتسبان . وكانت هذه الفتاة من أسرة غنية جدا . وتم الزواج يوم ١٥ أبريل سنة ١٧٦٩ . إذن لقد أصبح الأمير زوجا . ومن الطبيعى بعد ذلك أن يخون زوجته .

وتم الزواج بالطريقة التقليدية التى كانت معروفة فى ذلك الوقت : دخل العروسان فى غرفة النوم ونزع الاثنان ملابسها تماما وتمددا تحت اللحاف . وجاء أفراد الأسرة المالكة يشهدون هذا الزواج . وجاء رجال الدين يباركون العروسين

ويدورون حول السرير.. ويتعانق العروسان وسط ضحكات أقارب العروسين.. وبعد ذلك يغلقون على العروسين الباب. وتبدأ الحياة الزوجية.. وفى اليوم الثالث للزواج ذهبت العروس مع زوجها إلى دار الأوبرا. لاحظت أن عددا كبيرا من الفتيات يرتدين الملابس السوداء. وسألت زوجها: ولماذا تجىء النساء بملابس الحداد إلى الأوبرا!.

ولم يشأ زوجها أمير المساواة أن يقول لها إن هؤلاء الفتيات عضوات فى جمعية «الأرامل المرحات» وهذه الجمعية تضم عددا من شبان باريس يتزعمهم الأمير فيليب. وهؤلاء الشبان يشربون ويرقصون ويمارسون ألوانا شاذة من الحب كل ليلة. وقرر أعضاء الجمعية أن يذهبوا إلى الأوبرا ليروا زوجة الأمير. لكى يقيموا فى الليل حفلة تأبين حمراء ـ حدادا على زعيم الجمعية!.

وبسبب هجر الأمير المستمر لزوجته، وبسبب ما أصابه من إرهاق شديد، لم تكن زوجته تنجب أطفالا فقررت الزوجة أن تستحم فى مياه أحد الينابيع التى اشتهرت بأنها تملأ البطون بالأطفال. وذهبت الأميرة واستحمت وحملت. وأنجبت طفلا. ودخلت القصر إحدى الوصيفات لتعنى بهذا الطفل. وتعلق الأمير بهذه الوصيفة. وبسرعة أصبحت إحدى عشيقاته. وكانت هذه العشيقة من هواة الأدب والشعر ـ وكانت زوجة ـ ولكنها رأت أن تحقق أحلامها ومثلها العليا عن طريق هذا الأمير. وكانت هذه الفتاة ثورية وكانت ساخطة. وملأت الأمير بالسخط على الأسرة المالكة..

وكان هذا الأمير شخصا غريبا فقد كان فى نية الطبيعة أن تجعله رجلا كامل الرجولة ولكنها غيرت رأيها فى منتصف الطريق. ولذلك حاول ابوه أن يعدل مسار الطبيعة وأن يفرض عليه الرجولة فرضا.. ونجح أبوه إلى حد كبير. ثم جاءت هذه العشيقة التى تبلغ الثامنة عشرة من عمرها وقررت أن ترتبط به وأن تغير به وجه تاريخ فرنسا. وكانت هذه العشيقة على صلة دائما بالمعارضين

للملك . وكانت تعطيهم شعارات مثيرة . وكانت تقرأ عليهم صفحات من فلسفة روسو . وكانت تندس بين المتظاهرين . وكانت تنقل إلى الأمير كل متاعب الشعب . وأصبح هذا الأمير رمزا للساخطين وزعيما للفقراء . وهجرت العشيقة زوجها وهجر الأمير زوجته . وعاش العاشقان معا يكتبان المنشورات ويوزعانها .. ونفاه الملك . ولكنه عاد مرة أخرى .. ولم يكد يعود إلى باريس حتى كانت الثورة الفرنسية قد استعرت نيرانها فى كل مكان . وعندما حاولت العشيقة أن تجعل منه شهيدا شنقوه ..

وكان الملك لويس ١٦ هو أحد الذين عجلوا بقيام الثورة الفرنسية فقد كان ملكا ضعيفا من كل الوجوه وقد تزوج وعمره ١٦ سنة . وزوجته مارى انطوانيت عمرها ١٥ سنة . وكانت زوجته قوية الشخصية . وكانت مخلصة لوطنها النمسا . وكانت تتلقى تعليمات بلادها من السفير النمسوى فى باريس . وقد عرفت منذ البداية أن زوجها ليس إلا منظرا ولذلك لم تضيع وقتها فقد كان لها أصدقاء من ضباط الحرس الملكى . وكان لها عشيق دبلوسى سويدى اسمه فرسن . ومارى انطوانيت هى صاحبة الجملة المعروفة : لماذا لا تأكلون الكعك — قالت هذه العبارة الخالدة يوم ثار الشعب يطلب الخبز، فظنت بحسن نية وبلاهة ملكية أن الشعب قد زهق من الخبز ويريد طعاما آخر أو لعلها رأت أن الشعب يجد الكعك ويريد طعاما آخر. ولذلك أمرت بأن يأكلوا الكعك بالقوة ولم تكن تعرف أن الشعب لا يريد تغيير الخبز وإنما يريد تغيير الذين يأكلون الكعك ! .

وتحت ضغط الشعب الجائع كان لابد أن يهرب الملك والملكة . وهنا يظهر عشيق الملكة فهو الذى أعد العربة وهو الذى أعد جوازات السفر الروسية المزورة عن طريق عشيقة روسية وعند الحدود انكشفت الحيلة . وعاد الملك والملكة إلى باريس . والذين رافقوا الملكة سمعوها وهى تقول : مسكين حبيبى أرجو ألا يكون قد وقع فى أيديهم ! .

وحبيبها لم يكن الملك طبعا ، وإنما هو هذا السويدى الذى قتله الشعب فى السويد بعد ذلك بعشرين عاما .

ولما عادت الملكة إلى باريس وعرفت أن حبيبها قد نجا بالسلامة فرحت الملكة وأقامت حفلة ساهرة صاخبة ونامت حتى الصباح فى أحضان رئيس الحرس الملكى ! .

وتم تنفيذ الإعدام شنقا فى لويس السادس عشر فى يناير سنة ١٧٩١ .. وفى الملكة فى أكتوبر من نفس العام . ويقال إن لويس السادس عشر كان أكثر شجاعة يوم إعدامه مما كان عليه يوم زواجه .

واستمر الغليان فى باريس .. وذابت الفوارق بين الناس . وساحت الناس أيضا . وانفتحت الأرض تحت أقدام الفرنسيين فخرجت من الشقوق الاجتماعية ألوف الغانيات وتحولن إلى ثوريات وأصبحت الرذيلة نوعا من الهدايا تقدمه النساء للشبان المحاربين . وكانت القوات الثورية تتابعها معسكرات الفتيات اللائى يبذلن أجسامهن من أجل الثورة الفرنسية . وكانت الزوجات يتابعن الأزواج . ولذلك كانت هناك خيام للزوجات قريبة من معسكرات الجيش . وكانت مشكلة صعبة وتحولت المعسكرات إلى فضائح فالرجال لا يريدون زوجاتهم . وفى نفس الوقت لا يستطيعون أن يهربوا إلى العشيقات ..

وتراجعت النساء أمام قرارات عنيفة أصدرتها الثورة الفرنسية وتفرغ الرجال للعشق وتفرغت النساء أيضا . وهربت العشيقات من معسكرات الجيش وعدن إلى الحياة الناعمة فى باريس . ويقال إن فتاة واحدة قد أقامت خيمة بالقرب من أحد المعسكرات . وأطلق الجنود على هذه الفتاة اسم سيدة الأربعين ألف رجل .. وماتت هذه السيدة قبل أن تكمل الألف رجل ! .

وكان من المألوف أن تمشى النساء وراء الرجال إلى أى مكان . وأن يكون الحب فى أى وقت وفى أى مكان . وقد حدث أن عانق أحد زعماء الجمعية

الوطنية فتاة فى إحدى الغرف .. ولم يسترح بعض الأعضاء لذلك . وكان رد الزعيم : إننا لم نقم بالثورة إلا من أجل هذا .. فلا فارق بين هذه الغرفة وأية غرفة أخرى ـ فكلها فرنسا الحرة !.

وزعماء الثورة الفرنسية كانوا شبانا . وكانت نار الشباب تلسعهم وتكوى بهم الفتيات أيضا .

فالثائر الرهيب «مارا» كان قد درس الطب فى انجلترا . ومارسه فى فرنسا . ولما قامت الثورة الفرنسية قرر أن يتجه إلى السياسة . ورأى أن السياسة هى طب الشعوب . والثورة هى حمامها الساخن ونارها المطهرة . وتحول بسرعة إلى صاحب صحيفة اسمها «صديق الشعب» وفى هذه الصحيفة كان يطالب بمزيد من الدماء والقتل . وكان يقول إن هناك مئات الرءوس يجب أن تطير قبل أن يستريح الشعب . فالشعب جسم سليم ورءوسه مريضة مختلة .

وكان لابد من اعتقاله.. فهرب واختفى فى الغابات. وفى كثير من البيوت..

وفى إحدى المرات أوصته عشيقة بأن يذهب إلى بيت إحدى قريباتها فى باريس . وذهب ودق الباب . وكانت الفتاة الصغيرة تعرف ذلك . عمرها ١٧ سنة . وأحبها . وأحبته وكانا عشيقين ، وكان يملى عليها مقالاته . وكانت تذهب بالمقالات إلى المطبعة وفى يوم من الأيام قرر الاثنان أن يتزوجا . وأمام النافذة المفتوحة وتحت شعاعات الشمس التى تتسلل من وراء الأشجار قال لها : أنت زوجتى على سنة الطبيعة .

ولكن خصوم مارا يطالبون بإعدام هذا «الألمانى» السفاح . لأنه من أصل ألمانى . ولكنه مضى يطالب بالكثير من الدماء . ويرى أن الدماء هى الماء الطبيعى الذى يروى الأفكار ، الدم هو النار السائلة التى ينضج فيها الوعى الشعبى ..

وفى هذه الأثناء جاءت فتاة من الريف. فتاة فى أحد الاديرة ولم يكن مسموحا

فى ذلك الوقت أن تدخل الدير فتاة عذراء. فالدير للزوجات النادمات وللأرامل . ولكن الملك أصدر مرسوما بإدخالها الدير . وخرجت من الدير بعد أن كرهت هذه الحياة . وبعد أن وجدت أن الأديرة لا تختلف كثيرا عن شوارع باريس . وكانت هذه الفتاة من أنصار الملكية . ولكن ليست من أنصار الملك . وكانت تقرأ باستياء شديد كل مقالات الزعيم السياسى مارا .. وقررت أن تفعل شيئا يريحها . وأخبرت والدها أنها سوف تهاجر إلى انجلترا . وسافرت إلى باريس واشترت سكينا من أحد المتاجر . وعرفت عنوان مارا . وذهبت لتدق الباب فتعترضها زوجة مارا قائلة . ولماذا تريدين المواطن مارا ؟ .

وقالت الفتاة واسمها شارلوت كورداى : عندى أخبار تهمه .

وقالت الزوجة : إنه مشغول الآن .. ولا يقابل أحدا .

وخرجت شارلوت لتكتب له خطابا بالبريد . وتقول فى خطابها إن لديها معلومات عن بعض الثوريين الهاربين فى شمال فرنسا ، وكان موضوعا يشغل بال الزعيم مارا . وبعد يومين عادت شارلوت تدق الباب واستمع مارا إلى المناقشة الصاخبة بين زوجته وبين شارلوت وقال : دعيها تدخل ! .

ودخلت شارلوت .. ووجدت مارا جالسا فى حوض به ماء ساخن . فقد أصابه مرض جلدى . لا علاج له إلا بالماء الساخن . وكان فى نفس الوقت يكتب إحدى مقالاته . وألقى عليها نظرة شرهة وفى نفس الوقت متسائلا : إن كان من الممكن .. وقالت الفتاة : من الممكن أن أكون عشيقتك . إنه شرف عظيم يا سيدى ! . واستراح مارا إلى ذلك . ثم سألها وهو لا يرفع عينيه عن الورق المنشور أمام صدرها وماذا عندك من أخبار .. اذكرى أسماء هؤلاء الناس وأنا سوف أشنقهم جميعا ..

ومد يده إلى القلم ليكتب أسماءهم . وأخرجت السكين من صدرها وأغمدته بعنف فى صدره وصرخ مارا وهو يقول : تقتلينى أنا يا حبيبتى ؟

وجاءت الزوجة وبعض الجيران . بينما وقفت شارلوت تنظر من النافذة وهى تقول : أعتقد أننى أرحت الشعب الفرنسى من هذا السفاح ! .

وفى المحكمة سألها القاضى إن كانت قد تدربت على القتل . فغضبت شارلوت وقالت : إنك تصورنى على أننى سفاحة .. إننى قاتلة فقط ! .

وفى المحكمة يجلس رجل قد جن حبا بشارلوت ، ولم يكد يسمعها تتحدث بهذه الشجاعة حتى قال : بل إننى أفديك يا أجمل فتاة فى فرنسا .. حياتى من أجلك .. اشنقونى بدلا منها .. أخيرا وجدت لحياتى معنى .. أخيرا أستطيع أن أدخل التاريخ ! .

وذهب هذا الرجل إلى السجن .. أما شارلوت فذهبت إلى المقصلة . وقبل أن ينفذ فيها حكم الإعدام قالت للجلاد : بل دعنى أتفرج على المقصلة فأنا لم أرها قبل ذلك ..

وشنقوها .. وجاء دور الرجل الذى أحب شارلوت .. وشنقوه وهو يهتف بحياة الفتاة التى تمنى أن يكون خادما لها .. أما أن يكون زوجها فهذا كثير .. وشنقوه ! .

ولكن مقتل مارا وشنق شارلوت .. أضافا نارا ودما إلى شوارع باريس .. وتعددت الحفلات الراقصة وأسيلت براميل النبيذ . وتعالت صرخات النساء على كل الرءوس التى تسقط حية أو ميتة ..

وسهرت باريس أياما متواصلة بعد أن مات الزعيم ميرابو .. وكان رجلا قوى الشخصية .. خطيبا فصيحا . وهو صاحب العبارة التى تقول : إننا لن نبرح هذا المكان إلا على أسنة الرماح ، وكان يقول هذه العبارة متحديا إرادة الملك . ولم يستخدم الملك الرماح . وإنما بقى أعضاء الجمعية الوطنية مجتمعين فى

مكانهم . ولكن ميرابو هذا كان منافقا عظيما وكان ينفق من جيب الملك . وكان الملك يتولى بانتظام تسديد ديونه ..

وسمع الناس أن ميرابو مريض . وفوجئ الناس بأنه مات وكان موته فرصة عظيمة لتشرب باريس وترقص وتضحك وتقيم حفلات مجنونة اسمها : ليالى ميرابو ..

أما كيف مات .. فقد كان عاشقا لاثنتين من راقصات الأوبرا وكلتاهما فى الثامنة عشرة . وقرر ألا يغضب الاثنتين . وقرر أن يسعد بهما فى ليلة واحدة وفى فراش واحد .. (الخديو اسماعيل مات أيضا وهو يضع فى فمه زجاجتين من الشمبانيا ويقال إن الملك فاروق فعل ذلك !) .

وإحدى الفتاتين اسمها مدام لومباى . أما أوصاف هذه السيدة الصغيرة فقد وردت فى كتاب اسمه (فهرس بأسماء نساء باريس) .. أما أوصافها فهى : ناعمة البشرة صدرها له مستقبل . عيناها تفيان بالوعد . شفتاها مدربتان .. ثم أنها فرنسية بعد ذلك . وتتقاضى خمسة جنيهات ..

ولم يتهم البوليس أحدا بقتل الزعيم ميرابو ..

ولم يكن هذا الذى حدث لميرابو شيئا شاذا وإنما هو يتمشى مع أحسن التقاليد الثورية المعروفة فى ذلك الوقت وهو أنه من الصعب أن يتخذ إنسان قرارا قبل أن ينام مع فتاة جميلة ..

وأخذت باريس تتسلى فى وقت فراغها بين إعدام زعيم وزعيم بقصة جاءت من لندن عن إحدى عشيقات الملك الأسبق وهى مدام دى بارى . هذه السيدة سرقوا فلوسها . وانزعج الفرنسيون فهم لم يعطفوا على السيدة التى سرقت منها مجوهرات تساوى مليون فرنك . وإنما أدركوا أنه من الضرورى أن تكون المرأة عشيقة لتكون غنية . وأن صاحبة هذه المجوهرات يجب أن تحاكم وأن تعدم

وهربت هذه السيدة إلى لندن لتقيم فى أحد قصور عشاقها . وكان القصر (مسكونا) ببعض الأرواح الشريرة . وفى إحدى الليالى تشجع صاحب البيت عندما رأى شبحا فى الظلام ولكنه استمع إلى صوت يقول : أنا أحبك يا حبيبتى ..

وجاء صوت آخر : بل أنا التى أحبك يا أعز الناس .. يا أجمل خائن على الأرض ! .

وكان هذا هو صوت زوجته وهجم الزوج على غرفة مقفلة فوجد زوجته وعشيقها ولم يكن هذا الشبح الذى ظهر ثانى يوم زواجه ، إلا عشيق الزوجة .

ولما سمعت مدام دى بارى قصة الزوج المسكين تركت البيت وهى تقول : إن الفرنسيين ليسوا فى حاجة إلى أن يكونوا أشباحا ليخونوا زوجاتهم .. وإن الأشباح فى فرنسا هم الأزواج فقط .. إننى قررت أن أكون شبحا .. دعنى أسافر إلى باريس ..

وسافرت لتكون قصتها هى الشبح الذى يطارد الأزواج فى باريس ..

وسهرت باريس على قصة الأشباح هذه . وظهرت رقصة جديدة اسمها رقصة الأشباح .

وفى ذلك الوقت كان حكم الإرهاب فى فرنسا قد بلغ قمته عندما تخلص الزعيم روبسبير من كل خصومه .

وكان روبسبير شخصا عنيفا داميا . وكانوا يسمونه بالرجل الطاهر . أو الرجل البكر . فهو لم يعرف فتاة فى حياته . وقد قرر ألا تناله فتاة . وكان هذا الرجل أمل كل فتاة . لأنه كان صعبا أو لأنه جعل نفسه صعبا ..

وفى إحدى المرات هرب من البوليس .. وتصادف فى ذلك الوقت أن عاد الملك لويس السادس عشر من الحدود إلى باريس ووقف روبسبير من النافذة

يقول : هذا الرأس سوف يكون له شأن .. لابد أن يطير بعيداً عن فرنسا .

وعندما نزل إلى الشارع اتجه إلى أحد البيوت . وسألته صاحبة البيت :

هل أنت روبسبير؟ أجاب : نعم . قالت : إننى أقدم لك بيتى إذا أردت أن تختبئ فيه .

واختبأ روبسبير فى بيتها . وكانت لهذه السيدة ابنة جميلة جدا . عمرها عشرون عاما . وأقام فى هذا البيت ثلاث سنوات عشيقا للأم وللإبنة معا .

وفى إحدى الليالى استمعت الأم إلى صرخات فى الغرفة التى ينام فيها روبسبير. وذهبت إلى الغرفة تسأل : أيها المواطن روبسبير : هل تصرخ من الألم ؟ .

فأجاب والباب مقفل : بل إنه كان كابوسا ، وتسللت السيدة بسرعة إلى فراش روبسبير. بينما تسللت ابنتها من تحت السرير إلى خارج الغرفة ! .

وعندما عرفت هذه الأم أن روبسبير شنقوه انتحرت .. والمؤرخون لا يعرفون بالضبط إن كان الزعيم الثورى عشيقا للأم أو لابنتها أو للاثنتين معا .. إن انتحار الأم هى آخر محاولة لها لتؤكد أنها هى التى كانت تحبه وهى التى كانت عشيقته !

بل إن السجون الفرنسية كانت من أعجب مسارح الحياة فقد كان هناك سجون للنساء وسجون للرجال . وكانت القضبان الحديدية تفصل بين الاثنين . ولكن من المألوف أن تتم القبلات والعناق بين هذه الحواجز الحديدية .. وكثيرا ما نزعت النساء ملابسهن وتعرين تماما أمام عيون الرجال وكثيرا ما أدت الرشوة إلى جمع الرءوس فى الحلال والحرام بل لم يكن هناك حلال وحرام بل كان كل شىء حلالا ! .

وكانت النساء لا يتوقفن عن مطاردة الرجال والأزواج فى كل سجن .. حتى إن أم الشاعر لامارتين كانت تتدرب على القوس والسهم لكى تتمكن من

إرسال خطاب إلى زوجها فى السجن ثم راحت تتدرب على تسلق الجدران لكى تدخل إليه من النافذة .

وعندما صدر قرار بأن المرأة الحامل لا ينفذ فيها حكم الإعدام رفعت النساء فى السجون شعارا جديدا نريد أن نعيش .. نريد أن نعيش .. نريد الحب من أجل الحياة ! .

وحملت جميع النساء فى السجون ومن السنة الأولى من الثورة الفرنسية بلغ الانحلال أقصى درجاته . وتقدمت بطلب الطلاق من نساء باريس ٨٣٧٠ واحدة من بينهن ٥٩٩٤ زوجة حامل ! .

وكان الشعب الفرنسى ضحية لفلسفة روسو التى تطالب بالعودة إلى الطبيعة وأن يعمل الإنسان كل ما هو طبيعى بصورة طبيعية . وجربت باريس كيف تكون الحياة الطبيعية انحلالا طبيعيا . ولذلك عادت الثورة الفرنسية وأمسكت بروابط الأسرة . وأصدرت القوانين التى تخدم الحياة الزوجية . وتحترم حرية اختيار الزوجة . ووجوب صيانة البيت . وجعلت عيدا للاسرة .. وعيدا للأزواج . ودخل الفرنسيون فى مرحلة الحب والزواج . أو الزواج القائم على الحب . أما الخيانة الزوجية فقد توارت لتكون سرا مخجلا . وأحس الفرنسيون أنه من الممكن أن يكون الإنسان مهذبا فى كل وقت .

تماما كما حدث عندما تقدمت العشيقة الشهيرة مدام رولان من المقصلة فلاحظت أن الجلاد قد تقدمها خطوتين . فقالت له : ألست فرنسيا كيف تمشى أمام سيدة .. حتى لو كانت ذاهبة إلى الموت ! .

وحرص الفرنسيون على أن يكونوا مهذبين فى الحب والغيرة والحرب والسلام والحياة والموت .. ومن الغريب جدا أن الفرنسيين لا يفرقون كثيرا بين هذه الكلمات جميعا . فهم يرون أن الحب كالحرب وخير وسيلة للدفاع هى الهجوم ..

وأن الذى يحارب يستمتع بسلام واحد هو أنه بعيد عن المرأة . ولكن البعد عن المرأة هو البعد عن الحياة . والحياة هى أن يموت الإنسان فى المرأة لا لأن المرأة شىء عظيم . ولكن لأن هذا النوع من الموت شىء لذيذ ! .

وثيقة زواجه كانت أعجب!

كانت صديقات نابليون بالمئات وعشيقاته بالعشرات .. وكانت له ثلاث زوجات . إحداهن أكبر منه بأربعين عاما . والثانية أكبر منه بست سنوات والثالثة أصغر منه بثلاثة وعشرين عاما ..

ومغامرات نابليون ممتعة ومثيرة ومسجلة بتفاصيل دقيقة جدا فى مئات الألوف من الكتب . فقد شغل نابليون الدنيا فى أوائل القرن التاسع عشر. وكان أقوى رجل فى عصره . وكانت مغامراته صارخة وجريئة وعلى كل المستويات ومن كل الفئات : النبيلات وبنات الشعب . ولكن معظم مغامراته كانت بين الممثلات والمطربات وفتيات السيرك .

وكان نابليون يلقى بنفسه على الفتيات فى أول حياته . وكان قادرا على الأحاديث الهامسة والغزل العنيف وله خطابات من نار .. ولكن بعد أن أصبح ضابطا منتصرا انهارت أمامه المدن والدول .. وانهارت النساء . وإذا كانت فى حياة نابليون العسكرية هزيمة اسمها واترلو .. فليس فى غرامياته واترلو واحدة .. فهو عشيق لم يعرف الهزيمة ..

ولكن مشكلة نابليون كانت أن النساء لا ينسين أبدا أنه بطل وأنه قوى وانه مخيف . وكان هو يحرص على أن تنسى كل امرأة أنه قائد منتصر ، وأن تذكر

فقط أنه رجل . وأنه ساحر وأنه جميل ـ ولم يكن جميلا ـ وكان يحاول أن يتصرف كرجل عادى .. كذئب . كان يقتحم البيوت ويتسلق النوافذ ولكن ملابسه العسكرية وأمجاده لا تختفى عن عيون النساء ، ولذلك كان نابليون يروى مغامراته لأصدقائه وحاشيته وكان يرويها للنساء أيضا . ويؤكد بهذه المغامرات أنه رجل .. وأن قوته فى رجولته .. ولكنه هو وحده الذى يقول ذلك . وهو وحده الذى كان يدفع النساء على أن يتنافسن عليه لا خوفا من قوته ولا طمعا فى ماله . ولكن لأنه أقوى الرجال .

ولأن إحدى الأرامل قالت عنه «إن كل شىء فيه رجل» قرر أن يتزوجها . هذه السيدة هى جوزفين وقد ترك لها زوجها الأول ولدا وبنتا .

وقد أعجب نابليون بالمرأة التى وصفته بأنه رجل .. ولم يخطر على بالها أبدا أن نجمه صاعد وأنه قائد ولكن نابليون كان يشعر بوضوح أنه رجل اليوم والغد لفرنسا كلها . وكانت أناقة جوزفين أوضح من رشاقتها . ولكنها امرأة تدربت على الحب فى مجتمع باريس الملتهب .. وكانت جوزفين بارعة فى إخفاء عيوبها .. وكانت قادرة على أن تتكلم كأنها تغنى .. ونابليون كأى ايطالى له أذن موسيقية وكثيرا ما طلب منها أن تقول له أى شىء .. وكان يداعبها قائلا : المعنى لا يهم الصوت فقط .

وإذا كان طلاق نابليون من جوزفين والعثور على قسيمة الطلاق فى الإسكندرية شيئا غريبا فإن زواجه منها كان أكثر غرابة . فقد قرر نابليون فجأة وبسرعة أن يتزوج جوزفين، واستدعى ثلاثة من جنوده واثنين من أصدقاء جوزفين وذهبوا جميعا إلى العمدة . وظلوا ينتظرون نابليون ساعة بعد ساعة . ولم يحضر ونام العمدة . وكان الجو باردا والأمطار غزيرة وبعد منتصف الليل جاء نابليون وأيقظ العمدة وتم الزواج المدنى . وذهب الشهود كل واحد منهم إلى طريق . أما سبب تأخر نابليون فهو أنه كان مشغولا فى تزوير شهادة ميلاده .. فقد جاء فيها أنه ولد بباريس فى حين أنه مولود فى جزيرة كورسيكا ، وادعى أنه

فى الثامنة والعشرين . مع أنه فى السادسة والعشرين ، أما جوزفين فقد ادعت أنها فى التاسعة والعشرين مع أنها فى الخامسة والثلاثين .

وقرر نابليون أن يبدأ شهر العسل فورا .. وكان لابد أن يقسم سريره مع عروسه ومع كلب صغير . وحاول أن يقنع العروس بأنه لا داعى للكلب .. وعندما عضه الكلب فى قدمه هزت جوزفين رأسها كأنها تقول : بل لا داعى للعريس .

وضحك العروسان ولكن الكلب أخذها جد فقد أصر على أن ينام فى مكانه الذى اختاره .. بين العروسين .

وفى الصباح الباكر حمل نابليون خرائطه الحربية فى عربة تجرها خيول لاهثة متجها إلى إيطاليا وكان ذلك بداية زحف الملايين الذى لم يتوقف إلا فى هزيمة واترلو .

هذا الزواج عقده نابليون مرة أخرى عندما قرر تتويج نفسه امبراطورا على فرنسا . وزوجته امبراطورة طبعا وكان قد مضى على زواجهما ثمانى سنوات . وهنا قررت الزوجة أن يكون زواجا شرعيا لا مدنيا وتم الزواج طبقا لتعاليم الكنيسة . ودون شهود أحد من رجال الدين ..

وفى اليوم التالى للتتويج دخل نابليون يستدعى زوجته لتشهد شيئا غريبا . وخرجت الزوجة لترى المحامى الذى كانت قد ذهبت إليه منذ ثمانى سنوات تستشيره فى الزواج من الضابط الصغير الذى اسمه نابليون وجاء رد المحامى من الباب الذى لم يكن مغلقا : لا تتزوجى رجلا لا يملك إلا سيفه .

ولم ينس نابليون هذه الإهانة .. وكتمها فى نفسه ثمانى سنوات .. ولما وقف المحامى مذهولا أمام الامبراطور سأله نابليون . ألا تزال ترى أننى لا أملك إلا سيفى ..

ولم تقل لنا كتب التاريخ ما الذى قاله المحامى أو الامبراطور لكن لابد أن الصدمة أخرست الاثنين : ولم يفكر نابليون فى طلاق جوزفين أبدا . ولكن زواجه من جوزفين التى تكبره فى السن جعله يتجه إلى الفتيات الصغيرات . فقد أحب ابنتها التى تزوجت أخاه بعد ذلك ولم يكن هذا الحب بريئا . وفى منفاه الأخير أحب ابنة الحارس وكان عمرها ١٥ عاما وكان هو يكبرها بسبعة وثلاثين عاما .

وضاقت الامبراطورة بظهور فتيات كثيرات .. وحاولت أن تمنعه .. وفشلت ولم يتوقف ..

وقد همس فى أذن نابليون بعض أقاربه بأن جوزفين مسرفة جدا . وأنها مدينة بملايين الفرنكات للتجار والمرابين.. ولم يكن نابليون يهتز لهذه الهمسات فقد كان يحبها وكان يحبها أنيقة. بل هو وحده المسئول عن أناقة وفخامة البلاط والقصور فى عصره ولكن بعد تتويجه بدأت فرنسا كلها تتحدث عن الوريث للعرش . وبدأ يحس هو بأن زوجته غير قادرة على إنجاب الأطفال . أما هو فقد أنجب كثيرا من الأطفال غير الشرعيين .. وزوجته قد أنجبت هى الأخرى من زوجها الأول .. فالعيب فيه هو . وقد حاول نابليون أن يؤكد لنفسه أن العيب ليس منه .. وكانت تسعده الأنباء التى تقول له بأن عشيقاته قد أنجبن منه .

وعندما عاد من رحلته إلى مصر كانت زوجته مدعوة إلى عشاء فى بيت أحد المرابين . ولكن أم نابليون وإخوته قد تجمعوا فى قصره ينتظرونه . وقد اتفقوا على شيء واحد ، وعلمت الزوجة أن نابليون قد عاد. فتركت المرابى وجاءت فى عربتها تحلم بالعناق الطويل الذى يذيب خطاياها وقسوتها عليه وكم ذابت عيوبها وذاب نابليون فى أحضانها . وكان فى نية جوزفين أن تصل إلى غرفتها لتكون فى استقبال نابليون قبل أن تنطلق عليه بطاريات الحقد الثقيلة من أمه وإخوته . وكان عددهم ثمانية . وقد سبقها نابليون إلى القصر.. واستمع منهم إلى فضائحها وخياناتها وحماقاتها وديونها .

وأمر نابليون أن تحزم حقائبها كلها فورا . وأن تلقى أمام الباب . وقرر أنه لابد أن يطلقها وانطلقت أخوات نابليون ينقلن النبأ السعيد إلى كل باريس . وجاءت الزوجة واتجهت إلى غرفة نابليون .. ووجدتها مغلقة ودقت الباب . وبكت وكانت كثيرة البكاء .. ولكن الصمت ابتلع دقات الباب بنفس السرعة التى ابتلعت بها السجاجيد دموع الإمبراطورة وجاء ابنها وجاءت ابنتها وتضاعف الطرق على الباب . وانفتح الباب وانفتحت ذراعا الامبراطورة واختفى فيهما الامبراطور .. واختفى الاثنان وراء الباب .. وخرج ابنا الامبراطورة وصدمت باريس ..

ولكن كان لابد أن يبحث عن وريث ووجد نابليون فى ابن أخيه وريثا . وهذا الابن هو حفيد جوزفين . وثار الابن وثار الأخ والأخوة والأخوات والأم ورجال البلاط .

واتجه نابليون إلى مغامرات أخرى كثيرة .. فى قصره وخارج القصر .. وعادت الأميرة البولندية التى أحبها نابليون إلى باريس تؤكد له أنها حامل .. وأكدت له عشيقة أخرى أنها حامل .. وكان نابليون يتلمس جرحا فى قدمه وجرحا فى صدره على أثر محاولة اعتداء فاشلة .. وراح يتلمس العرش الذى يجلس عليه . إنه عرش بلا وريث .

وذهب نابليون واستدعى ابن زوجته وكان ضابطا فى الجيش وأخبره أنه مضطر إلى أن يطلق أمه وطلب إليه أن ينهى إليها هذا النبأ بسرعة وبكى الابن وجاءت أخته وانهارت وجاءت الامبراطورة ولم يستطع نابليون أن يخبرها بهذا النبأ .. وإنما أخبرها بنبأ آخر هو أن يمضيا شهر عسل جديد وسافر الاثنان إلى الشاطئ وكان نابليون يداعبها وكان يلقى حذاءها وجواربها فى الماء ويطلب إليها أن تعود إلى العربة حافية القدمين وكان يقول لها : كثيرون الذين رأوا أصابع يديك ولكنهم لا يعرفون كم هى جميلة أصابع قدميك ..

وعانى نابليون بعد ذلك شهورا من القلق والعذاب والحيرة . إنه يحب

جوزفين . وهو فى نفس الوقت لا يريد أن يطلقها . ومضطر إلى ذلك وأخيرا جاءها وزير الداخلية ليتجرأ على أن يهمس فى أذنها كلاما لابد أنه أمر من نابليون . قال لها : من أجل فرنسا يجب أن تضحى بزواجك ..

وأصبح واضحا أن الامبراطور قد اتخذ هذا القرار . وانهارت الامبراطورة وسقطت وحملها أحد الخدم ومن ورائها نابليون يحمل مصباحا . وفى حفل عائلى ألقى نابليون خطاب الطلاق ووقفت الامبراطورة التى اعتادت على البكاء الكثير تلقى كلمة بلا دموع . فقد رأت الدموع الكاذبة فى عينى نابليون وإخوته وقالت : من أجل فرنسا أضحى بهذا الزواج . ولكن سأظل صديقة للامبراطور . فأنا مدينة لعطفه بحياتى .

وانسحبوا جميعا واتجهت الامبراطورة لتركع أمام نابليون ويودعها إلى الباب لتموت بعد ذلك بعشر سنوات .

أما وثيقة الطلاق فقد وقعتها جوزفين أولا .. وكان نابليون آخر الذين وقعوها وبلغ عدد الامضاءات أكثر من الأربعين ..

وبعدها تزوج نابليون من أميرة نمساوية ولم ير صورتها .. وقد أنجبت له ولدا .. أو أنجبت ولدا .. ولا أحد يعرف إن كان ولده هو ! .

ومذكرات نابليون بعد ذلك تقول لنا : إنه أحس يوم زواجه بحرج وخجل وكأنه يرتكب جريمة أو يتستر على جريمة .. أما يوم طلاقه فكان جريمة بالفعل ..

هدية لكل امرأة عندها طموح !

من المؤكد أن المرأة نسيت أن تضحك على هذه النكتة الطويلة وهى : أن الرجل يحكم العالم .

وأن الرجل هو الذى صنع القانون ليطبقه على المرأة وليهرب هو من عدالته .

وأن المرأة هى الجنس اللطيف والرجل هو الجنس العنيف .

وأن وراء كل رجل عظيم امرأة . كل هذه نكت تاريخية ..

فليس صحيحا أن الرجل هو الذى يحكم العالم ، بدليل أنه يجلس فى مناصب الوزراء والساسة والقادة . مع أنه من الممكن أن يكون هناك حكام أقوى ولكن لا تراهم .. فالمرأة هى التى تحكم الرجل بالفعل وإن كان ذلك ليس واضحا أمام عيون كل الناس .. فليس صحيحا أن وراء كل عظيم امرأة ، وإنما الصحيح هو أن وراء كل عظيم وكل حقير امرأة .. وأكثر من امرأة .

ولم يكن قيصر يضحك عندما قال لابنه الصغير : أنا أحكم العالم وأمك تحكمنى وأنت تحكم أمك ـ لقد كان جادا وحزينا ! .

ومن الممكن أن توضع هذه العبارة فى معناها الصحيح لو أننا قلنا : أنا أحكم العالم وأنت تحكمنى وأمك تحكمنى وأمك تحكمنا نحن الاثنين ! .

والمرأة تعلم بغريزتها أن الرجل طفل مغرور ، وأنه مغرور لأنه قوى ولأن المرأة تقول عنه ذلك وتريده أن يكون قويا . ولكن عندما يصبح الرجل شيخا ، فإنه

يكون عنيدا . فالعناد هو غرور الضعيف والغرور هو عناد القوى . ولكن الرجل فى جميع الحالات طفل عندما تكون هناك امرأة بالقرب منه ! .

هذه هى المعانى التى حاول أن يتبعها كاتب فرنسى ذكى ظريف اسمه موريس بارديش فى كتاب ممتع بعنوان «تاريخ المرأة» فى ٤٠٠ صفحة . فدرس فى الحضارة الصينية القديمة وفى الحضارة الفرعونية وفى بابل وآشور وعند اليهود وفى بلاد الفرس والهند وعند الاغريق وعند الرومان وفى العصور الأولى المسيحية وفى الجاهلية ثم فى الإسلام .

وقد لاحظ منذ السطور الأولى أن تاريخ المرأة قد كتبه الرجل على هواه . وهوى الرجل هو الذى أضاع حق المرأة فى الحياة الكريمة .. والتاريخ نصفه أحقاد والنصف الآخر تخمينات ولذلك لم يبق للمرأة شىء يمكن أن نهتدى إليه .

ومنذ اللحظة الأولى يجب أن نرفض أن المرأة قد عاشت «عبدا» للرجل . وأن تاريخها ليس إلا حلقات من الرق والعبودية .. ليس هذا صحيحا .

فتاريخ المرأة متنوع ومختلف باختلاف العصور التى عاشت فيها مجتمعات الرعاة والصيادين والفلاحين والعمال .

ومهما اختلفت العصور فقد كانت هناك حياة زوجية . وكانت هناك زوجة واحدة معظم الوقت . فقد نجحت المرأة فى أن تفرض هذا النظام وأن تصونه حتى الآن ..

والتاريخ القديم لا يؤكد لنا تفوق الرجل على المرأة ، وإنما يقطع بتفوق المرأة على الرجل . وبراعتها فى كل عمل طلب إليها أن تؤديه .

ففى بلاد الصين كانت المرأة هى التى تصنع الأنسجة الحريرية يوم كان

الحرير هو العملة المتداولة . فكأنها هى التى تصنع العملة وهى التى تكسبها . وهى فى نفس الوقت قوة وعصب المجتمع الذى عاشت فيه .

وكانت هناك فى بلاد الصين أمهات يحرسن المدن فى مواجهة العدو .

وظل الرجل ـ الزوج ـ غريبا عن الحياة الزوجية . بل كان من المستحيل أن يبيت الرجل فى بيت الزوجية . ولم يكن له حق الوراثة .. ومن الممكن أن تصبح المرأة ملكة وأولادها أمراء ، ويظل الزوج خفيرا . وهذه القوة التى اكتسبتها المرأة جعلتها تقرر أن يكون لها أكثر من زوج .

وقد ذكر الاسكندر الأكبر أنه رأى نساء محاربات فى آسيا . وأنهن فى غاية الشجاعة .

ولم يضعف سلطان المرأة فى بلاد الصين إلا اكتشاف المعادن كالبرونز والنحاس فمن هذه المعادن صنع الإنسان سلاحه وحمله وقاتل به .. هنا فقط استمد الرجال من المعادن صلابتها وسيطرتها على مقدراته .. وعلى المرأة أيضا !

أما فى مصر الفرعونية فقد كانت الحياة الزوجية مقدسة . والرسومات على المعابد الفرعونية تؤكد ذلك .

ويمكن أن يقال إن كل الحضارات كانت تعطى الرجل كل حق وكل سلطان على المرأة : إلا الحضارة الفرعونية فإنها كانت تعطى المرأة حقها الكامل فى مساواتها بالرجل . وفى معظم الأحيان كانت المرأة فى مكان أكثر احتراما من الرجل . ولم يحدث إلا فى فترات قصيرة جدا فى تاريخ مصر الفرعونية ، وتحت تأثير عوامل خارجية ، أن هان شأن المرأة على الرجل ! .

فمصر الفرعونية لم تعرف تعدد الزوجات . ربما كان الأمراء والملوك فقط ، أما عامة الشعب فلم يعرفوا إلا الزوجة الواحدة .

ولم يحدث فى مصر المرعونية أن تزوج الرجل أخته ، الا فى العائلات

الملكية ، ومن أجل حماية العرش .. وقد كان من عادة الزوج أن يقول لزوجته يا أختى .. وهذا يحدث حتى الآن فى الريف المصرى .. وقد أخطأ المؤرخون الأجانب عندما استنتجوا أن المصريين يتزوجون أخواتهم .

حتى الملك مينا عندما ظهرت صورته مع أربع نساء ، لم يكن زوجاته ، وإنما واحدة فقط هى الزوجة والباقيات عشيقات . وحتى عندما تكون عشيقات تكون الزوجة هى السيدة الأولى .. والفراعنة يصفون الزوجة بأنها «ست البيت» أو صاحبة السرير الأول ..

وفى مصر الفرعونية كانت هناك الإلهة ايزيس.. وهى نموذج للحب والوفاء والفداء .. وكانت تبحث عن أخيها أزوريس . وكانت تجمع عظامه من أركان العالم . وظلت ايزيس تحمى الأسرة وتحمى الفضائل العائلية .

والذى ينظر إلى صور امنحتب يجد أن زوجته تجلس على نفس المقعد وإلى جواره ويجد أنها قد وضعت يدها على كتفه ، والاثنان يواجهان الموت فى أخوة وترابط .

وسنفرو يمد يده إلى زوجته كما نفعل الآن مع الاحترام الشديد ..

وهذا الحكيم بتاحوتب (١١٠ سنوات) هو أكبر الوزراء سنا وأعقلهم ينصح الزوج بأن يكون أخا لزوجته ، وألا يكف عن تقبيلها ما استطاع إلى ذلك سبيلا . ويؤكد له أن المرأة لا تشبع من معدتها ، وإنما من شفتيها . ويقول للعريس : اسعدها . إنها تنتظر هذا اليوم . لا تتركها وحدها . لا تدعها تفكر فى غيرك ، ولا تنس أن كل ما تأخذه المرأة منك ، قد أصبح حقا لها . وسوف تطالبك به . وإذا أسعدتها أصبحت طيعة كالماء بين يديك ! .

حتى رجال الدين لم يعرفوا تعدد الزوجات . فقد كان الكاهن يتزوج امرأة واحدة فقط .

وليس معنى ذلك أن تعدد الزوجات كان ممنوعا فى مصر الفرعونية . وإنما كان مكروها .

وفى الصورة الفرعونية تعرف بسهولة من هى الزوجة ومن هى العشيقة .. العشيقة هى التى تترك صدرها عاريا .. أو كالعارى .

والمرأة الفرعونية كانت أنيقة ونظيفة . وكانت تعلم أن النظافة نصف الجمال . والنصف الآخر كانت تعرف كيف تصونه وتبرزه . فقد عرفت المرأة الفرعونية كل أنواع أدوات التجميل التى نعرفها الآن : البودرة والكريم والمراهم والتدليك وأحمر الشفاه وماء الورد وعرفت الزيوت لتقوية الشعر ، والزيوت لإسقاط الشعر ـ وكانت تخلط معظم مواد التجميل ـ بعسل النحل ـ وهو ما تفعله دور التجميل الآن .

وعرفت المرأة الفرعونية أن تتنبأ بجنس المولود ـ وهذا ما لم نعرفه حتى الآن ـ وكانت تستخدم بعض البذور وتلقى عليها بقطرات من بول السيدة الحامل !.

* * *

أما بالنسبة للحياة العملية فقد عثر المؤرخون على رسم لسيدة فى ابيدوس من الأسرة الثالثة كانت تعمل عمدة لإحدى المدن . وأنها كانت تقود قوة عسكرية طاردت بها اللصوص وواجهت بها قوات معادية ، وقد كافأها أحد ملوك الأسرة الثالثة بقصر فخم .

والمؤرخ الاعريقى مانيتون يقول : إن القانون فى الأسرة الثانية كان ينص على أنه من حق المرأه أن تجلس على العرش أيضا ! .

والمؤرخ هيرودوت يقول إن الملكة نيتوكريس قد تولت العرش بعد مقتل أخيها .. وأهم من ذلك أنها قررت أن تنتقم لمقتله . فدعت النبلاء والأمراء وكل

الذين شكت فى ولائهم لها وأقامت لهم حفلا كبيرا فى قاعة تحت الأرض ثم فتحت عليهم مياه النيل فأهلكتهم جميعا ! .

ثم أحرقت نفسها حتى لا يحرقها أعداؤها ! .

وعندما عرفت مصر الفرعونية أشكالا مختلفة من الاقطاع تضاءل نفوذ المرأة .. فقد أصبح لعدد كبير من الأمراء والنبلاء والأثرياء قصور وحدائق . وفى القصور عشيقات ومغنيات وراقصات وعندما تظهر الراقصات والعشيقات تتوارى الزوجات فى الظل ، وتحت أكداس من الملابس الحريرية والهدايا . كأن الرجل يكفر عن خطيئة الخيانة بالهدايا .. أو كأنه يشترى صمت المرأة بالحرير والذهب ـ ولكن المرأة عرفت أيضا أن تشترى غرور الرجل بالتآمر عليه . فقد تحولت بيوت الزوجات والعشيقات إلى مؤامرات ومؤامرات مضادة . تماما كما كان يحدث فى حريم سلاطين آل عثمان وفى بلاط الأسرة المالكة فى فرنسا .. وفى عصر الإقطاع تحولت مصر إلى ما يشبه عصر النهضة فى أوربا .

وفى ذلك الوقت تحولت المرأة إلى حالة غريبة : لا هى أسيرة ولا هى سيدة . وإنما هى تزحزحت إلى الوراء قليلا . وكأنها تراجعت قليلا لتقفز إلى الأمام والى أبعد مما يتصور الرجل .

وفى الدولة الحديثة تردد اسم اثنتين من النساء واحدة اسمها تيتشيرى والأخرى اسمها أحونب . والكلام قليل جدا عن هاتين الملكتين فى أوراق البردى وعلى جدران المعابد .. وكانت الملكة تيتشيرى هى صاحبة العبارة الملكية التى تقول : دمى يجب أن يجرى على العرش .

فقد استطاعت أن تجعل من اثنين من أبنائها ، ولدا وبنتا ، ملكين وزوجين على عرش مصر ! .

ولا يمكن أن ننسى الملكة حتشبسوت فهى شبيهة بالملكة كاترين دى مديتشى وكانت شخصية قوية . وعلى الرغم من أنها لم تكن ملكة عظيمة فقد كانت

ملكة ضئيلة : قادرة جبارة . وكانت ترتدى ملابس الرجال ، بل وتضع لحية مستعارة . وكانت تخفى وراء ظهرها زوجها الملك .

وعلى الرغم من أن حتشبسوت هذه لم تكن دميمة ، فإن ملابسها المستعارة قد جعلتها دميمة . وبعد وفاتها كشف لنا التاريخ عن زوجها القوى الحكيم .

.. والمنتقم الجبار أيضا محا كل آثارها من فوق جدران المعابد والقبور . وهذا الزوج قد نصب ابنه وليا للعهد حتى لا تتكرر مأساة زوجته مرة أخرى ؟

وعندما أراد رمسيس الثالث أن يضع أحد أبنائه على العرش تآمرت على الابن إحدى عشيقات رمسيس وقتلته . فقد كانت تريد أن يكون ابنها هو ولى العهد .. وقد أشركت العشيقة فى مؤامراتها هذه عددا من رجال القصر ومن الحرس الخاص لرمسيس الثالث . ولم تنجح المؤامرة وأعدم رمسيس الثالث كل الذين اشتركوا فى هذه المؤامرة . أما ابن العشيقة فقد طلب إليه رمسيس الثالث أن ينتحر ! .

وكان ذلك فى سنة ١١٦٦ قبل الميلاد ! .

ورمسيس الثانى كان سعيدا بأولاده الكثيرين : عددهم ١٧٠ طفلا من بينهم ١١١ ذكرا ! .

ورمسيس الثانى كان رجلا متحررا، ويمكن أن يقال متحللا أيضا . فقد ظهرت له صورة عارية تماما مع نساء عاريات . وكان يلعب الشطرنج عاريا . وله رسومات يحتضن فيها امرأة جميلة لا يغطيها إلا شعرها ! .

وفى كل تاريخ الحضارة الفرعونية نجد انفصالا بين الجنسين .. فيما عدا الحفلات الرسمية الكبرى . ففى الحفلات يرتدى الجميع الملابس البيضاء . وأما المرأة فقد كانت تضع فى يدها شنطة صغيرة . وفى هذه الشنطة كل أدوات الزينة

والصابون وأحمر الشفاه والكحل . وكانت تضع على رأسها الباروكة والزهور الطبيعية وتضع الحلى والدبابيس ..

وفى الأسرة التاسعة عشرة وما بعدها ذابت المسافة بين الجنسين . والمؤرخون يتحدثون عن هذه الفترة وكأنهم يصفون باريس فى عصر لويس الخامس عشر : حيث الذوق والأناقة .

والذى يشاهد صور نفرتارى يدرك مدى أناقة هذه السيدة وبساطتها ، وقد حملت معها إلى قبرها كل فساتينها الأنيقة الشفافة . وفى ذلك العصر كانت خيوط الأزياء «دغرى» وكان القوام مشدودا والنهدان عاليين ومسحوبين أيضا . وكانت الأرداف متوسطة ، والساقان ناعمتين . وكانت ملامح الملكة نفرتارى هى ملامح مانيكان حديثة . فالعينان واسعتان مرسومتان والشفاه قد رسمها اللون الأحمر ممتلئة مرفوعة ، أما شعرها القصير فقد غطته بباروكة تتدلى على كتفين صغيرتين ناعمتين .

ومن المعروف أن عددا من اليهود كانوا فى مصر فى ذلك الوقت . وكان اليهود أكثر الأقليات انحلالا . وهم الذين ابتكروا لعبة وضع السيدة عارية فى تابوت يلهو به السكارى .

وفى متحف مدينة تورينو بإيطاليا توجد ورقة بردى رفض العالمان الكبيران ماسبيرو ودريوتون ترجمتها .. فى هذه البردية توجد صور عارية وقحة . وتوجد رسوم كاريكاتورية للسخرية بالملوك والنبلاء الفراعنة . إن هذه البردية وثيقة تاريخية للانحلال الملكى فى ذلك الوقت ! .

لقد كانت المرأة فى ذلك الوقت معشوقة الرجل ، ولعبته أيضا ! .

وكانت فى ذلك الوقت قصص غرام وإنما فى عشق .. وكانت هناك رسائل تبعث بها المحبوبة تذكر العريس بدبلة الزواج . وتذكره بالحب القديم .. وفى رسالة تقول المحبوبة : آه .. يا أخى .. يا حبيب روحى .. كم أتمنى أن أنزل إلى

ماء النيل أمامك لترى بعينيك جمال هذا الجسم الذى يحبك .. وكم أتمنى أن أراك أيضا .. ونصيد معا بعض الأسماك .. ترانى وأراك ! .

إنها صريحة وواقعية .

وهناك رسائل تبدأ هكذا : آه عندما تكون على صدرى ..

وهذه الرسالة الجميلة : إنه حبك الذى جعل اللمعان يملأ عينى .. إنه حبك الذى جعل وجهى مشرقا .. إنه حبك الذى جعل عينى مفتوحتين .. إننى أكاد أقول لكل الناس إننى أحبك .. وفى كل مرة أحاول ذلك أخاف عليك .. وعندما أراك أحتضنك .. ولكى أراك فقط ..

ومن وصايا الحكيم «آنى» أنه من الضرورى أيضا أن يحب .. ويقول : اعط لأمك كثيرا ، فقد أعطتك كثيرا . لقد حملتك وأرضعتك ولم تكن تقرف من رائحتك . احمل إليها كل شىء على صدرك راضيا ، فقد حملتك على صدرها راضية سعيدة ! .

وربما كان أحد أسباب الزواج المبكر فى مصر الفرعونية هو احترام الموتى والجنازة . فكل أب يريد أن يكون له أطفال يدفنونه ويكرمونه عند الدفن. وفى عقود الزواج التى ظهرت بعد ذلك كان يطلب الزوج إلى زوجته أن تتولى دفنه . ولم تكن تطلب هى إليه أن يفعل ذلك . وهى ولاشك تحية من الزوج وإشارة إلى أنه هو الذى سوف يموت قبلها ! .

وأرق ما نقل إلينا تاريخ مصر الفرعونية من صور : صورة الفيلسوف الملك أخناتون وهو يودع زوجته إلى القبر . إنه ينحنى على زوجته يقبلها وينحنى عليها يودعها . ويقال إنه طلب إلى الفنان الذى يرسمه أن يمحو إحدى الصور لأنه لاحظ أنه لا ينحنى بدرجة كافية لوداع زوجته ! .

ولكن كثيرا ما نلمح مثل هذه العبارات فى وصف الرجال لزوجاتهم : تافهات ، سطحيات ، كذابات ، خائنات بالطبع .. وأن المرأة كنز لكل

الشرور .. وأنها أكبر شرور الطبيعة وأن الطريق إلى النار يمر بالمرأة .. !

وتحت تأثير البابليين ظهرت عقود الزواج .. وهى عقود شائنة للرجل .. ففى العقد نص على أن المرأة خادمة للرجل .. وأنها خلقت لخدمته وأنها نزلت عن كل حقوقها من أجله .. وأن كل من يعارض فى هذا يستحق اللعنة ..

وهذه العقود تجرد المرأة من كل حقوقها .. أقصى درجات الأنانية من الرجل !

ومن أجمل قصص المغامرات فى ذلك الوقت .. أن شابا رأى فتاة جميلة ومن ورائها يمشى خمسون من حاشيتها . فبعث يسأل من هذه .. ويقول أيضا : إن اسمى « استناها » أحد أبناء رمسيس . ويسأل إن كان فى الإمكان أن يقضى معها ساعة من الوقت مقابل عشر قطع ذهبية .

أما الفتاة فاسمها طابوبو . ووافقت واشترطت أن يكون ذلك فى بيتها . وذهب الاثنان إلى البيت . وكان البيت جميلا أنيقا . وسألته : هل فى نيتك أن تحترم هذا البيت ؟ .

فقال : نعم .
ـ هل تحب أن أقدم لك طعاما ؟ .
ـ أنت أجمل من الطعام .
ـ اذن لا تريد طعاما ؟ .
ـ ليس من أجل هذا جئت .

وأحضرت له فاكهة . وزيتا معطرا وأمضيا يوما كاملا . وكانت تحدثه طول الوقت من وراء حجاب على وجهها وعلى جسمها .

ثم قالت : إذن الآن يجب أن ننهى ما جئت من أجله .

وقبل أن ينهض من مكانه قالت : لنحضر كاتبا يسجل هذا العقد بيننا

وجاء من يكتب العقد . ونهض ابن رمسيس ليقول : أعطى هذه السيدة التى هى أعز إنسان عندى كل ما أملك .. مع حرمان أولادى من الميراث !.

إذن لقد كان متزوجا .. وعندما عرفت الفتاة ذلك قالت : أكون زوجة !.

فقال الفتى : وصاحبة السرير الأول ! .

وكانت هذه نهاية مغامرة لشاب أخفى زواجه عن الفتاة التى أحبها من أول نظرة ! .

وقد روى لنا المؤرخ هيرودوت الذى زار مصر أيام الاسكندر أن المرأة فى مصر كانت تدير التجارة والكباريهات والحانات بينما يجلس الرجال فى بيوتهم .

وروى لنا المؤرخ ديودور الصقلى أن عقود الزواج كانت تنص على أن يكون للزوجين نفس الحقوق فلا فضل لرجل على امرأة .

والقانون أيضا أيام البطالمة كان يعطى المرأة الحق فى الطلاق من زوجها إذا كان قاسيا .. أو إذا اكتشفت أنه على علاقة بامرأة أخرى .

وفى هذه الحالة لم يكن من الضرورى أن تستأذنه فى أن تدير صالونا للحلاقة أو مكانا للتجميل .

وكيلوبطرة هى آخر امرأة قوية فى تاريخ مصر القديمة . إذا نحن حررناها من هذه الديكورات التاريخية والمؤثرات الصوتية نجد أننا أمام امرأة كبيرة الرأس وليست مثيرة الجسم فقط . فقد زوجوها من أخيها الذى بلغ من العمر ٩ سنوات ـ نصف عمرها ـ وتخلصت منه فى حادث وبذلك تكون كليوبطرة قد طبقت تقاليد البطالمة وهم ملوك يتبارون فى قتل إخوتهم . ثم قتلت زوجها التالى وهو أخوها أيضا وكان فى الرابعة عشرة من عمره . واستدرجت قيصر إلى مصر ومن بعده أنطونيو .. وحاولت استدراج أوكتافيو .. ولما خشيت أن يربطها فى ذيل خيوله فى شوارع الاسكندرية انتحرت ..

ولكن كليوبطرة نموذج للمرأة القوية الذكية المليئة بالطموح .

وما يزال أنف كليوبطرة هو الذى غير تاريخ مصر ـ كما يقول الفيلسوف باسكال ـ أنفها أو شفتاها أو عيناها .. هى أو شىء منها قد غير وجه مصر كلها ..

وبوفاة كليوبطرة تختفى تلك الصورة المتكاملة الكريمة للحياة الفرعونية الهادئة التى يشع فيها الاحترام والقداسة .

لقد كان للمرأة سلطان فى كل الحضارات القديمة . ففى الفرعونية كانت الراهبات أو الكاهنات يحكمن مصر من الداخل . وكانت زوجة كبير الكهنة ملكة غير متوجة .. وكانت تتلقى الهدايا من كل الحدود المصرية فى الجنوب وفى الشمال حتى البحر الأسود .

وكانت بلقيس ملكة سبأ شخصية قوية ..

وكانت سالومى تطلب رأس نبى من أجل رقصة .. ورقصت وطار رأس النبى يوحنا .

أما سميراميس فلا أحد يدرى إن كانت شخصية حقيقة أو خرافية .. كانت نموذجا للقوة المطلقة .

وفى تاريخ الخلافة الإسلامية كانت أمهات الخلفاء يحكمن قصور الخلافة فى الشرق وفى الغرب .. وفى قصور سلاطين آل عثمان كانت العشيقات هن اللاتى يحكمن . وهن اللاتى يوجهن الملك والوزراء ..

إذن ..

لم تكن المرأة أسيرة للرجل . ولم يكن تاريخها سلسلة طويلة من الاستعباد والهوان . وإنما كانت المرأة هى الحاكم الحقيقى ـ على طريقتها الخاصة ـ ويكفى أن نستعرض بسرعة لا تاريخ الحضارات القديمة ولكن تاريخ الحضارة الحديثة ..

إن الإنسان هو الإنسان ونقطة ضعف الرجل أنه لا يزال يتوهم أنه الأقوى .. ومن نقط قوة المرأة أن جعلته يؤمن أنها صدقت هذا الوهم . ولا شيء يدل على خبث المرأة إلا أنها تعرف هذه النكتة التاريخية الطويلة ولا تضحك لها ..

إن هذا الكتاب قد أهداه المؤلف فى آخر صفحة وفى آخر سطر : أهدى هذا الكتاب إلى كل امرأة ليس أقصى طموحها أن تكون مضيفة جوية أو سكرتيرة لمدير ! .

هل اختفى الحريم؟

كان للسلطان حريم.. أصبح للسلطان حريم..

لم يتفق الرجال على الصورة التى يحبون أن يروا عليها المرأة .. هل هى حواء العارية ؟ هل هى ايزيس الأم ؟ هل هى مدام كورى الباحثة ؟ هل هى مارلين مونرو العاملة الجميلة ؟ هل هى حتشبسوت المسترجلة ؟ .

وموقف الرجل من المرأة يدلى على أى نوع من الناس هو .. ومن فهم الرجل لدور المرأة فى حياته ومن الحياة العامة نعرف ما معنى الحرية عنده .

والرجال فى مواجهة المرأة :

إما أعداؤها .

أو خصومها .

أو أنصارها .

أو عشاقها .

وأعداء المرأة هم الذين لا يرون فى المرأة أية ميزة . ويرون أنها إنسان مختلف أيضا . أو أنها (رجل) هزيل ضعيف العقل . أو أنها ليست من أصل إنسانى . ويرون أيضا أنها بتاريخها الذليل وتركيبها المعقد قد أدت إلى تشويش حياة الرجل وإلى تعويقه عن التطور . وأنها ليسّت إلا جنسا فقط وإلا حيوانية تماما .

والفيلسوف اليونانى سقراط هو الذى استطاع أن يترك ظله العنيف على كل

الحضارة الغربية . فقد كان سقراط (رجلا) دميا .. ولم يكن رجلا بالمعنى الحقيق .. وقد استولى الشذوذ الجنسى على الحضارة الاغريقية مئات السنين ، ولم يكن يستنكره أحد .. واستطاع سقراط بذكاء وخبث عميق أن يفرض احتقار الجسد الإنسانى .. سواء جسد الرجل أو جسد المرأة واحتقار كل ما هو حسى .. ولأن سقراط كان يرى أن المرأة هى حس فقط وجنس فقط استبعدها من دنيا الحياة العقلية . ورأى أن المرأة والجسد والحس شرور يجب أن يتخلص منها الإنسان ..

ووراء سقراط وتحت تأثيره الهائل سارت الفلسفة والأدب والمسيحية أيضا حتى يومنا هذا ..

أما خصوم المرأة فهم الذين يرون أن المرأة إنسان كالرجل . لاشك فى هذا . ولكنها مختلفة عنه فى تكوينها الجسمى والنفسى والتاريخى أيضا . وتاريخها القريب هو المسئول عن ضيق كتفيها وضخامة أردافها وقصر ساقيها وضيق أفقها . وأن أعظم عمل تقوم به المرأة هو أن تكون أما . والأمومة هى العمل الإبداعى الوحيد الذى تنفرد به المرأة . أو الأنثى عموما .

والمرأة بطبعها لا تحب أن تستقل بنفسها وإنما هى تعتمد على الرجل فى كل شىء . وليست لديها أية قدرة على الإبداع والمغامرة . بل إن الأعمال التى تهم المرأة لم تتفوق فيها فلا توجد طبيبة مولدة ممتازة ولا مصممة أزياء عبقرية .. وعلى الرغم من المرأة تبكى بمناسبة ومن غير مناسبة فلم تخترع علاجا للبكاء .. ولم تؤلف مأساة واحدة خالدة . ولأن تجربة المرأة العملية قصيرة فهى لذلك لا تصلح للأعمال خارج البيت . ومكانها الطبيعى الخطير جدا هو البيت . هو الأسرة . هو أن تكون زوجة وأما .

أما أنصار المرأة فيرون أن المرأة لا تختلف كثيرا عن الرجل . بل إنها أقوى من الرجل جسميا وأقدر على احتمال الألم والمرض .وهى أطول عمرا من الرجل .

ولا يوجد أى فارق فى تكوين جسم المرأة ولا وظائفها العضوية . وبقاء المرأة فى البيت تعطيل لقوة هائلة يمكن أن ينتفع بها الإنسان . ولقد جربت الإنسانية طوال عشرات الألوف من السنين كيف تكون حياتها الاجتماعية والخاصة فى ظل سيادة الرجل وسيطرته فلماذا لا نجرب اشتراك المرأة مع الرجل فى الحياة الخاصة والعامة ؟ .

لماذا لا نجرب دخول العنصر اللطيف فى حياتنا العامة والخاصة ؟ ولماذا لا يكون اشتغال المرأة بنفس الشروط والظروف التى يعمل فيها الرجل ؟ .

والمجتمع الآن قد علم المرأة وفتح لها كل الأبواب . ولا يمكن أن يكون المجتمع قد خسر شيئا بهذا العدد الهائل من الأيدى العاملة .. وقد دخلت المرأة فى كل المجالات : العلم والعمل والفن والأدب والسياسة والادارة .

وإذا كانت هناك شرور فى المجتمع فليس سببها أن المرأة تركت البيت وذهبت إلى المكتب أو إلى المصنع . وإنما السبب هو أن الرجال ما يزالون مسيطرين على كل شىء .. وأن كوارث الدنيا تنبع وتنمو وتنفجر فى عقول الرجال وأيديهم ..

وعشاق المرأة هم الذين يرون فيها ينبوعا رائعا للجمال والمتعة . وأن الحياة بدون المرأة مستحيلة . وأن السماء قد أهدت البشرية حواء وبناتها لكى يكون أبناء وأحفاد ويكون حب .

بل إن النفس الإنسانية بها كنوز لا يمكن أن تنفتح إلا بأصابع المرأة وإلا باهتمامها . فالله قد خلق المرأة لكى نحبها : إما زوجة أو ابنة . وإذا أقبلت المرأة فالحياة هى الجنة وإذا ابتعدت فالحياة قطعة من العذاب وإذا كان لابد للإنسان أن يختار الراحة بغير امرأة والعذاب معها .. فإنه يفضل العذاب معها على الراحة مع عشرات الملايين من الرجال . وإذا نحن جردنا الأدب والفن من المرأة ، لم يبق بين أيدينا شىء . والأدباء والفنانون هم أكثر المخلوقات حساسية وأكثرهم

إدراكا للجمال وأقدرهم على التعبير وأبرعهم فى التسامى بالحرمان والشوق والحنين .

وأعداء المرأة هم فى نفس الوقت أعداء الإنسانية كلها وأعداء الحياة . وهم عادة أناس مشوهون جسميا وعقليا أيضا .

وخصوم المرأة هم أكثر الناس حيادا مع المرأة وهم ينظرون إليها بعقل . والمرأة لا تحب أن ينظر إليها الإنسان بعقل . لأنها لا تعرف إلا أن يكون الإنسان : عدوا أو حبيبا . ولكنها لا تفهم أن يكون الإنسان عدوا حبيبا أو حبيبا عدوا . أو عاشقا بتحفظ أوكارها بحساب . ومع ذلك فقد استفادت المرأة كثيرا من خصومها . لقد أناروا لها الطريق . وأطلقوا حريتها بحساب . ومن بين خصوم المرأة عندنا : العقاد وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ .

وأنصار المرأة هم الذين يدفعونها إلى الحرية وإلى العمل وإلى تحمل الأخطاء فى تجاربها الجديدة . فالذى يعمل هو الذى يخطئ والذى يعمل هو الحر . والحر هو الذى يتحمل مسئولية العمل وما دامت المرأة حرة فلا خوف عليها إذا عملت . ويجب أن نحاسب الرجل إذا أخطأ دون أن نكتفى بحساب المرأة وحدها .

ومن أنصار المرأة كل المفكرين العلميين والاشتراكيين وفى مقدمة المفكرين الرواد طه حسين وسلامة موسى وإسماعيل مظهر . ومعظم الأديبات طبعا : مى زيادة وسهير القلماوى ولطيفة الزيات .

أما عشاق المرأة فهم كثيرون جدا . منذ أول إنسان قارن بين وجه المرأة والقمر حتى الرجل الذى قال : تعذبنى برضه أحبك . أو الذى قال وتجيب خضوعى منين ولوعتى بين إيديك .. أى حتى أحمد رامى ومعظم الشعراء الغنائيين . وهم الذين يحرصون على أن تظل المرأة كتلة من اللحم الحى عروقها تجرى بالبنزين وأنفاسها من نار .. والطريق إليها بالدموع والشوك .. وهى التى

يجب أن تتعذب وأن تحب العذاب والهوان .. وأن تظل ألعوبة فى يد الرجل وتلعنه .

ولا فرق بين أعداء المرأة وعشاقها . فأعداء المرأة يرونها (شيئا) كريها .. وعشاقها يرونها (شيئا) لذيذا .. ولا فرق بين أحمد رامى وبين مصطفى صادق الرافعى والفيلسوف سقراط .

والذين عشقوا المرأة والذين عادوها لم يقدموا لها شيئا ينفعها فى تحررها من قيود الرجل . بل إنهم جعلوا هذه القيود والصبر عليها وحب الذل والهوان ضرورة حيوية .

بل إننا لم نجد فى (ألف ليلة وليلة) دعوة واحدة إلى تحرير المرأة أو الإشفاق عليها . لأن المرأة متاع لذيذ . وهذا يكفى . والملك سليمان عندما حبس فى قصره ألوف النساء لم تسمع منه كلمة واحدة عن حرية المرأة . ربما كانت الفتاة (شالوميت) هى أول امرأة تمردت على استعباد وإذلال الملك سليمان ..

وأوضح صورة لالتقاء العشق والعداء للمرأة هى فى صورة (الحريم) ـ أى فى جمع أكبر عدد ممكن من العشيقات فى مكان واحد وتربيتهن وترويضهن للقاء السيد ، صاحب الحريم . سواء كان السيد شيخ قبيلة أو سلطانا من السلاطين .

فالسلطان يرى أن المرأة ضرورية . متعة ضرورية لا يستطيع أن يستغنى عنها . ولكنه فى نفس الوقت لا يحترمها ولا يرى لها أى حق . فهى (شىء) مودع أو ملقى هناك .. وفى حالة انتظار مستمر لإرادة السلطان الذى يريد أن يغرق فى الجنس ثم يضربه بقدميه بعد ذلك .

والذين يرون أن المرأة يجب أن تكون حريما هم أيضا الذين يرون أن المرأة يجب أن تكون (هانم) أى أنثى أنيقة فى انتظار الجائع دائما : زوجها .

والذين يرون أن المرأة لا حقوق لها . وأنها يجب أن تظل مربوطة فى ذراع

زوجها يبيعها ويشتريها ويشترط عليها أن تعمل أو لا تعمل .. أن تبقى أو لا تبقى . وأن يعاقبها كما يريد وأن يرميها فى الشارع كما يريد كل هؤلاء ينظرون إلى المرأة على أنها حريم .. على أنها جزء من ممتلكات الرجل . وأن الزواج ليس إلا عقدا للانتفاع المشترك بين ذكر وأنثى .. وأن الذكر هو الأقوى وهو صاحب الحق وأن الأنثى هى الأضعف ويجب أن تبقى كذلك . ويجب أن لا تقوى الأنثى . لأنها إذا قويت لم يصبح الرجل قويا . ومن المفروض أن يبقى الرجل قويا بحق ومن غير حق .

ولكن أكثر الناس عداوة للمرأة هم لاشك عشاقها لأنهم ينافقون المرأة ولأن المرأة ضعيفة أمام النفاق ولأن المرأة ضعيفة أمام الإطراء وأمام الكلمة الحلوة والنظرة الحلوة ولا تزال المرأة تفضل الرجل الذى يكذب عليها على الرجل الذى يصارحها . وإذا استعان الرجال المنافقون بالشعر والموسيقى فإن هذا الكذب يذوب فى أعماق المرأة فتحب العذاب والهوان وتنسى أن الذى تحبه هو الأداء والغناء والكلام واللحن والموسيقى .

أما أعداء المرأة من رجال القانون والفلاسفة فأمرهم سهل لأنه يمكن مناقشتهم بالعقل فلا موسيقى ولا غناء ولا نفاق ولا كذب .. ولأنها معركة حامية بين رجال . فهى معركة بالسلاح الأبيض .. وأساس المعركة : هل نحن كرجال نحترم إنسانيتنا أو نحتقرها ؟ هل نحن كرجال نرى أن الحرية من حقنا وليست من حق المرأة ؟ هل نحن كرجال نرى أن الكرامة حق للرجل والهوان حق المرأة ؟

إن الذين يرون ربط المرأة بالرجل وتعليقها من كلمة فى فم الرجل وتحويل المرأة إلى سلعة أو إحدى مستعمرات الرجل هم سلاطين عثمانيون يرون أن الرجل سلطان وأن المرأة حريم وأن الحريم ذبيحة تأكل وتشرب وتتعطر وتتجمل وتزف كل ليلة إلى فراش السلطان .

وإذا كانت كلمة (حريم) قد انقرضت من معظم دول العالم فإن المعنى نفسه ما يزال باقيا فى عقول كثير من الناس فى بلاد أخرى .

* * *

وأمامى الآن كتاب ضخم صدر أخيرا بعنوان (الحريم) للكاتب الانجليزى ب . بنزر وهو يعرض كيف نشأ الحريم فى الدولة العثمانية أو على الأصح كيف اشتد سلطان الحريم فى الدولة العثمانية ، حتى كانت النساء هن اللاتى يحكمن أما السلاطين فكانوا غارقين فى الخمر . ونظام الحريم قديم جدا .. كان فى إيران وفى العراق القديم وفى الصين . ولكن كلمة (الحريم) ومعناها فى اللغة العربية الشىء (الحرام) أو الشىء المحرم ـ أصبحت خاصة بالدولة العثمانية وحدها لأنه لم يحدث فى التاريخ أن أصبح مثل هذا العدد الهائل من النساء السجينات فى قصر السلطان سجينات فى الظلام والرطوبة والعطور وسجينات إرادة السلطان وأغوات السلطان .

وآخر السلاطين العثمانيين هو السلطان عبد الحميد الذى طرد سنة ١٩٠٩ كان يحتفظ بأربعمائة جارية عشيقة وبمائتين من الخدم الأغوات السود والبيض . ولم يعرف العالم الغربى حقيقة نظام الحريم إلا فى أوائل هذا القرن مع أن نظام الحريم السلطانى كان موجودا ابتداء من القرن الخامس عشر فى العاصمة التركية ، فمن أوائل القرن الخامس عشر لم يعد للسلطان زوجة شرعية وإنما السلطان كان لا يقامر بالزواج من فتاة فقد تنجب له بنتا . ولذلك فهو لا يتزوج إلا الجارية التى تنجب له الولد . فإذا أنجبت الولد اتخذت لها لقبا جديدا هو (السلطانة الوالدة) وابن السلطانة الوالدة سوف تكون له مئات الجاريات والأم هى التى تختار لابنها العشيقات .. مئات العشيقات فإذا أنجبت العشيقة ولدا تحولت إلى سلطانة والدة فكل السلاطين العثمانين هم أبناء جاريات .

أما حياة الحريم فهى انتظار لمشيئة السلطان .

ولكن هناك طريقا طويلا قبل تحظى الجارية بنظرة واحدة من عين السلطان فالجارية تدخل السراى ـ والسراى كلمة ايطالية معناها قفص الوحوش .. وفارسية أيضا معناها المكان والسراى بمعناها الايطالى أقرب إلى طبيعة القصر أو السراى التى تعيش فيها الحريم ـ وبعد أن تدخل السراى تتدرب على أن تكون تلميذة مجتهدة لإحدى العشيقات . وتتعلم الغسل والطبخ .. وبعد ذلك تصبح عشيقة . وتنتظر إرادة السلطان .. ولنفرض أن إحدى العشيقات كانت محظوظة لدرجة أن السلطان رآها وليس من الضرورى أن يكون قد ملأ عينيه منها . وإنما يكفى أن يرمش أمامها وهذا (الترميش) معناه أن هذه الفتاة تتحول فجأة إلى كائن آخر .. تدخل الحمامات وترتدى الملابس وتغرق فى العطور وبعد يوم أو يومين يحملها الأغوات على كرسى . ويدخلون بها غرفة السلطان . ويضعونها أمام سريره . ويكون السلطان عادة قد تغطى وتجىء العشيقة الجديدة وتقترب من الفراش وتأتى من الأصوات والحركات ما يجعل السلطان يصحو .. وهنا يختفى الأغوات . وفى الصباح المبكر يحملون العشيقة إلى جناحها وتكون كل الأبواب والنوافذ مغلقة على الجانبين ثم يكتبون فى أحد السجلات تاريخ اللقاء السلطانى وينتظرون المولود السعيد فإذا كان ولدا فهى سلطانة . وإذا كان هذا أول أولاد السلطان فهى الجالسة على العرش إلى جواره . أما إذا غير السلطان رأيه وكان (الترميش) ليس دليلا على إعجابه بها وإنما كان سببه أن ذبابة اقتربت من وجهه السلطانى فيهجم الأغوات على العشيقة الجديدة ويمزقون ملابسها ويلقون بالماء القذر فوقها . ثم يعيدونها إلى بداية السلم .. أى إلى كنس البلاط .. ومن المؤكد أن هذه المسكينة لن تكوم لها فرصة أخرى لكى ترى السلطان إلا ميتا .

ولم يكن أمام الحريم إلا الانتظار .. وإلا التآمر والتزاحم على الطريق إلى السلطان .. كن يستخدمن كل الأساليب : الاغتيال والسم والفلوس والهدايا .. ومن أشهر الجاريات واحدة روسية اسمها روكسيلانا استطاعت أن تكون

سلطانة وزوجة للسلطان سليمان القانونى . واستطاعت أن تتآمر على إخوة السلطان فقتلتهم جميعا .. وكان عددهم ١٩ أميرا ويقال إنها قتلت السلطان نفسه لكى يبقى ابنها سلطانا بعد ذلك . ورروكسيلانا هذه هى التى بدأت عصر دولة الحريم .

ولقد بدأت الدولة العثمانية فى القرن الخامس عشر بأن كان للسلطان حريم هائل ولكن ابتداء من هذه السلطانة الجريئة أصبح للحريم نفسه سلطان وسيطرة مخيفة .

وعندما يكتشف أحد السلاطين ـ وهذا يحدث نادرا ـ أن هناك مؤامرة ضده فإنه يفتك بالحريم . وقد حدث أن أمر أحد السلاطين بإغراق كل الحريم فى البسفور . فوضعت النساء فى شوالات وألقين فى قاع البسفور وكان عددهن ٣٠٠ فتاة بين العشرين والخامسة والثلاثين .

وقد أغرق السلطان سليم ٢٥٠ امرأة فى ليلة واحدة لا لشىء إلا لأنه يريد تغييرا فى الحريم .

أما دور زوجة السلطان فهو لا يزيد عن متابعة العشيقات الأخريات . والتآمر عليهن أو التآمر على السلطان نفسه . أما إذا رضيت بنصيبها فإنها تشغل وقتها فى الأعمال الخيرية مثل بناء المساجد والمستشفيات .

وهذا الكتاب يلفت النظر إلى أن نظام الحريم لم يكن هو سبب الانحلال العثمانى . وإنما كان من مظاهر الانحلال فقد انشغل الرجال بالنساء عن كل القضايا للشعب والدولة . فالسلاطين قد ولدوا من أمهات جاريات وعشن فى سجن الحريم ولما كبر السلاطين عاشوا مرة أخرى فى الحريم .

فالسلاطين لم يكن لهم حريم فى الحقيقة وإنما الحريم هو الذى أنتج السلاطين . هو الذى أنتج أناسا يكرهون الحرية . لأنهم لم يعرفوا كيف يتحررون

من عقلية الحريم وحياة الحريم . وهم لا يفهمون حرية الآخرين ولا الأخريات فهم رجال من صنع النساء من صنع سجينات النساء .

وقد اختفى الحريم فى أوائل هذا القرن واختفى السلاطين ولم يبق فى السراى القديم والسراى الجديد إلا القصر المعروف الآن على البسفور (توب كابى) .

ولكن ما تزال هناك عقلية الحريم عند بعض الرجال . إنهم لا يستطيعون أن يعيدوا عصر الحريم . ولكنهم يستطيعون فقط أن يذكرونا به وقد نسيناه . ولم يبق إلا بقع قليلة على الأرض هى التى تخفى وراء قصورها العالية سجونا للنساء غارقة فى الخمر والعطر . ولكن هذه السجون وهذه القصور سوف تتلاشى فالحرية أقوى من الشمس . بل الحرية هى الشمس التى لا تغرب أبدا .

* * *

ومن المؤكد أن عقلية السلاطين هى التى يتعانق فى داخلها : عشق المرأة واحتقارها .. عشق جسدها واحتقار عقلها .. والمرأة حيوان عاقل كالرجل - واحتقار العقلية الإنسانية هو احتقار لأعز ما يملك الإنسان لأخطر ما يتميز به المواطن الحر عن أبناء الجاريات فى عصر السلاطين .

وإذا كان حريم السلطان قد اختفى فإن سلطان الحريم على الرجال وغرائز الناس سوف يختفى أيضا قريبا عندما تظهر صيغة جديدة لقانون الأحوال الشخصية فى مصر وغيرها من البلاد العربية والافريقية .

لقد انتهى الحريم وانتهى السلطان .. فلا سلطان إلا لكرامة الإنسان .

كيف خلق الله ؟

بدون المرأة الحياة صعبة..
مع المرأة الحياة أصعب!

ما الذى يعرفه السمك عن الماء ؟ .
ما الذى يعرفه العصفور عن الهواء ؟ .
ما الذى يراه القط فى الوعاء ؟ .
ما الذى يفهمه الرجال عن النساء ؟ .
(منقوش على أحد المعابد البوذية)

«من يعرف عدد رمال الشاطئ يعرف ما الذى تقوله امرأة لامرأة عن امرأة ثالثة ..

«من يعرف عدد أمواج البحر يعرف ما الذى تقوله امرأة لأمها عن زوجها ..

«من يعرف عدد نجوم السماء يعرف ماذا تقوله زوجة رجل غنى عن زوجة رجل أغنى .

«من يعرف حقيقة .. يعرف سر المرأة ..»
(منقوش على معبد صينى).

بهذه المعانى مهدت الدكتورة اليزابيث باركر لكتابها القيم «أعمار المرأة السبعة» أو «المرأة لها سبعة أعمار» أو «المرأة لها سبعة أرواح» .. والمؤلفة طبيبة .. ودراستها للمرأة دراسة علمية .. فهى تقلب المرأة كآلة بشرية لها دم ولحم

وأعصاب وغدد سحرية ..ولها مشاكل نفسية وعقد اجتماعية . والرجل وراء مصائب الدنيا التى تحيط بالمرأة .. لأن المرأة تلميذة فى عالم الرجل . ومجرمة فى محكمة الرجل .. والرجل هو الذى أراد لها أن تكون على النحو الذى يراه ويشكو منه . فهو يشكو منها وهو فى الحقيقة لا يشكو إلا مما صنعت يداه .

وقد أعلن الرجال من أيام الفراعنة أن المرأة سر. وأنها لغز. وأحيانا أنها لعنة . وأنها الجنس الآخر. وأنها الجنس الضعيف . وأنها الجنس العنيف .. وأنها الجنس الضائع .. وأنها الجنس فقط .

والنصائح التى كانت تقولها الأمهات للزوجات من أيام الفراعنة والصينيين تؤكد أن نظرة القدماء للزواج مخيفة . وأنه لاشيء أقسى ولا أصعب من علاقة رجل بامرأة .

وكلمة الجنس لا تخيف المرأة .. وهى أيضا لا تشينها .. فالمرأة جنس طبعا .. وسوف تبقى كذلك . والمرأة شخصية أنثوية . وعقلية أنثوية .

ولكن الرجل يميل إلى أن يضيف شيئا فيقول : أفهم أن المرأة أنثى . وكل شيء فيها يؤكد أنوثتها .. ولكن عقل المرأة غريب جدا ..

وهذا صحيح .. فليس عقل المرأة هو الغريب .. ولكن العقل نفسه شيء غريب .. وجهاز عجيب .. عند المرأة وعند الرجل .. وإلا فمن الذى يستطيع أن يقول لنا ما معنى أن يتذكر الإنسان .. ما معنى أن ينسى الإنسان . وما معنى أن يحب وأن يكره وأن يخاف . كل هذه معان لا أحد يعرفها بالضبط .. وفى علم النفس عشرات النظريات المختلفة . ومئات العلماء العظماء الذين لم يتفقوا على هذه المعانى . والنتيجة هى أن أحدا لا يعرف بالضبط ما معنى العقل . عقل الرجل وعقل المرأة ..

والرجل يجب أن يقول : ولكن سلوك المرأة معقد جدا .. واندفاعتها

صارخة . وعواطفها متطرفة . وهى تنتقل من حالة نفسية إلى حالة نفسية بسرعة مدهشة .

وهذا صحيح .. ولكن كيف يفسر العلماء ذلك ؟ .

إنهم أيضا لم يتفقوا على رأى .. إنهم يذهبون إلى البيوت وإلى المعامل وإلى المستشفيات ويتفرجون على المرأة المريضة والمرأة السليمة . ويضربون رءوسهم بأيديهم .. ثم يضربون رءوسهم فى جدران الليل والأرق . ولا يصلون إلى معنى واضح . فإذا كان هذا موقف العلماء المتخصصين فلماذا نختار نحن معنى واحدا لا يقبل المناقشة وهو أن المرأة متقلبة متغيرة ؟ .

ونكتفى بهذا المعنى الذى لم يتفق أحد من العلماء على صحته . إنه كسل من الرجل فى أن يناقش هذه الأفكار الثابتة الخاطئة . وحرص من الرجل على أن يتهم المرأة .. ويستريح .. ويتركها تتعذب . أو يتركها حائرة فى فهمه هو . وفى فهم نفسها .

أما الحقيقة فهى : أن المرأة انفعلت وتنفعل كما علمها الرجل . واعتقدت ما علمها الرجل .. وخافت كما علمها الرجل أن تخاف .. فالمرأة تتصرف وفقا للتقاليد والعادات الموجودة فى عصرها . فهى تفعل ما يتوقعه الناس منها . والمرأة ابنة عصرها . أما الرجل فكثيرا ما يكون متمردا على عصره .. أما المرأة فمن النادر أن تتمرد لأنها تجيء وراء الرجل .. تلميذة مطيعة من أيام الغابة إلى زمن الالكترون ..

ولذلك لا يمكن أن تشعر شهر زاد بعقدة النقص ، ولا بأنها مخلوق شاذ ولابد أنها شعرت بالفخر لأنها استطاعت أن تحتفظ بشرف العذراء ألف ليلة وليلة ..

ثم إننا لو تساءلنا : من هى المرأة الحديثة وما هو سلوكها لوجدنا صعوبة فى

الإجابة . فإذا أخذنا هذا العام وإذا اخترنا المجتمع الأمريكى بالذات . فن هى المرأة الحديثة ؟ إن هناك ملايين السيدات العواجيز وملايين السيدات الناضجات والشابات .. وكلهن يعشن فى عصر واحد .. وفى بلد واحد . فن هى المرأة التى تمثل العصر الحديث ؟ .

فإذا اخترنا الشابات دون العواجيز فلماذا ؟ إن الشابات يعشن فى القواعد والقوالب التى وضعتها سيدات قبلهن .. سيدات فى كفاحهن ضد الرجل . وضد سلطان الرجل . وإذا اخترنا العواجيز فلا يمكن أن يكون هذا الاختيار دقيقا لأنهن لا يرقصن ولا يدخن الحشيش ولا يحملن قبل الزواج ولا يعترضن على الحرب فى فيتنام ! .

ونساء الريف غير نساء المدن .. والفتيات العاملات غير الفتيات المتزوجات فقط .. والمرأة الغنية غير المرأة الفقيرة .. مع أنهن جميعا يعشن فى عصر واحد وبلد واحد . فسلوك المرأة متنوع وليس جامد الخطوط ولا ثابت الألوان .

وإن كانت المرأة هى المرأة .. وجسمها هو جسمها وبناؤه ووظائفه وأنوثتها واحدة مهما كان لونها. وأمراضها واحدة . وما يريده الناس منها واحد ..

والمرأة فى تكوينها الجسمى والنفسى تمر بمراحل مختلفة .. أو بأعمار متعددة . وهذه المراحل ليست محددة تحديدا واضحا فهى تتداخل بعضها فى بعض . كما تتداخل البذرة فى النبات الصغير. والنبات الصغير يتحول إلى شجيرة ثم إلى شجرة ثم يجىء دور الأزهار والثمار .

وجسم المرأة يتغير ووظائفها تنشط لتواجه احتياجات كل مرحلة من مراحل عمرها .

والحياة ليست مقسمة تقسيما واضحا .. وإنما هى عملية مستمرة متطورة .. ويمكن وصفها بأنها عملية صاعدة .. فالمرأة ترتقى فى تكوينها الجسمى والنفسى حتى تصل إلى مرتبة النضوج .

والمراحل التى تمر بها المرأة عادة : مرحلة الحمل .. أى عندما تكون طفلا جنينا .. ومرحلة الطفولة والشباب .. ومرحلة النضج . ومرحلة الزواج والأمومة ومرحلة عدم القدرة على إنجاب أطفال . والمرحلة الأخيرة وهى مرحلة الهدوء الجسمى والنفسى ـ يمكن أن توصف هذه المرحلة بأنها مرحلة الشيخوخة .. لولا أن هذه التسمية غير دقيقة .

وبعض الناس يصف الحياة بأنها مثل سفح الجبل .. والإنسان يصعد هذا السفح حتى يبلغ القمة . وعند القمة يتوقف الإنسان قليلا . ثم يتجه إلى السفح الآخر . أى إلى الهبوط . وهذه الصورة غير دقيقة . لأن الحياة طريق صاعد . وهذا الطريق يتسع أحيانا ويضيق . وتعترضه العقبات أو الغابات أو البحيرات ولكن الانسان يمضى فيه صاعدا . ومرحلة النضج التى تصل إليها المرأة ليست هى المرحلة السابقة على الذبول والشيخوخة . وإنما هى المرحلة التى تنبع منها راحة الجسم والنفس والعقل .. فالمرحلة التالية على النضج هى مرحلة استمرار النضج ولكن بكثير من العقل والهدوء .

وهذا الغموض وهذه الألغازالتى توصف بها حياة المرأة لم تعد سرا . فمن طريق الطب الحديث أصبحنا نعرف الكثير جدا عن المرأة . فبعد أن اكتشف الطب الحديث الوظائف الخطيرة للغدد الصماء لم يعد فى جسم المرأة سر واحد لا نعرفه. لم يعد خافيا علينا أن نعرف غضبها وبكاءها .. لم يعد سرا ذلك التقلب الدائم لحالتها النفسية مرة كل شهر .. وأياما كل شهر .. وهذه الغدد تؤثر فى وظائفها الجسمية وفى غددها . إنها بركان من الحيوية وليست نوعا من الفوضى . وإنما هى نظام دقيق إلى درجة الإعجاز . وفى هذا النظام الدقيق فى الغدد تتجلى عظمة الخالق . فالإنسان هو أعقد وأعجب المخلوقات التى نعرفها .

ومن مئات السنين .. ومن ألوف السنين أيضا كانت هذه الاضطرابات التى تصيب جسم المرأة تجعلها تشعر بأنها مجنونة . أو أنها فى طريقها إلى الجنون . وكان

المجتمع ينبذها . ويؤكد أنها فعلا مجنونة أو شريرة أو سامة . فالمرأة قديما ـ عندما كانت تصاب بالمرض الشهرى ـ كان المجتمع يطردها ـ يمنعها من تقديم الطعام أو عمل الطعام . ويمنعها من زيارة أى إنسان . وكان يعزلها فى بيت إلى أن تزول العفاريت التى تركبها .

أما الآن .. فالمرأة لديها معلومات طبية وعلمية كثيرة تسمعها وتقرأها . وكل هذه المعلومات تؤكد للمرأة أنها طبيعية . وأن ما يحدث لها هو شىء طبيعى . لأن تكوينها الجسمى ووظائفها مختلفة عن تكوين الرجل .. وهذا الاختلاف بين الرجل والمرأة ليس معناه أنه لصالح الرجل .. وإنما هما مختلفان فقط ..

ولكن المجتمع ظل مئات السنين يؤكد للمرأة صفاتها السلبية .. مثلا أنها ليست فى قوة الرجل .. أنها ليست فى ثبات الرجل .. أنها ليست فى ذكاء الرجل .. ليست فى عبقرية الرجل .. وأنها قلقة مضطربة . لا أمان لها . ولا إحساس عندها .. أى أنها رقيقة ولكنها رقة أمواس الحلاقة ناعمة وقاطعة .. فالرقة ليس معناها الضعف . ولكن معناها القوة الناعمة . كرقة الحرير اليابانى .. ناعم ولكنه متين .

وهذا يدل على أن المرأة تعيش فى عالم يعاديها . أو على الأقل ليس صديقا لها لأنه عالم الرجل . الرجل القوى والرجل الأب . والرجل الأخ والزوج . والقانون والعادات والتقاليد والممنوعات والمحرمات وكلها من صنع الرجل . كلها تشير إلى أن المرأة إنسان قاصر ومن الضرورى الحجر عليها وتقييدها .. وعلى المرأة أن تجد نفسها رغم هذا كله .. وأن تؤكد وجودها وتنمى شخصيتها . وأن تواجه الرجل . وتعاديه وتصادقه وتعايشه بعد ذلك لتستمر الحياة .

والذى لا يعرفه الرجل عن المرأة هو هذه الحساسية الشديدة المرهفة فى تكوينها . وفى استطاعة المرأة أن تقوم بتجربة بسيطة .. وفى هذه التجربة ستجد أن كل ما فى جسمها يعمل وبرفق . ولكنه يعمل . فمثلا إذا خرجت للمشى على

البلاج . ونظرت إلى موج البحر بارتياح . وملأت صدرها من الهواء . ثم توقفت لحظة وتذكرت أنها كانت منذ أيام مع إنسان عزيز . أو أنها سوف تكون هنا مع انسان عزيز . وأحسست فجأة أن يدا امتدت إلى عنقها ولمست شعرها .. وتوقفت فى رعب وتحفز وارتفعت ضربات قلبها واحتشد الدم فى وجهها وسرت فى جسمها رعشة . ثم أدركت أنه لا أحد هناك . وإنما هى قد أغرقت فى خيالها .. هذه التجربة البسيطة جدا قد حركت ونشطت كل وظائف جسمها . وكل الغدد السرية المنتشرة فى الدماغ ووراء الحلق وفوق الكليتين وغيرها مثل الغدد اللعابية . كل الأعضاء والوظائف أصبحت فى حالة نشاط وتحفز . والعجيب فى تكوين المرأة أن هذا النشاط كله يمكن أن يحدث عشرات المرات فى اليوم الواحد . لأنها حساسة ولأنها سهلة الإثارة .

وهذه السهولة فى نشاطها الداخلى هى السر الوحيد لاضطرابها وقلقها وتغيرها وتبدلها . وهذا كله يجب ألا يجعل المرأة تحس أنها غير طبيعية وأنها مجنونة . وأنها دون الناس جميعا . وعلى الرجل أن يفهم ذلك أيضا . وهذا التفهم من جانب الرجل شىء ضرورى . لأنه جزء من المعلومات العامة . ولأنه فى نفس الوقت نوع من العذر يلتمسه للمرأة إذا اضطربت ضده أو إذا اضطربت من أجله .

ولكن ما الذى يريده الرجل من المرأة ؟ .

الذى يريده الرجل .. هو بالضبط ما تحاول المرأة أن تحققه .. فالمرأة تفعل ما يريده المجتمع والرجل هو المجتمع .

ومن المؤكد أن المرأة تريد أن تكون أنثى فى مظهرها وفى أفكارها وفى علاقتها . وهى تريد أن تنجح فى تحقيق هذه الرغبة .. والأسلوب الذى تستخدمه المرأة يتوقف على درجة الرغبة . وعلى الهدف . ولاشك أن المرأة ــ كل

امرأة ـ تريد أن تكون طبيعية . وأن تشعر بأنها طبيعية .. أى أنها أنثى . وأن أنوثتها واضحة لبنات جنسها ولأبناء الجنس الآخر.

ولكن المجتمع الذى تعيش فيه المرأة لم يحدد لها معنى الأنوثة . فالأنوثة مختلفة من مجتمع إلى مجتمع ، ومن طبقة إلى طبقة ومن عصر إلى عصر.

وإن كان المجتمع قد استقر على صفة واحدة من صفات الأنوثة هى : المظهر الجسمى للمرأة . فالمرأة يجب أن تكون لها جاذبية جسمية . يجب أن تكون ناعمة البشرة . لامعة العينين . وحريرية الشعر . وأن تكون فى جسمها انحناءات وبروزات . وكل ما يريد الرجل هو الجمال والشباب . وما دام المجتمع يريد ذلك فالمرأة أيضا حريصة على أن تحقق جمال الجسم . وأن تظهر مفاتنه . وأن تلفت الرجل بجسمها . وإذا كانت المرأة قد تعلمت والرجل أيضا . فما يزال الرجل يريد منها أن يكون لها جسم جميل . ومن النادر أن يختار الرجل المرأة لأن عقلها جميل . إذا صح أن يوصف العقل بالجمال .

والمرأة عادة عندما تريد أن تكون جميلة فهى تتوهم أن الجمال شىء والصحة شىء آخر. وأن الذى تفقده بالمرض تستطيع أن تكسبه بأدوات التجميل . وهذه غلطة . لأن الصحة قادرة على أن تحقق الجمال أيضا . لأن الجمال ليس مظهرا خارجيا فقط . ولكن الجمال نظام داخلى ووظائف منتظمة وغدد تفرز الهرمونات التى تحقق جمال الجسم . واتزان النفس . ولقد عاشت المرأة فى أواخر القرن الثامن عشر مريضة عليلة مسلولة . لأن الجمال فى ذلك

الوقت هو المرض ، هو الشحوب ، هو الضمور .. هو السعال ونزيف الدم . ولذلك قصرت أعمار النساء والرجال .. وكثيرون كانوا يتعجلون هذه النهاية فكانوا ينتحرون . ولاشك أن هذه مرحلة مريضة من الفكر الإنسانى ..

ولكن الصحة قادرة على أن تحقق الجمال الجسمى وتتوج المرأة بأنوثتها :

النعومة فى البشرة والليونة فى الأطراف والبريق فى العينين ، وتكامل الشخصية ..

والمرأة تصبح تعيسة جدا إذا لم تكن جذابة الجسم - إنها تحس بأنها ناقصة التكوين . بأن فيها عيبا جوهريا . وهو بالفعل عيب جوهرى . وهذا العيب يزداد إيلاما للمرأة فى مجتمع يرى أن الجمال الجسدى هو غاية الغايات ، وهدف الأهداف من المرأة .. وهذه المعانى منشورة فى الصحف والمجلات وقصص الحب وأفلام الجنس . الكل يصرخ : اكشفى عن جمالك يا حواء .

وأزياء وفن الألوان وعرض الأزياء هو أحسن أسلوب اهتدت إليه المراة لتكشف عن جمالها أكثر وأكثر . فليس صحيحا أن الفساتين تغطى جسم المرأة . وإنما هذه الفساتين تكشف عن جمالها .. ودلالها . ولا تكتفى الفساتين بأن تكشف جمال المرأة ، بل الفساتين تشير إليه من فتحة الصدر ، ومن شدة الحزام ، ومن الذيل الذى يرتجف فوق الركبة .. والألوان والقماش والتفصيلة .. كل هذه كلمات خرساء تشير فى بلاغة إلى جسم المرأة .

ولذلك فن أكبر المشاكل التى تواجه المرأة : جسمها .. ومعظم السيدات فى العالم سمينات . هذه قاعدة علمية .. حتى فى آسيا .. ولا شك أن هذه السمنة هى مصدر من مصادر أحزان المرأة على نفسها . وتعاستها . والسبب رقم واحد فى سمنة المرأة هو أنها تأكل كثيرا . وكذلك الرجل . وفى استطاعة المرأة أن تنقص وزنها . وهذا حلم . وفى استطاعتها أن تستخدم الحبوب التى تسد النفس عن الطعام . وفى استطاعتها أن تأكل المسلوق وأن تمتنع عن النشويات . ولكن ثبت بالدليل النفسى أن معظم النساء يفضلن الحبوب والامتناع عن الطعام ولا يلجأن إلى الرياضة . ويخشين أن تؤدى الرياضة إلى إظهار العضلات أو إلى إبراز العروق فى الساقين والذراعين .

وواضح أن سبب السمنة هو كثرة الطعام . والحقيقة أن هناك سببا آخر هو

نقص الطعام ـ أى نقص الأطعمة الضرورية جدا للجسم ـ فالناس لا يأكلون كل الأطعمة الجوهرية التى يحتاج إليها الجسم ، والتى تحتاج إليها أعضاؤه المختلفة .

ولا شيء يجعل تعاسة المرأة محققة مثل السمنة . وأحيانا يكون للمرأة قوام سليم . ولكن امتلاء جسمها باللحم يفسد القوام . وأحيانا يكون لها وجه جميل . ولكن جمال الوجه يضيع مع ضخامة الجسم .

والسمنة بالذات لا يمكن إخفاؤها فالمرأة تستطيع أن تغير لون شعرها . أن تصبغه . وتستطيع أن تغير لون بشرتها بالتعرض للشمس . وفى استطاعتها أن تطيل كعب حذائها . ولكن المرأة لا تستطيع أن تخفى الشحم الذى فى جسمها . فالسمنة معناها أن الجسم قد اختزن الكثير من الدهنيات . هذه هى القاعدة .

وهذه المرأة التى أتحدث عنها طوال هذه السطور هى المرأة الناضجة .. هى قمة النضوج الأنثوى . هى ملتقى الطفولة والشباب والأمومة . ولأنها ناضجة ولأنها قمة كل وظائفها ، فهى مشحونة بالحيوية . ومشحونة بالعواطف . ويمكن استخدام كلمة أخرى بدلا من كلمة مشحونة ـ فهى « متفجرة » بالحيوية . وهذا التفجر يراه الرجل انفجارا بالحركة وانفجارا بالبكاء وانفجارا بالدماء ..

وأمام هذه الانفجارات « المخيفة » التى يراها الرجل من المرأة ينسى أنه يعرف الحقيقة .. أو يتناسى الحقيقة . أو لعله لا يعرف . ولذلك فمن الضرورى أن يعرف الرجل ماذا يحدث . وهذا عيب فى تربية الرجل وفى تربية المرأة ويجيء الزواج فيظهر فيه هذا العيب الجوهرى . فالمجتمع يعد المواطن لكل وظيفة يقوم بها .. إلا الزواج . فلا يزال المجتمع رغم الحريات الكثيرة التى يستمتع بها ، لا يعد المواطنين لفهم مبادئ الحياة الزوجية .. أى مبادئ الحياة معا ولفترة طويلة .. إن هذه الحياة معا صعبة . ولكن ما هو السهل فى هذه الحياة ؟ . فلا شيء سهل ولا شيء بسيط . وإذا كانت كل علاقة « علقة » : وكل ارتباط هو « رباط » ، فإن العلاقة بين الرجل والمرأة هى أصعب العلاقات . ولكن الصعوبة ليست بسبب

المرأة وحدها . ولكن بسبب الرجل أيضا . ولكن الرجل لأنه هو الذى يحكم وهو الذى يؤلف الكتاب والأغنية والسيناريو ، فهو يتحدث عادة عن صعوباته هو : أى عن المرأة ـ فهو قادر على أن يشكو .. وقادر على أن ينشر شكواه . وقادر على أن يغرس ذلك فى عقل المرأة فتصدقه .. أى أنها تصدق أنها موضع شكوى . وأنها صعبة . وأن العيب فيها . ولكنها لا تعرف ما الذى تفعله . وتحتاج إلى أن يقول لها الرجل ذلك . أى يقول لها ما الذى يجب أن تفعله حتى لا تكون موضع شكوى .. ويصبح الرجل بعد ذلك : هو الطبيب وهو المريض وهو الداء وهو الدواء .. والمرأة هى الضحية ..

ولكن إذا عرفت المرأة بوضوح حقيقة هذه المشكلة المعقدة فإنها ستجد أنها بريئة وأن الرجل ظالم . أما الجريمة نفسها فهى مشتركة بين الرجل والمرأة .. فلا أحد برىء ولا أحد مجرم . وإنما الحياة جريمة يقتسمها رجل وامرأة وبمنتهى البراءة .

وهذه القصة من الأدب السنسكريتى جاءت فى الصفحة الأولى من الكتاب .. تقول القصة : يقال إن الله بعد أن فرغ من خلق الأرض والسماء والطيور والحشرات والأشجار .. وبعد أن فرغ من خلق الرجل . جمع بقايا كل شىء وخلق منها المرأة . خلق وجهها من استدارة القمر . وروحها من ارتعاشة الهواء . وبشرتها من نعومة الأفاعى . وعواطفها من التهاب النار . وخوفها من فزع القطة .. وجرأتها من شراسة النمر .. وإخلاصها من وفاء الكلب . وكلامها من عسل النحل . وغيرتها من إبر النحل .. وبعد ذلك أعطاها للرجل ..

ولم يمض سوى أسبوع واحد حتى عاد الرجل يرد هذه الهدية إلى الله وهو يبكى قائلا : أنت أعطيتنى هذه فخذها . فهى لا تكف عن الكلام ولا تسكت عن البكاء . ولا تعمل أى شىء .. وهى تريدنى أن أداعبها ليلا ونهارا .. خذها يارب .

وأخذها الرب غاضبا .. وبعد أسبوع عاد الرجل .. وهو يقول : أريدها يارب .. فقد كانت تغنى وترقص .. وكانت تغمز لى بعينيها بعد الغروب . وأنا أشكو من الوحدة .

وأعادها الله إليه .. وبعد ثلاثة أيام قادها الرجل إلى الله وهو يقول : تعبت معها يارب .. تعبت حتى لم أعد قادرا على الشكوى منها . خذها يارب .. خذها ..

وهنا ثار الله على الرجل قائلا : اختر لك شيئا .. هل تريدها أو لا تريدها ؟.. انطق فورا الآن وإلا أعدمتك وأبقيت عليها وخلقت للمرأة زوجا غيرك .. انطق ..

واستدار الرجل وهو يسحب حواء من شعرها .. وهو يقول : لا أنا قادر على بعادها ولا أنا قادر على قربها .. لا على الحياة معها .. ولا على الحياة بغيرها ! .

ثلاثة ألوان من الحب

- ١ -

الذين أحبوا حتى الموت

الحب كالعفاريت .. كل الناس يتحدثون عنه ولكن أحدا لم يره .

ولكن هذه السيدة تؤكد أنها رأت الحب ورأت عفريت الحب أيضا . وقد أصدرت ثلاثة كتب فى موضوع واحد : الحب والفرنسيون .. الحب والانجليز .. الحب والأسبان ..

وهى فى كل كتاب تؤكد أن لديها الأدلة القاطعة على أن الحب كان موجودا .. وأنها رأت أسلوبه فى الفن وفى بيوت الناس .. لأن الحب هو خليط من الفن والفضيلة .. وأنها استطاعت بالممارسة الطويلة أن تقول لنا : ما هو الفن .. وما هو الحب ..

اسمها : نينا ابتون . وقد تخصصت فى دراسة فن الحب وتقول : إنها فشلت فى حبها مرتين .. ولكنها هذه المرة لن تفشل .

وهى بالفعل لم تفشل . فكتابها الكبير جدا عن « الحب والفرنسيون » ابتداء من العصور الوسطى حتى يومنا هذا ، متعة فنية تاريخية ومثير جدا .. فهى لم تكتف بدراسة التاريخ .. وإنما وجدت متعة فى أن تنقل لنا صوره المثيرة ـ يمكن

أن أقول العارية جدا . فهى لم تكتف بأن فتحت أبواب التاريخ على الحب ، وإنما دخلت . وتفرجت واشتركت فى المناقشة .

وحماسها الشديد يدل على أنها تذوقت الكثير من القبلات والصرخات التى ملأت الكتاب .

والمؤلفة تجعلك تشعر بأنها سيدة تؤرخ للأزياء فى العالم .. وذلك بأن ترتدى هذه الأزياء واحدا واحدا .. من الملاية اللف حتى المايوه المجنون .

وقد اختارت نينا ابتون بداية الحب فى فرنسا فى العصور الوسطى .

وفى هذا الوقت كانت أوربا ـ وفرنسا أيضا ـ مشغولة بالحروب على حدودها . وبالحروب الصليبية ذهب الكثيرون باسم الدين للدفاع عن الأراضى المقدسة . ذهب الرجال وبقى النساء .

وكان هناك فراغ لا أول له ولا آخر .

والفراغ هو «الجو» الذى ينمو فيه الحب . فعندما تكون اليد خالية ، ينشغل الرأس بالأحلام .

الرأس يحلم بالطعام الذى يملأ المعدة ، والطعام الذى يملأ القلب ، وبعودة المحارب الذى سافر إلى بلاد بعيدة يحمل سيفه وصليبه .

وفى هذا الوقت لم يكن الحب معروفا بصورة صارخة .. ولم تكن هناك قصص حب معروفة . أى لم تكن هناك « نماذج » أدبية أو فنية للحب بين رجل وامرأة ..

وفجأة ظهر الحب .. وأغانى الحب .

وكان هذا الحب عربيا صميما . فقد عاد أحد النبلاء من معركة له فى جبال البرانس على حدود فرنسا وأسبانيا . ومع هذا النبيل عدد من الأسرى . رجال ونساء . أما النساء فقد ارتدين الفساتين السوداء . وقد غطين وجوههن بنقاب

أبيض . وكن سمراوات . وكانت الدموع بارزة فى عيونهن الواسعة . لقد عاد هذا النبيل منتصرا .

وفى الليل احتفل هذا النبيل بانتصاره . وكان من بين الأسرى مطربون . ومنشدون . وهؤلاء المطربون يغنون شيئا اسمه « الزجل » . لقد أطلق الفرنسيون فى ذلك الوقت على الأغانى العربية اسم « الزجل » . أما هذه الأزجال فكانت فى موضوع واحد هو : عذاب العاشق ، وصلابة قلب المعشوقة والإخلاص إلى الأبد .

وفى قلعة هذا النبيل « دوق كيتان » سمعت باريس لأول مرة أغنية عربية . ولأول مرة يدخل الأدب الفرنسى معنى « الشهامة » و « الفروسية » .. والموت من أجل المحبوبة . والحياة من أجلها ومن أجل الإخلاص لها حتى الموت .

والفرنسيون عندهم الاستعداد الهائل للحب وسيرة الحب . والحياة به وله .

فهناك أسباب جغرافية أدت إلى انتعاش الحب فى فرنسا أكثر من غيرها من البلاد . ففرنسا جوها معتدل . دافئة . لياليها صافية . قمرها يظهر كثيرا وراء السحب وبلا سحب . وفى الليل يولد الحب وينمو . وتحت الأشجار وعلى الأعشاب يتعانق العشاق .. ويلتقى التأمل والأحلام .. تأملات أبناء الشمال ، وأحلام أبناء الجنوب . وفرنسا دولة لها حدود فى الشمال ، ولها حدود على الجنوب .

وإذا كان العرب والفرس يتحدثون عن البلابل فى قصائدهم فالفرنسيون يتحدثون كثيرا عن الزهور وألوانها وأنواعها وعطورها .. وهم يرون أن الحب القادر على أن يجعل لكل شىء لونا ، ويجعل لكل لون معنى .

كما أن الفرنسيين يستطيعون أن يناموا فى الحقول ، فى ظل الأشجار نهارا ، وتحت أشعة القمر ليلا ، دون خوف .. فلا توجد فى فرنسا زواحف سامة .

وهناك سبب آخر وهو لأن الفرنسيين خليط من أبناء البحر الأبيض المتوسط وأبناء الشمال .. فقد أصبحت لديهم حرارة القلب ، وبرودة العقل . فأبناء البحر الأبيض فيهم حرارة حارقة . والحب حرارة ملتهبة . وفيهم برودة العقل الشمالى . والحب أيضا له قواعد وله أصول وله حدود .. وقد عرف الفرنسيون كيف يحترقون بعقل أو كيف يدق قلبهم بحساب . فكانت الأعمال الأدبية والفنية .. أى كانت النار فى داخل الآنية الزجاجية الشفافة . فكل عمل فنى هو عبارة عن قطعة من النار وقد اعتقلت فى إناء شفاف جميل ..

والسبب الثالث هو اللغة .. فاللغة الفرنسية غنية بكلمات الحب والهيام .. ورقيقة .. ومنها كلمة : أنت .. وما أسهل أن ينتقل المحب الولهان من مخاطبة حبيبته بقوله : حضرتك .. إلى أن يقول لها : أنت .

وبين كلمة « حضرتك » إلى كلمة « أنت » ينتقل كل شىء من الرجل إلى المرأة والعكس . تنتقل ملكية الدنيا كلها . فيصبح الرجل مالكا للمرأة ، وتصبح المرأة مالكة للرجل .. وملكة عليه أيضا .

وأخيرا هناك السبب التاريخى .. فى العصور الوسطى كان هناك نموذج من الحب لابد أن يؤثر فى سلوك وأدب الفرنسيين والأسبان والايطاليين .. والانجليز والألمان .. وهو « الحب الشهم » .. أو « أخلاقيات الفروسية » .

فقد ظهر فى فرنسا فى القرن الثانى عشر شعراء فرسان.. الذين يسمون بالطروبادور ــ وهى كلمة مأخوذة من كلمة « طرب » العربية ــ هؤلاء الشعراء أغلبهم من النبلاء .. أى من الشبان الذين عندهم متسع من الوقت ، وليسوا فى حاجة إلى البحث عن عمل . وليسوا فى حاجة إلى أن يعرف الناس أصلهم وعراقة دمهم .. فهؤلاء الشبان يؤلفون أغانيهم .. ويغنونها أيضا . وبلا مقابل .. حتى الحب نفسه بلا مقابل . إنهم يحبون للحب . ويحبون لأنهم يريدون أن يخلصوا وأن يتعذبوا فى الحب .. فهم يطلبون المزيد من العذاب فى الحب ..

وأول شاعر طروبادور فى التاريخ هو الدوق جيوم داكيتان (١٠٧١ - ١١٢٧) .

وهو ابن ذلك النبيل الذى عاد منتصرا فى الحرب ومعه المطربون والمطربات العرب . وعندما عاد أبوه من ميدان القتال . كان هذا الطفل واقفا على باب القصر . وسمعهم يقولون .

وفى الليل تسلل هذا الشاعر الصغير إلى حيث يجلس أبوه واستمع إلى الموسيقى والأغانى ورأى الرقص الشرقى الأسبانى .

وكان الطفل فى السابعة من عمره .. ولما مات أبوه كان فى الخامسة عشرة من عمره .. ولكن رأسه قد امتلأ وقلبه بدأ يتفجر بشىء يعرفه جيدا اسمه : الحب .

وقد أعلن أبوه للحاضرين أنه أتى بهذه الراقصات من بلاط الخليفة .. وأن هذه « الأزجال » التى يغنونها كانت من تأليف شاعر أعمى أسمه « مقدام » الذى تأثر كثيرا بما كتبه الفيلسوف العربى ابن سينا .. وهو أيضا يتغنى بالحب والعشق .

ولقد سألته زوجته : ولكن هؤلاء الناس ما الذى يعرفونه عن الحب ؟

وكان رد الدوق داكيتان : كل شىء ..

وعادت الزوجة تقول : كيف يتكلمون عن الحب وهم يحبسون زوجاتهم وراء ستائر ثقيلة ؟ .

وقال الزوج : بسبب هذه الستائر الثقيلة كان الحب وحده القادر على أن يزيح الستائر وكان هو وحده القادر على إدخال السلوى على قلوب الحريم .. فالحب يجعل كل امرأة فى الحريم ملكة على عرش لا أول له ولا آخر .. فالحب وحده هو طريق الخلاص .

وقد سمع الدوق عن قبيلة عربية اسمها (بنو عذرة) .. وهذه القبيلة مشهورة

بالحب العفيف .. بل مشهورة بشيء آخر أقوى من الحب .. إنهم يحبون حتى يموتوا .. أو يحبون أن يموتوا . فالحب عندهم والموت بمعنى واحد .

وقد تأثر الطفل جيوم داكيتان أول شعراء الطروبادور بكل ما سمعه من أبيه . وبعد وفاة أبيه انطلقت موهبة هذا الشاعر الشاب بالأغانى المثيرة .. والأغانى العنيفة الفاجرة أيضا . وكان هذا الشاعر يقول عن نفسه : ولا واحدة تستطيع أن تقاومنى .. ولا واحدة تكتفى بأن ترانى مرة واحدة .

ولم يكن مبالغا فيما قال ..

وفى ذلك الوقت كانت تدور المعارك من أجل المحبوبة . وكان تسيل الدماء . وكانت تذهب المحبوبة لإنقاذ حبيبها . فهى تغسل جروحه . وأثناء تجفيف الدم ينفتح القلب . فالحب يولد فى قلب المرأة عندما تهزها الشفقة والإعجاب بالرجل الذى تعذب من أجلها .

ولكن الحديث الطويل مع الفارس الجريح لم يكن محترما فى ذلك الوقت .. فكثيرا ما انتقلت الشائعات بأن فلانة تكلمت مع فارس جريح .. وكانوا يعيرونها بقولهم : كلامها صريح مع أصحاب الجروح .

وكان الطروبادور ينادون بالفضيلة إذا تغنوا ، ولكنهم فى الحقيقة ليسوا كذلك .

ولم يكن حب الزوجة فى ذلك الوقت شيئا محترما .. أو مطلوبا . وإنما كان الزوج ـ والكنيسة أيضا ـ يرى أن الإنسان يجب ألا يحب زوجته .. وإنما العلاقة بين الرجل والمرأة هى علاقة تعاون من أجل زيادة عدد سكان فرنسا .

ولذلك ظهرت فى ذلك الوقت أنواع غريبة من قمصان النوم الغليظة الجافة ، هذه القمصان تجعل الزوج إذا تمدد إلى جوار زوجته لا يستطيع أن

يفرق بين جسم الزوجة والحائط . لأنه ليس من الضرورى أن يكون هناك حب .. وإنما يكون هناك أولاد فقط .

وكثير من هؤلاء الشعراء العشاق كانوا يختمون حياتهم بالتكفير عنها . أى بأن يذهبوا إلى الأديرة .. أو بأن يوصوا بممتلكاتهم إلى الكنائس ..

وقد اختلطت القيم فى ذلك .. فالعاشق يذهب إلى الكنيسة يقسم على الحب والإخلاص مدى الحياة أما الزوج فيقسم على الزواج بلا حب مدى الحياة .

وفى هذا الوقت كان ينام العشاق والسيف بينهم .. فكل من تساوره نفسه أن يقترب من المعشوقة يجب أن يغمد السيف فى قلبه ..

وأصبح من المألوف أن ينام العاشق إلى جوار معشوقته عارية . فلا يمسها .

وفى هذا الوقت أبرزت الكنيسة تمثال العذراء .. أى نموذج «الحمل الطاهر» .. أى نموذج للسيدة الطاهرة التى حملت دون أن يمسسها بشر .

وقد استولى هذا المعنى على الفكر والفن فى العصور الوسطى لدرجة أن المحبين كانوا يرون أن العلاقة بين الرجل والمرأة يجب أن تكون طاهرة أو يجب ألا تكون علاقة تؤدى إلى حمل .

وقد حدث أن تزوج أحد الشبان .. ولكنه قرر أن تكون العلاقة طاهرة . فذهب وأخفى خاتم الزواج وراء تمثال للعذراء . وفى ليلة زفافه استغرق فى النوم . وزارته العذراء فى نومه وعاتبته على انه يخونها مع امراة أخرى فنهض من فراش الزفاف وذهب الى الدير بقية حياته .

* * *

أما ملامح المرأة فى ذلك الوقت ، فالصور واللوحات والتماثيل تكشف عن

نوع غريب من الجمال . فالمرأة قد تغطت كلها وبالأزياء طبعا .. وهى ترتدى الملابس الخضراء إذا كانت حديثة العهد بالحب .. والملابس الزرقاء إذا كانت مخلصة فى الحب .

وكانوا يفضلون الشقراوات فى ذلك الوقت أيضا .

ولكن اللوحات تفضح لنا جمال المرأة فى ذلك الوقت : فهى ضيقة الكتفين نحيفة الذراعين مفعوصة النهدين .. وهى مدببة الأنف منفوخة الجبهة ..

فيما عدا سيدة واحدة هى «أنييس سوريل» التى كانت عشيقة الملك شارل السابع . فقد اكتشفت فى نفسها مظاهر الأمومة .. فارتدت فستانا عارى الصدر .. فبرز نهداها .. وبهذا الفستان أصبحت النهود العالية موضة . وكان المثل عندهن : النهد الذى يمكن أن يثبت عليه الشمعدان فلا يقع .

ولم يكن المجتمع فى ذلك الوقت يتسامح مع الخيانة الزوجية فالزوجة الخائنة يحلقون شعرها ويلقون بها فى السجن حتى تموت .

أما العشيق فكانوا يسلخون جلده وبعد ذلك يقطعون بعض أعضاء جسمه ويتركونه حتى يموت .

وكانت الأغانى فى ذلك تطلب من العاشق الولهان أن يحترس فى اختيار من يبعث معهم برسائله إلى المعشوقة .

وانتشرت فى ذلك الوقت الأمراض الخبيثة التى انتقلت من أمريكا .. إلى ايطاليا وفرنسا .. وكانوا يسمونها أمراض نابلى .. وكان الايطاليون يسمونها : أمراض باريس .

وفى سنه ١٢٢٣ صدر قرار بسجن سيدة لأنها شتمت جارة لها بقولها :

إلهى ربنا يبتليك بمرض نابلى .

وفى القرن الخامس عشر ظهر ماريشال اسمه جيل دى رتس .. هذا الرجل اتهموه بقتل مئات الأطفال الصغار . فقد كان شديد الشذوذ .. ولذلك صدر قرار بإعدامه حرقا .

وكان هذا الماريشال أحد الأشرار الذى سبقوا الماركيز دى صاد الذى نسبت إليه كلمة «الصادية» أى لذة تعذيب الآخرين .

وفى هذا العصر كنا نلمح بعض اللفتات الغريبة من الملك روبير الطيب .. فهو كان صديقا للبغايا والغانيات .. وقد حدث أن رأى وهو فى طريقه إلى الكنيسة «شابين يتعانقان» ، فنزل من فوق حصانه وغطاهما بردائه .. وانصرف يصلى .

* * *

وفى القرن العشرين وبعد الحرب العالمية الأولى نجد حرص الناس على الحياة .. على أن يعيشوا بعد أن مات منهم أكثر من مليون فرنسى . ولذلك نجد الحب بعد الحرب العالمية الأولى يصبح حسيا جدا .. أو حسيا فقط . ونجد أدباء كبارا يرفعون رايات العرى والتعرى . ونجد من يقول : إن الأنسان استطاع أن يجعل من الجنس وهو وظيفة حيوانية ، ينبوعا له معنى جميل ..

ولكن انتشار «الحسية» الشديدة يرد هذا المعنى الجميل إلى مجرد وظيفة .. ويجعل الينبوع يفيض بالوحل .. وليس بالجمال .

وفى كل القرن العشرين نجد الكثير من المعانى الفنية والقيم الجمالية تصبح ضحية للشك والضياع .

وضاع الحب بين المعانى التى ضاعت فى زحمة الشكوك والارتياب والخوف من الموت ، والخوف على الإنسانية كلها والسفر إلى الكواكب ــ أى هجرة الناس من الكرة الأرضية والهرب من مصائبها وانشغال الناس بالناس وإطعام

الناس وتحرير الناس ، والإبقاء على الناس من أجل المحبة العامة ، وليس الحب بين اثنين فقط من الناس ..

والعاشق الولهان قريب إلى حالة الموت .. لأن العاشق لا يرى أى تغيير فى الدنيا ، فهو لا يراها ويريد الدنيا أن تقف وأن تسكن . وأن تظل السعادة الأبدية . وأن يخلو له الكون هو ومحبوبته . فالعاشق ــ إذن ــ يتصرف كأنه ميت .. كأنه لا يشعر بما حوله .. فهو يريد أن يعدم الدنيا كلها ليعيش هو ..

مثل هذه النزعات الفردية العنيفة قد تلاشت فى القرن العشرين . فقد ظهر نوع آخر من الحب .. ولكنه ليس حبا سليما .. إنه حب مريض .

وإذا كان الكبار قد انشغلوا عن الحب ، فسيظل المراهقون أمراء الحب .. وإذا قام الإنسان بإجراء مباريات فى كرة القدم على ظهر القمر ، فلن يتوقف الأطفال عن لعب الكرة فى الحوارى .

ولذلك سيبقى الحب لعبة الصغار ، ما دام هناك أطفال صغار فى أى مكان على الأرض أو على أى كوكب آخر .

ـ ٢ ـ

العربة والحصان والحب!

أما الذى يحيط بهذه الجزيرة أو ما الذى يجرى فيها فلا يمكن أن يكون الحب . ولا لغة الحب ولا كل ما هو مألوف فى العواطف بين الناس فى القارة الأوربية .

وهذه المعانى هى التى جعلت السيدة « نينا ابتون » تحس أن العالم كله يتحداها أن تجد إنسانا واحدا فى انجلترا يحب .

ولكى تخفف على نفسها روح التحدى وتجىء عبارتها هادئة تخيلت حوارا يدور بينها وبين القارئ العادى :

القارئ : لم أملك إلا الابتسام عندما عرفت أنك تؤلفين كتابا عن الحب عند الانجليز .

المؤلفة : أى نوع من الابتسام ؟ .

القارئ : ابتسام السخرية طبعا .

المؤلفة : إذن فقد صدقت تلك التشنيعة التى أطلقت علينا وهى أننا لا نعرف الحب .

القارئ : لا تستطيعين أن تنكرى أن نصيبنا نحن الانجليز من الحب ضئيل جدًّا .

المؤلفة : هذه غلطتنا . فقد تركنا لأدباء القارة الأوربية حرية تصدير نظريات

الحب إلى بلادنا و إغراقنا فى الغرام وفى أشياء أخرى كثيرة .. ولكننا أثبتنا بعد ذلك قدرتنا على العمل .

القارئ : وهل وجدت نماذج للمحبين فى تاريخنا ؟ .

المؤلفة : لا يوجد نموذج للمحبين . فالحب أسلوب فريد . وهناك عادات وموضات فى الحب . وهذه الموضات يقلدها الناس من عصر إلى عصر .. وإن كنا نجد فى كل قرن عشاقا خالدين . ومهما تغيرت الموضات ، ومهما تغير هؤلاء الخالدون فجوهر الحب واحد . والموقف فقط هو الذى يتغير.

القارئ : ألا يمكن استخلاص جوهر الحب هذا ؟ .

المؤلفة : هذا ما لا أتمناه .. فإن البحث عن استخلاص للحب وتقطيره له فى جملة أو فى وصفة يفسد علينا الكثير من متع الحياة . لأن الحب مزيج من عناصر لا ترى . والقليل من الناس يملك هذه العناصر ويصبح قادرا على تركيب الوصفة السحرية فى أنفسهم . وسوف يكون دائما عدد قليل من كبار العشاق .. بينما سيكون هناك عدد هائل من الملهاث .

القارئ : لا أعرف من الذى قال إن الحب وهم فى وهم .. وأنه ليس أكثر من قطعة من المعدن اللامع ملفوفة حول حقيقة بيولوجية .

والمؤلفة : لا يمكن أن يكون صاحب هذه العبارة رجلا قد عرف الحب .

القارئ : ولكن أين وجدت أنت هذا الوهم الذى اسمه الحب ؟ لابد أنك قد عثرت عليه بالصدفة فى كتبنا القديمة ؟ لابد أنك صادفت شبحا مخيفا .

المؤلفة : أبدا . بالعكس ـ لقد وجدت الحب فى أماكن أخرى . وجدته فى الخطابات الغرامية المصمغة منذ وقت طويل .. وعثرت عليه فى المذكرات الخاصة التى احتفظت بها سرا عائلات عريقة كثيرة .. ثم لم تشأ أن تنشرها .

القارئ : وما الذى دفعك إلى التعب وتأليف كتاب عن شيء لا نعرفه نحن الانجليز ؟ .

المؤلفة : بعد أن صدر كتاب عن «الحب والفرنسيون» تلقيت تهنئة من صديق فرنسي مثقف . وجاء فى خطابه : من المستحيل أن أجد مادة للكتاب عن الحب عند الانجليز . وأن مقالا واحدا يكفى لسرد كل قصة الحب عند الانجليز . وأحسست أنه يتحدانى وما يؤسف له أننى قد صادفت كثيرا مثلك .. ولهم رأى مثل رأيك . لديهم شكوك . وسوف أبدد هذه الشكوك .

القارئ : إذن سيكون كتابا دفاعا عن الانجليز .

المؤلفة : نعم . إنه دفاع عن الحب الذى أهملناه وعن العشاق الذين نسيناهم . وقد ألفت هذا الكتاب ليستمتع به القارئ . أما أنا فقد استمتعت به . واختصرت منه الكثير . ولو قدر لى أن أتناول بالتفصيل سيرة الحب عند الانجليز لأصدرت ستة كتب لا كتابا واحدا من ستة فصول ، ولاستعنت بعدد من الخبراء من بينهم : مؤرخ وفيلسوف وشاعر وطبيب وباحث اجتماعى .

القارئ : دائرة معارف عن الحب .

المؤلفة : بلا شك . ولأننى أعتقد أن هناك مجالا كبيرا لتفصيل الحب عند الانجليز . أرجو أن تقبل هذه الوجبة الخفيفة الفاتحة للشهية ومعها زجاجة شمبانيا .

* * *

بهذه اللهجة الحارة والنبرة العالية تمضى المؤلفة فى دفاعها عن مواطنيها من الانجليز . وتقلب فى كل صفحات التاريخ لتعثر على العشاق والمحبين والخطابات ومحاضر البوليس ودواوين الشعراء ومسرحيات شيكسبير ، واعترافات الفيلسوف المثالى توماس مور .

وأول قصة حب نصادفها فى الكتاب تقول لنا إن أحد الملوك طلب إلى ابنه أن يتزوج أرملته بعد وفاته .. ولكن الابن كان يحب سيدة أخرى . وعندما قرر أن يتزوج من امرأة أبيه .. جاءت حبيبته على رأس جيش وهزمته وجرته بالحبال ليقبل قدميها ويطرد أرملة أبيه .. ثم يتزوج .. الحبيبة المنتصرة .

وصدرت قوانين تحرم زواج الابن من أرملة الأب . ثم عادت إلى الظهور مرة أخرى . واضطر القديس أوغسطين أن يعلن خروجه من انجلترا ومن الديانة المسيحية . ولكنه رأى القديس بطرس فى نومه يعنفه ويضربه . ويطلب إليه أن يبقى إلى جوار المسيحيين . ونهض من نومه وما زالت علامات الضرب دامية على كل جسمه .

وقصة الملك وليام الفاتح : لقد تقدم لخطبة إحدى النبيلات. ورفضت لأنها تحب رجلا آخر.. وهذا الرجل لا يحبها . فذهب الملك أمام الكنيسة وانتظرها حتى خرجت وانهال عليها ضربا حتى سقطت على الأرض . ولكن النبيلة كانت تحب الرجل الذى يضرب المرأة .. فأحبت الملك ووافقت على الزواج منه .. ولما طلب إليها أن تختار أى قطعة من الأرض لتبنى عليها قصرها .. اختارت أرض الرجل الذى كانت تحبه ولا يحبها . واستولى الملك على الأرض . وجاء بالرجل مربوطا بالحبال وألقى به عند قدمى الملكة فأودعته السجن حتى مات .

وكان من المألوف فى القرن الثانى عشر والثالث عشر أن يتزوج الأطفال وهم صغار . أما السبب فهو أن أصحاب الأرض كانوا يستولون على الأطفال ويسخرونهم فى خدمة الأرض بلا مقابل .. ولذلك كان الناس يبادرون بتزويج أطفالهم .

وكان من المألوف فى هذه الفترة أن ترث الكنيسة ما يتركه الزوج ، ما دامت الأرملة قد تحولت إلى راهبة .

وعندما تنبه الناس إلى جشع الكنيسة كانت الأرملة تتزوج بعد وفاة زوجها . وفى هذا الوقت راح رجال الدين ينشرون خرافة ظهور أرواح الأزواج يطاردون الأرامل فى كل مكان .

ومن أغرب القصص التى جاءت فى الكتاب قصة الفيلسوف توماس مور صاحب كتاب «المدينة الفاضلة» فقد جاءه رجل يخطب إحدى ابنتيه . فأخذ الرجل من يده واتجه مباشرة إلى غرفة ابنتيه .. ووجدهما نائمتين تحت غطاء واحد .. فنزع من فوقهما الغطاء . وأحست الفتاتان بشىء من هذا فتقلبتا على الوجه الآخر وهنا أعاد الرجل الغطاء فوق ابنتيه العاريتين تماما .. وقال للرجل الذى جاء يخطب واحدة منهما : الآن لقد رأيت كل شىء .. فأنا من رأيى أن الرجل يجب ألا يتزوج امرأة إلا بعد أن يراها عارية تماما .

وسواء كانت هذه القصة صحيحة أو مخترعة ، فإنه قد ذكر فى «المدينة الفاضلة» أنه يجب ألا يكون هناك كذب أو خداع من الرجل والمرأة .. وأن التفاهم يجب أن يكون تاما .

وقد تزوج الفيلسوف مور مرتين . وعندما مات كتب على قبره وقبر زوجته : أيها الموت امنحنا جميعا ما حرمتنا الحياة منه .. أن نعيش معا فى سلام .

ولم يكن كل الأدباء والفلاسفة والعشاق من أنصار الحب والزواج ، فقد ارتفعت أصوات صارخة تلعن الحب وتلعن الزواج .

حتى قبل أن يقول بيرون : الحب الذى يؤدى إلى زواج ، مثل نبيذ يتحول إلى خل .

وقبل أن يقول «كارليل» : الحب ليس كله هذيانا . ولكن فيه معانى الهذيان .

والعالم الكبير تشارلز داروين كتب فى ١٨٣٧ يقول عن مزايا الزواج :

أطفال وصديق للعمر وموسيقى وثرثرة للنساء .

وكتب داروين عن عيوب الزواج : ضياع رهيب للوقت وإذا كان هناك أطفال كثيرون فإنهم يرغموننا على كسب القوت ويقتلون فينا روح الكفاح .

وقال داروين أيضا : ولكن من الصعب أن يقضى الإنسان كل عمره كالنحلة يبحث عن الطعام ثم يأوى فى النهاية إلى بيت قذر . إنه فى حاجة إلى الزوجة الجميلة وإلى الدفء والموسيقى . قارن حياتك بعد الزواج بحياتك قبل الزواج . سيكون الفارق واضحا إنه لصالح الزواج .. فتزوجوا .. تزوجوا .. تزوجوا ..

وتشارلز داروين كان من أحسن الأزواج وأكثرهم إخلاصا .. وهو الرجل الذى اكتشف نظرية أن الإنسان أصله قرد .

وكل أشكال الحب لا ترضى كاتبا كبيرا مثل هـ . ج . ولز . فهو يرى أن الناس على هذا الكوكب غير قادرين على الحب . وأنهم فى انجلترغير قادرين على أن يكونوا ناسا . وأن الإنسان عموما ليس إلا حيوانا مراهقا وأنه شديد التقلب من المحبة والكراهية والإخلاص والخيانة والغيرة والبلادة . وأن كل ماكتبه الناس عن الحب ، يشبه أصوات الآلات تحت أصابع العازفين قبل بداية الحفلة .

أما الفيلسوف راسل فهو ينظر إلى المجتمع الانجليزى عموما ويقول : لا أمل فى إصلاح هذا المجتمع إلا إذا مات كل الناس فوق الأربعين .

* * *

وعلى الرغم من الحريات الممنوحة للمرأة .. وعلى الرغم من أنها فى كل مكان يقف فيه الرجل.. فإن المرأة لاتزال سندريلا.. إنها الفتاة المسكينة التى تحلم بأمير على حصان أبيض .. وتنتظره . ولا يهم أبدا أن يجىء .. فالمرأة

لا تشبع من الحب . والكلام عن الحب . ولو تزوجت ألف مرة وتكسرت أسنانها ، فإن معدتها تظل ــ حتى الموت ــ قادرة على هضم كل كلام عن الحب .

ولاشك أن هذه الأحلام عند المرأة هى نوع من الخيانة العقلية .. ولكن الرجال قادرون على التفتيش عن هذه الخيانة العقلية بمشاهدة الرقص العارى والانغماس فى كثير من اللهو والملذات التى يسمح بها المجتمع للرجال ولا يسمح بها للمرأة ..

ولا يزال المعنى القديم هو شعار الحياة الزوجية فى كل عصر : فزواج بلا حب ، عربة بلا حصان .. وحب بلا زواج حصان بلا عربة .. وعندما يجتمع الزواج والحب ، فمن الصعب أن تبقى العربة عربة . ويبقى الحصان حصانا .

وتقول المؤلفة « نينا ابتون » وقد بلغت المائة الرابعة من كتابها : أعتقد أننى قد دافعت بما فيه الكفاية عن البرود والجمود عند الانجليز .

والحقيقة أنها قد نجحت فى الدفاع ولكن نجاح المحامى فى الدفاع لا يعنى أنه على حق دائما .. بل إنه محام بارع . فقط !.

ـ ٣ ـ

يوميات كارمن وإخوتها !!

إذا كان الفرنسيون يصنعون الحب ، فإن الانجليز يتحدثون عنه ، والألمان يفكرون فيه ، والطليان يأكلونه .. أما الأسبان فإنهم يرقصونه .

والرقص لا تغرب عنه الشمس فى أسبانيا .

وهناك أكثر من أسبانيا : أسبانيا المتدينة جدا ، وأسبانيا المتحررة ، وأسبانيا المتحررة جدا .. وأسبانيا الموجودة فى مدريد .

وقد شاءت السيدة « نينا ابتون » فى كتابها عن (الحب الأسبانى) أن تختار بداية عربية صميمة للحياة العاطفية فى أسبانيا . وقد جعلت هذه البداية فى العصور الوسطى .

وقد اختارت كتاب (طوق الحمامة) لأبى محمد بن حزم الأندلسى دستورا للمحبين فى الأندلس . وهذا الكتاب يضم عددا من الرسائل فى الحب والغرام والنظرة بالعين والعفة والغيرة والطاعة والكرامة .. وكيف يمكن أن يكون الإنسان محبا عفيفا ..

وابن حزم قد اختار كتابه (طوق الحمامة) لأن من عادة العشاق أن يبعثوا

رسائلهم مع إنسان أمين ، أو حيوان مخلص لايذيع أسرار العشاق . ويقول ابن حزم فى سبب اختياره للحمامة رسولا إلى محبوبته :

تخيرها نوح فما خاب ظنه | لديها وجاءت نحوه بالبشائر
سأودعها كتبى إليك فهاكها | رسائل تهدى فى قوادم طائر

والشاعر ابن حزم كان رجلا رقيقا . وقد تعلم الرقة من عشرته الطويلة للجوارى ولكن هذه العشرة جعلته يعتقد أنها كائن ضرورى فقط ولكنها ليست كائنا يستحق الاحترام والإعجاب . فقد رأى من حيل النساء وكيد النساء الشىء الكثير .

ولكنه عندما أحب جاريته « نعم » تزوجها . وكان دون العشرين . ثم ماتت « نعم » هذه ، وظل حزينا سبعة شهور لا يغير ملابسه ، ويبكى .. حتى أصابه مرض فى أحشائه جعل عينيه لاتدمعان ، فهو عاجز عن البكاء ، وهو لايقوى على النظر إلى الضوء .

ورغم هذه الحياة الرقيقة المضطربة ، ورغم معاركه السياسية والعاطفية فقد ألف أكثر من ٤٠٠ كتاب . ولم يصلنا من هذه الكتب إلا القليل جدا . وابن حزم مثل كثير من الشعراء الرومانسيين فى أوربا بعد ذلك فقد نظم معظم شعره وهو فى العشرينيات، مثل رامبو ، ولوترىامون ، ونوفاليس ، وبيرون ، وشيللى ، وكيتس .. وغيرهم ..

وكان ابن حزم يعتمد على ذاكرته فى رواية الشعر حتى أرهق ذاكرته .. وعلى الرغم من أنه كان يكتب كل ما يحفظه فإن الذى لم يكتبه كثير جدا . وقد أصيب بفقدان جزئى للذاكرة لمدة سنة ، ثم عاودته ذاكرته ، وخشى أن يفقدها مرة أخرى فسجل كل ما فى رأسه ..

ويبدأ ابن حزم فى تحليل الحب فيقول : إن الله لم ينهنا عن الحب .. ولا رسوله ، وأن عددا كبيرا من الخلفاء ورجال الدين قد احبوا . فعبد الرحمن بن

معاوية أحب دعجاء وتزوجها ، والحكم بن هشام أحب طروب وتزوجها ، ومحمد بن عبد الرحمن أحب غزلان وتزوجها ، والحكم المستنصر أحب صبح وتزوجها .

ويقول ابن حزم : لولا أن هناك كثيرا من الأسرار الخاصة جدا فى قصور الأمراء والولاة ورجال الدين لرويت عنهم الكثير.

ويقول ابن حزم عن علامات الحب عند الناس : إن الذى يحب هو الذى ينظر بإمعان . يدمن النظر إلى الجارية أو الفتاة التى يحبها . فالمحب يميل معها وإليها كما تميل الحرباء مع الشمس .

ومن علامات الحب : الحرص على الحديث مع المحبوبة ، ومن علامات الحب ; التضحية .

ولكنه يرى أنه لاحب أقوى ، ولا أبقى من حب الله .. وحب الناس فى الله لله .

ويقول ابن حزم أيضا :

غزال وقد حكى بدر التمام كشمس قد تجلت من غمام
سبى قلبى بألحاظ مراض وقد الغصن فى حسن القوام
خضعت خضوع حب مستكين له ذلت ذلة مستهام
فصلنى يافديتك فى حلال فما أهوى وصالا فى حرام

وتقول السيدة « نينا ابتون » ان ابن حزم هو أول من كتب عن معنى (النظرة) . والذى يقرأ ما كتبه ابن حزم عن نظرة المرأة إلى الرجل يجد أنه قسم جفنى المرأة إلى مربعات وكل حركة فى مربع لها معنى ..

فالإشارة بمؤخرة العين الواحدة معناها : لاتقترب .

وتفتير العين ــ تسبيلها ــ معناها : ماذا تريد ؟ .

وكسر النظر معناها : فرجت .

وتقليب الحدقة ثم صرفها بسرعة معناها : احترس واحذر .

والإشارة بمؤخرة العينين معناها : ماذا تريد ؟ .

وقلب الحدقة من وسط العين بسرعة معناها : ابتعد نهائيا .

ويقول ابن حزم : أما ترعيد الحدقتين من وسط العين فمعناها : ممنوع منعا باتا .. الخ .

ويهاجم ابن حزم (الإذاعة) هجوما عنيفا جدا . أما الإذاعة فمعناها : أن يذيع الإنسان سر حبه وأسرار محبوبته .

وتلاحظ المؤلفة أن الكاثوليك المتعصبين فى أسبانيا فى أيام ابن حزم . أى فى القرنين العاشر والحادى عشر حرموا تصوير المرأة عارية . ولذلك لا نجد لها صورا فى أى مكان إلا فوق إحدى الأبنية المصنوعة من الزجاج . وهناك إناء مشهور علية أربعة من الرجال وأربع من النساء ، وسيدة تنفخ فى الناى .

والطقس العاطفى فى الأندلس فى ذلك الوقت كان صورة جديدة لما كان يجرى فى بغداد . فقد انتقلت كل لوحات ألف ليلة وليلة إلى قصور الأمراء والشعراء ، وامتلأت الشرفات بالجوارى السمراوات والشقراوات .

ولكن الخيط الذهبى الذى يربط هذه اللوحات الحية كلها هو : الصراع بين الحب والشرف ..

وكان الشرف ينتصر دائما ..

وفى غرناطة وأشبيلية كانت النافورات تتألق فى عيون المحبين ، وكانت أشجار البرتقال تثمر من أجل العشاق ، وكانت الوسائد الحريرية والستائر

الوردية ، وكانت موائد الطعام ، وكان ضياء القمر . لقد كانوا يعيشون فى عالم آخر .. فى هروب جميل .. فقد كانت دنياهم تبدأ بالمائدة وتنتقل إلى السرير وتنتهى بالحمام . وفى هذا الطريق الملتهب كانت تتردد الأغانى وتتعالى رنات الخلاخيل .

إن سانت تريزا نفسها اعترفت فى رسائلها : إننى لا أستطيع أن أصلى فى مدينة إشبيلية ، فللشياطين هناك آلاف الأيدى والأرجل .

وتاجر الكتب المقدسة المشهور دون ميجيل الإشبيلى كان يقول : لا أستطيع أن أبيع هنا شيئا .. فالناس جميعا أجسامهم فتية ، وقلوبهم ملتهبة ، والنساء عيونهن سوداء .. ولاشىء عندهن إلا الحب والحب .. آمور .. آمور .

وكان من عادة العشاق فى هذا الوقت أن يبعثوا رسائلهم مع أناس لايتطرق الشك إليهم . وكانت « الماشطة » هى أحسن رسول . وكذلك السيدات العواجيز ، والأطفال . ورجال الدين كانوا أهم وسيلة من وسائل نقل بريد العشاق .

وكانوا يكتبون رسائلهم بالدموع والحبر معا .

وكان من المألوف أن يكتب العاشق رسائله بالحبر والدم أيضا ..

ومن عادة الأسبان ألا ينشروا رسائلهم الغرامية .. فالحب سر ، ولذلك يجب كتمانه . وكانوا أكثر كتمانا للحب ..

وقد حدث فى الحرب الأهلية سنة ١٩٣٦ أن دخل أحد الضباط بيتا مهجورا ، فوجد به رزمة من الخطابات الملفوفة فى أناقة تامة ففتحها ، وقرأ وبكى وبلغ من شدة تأثره أن قرر كتمان هذا الحب إلى الأبد .. فأحرق الرسائل كلها .

فالحب عاطفة محترمة ، وهو عاطفة قوية .. ولكن الشرف أقوى دائما .

والفيلسوف الأسبانى أورتيجا أى جاسيت عندما كتب مقدمة الترجمة الأسبانية لكتاب (طوق الحمامة) قال :

بعض الراهبات يتوهمن أن الله قد خلق العالم كله من أجلهن ، ولذلك جعل الحب حراما .. مع أن الله قد خلق العالم فى إطار من الحب . وأن الله قد خلقنا لكى نحبه . ونحب أنفسنا أيضا عندما نحب الله .

وعبد الرحمن الخامس قال مرة : لو كانت الكراهية تأشيرة المرور إلى الجنة ، لطلبت من الله أن يدخلنى جهنم .

وكما تأثر الفكر كله بالأدب العربى والفلسفة العربية ، فكذلك الحب .. فقد انتقل الناس من حب المرأة إلى حب الحب ، ومن حب الجسم إلى حب الروح أيضا .

وفلسفة ابن سينا ومعنى الحب الإلهى عنده ، قد أشاع التأمل والنظر إلى كل ما هو أبقى وقد أدى هذا أيضا إلى أن ارتفعت قيمة العواطف النبيلة ، وإلى أن المرأة لم تعد جسما فقط .. لم تعد شيئا يلمسه الرجل فتشتعل النار .. وبعد أن تخمد النار يتجه الرجل إلى مصدر آخر للاشتعال . فكل مايشتعل هو كل مايخمد أيضا . ولكن الذى لايشتعل ولايخمد هو الحب الروحى .. فهو يضىء دائما .

وقرأنا بعد ذلك فى القرن الخامس عشر من يضع المرأة فى مرتبة أعلى من الرجل .. لأن الله أرادها كذلك . فالله خلق آدم فى الأرض ، وخلق حواء فى الجنة والله خلق آدم من تراب وخلق حواء من كائن حى .. والله خلق آدم بين الحيوانات ، وخلق حواء بين الملائكة . ولأن حواء أذكى من آدم فقد أغراها الشيطان .. أول إغراء للشيطان . ولأن آدم أقل ذكاء من حواء ، فقد أغرته حواء . وحواء لم تخطئ ، فالله جعل التفاحة المحرمة على آدم ، وليست على حواء .

وهناك تيارات أخرى تنزل بالمرأة من السماء إلى الأرض ، وتجعلها حيوانا

متقلبا ، ولذلك فلا أمان لها .. والرجل يجب أن يؤكد لنفسه هذه الحقيقة ليلا ونهارا ، وبذلك يأمن شرها .

وقد كتب خوان رودريجث فى كتابه (الوصايا العشر للحب) يقول : الفقر والحب لايعيشان فى بيت واحد . والشيخوخة والحب لايعيشان فى جسم واحد .

وهذا المعنى قريب مما قاله أحد الشعراء :

إذا شاب شعر المرء أو قل ماله فليس له فى ودهن نصيب

وهذا طبيعى جدا . فإذا كان الرجل عجوزا مفلسا ، فلماذا يطلب من امرأة أن تحبه ؟ ولماذا يندهش إذا هى لم تشعر نحوه بأية عاطفة .

وفى هذا الوقت أيضا انتشرت المواخير فى أسبانيا كلها . ولم يكن الماخور أو بيوت الملذات الخاصة شيئا غير أخلاق ، وإنما كان مألوفا جدا أن يكون لأى إنسان بيت .. وإذا صح المثل القائل : الناس على دين ملوكهم ـ وهو صحيح ـ فإن الملوك كانوا يتسابقون فى الحصول على أكبر عدد ممكن من الجوارى والراقصات .. وكانت الجوارى أجمل هدية يقدمها ملك لأمير ، أو خفير لأمير .

والملك فردريك وزوجته الملكة ايزابيلا قد أصدرا قرارا بمنح أحد الضباط العائدين من القتال سبعة مواخير فى سبع مدن كبرى ، وأن يرث أولاده من بعده هذه المواخير وأن يضيفوا إليها إذا شاءوا ..

وفى نفس الوقت يجب أن يراعى الناس الآداب الاجتماعية .. يجب أن يتستروا على مباذلهم . فلا مانع من ارتكاب أى شىء ، ولكن يجب ألا يجاهروا بذلك .. ففى سنة ١٤٣١ صدر قانون بعقوبة كل من يعترف علنا أو يخرج علنا ومعه عشيقته فى مكان عام . فإذا فعل وجب عليه أن يدفع نصف مرتبه أو دخله غرامة .

وفى هذا الوقت انتشرت الكتب التى تتحدث عن إعادة الشباب ، وعن تقوية الشبان خصوصا بعد انتشار الشذوذ الجنسى فى كل أسبانيا . وقد أصدر القس خوان رويث كتابا عن فوائد العقاقير العربية فى إشعال نار الحب والغرام .. فقد وصف الشطة والقرفة وخشب الصندل والكمون والليمون والبصل والكرات ، وخصوصا الكرات .. ولايزال الناس فى أمريكا يستخدمون الكرات ومشتقاته لنفس الغرض الجنسى .

وفى هذا الوقت ظهر عدد من الأطباء اليهود يعالجون الضعف الحيوى عند الشبان والشيوخ .. وكان أشهرهم ليون العبرى الذى هرب من أسبانيا وأصبح بعد ذلك طبيبا خاصا لملك نابلى .

حتى الفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون كان يشتغل بالطب . وعندما جاء إلى مصر كان طبيبا للناصر صلاح الدين . وقد تخصص فى الدراسات الدينية والفلسفية ، ثم اتجه تماما إلى الطب . فكان أحسن طبيب فى علاج معظم الأمراض .. وأمراض الضعف الحيوى بصفة خاصة .. ولا يزال حتى الآن معظم الأطباء الذين يعالجون الأمراض الجنسية من اليهود ..

وعندما ظهرت قصة (دون كيخوته) لأديب أسبانيا العظيم سرفانتس تناول الحب بكل صوره ، ولكنه كان ساخرا من كل صور الحب الجسمى والروحى .

وفى ذلك الوقت صدر كتاب عن (أصول الحب) لرجل جرىء اسمه لويس فيفيت . وهذا الكتاب حرمته الكنيسة فور صدوره . وهذا الكتاب عبارة عن مئات الصفحات للمحبين والعشاق فى أسبانيا وغيرها .

ويبدأ الكتاب من البداية : لا تصدقوا أن أحدا مات من الحب .. أبدا . فالحب يؤلم ولكنه لايميت . والمرأة يجب أن تكون أقوى ، أن تكون على شىء من الرجولة ، وهى بالفعل أقوى من الرجل ، ولكنها لاتريد ، أو لكنها تريد أن

تكون كما يريدها الرجل : ضعيفة رقيقة منكسرة .. مع أن المرأة أقوى جسما وأطول عمرا ..

ويقول أيضا مستنكرا الرقص : مامعنى أن تظل سيدة ـ كالبلهاء ـ تمسك رجلا من ذراعه طول الليل .

وفى القرن السادس عشر ثارت الدولة على المسارح لأن هذه المسارح تبعث على الكسل والخمول .. وفى ١٥٧٩ صدر قرار بمنعها .

وفى هذا الوقت أيضا كان الأسبان يبنون أماكن اللهو بالقرب من ساحات مصارعة الثيران.. فالدماء التى ينزفها الثور أو مصارع الثيران تثير الناس فى نفس الوقت فيتدفقون على بيوت اللهو ..

وأيام الرومان كانت المواخير قريبة أيضا من الساحات التى يتصارع فيها الوحوش والمحكوم عليهم .. ولنفس السبب .

والرقص والمصارعة كانا يؤديان إلى رشاقة المرأة والرجل ، ولذلك فالمثل الأعلى للجمال هو جمال الرجل . ولذلك لم تكن الصدور العالية تفتن الأسبان . فالمرأة كانت حريصة على إخفاء صدرها بكل وسيلة . وكانت وسائل الإخفاء عنيفة . فالمرأة كانت (تفعص) صدرها بالأربطة القوية ، وأحيانا كانت تضع الواحا من المعدن تحت ملابسها ، حتى لايكون لها صدر ..

واللوحة العارية التى نقلتها لنا المتاحف لامرأة عارية كانت للرسام فيلا سكويث . وكانت لآلهة الإغريق فينوس .. ولم تكن عارية تماما .

والأسبان كالعرب والصينيين أيضا ، كانوا يخفون أقدام المرأة ، خصوصا أصابع قدميها .

وقد كتبت السيدة (النوى) عن رحلتها إلى أسبانيا فقالت : إن نساء أسبانيا يخفين أقدامهن بعناية . فأقدامهن أجمل عضو فى كل الجسم .. والمرأة

الأسبانية بعد أن تكون قد أعطت لحبيبها كل شيء ، تتوج هذا العطاء السخى بأن تكشف له عن قدميها . وهذا هو أقصى ما عندها .

وحتى الملكة إيزابلا عندما كانوا يمسحون جسمها بزيت البركة ، رفضت أن تكشف عن أصابع قدميها.. فسحوا جواربها من الخارج فقط ..

وكان من الأخطاء التى لايمكن أن تغتفرها المرأة أن ينظر إنسان ـ حتى زوجها ـ إلى جوربها أو حذائها .

واختفى من المسرح الأسبانى (دون كيخوتة) أو كل موهوم فى الحب .. وكل ساخر منه أيضا ..

وظهر (دون جوان) ـ الأسبان ينطقون الاسم بالخاء . وهذا الدون خوان هو عبد جديد للرغبة الجنسية ، وهو رجل لايبحث عن الحب وإنما عن المتعة فقط . وهو رجل يجد لذة فى تعذيب الأخريات . وهو إنسان عنده عقدة أوديب. فهو يحب أمه ويكره أباه.. وهو لأنه يحب أمه، لايحب امرأة أخرى. ويجب أن تكون العلاقة بين الرجل والمرأة كالعلاقة بين الإنسان وأمه .. وهو لذلك يحتقر الجنس ويحتقر المرأة ، ويرى أن المرأة تستحق أن يعاقبها الرجل لأنها تثير فيه الرغبة الجنسية ، ولأنها تخمد هذه الرغبة أيضا ..

والأسر الأسبانية كانت متماسكة ولا تزال . ولذلك فعقدة أوديب هذه على أشدها . ولذلك فالأسبان لايعرفون الحب الحقيقى وإنما يرقصون للحب ويغنون له .

ولايزال فى أسبانيا ، ومن أقدم العصور ذلك المجتمع الغريب من الغجر ، أنه مجتمع مقفل على نفسه يعيش فى كهوف وفى أسرار وعطور . وهم يعرفون كل أنواع الحب . وكل صور العشق . ولكن لايعرفون الدم فى الحب فإذا كان الأسبان عندما يرون امرأة فى الشارع يجرحون أنفسهم بسكين أو بموس ، فتنحنى

الفتاة الأسبانية ترد هذه التحية الدامية فإن الغجر يرون أن أحسن دماء للحب هو النبيذ ، وأحسن سكين فى الحب هو : الزواج .

وعندما بعث أسبانيا بمعرضها الضخم إلى باريس سنة ١٨٣٨ اهتزت فرنسا وأوروبا . فقد اكتشف العالم أن الأسبان فى جحيم من القبل وفى جهنم من الغرام .. وأن ألوانهم هى الدخان والنيران .. وصرخات العذاب فى عالم مجنون بالرقص والغناء والطرب . وفى هذا الجو المكهرب بالألوان والألحان ظهرت كارمن . وكارمن هى أية فتاة عاشت فوق الحب . لقد جعلتها الكرامة فوق الحب . وانتشرت قصة كارمن الغجرية فكتب الشاعر الرومانسى ميريميه « غراميات كارمن » والموسيقار بيزيه كتب أوبرا كارمن . وكل فتاة أسبانية هى كارمن المرحة العفيفة العاشقة الشريفة .. إن كارمن هى الحب وكارمن وأخواتها هى كل نساء أسبانيا .

وفى سنة ١٨٣٩ هربت الأديبة « جورج صاند » ومعها عشيقها الموسيقار شوبان فى سفينة الخنازير من جزيرة مايوركا . لأنهما لم يطيقا الحياة فى الجزيرة الأسبانية . لقد تغيرت الدنيا واختفى الحب الرومانسى ، وظهرت نساء من نوع آخر مختلف .. يرقصن ويرقصن ويشربن ويصرخن .. وبعد ذلك ينمن كالخنازير .

وتشرح لنا المؤلفة « نينا ابتون » إن الأسبان من أكثر شعوب العالم « بصبصة » للنساء . والبصبصة عندهم نوع من اللمس بالعين . أو نوع من التدليك الإجبارى لكل أعضاء المرأة . فالرجل الأسبانى ينظر إلى المرأة بلا خجل فى الشارع وفى السيارة وفى المحلات العامة ..

وقد سئلت سيدة أسبانية : ولماذا لاتعترضن على هذا الأسلوب غير المهذب ؟ فكان ردها : إن الرجل إذا لم ينظر لى هكذا ، أشعر بأننى مليئة

بالعيون .. وأشعر أننى امرأة يستطيع الرجل مقاومتها .. وأن يتجاهلها أيضا . وهذا أقسى درجات العذاب .

أما أسبانيا التى تعيش فى مدريد ، فهى مجتمع آخر .. خليط من كل ما فى أسبانيا من عيوب ، ومن كل ما فى الدنيا أيضا . وإذا كان الأسبان أنفسهم لايعرفون ملامح بلادهم إذا ذهبوا إلى مدريد ، فإن الأجنبى لايعرف من هم الأسبان ..

والمرأة فى مدريد الآن تشبه إلى حد كبير ذلك النوع من النساء الذى صوره لنا الشاعر جارثيا لوركا فى مسرحية «بيت برناردا ألبا».. إنهن نساء مشغولات بالنساء وبالثرثرة وبالتجسس على النساء .. وبالزواج . أما الباحثون عن الحب فى أسبانيا ، ففى استطاعتهم أن يجدوه فى الجنوب وفى الشمال .. هناك يجدون العصور الوسطى الخرافية .. وهناك يجدون جميع المواد التفسيرية لقوانين الحب والغرام كما جاءت فى كتاب « طوق الحمامة » لابن حزم الأندلسى .

من الحب إلى الزواج

ظروف يصنعها الآباء ويلومون عليها الأبناء

- ١ -

أمريكا تهز العالم فى ميدانين : الحب والحرب .. بالقبلة والقنبلة .. ونحن نذهب إلى المجتمع الأمريكي فى السينما .. وننتظره أمام التليفزيون .. ونراه فى المجلات الأوربية ..

والخوف من الحرب هو الذى جعل الناس يسرفون فى الحب .

ففى مواجهة الموت يتشبث الناس بالحياة .

ولا يوجد حب أمريكي وحب فرنسي .. وإنما يوجد أسلوب أمريكي وأسلوب فرنسي .. ولا يوجد زواج ايطالى وزواج مصرى ، وإنما يوجد أسلوب يونانى فى الزفاف ، وأسلوب هندى فى شهر العسل .

فالحب هو الحب ، والزواج هو الزواج ..

والمجتمع الأمريكي يهتز ويهز غيره .. فتتساقط القيم الأخلاقية فى أمريكا وفى أماكن أخرى .. والعلاقات العائلية فى أمريكا تتفكك على المسرح وعلى الشاشة .. ومظاهر الاحتجاج والسخط واضحة فى الخنافس والهيبز .. وواضحة

فى أجمل وأعمق كتاب أمريكى صدر أخيرا .. ومؤلفه هو فانس باكار أعنف ناقد للمجتمع الأمريكى والأوروبى .. بل إنه يرى عيوب المجتمع الأمريكى ويبرزها ويلعنها كأشد الناس عداوة لأمريكا .. ويتقدم بعد ذلك بالحلول .. والكتاب اسمه « الضياع الجنسى » ضياع الشبان بين القديم والجديد .. بين الدين والسياسة .. بين علماء النفس والأطباء .. بين الجنس والأخلاق .. بين قيود البيت وحرية الشارع بين تحديد النسل وتجديد الشهية .

ويتساءل المؤلف : هل هؤلاء الشبان فى كل العالم : حائرون أو ثائرون ؟ هل هم أطفال يبحثون عن الأب فلا يجدون إلا الابن .. ومزيدا من الأبناء فى سن مبكرة ؟ هل هم يبحثون عن حنان البيت ، فلا يجدون إلا ظلمات المقاهى والحانات والكهوف ورءوسهم فى سحب الحشيش والهلوسة ؟ .

إنها ليست مشكلة أمريكا أو أوروبا.. إنما هى مأساة الشباب فى كل العالم . ولكنها أوضح وأقوى وأكثر ألوانا وأعوانا وصراخا فى أمريكا ، وفى هذا الكتاب .

إن العلاقة بين الرجل والمرأة لم تكن سهلة فى أى وقت . ولا فى أى مجتمع . فالرجل والمرأة ينظر كل منهما للآخر على أنه كائن غريب مخيف .

ولذلك هناك صعوبات فى أن ينفرد أحدهما بالآخر.. ولكن تصبح هذه الصعوبات سهلة ، إذا كان هناك حب أو كان هناك زواج ، ومن السهل على الرجل أن يكون عابدا للمرأة ، ومن الصعب أن يكون محبا لها . والفاشلون فى الحب هم الذين يعبدون المرأة : أى الذين ينظرون إليها على أنها كائن فوق مستوى البشر. وفوق مستوى اللمس والهمس والجنس .. إن هؤلاء العباد هم الفاشلون فى الحب لأنهم يرون العذاب صلاة ، والتعاسة قداسة .

ولكن من المؤكد أن المرأة قد كسبت كثيرا فى هذا الاضطراب العاطفى .

وإذا كسبت المرأة فليس على الرجل ألا أن يستسلم وأن يضحى بالكثير من أجل أن تبقى هذه العلاقة بينه وبينها ..

والمرأة هى « الفعل » الآن . والرجل هو « رد الفعل » .. فالمرأة فى أمريكا وفى أوروبا هى التى تضرب كرة اليد ، والرجل هو الذى يصدها .

ومع ذلك فإن المرأة تستعير أساليب الرجل والرجل يستعير أساليب المرأة فى الملبس والتفكير. ومن الغريب أن عشرات الألـوف من الفتيات يذهبن إلى الأطباء ويسألن : كيف أتصرف لكى أبدو أنثى ؟ وبعض الشبان ، ألوف من الشبان ـ يسألون الأطباء : كيف أبدو رجلا ؟ .

واختلاط الملابس والتسريحات والألوان بين الجنسين معناه : إن هذه الفوارق بين الجنسين فى طول الشعر وطول الأزياء ولونها لم يعد لها أى معنى كبير . فمن الممكن أن تكون الفتاة قصيرة الشعر والفتى طويل الشعر ، من الممكن أن ترتدى الفتاة قميص رجل . ويرتدى الفتى بلوزة امرأة .. إن هذه الاختلافات فى لون وحجم الناس ليست هى الفارق بين الرجل وبين المرأة ..

هـذا الاضطراب انعكس على الحياة الزوجية . ولم يكن الزوج أو الزوجة تعسا فى أى وقت . كما هو تعس الآن . ويتمرد الزوج . وتتمرد الزوجة . ويخيم عليها الفشل فى بيت الزوجية . هذه الزوجة . أو زوجة ثانية أو زوجة ثالثة بعد ذلك . فالمجتمع هو الذى ينتصر على غرام الأشقياء فى النهاية .

ربما كان هؤلاء الشبان يتزوجون وهم فى سن المراهقة . من المؤكد أنهم يفعلون ذلك . أى أنهم لم يصبحوا ناضجين بعد . ولذلك ننصح الشبان بأن ينتظروا . وهم ينتظرون . ولكن ما الذى ينتظرونه . وما الذى نفعله لهم أثناء فترة الانتظار . إننا نطلب إليهم فقط ألا يتزوجوا فى العشرينيات . وإنما يتزوجون فى الثلاثينيات ولكن ما الذى قدمناه لهم بين العشرين والثلاثين .. وما هى تأشيرة المرور بين المراهقة والنضج . إننا لا نعطيهم شيئا .. إنهم

يدخلون فى الحياة الزوجية بلا تجارب بلا نصائح .. وكل ما نقوله للشبان هو : إن الحياة كفاح ، كل ما نقوله للشابات : انتظرى .. اصبرى سوف يسقط فى النهاية .

ونترك الإثنين يحاولان ويقاتلان وننشغل عنهما بأمور أخرى ..

وفى ١٩٦٧ عندما بلغت حركة « الهيبز » أقصى درجاتها كانوا يتساءلون ماهو الفرق بين الرجل والمرأة ؟ ماهو السلوك المناسب؟ .. ما هو الموقف المثالى ؟.. ما الذى يرضى الناس ؟.. وفى إحدى مظاهرات هؤلاء الشبان تقدمت فتاة فى فستان مراكشى وصندل صينى وأعلنت أنها قررت وحدها ألا تكون مجرد ماكينة لتفريخ الأطفال فى ركن بيت قذر .

والذى ينظر إلى هؤلاء الشبان ويسخر منهم ، يتجاهل حقيقة إنسانية هامة : أن هؤلاء الشبان قد هزوا المجتمع وهزوا قيمه القديمة . ومفهوماته البالية . ثم إنهم يريدون أحدا يقنعهم بأن هذه العبارة يجب أن تكون صادقة إلى الأبد : الحب يأتى بالزواج .. والزواج يأتى بالأولاد .

لتكن هذه حقيقة . ولكن يجب أن يفهمها الشبان وبرفق . لايكفى أن الأب قد اقتنع وأن الأم أيضا .. فكل شىء يعاد من جديد . وكل شىء يتكرر من جيل إلى جيل . وإذا كانت هذه الأجيال قلقة مضطربة فهذه مصيبتهم . وهذا قدرهم ..

والمشكلة الآن ليست فى أن هؤلاء الشبان يدرسون القوانين . ولكن فى أنهم لايريدون أن يكون هناك قانون .. وكل إنسان له قانون خاص فى لون وطول شعره .. إن هذا الجيل يعيش فى فوضى أخلاقية .. كأنهم يعيشون فى فترة بين وفاة ملك وتتويج آخر .. فالملك القديم لم يترك قيما .. والملك الجديد لن يتقدم بقيم أخرى .. إن المحبين هذه الأيام مثل راقصى الباليه الذين ليست لهم خطوات معروفة ومتفق عليها . إنهم يرتجلون عواطفهم وقوانينهم – إنهم يشبهون ممثلى

الكوميديا على المسرح المصرى « يؤلفون فورا » ويخرجون على النصوص المكتوبة .. وهذا التأليف الفورى قد أدى إلى ارتباك الممثلين ..

ومشكلة الشبان فى هذا الجيل : أن الذى يقال لهم كثير جدا ومن أناس كثيرين .

ومن المؤكد أن اضطراب الأبناء صورة من اضطراب الآباء . والأبناء المراهقون مضطربون بطبعهم ولذلك فهم مضطربون عدة مرات ..

فما الذى فعله الآباء فى مواجهة هذا الضياع عند الأبناء ؟ إما بالتسامح التام .. وإما بالصراحة الفاضحة وإما بالرفض الخانق .. ولكن الشبان مضوا فى طريقهم ..

واختلف العلماء فى تفسير هذا الضياع الجنسى عند الشبان .. بعض العلماء يقول : ليس ضياعا ولكنها ثورة عاطفية .. أو نهضة جنسية .

وعلماء آخرون قالوا : بل إن الحرية الجنسية والانطلاق العاطفى قد تجاوز حدود الأمان فى طريق الانحلال الاجتماعى والانهيار القومى .

وفى مؤتمر « الأسرة السعيدة » الذى عقد سنة ١٩٦٥ أعلن أحد العلماء : إن الأسرة لم تكن بهذه القوة فى أى وقت من تاريخ أمريكا .

وأعلن أحد علماء فرنسا أن اشتغال المرأة مع الرجل نكسة أصابت الأنوثة فى صميمها ..

وتساءل عالم إيطالى إن كان فى استطاعة الأسرة أن تبقى بعد أن أصبحت المرأة مستقلة عن الرجل؟. والشبان يقرءون ذلك كله ويسمعونه ويسمعون عنه . ويناقشونه ويلعنونه ويعكفون على ظلامهم وضياعهم .. وينفجرون بعنف فى مواجهة المجتمع والقانون .

ولا يمكن أن يكون هذا السلوك ثورة : لأن الثورة معناها الطريق الواضح

المفهوم الذى يأتى بجديد ويقضى على قديم ويلقى تأييدا من الكثيرين .. ولكن مشكلة الشبان ليست هى الجديد ، ولكن مشكلتهم هى الطريق الواضح المفهوم ..

هذا الاضطراب وقع على أرض تغيرت معالمها .. فالأرض تغيرت وتقلبت وتبدلت والشبان من فوقها كذلك . وهذا يجعل الصورة صعبة . ومعالمها متداخلة .

ومع ذلك يمكن أن يقال :

هناك ستة تغيرات أثرت فى العلاقة بين الرجل والمرأة فى أمريكا ، وفى العالم أيضا ..

١ ــ من أهم هذه التغيرات أنه أصبح فى الإمكان منع الحمل .. فقد ظلت الإنسانية تتبع طريقة واحدة فى منع الحمل ظلت ٢٥٠٠ سنة .

حتى أن الفيلسوف اليونانى أرسطو كان يطلب إلى المرأة أن تستخدم نوعا من الزيوت ليمنع الحمل . وفى القرن ١٩ كانت هناك أبحاث كثيرة عن « الفترة الآمنة » التى لاتحمل فيها المرأة .. وفى سنة ١٩٥٤ اكتشف اثنان من الأطباء هما بنكوس وروك عقارا على شكل حبوب إذا تناولتها المرأة أحدثت اضطرابا فى نمو البويضة ومنعتها من الإخصاب .. فلا تحمل المرأة .. وفى ١٩٦٧ بلغ عدد النساء اللاتى يتعاطين حبوب منع الحمل بانتظام أكثر من ستة ملايين ..

كما اخترعت « العوازل » التى تمنع البويضة المخصبة من أن تجد مكانا مناسبا للنمو ..

ولأول مرة فى تاريخ العلاقة الجنسية تنفصل المتعة عن الوظيفة .. أى أنه من الممكن أن تكون هناك متعة ولا يكون هناك حمل .. أى لا يكون خوف من الولادة ..

كما أن تحديد النسل قد حرر المرأة أكثر مما حررها حق التصويت . وتساءل الناس بعد اختراع حبوب منع الحمل : إن كانت العفة القديمة هى مجرد الخوف من الحمل .. أو الخوف من الفضيحة فقط ؟.. ولكن يمكن الرد على ذلك بأن نقول إن العفة قد انتشرت أكثر من أى وقت مضى . والدليل على ذلك أن الشبان الآن يتزوجون فى سن مبكرة . أى أنهم يفضلون العلاقة المشروعة على أية علاقة أخرى .

وانتقلت الآن مسئولية تحديد النسل من الرجل إلى المرأة . كما أن المرأة قد استراحت نفسيا وعصبيا فلم تكن للرجل مشكلة لا قبل الحبوب ولا بعدها .

كما أن صناعة التغذية والمقويات الحيوية قد تطورت وأصبحت فى متناول الجميع . وقد أدى ذلك إلى تحسن صحة المرأة والرجل . وكل إنسان يتزوج الآن يجب أن يعرف أن هذه العلاقة التى بينه وبين زوجته سوف تبقى حلقة فى سلسلة طويلة حتى نهاية القرن الواحد والعشرين ..

والأرقام تقول لنا إن عمر المرأة قد طال بنسبة أربع سنوات .. وعمر الرجل أيضا . ومن المنتظر أن يكون متوسط عمر المرأة حتى نهاية القرن تسعين سنة .

وهذه التطورات العلمية التى طرأت على التغذية وأدوات التجميل قد جعلت المرأة لا تخاف على جمالها فى العشرينيات أو الثلاثينيات .. والمجلات تحدثنا عن جميلات فاتنات فى الأربعين . والصحف تحدثنا أيضا عن أمهات قد تفوقن على بناتهن فى القدرة على الإغراء . وعلى النجاح فى الحب .

وهذه المبتكرات العلمية قد خلقت نوعين من التغيير عند المرأة .. أولا جعلت المرأة قادرة على الحمل والولادة حتى الخمسين . كما جعلت الفتاة الصغيرة قادرة أيضا على الحمل فى الثالثة عشرة .

فهذه المبتكرات قد عجلت بمجىء المرض الشهرى عند الفتاة الصغيرة وأخرته عند المرأة الكبيرة .

٢ ـ هناك تغييرات تكنولوجية : ففى المجتمع الأمريكى ألوف المؤسسات وألوف المصانع .. وألوف المدن المنفصلة بعضها عن بعض والمتباعدة أيضا .

وقد تباعدت البيوت . وتباعد الناس فى البيوت .. وفى البيت الواحد .. فالأب يذهب إلى عمله . والأم تبقى فى البيت . والأطفال فى المدرسة .. ولا أحد يدرى بأحد .. ولا أحد يستطيع أن يسيطر على الصغار إذا كبروا وخرجوا إلى الشارع .. وهذا الشعور بأن كل إنسان فى حاله .. وبأنه واحد ضمن ملايين .. هذا الشعور هو الذى جعل الهيبز يكونون لأنفسهم قبائل وعشائر وجماعات . تماما كالإنسان البدائى .. وهذا يدل على أنهم يحنون إلى الأسرة التى حرموا منها .. والمواطن الأمريكى لا يفهم معنى الصداقة ولا معنى الجار .. فلا وقت عنده للصداقة ، أو القرابة أو الشعور بالجار .. إن المجتمع الأمريكى هو مجتمع الغجر .. ومن المألوف جدا أن تجد الأسرة الواحدة قد غيرت مكان سكنها وعملها أكثر من ٢٥ مرة فى العمر .. بل إن هناك عائلات غيرت مكان إقامتها ثلاثين مرة فى ثلاثين سنة .. وليس هذا غريبا .

والأسرة الأمريكية هى « الأسرة الذرية » ـ أى التى تضم الأب والأم والأبناء فقط . فهى صغيرة ومحدودة .

أما البيت فلم يعد مكانا للإنتاج وإنما هو محطة للخدمات : به غسالة ومطبخ وأطعمة محفوظة ومكنسة وتليفون وتليفزيون وسيارة .

أما المرأة فإنها بعد أن ترتب البيت فى ساعة أثناء غياب أطفالها فإنها تتفرغ بعد ذلك للعبة الكوتشينة والاشتراك فى الجمعيات والأندية أو القراءة .. إلى أن يعود الأبناء من المدرسة والزوج من العمل ..

ومن أهم التغييرات التى حدثت فى تاريخ أمريكا أن المرأة المتزوجة تعود إلى الوظيفة . وأن المرأة التى عندها أطفال لاتتوقف عن الاستمرار فى عملها .

واختراع السيارة من أهم الآلات التى أثرت فى حياة الأسرة أيضا . فهى وسيلة للنزهة ومكان للنزهة أيضا .

وبعد السيارة تجىء « البزازة » التى اخترعت سنة ١٨٤١ . وكانت البزازة أول الأمر عبارة عن جلد غزال محشو بالاسفنج . وتضعها المرأة فى صدرها لتوهم الطفل بأنه ثدى حقيقى . وبعد ذلك لم تعد البزازة هى المشكلة وإنما اللبن الصناعى المغذى . فاخترعت زجاجات اللبن الصحية .. وأهم من هذه الزجاجات الصحية أن المرأة لم تعد فى حاجة إلى إرضاع الطفل ، وإنما تركت ذلك كله لأبيه .

٣ ـ التنافس الهائل بين الشركات قد أثر فى حياة الشبان . فنصف الشعب الأمريكى الآن دون الـ ٢٧ سنة . وفى بعض الولايات يكون الشبان أكثر من ٤٠٪ . من السكان . وفى ذلك خطورة . فهم جميعا قد ولدوا بعد الحرب العالمية الثانية وهم الآن متجهون إلى المراهقة . ويصعب التفاهم معهم .. ولذلك يقف رجال الأعمال أمام هؤلاء الشبان حائرين. فبعض رجال الأعمال يرى أنه من الأفضل أن يبقى هؤلاء الشبان بعيدين عن العمل معتمدين على آبائهم فى الطعام والشراب حتى ينضجوا . ووجود هؤلاء الشبان فى الأسرة معناه زيادة الاستهلاك .. فالشاب الذى لايعمل مسرف فى طلباته .

وفريق آخر يرى أنه من الضرورى أن يتزوج الشبان فى سن مبكرة . والزواج المبكر معناه بناء البيت الجديد بالثلاجة والسخان والتليفزيون .

وفريق ثالث يرى أن عدم زواج الشبان يؤدى الى رواج السيارات الرياضية . فمعظم الشبان الذين لم يتزوجوا هم أكثر الناس إقبالا على شراء السيارات وعلى المغامرات .. وعلى شرب الشمبانيا والسجائر الفلتر والأطعمة

المحفوظة .. بل إن أحد علماء الاقتصاد يؤكد أنه لا وسيلة لإنقاذ الاقتصاد الأمريكي إلا بأن يبقى الشبان بلا زواج عشرات السنين .

ومعنى ذلك أن الشبان ليست لهم أية قيمة إنسانية .. وإنما قيمة الشبان أنهم قوة شرائية من نوع خاص . وأنهم ضحايا معركة تجارية صناعية مالية وحشية .. إن هناك عشرات من أصحاب الملايين تسيل دماؤهم من أجل امتصاص دماء هؤلاء الشبان ..

٤ ـ انتشار التعليم قد غير معالم الحياة الاجتماعية والعاطفية والجنسية فى أمريكا . فأكثر من ٥٠٪ من سكان أمريكا يواصلون تعليمهم فى الجامعات . والأغلبية من الفتيات .

ومن الضرورى أن يحصل المواطن على مؤهل جامعى وإلا فلن يجد مكانا فى مصنع أو مؤسسة . كما أن إعفاء الجامعيين من الخدمة العسكرية قد جعل الشبان يتمون دراستهم الجامعية .. وما تزال الجامعة هى أنسب مكان يلتقى فية الشبان ويتفاهمون بالعقل والقلب . ولا تزال الجامعات هى أنسب مكان يستطيع فيه الشاب الجامعى أن يجد الزوجة الجامعية المناسبة ..

وهناك مثل هندى يقول : التعلم للفتاة مثل القرد إذا أعطيته مسدسا .. هذه العبارة لا يجرؤ أمريكى واحد أن يقولها مهما كان رأيه فى المرأة أو فى القرد .

والذهاب إلى الجامعة يخلق مشكلة أخرى : وهى أن الدراسة الجامعية تؤدى إلى تأجيل تحمل الشبان للمسئولية . فالطالب الجامعى يعتمد على والديه . وبدلا من الزواج فى العشرين فإنه يتزوج فى الثلاثين .

ومشكلة الشبان فى العالم كله الآن هى أنه : ناضج جسميا . عاجز اجتماعيا ..

وهذا الموقف يخلق مشكلة أخرى : فالشاب عندما يشعر أنه يعتمد على والديه ، يجد نفسه مندفعا إلى القيام بأعمال تدوس الأسرة والمجتمع .. لأنه يريد أن يبدو مستقلا حرا ثائرا على كل شيء وعلى والديه .. وعلى مدرسته .. وعلى حاكميه أيضا .. وهذا ما يحدث فى أمريكا وأوروبا الآن ..

٥ ـ حدث تغير فى المثل العليا والمعتقدات الدينية .. وفى المزاج القومى العام .

فعدد الذين يترددون على الكنائس لم ينقص عددهم . ولكن رجال الدين هم الذين يحرصون على أن يكونوا «مودرن» فهم يسمحون بموسيقى الروك اندرول فى داخل الكنيسة .. ويسمحون باللوحات السيريالية .. ويسمحون ببناء الكنائس على أحدث النظريات المعمارية التى لا تتناسب مع وقار الكنيسة .. كما انهم يضعون لافتات من النيون يعلنون فيها عن مواعيد الصلاة . واللافتات متحركة كأنها مدخل إحدى دور السينما .

فرجال الدين يريدون أن يذهبوا إلى المؤمنين لا أن ينتظروهم أمام المذبح .. إنهم يريدون أن يجذبوا الناس إلى الكنيسة بكل الطرق .

أما الاكتشافات العلمية والجيولوجية والفضائية فقد هزت الإيمان فى أمريكا .. فقد كان الناس يتصورون أن « السماء » هى سقف هذا الكون .. هى هذا اللون الأزرق الذى فوقنا .. فلما انطلقت سفن الفضاء ملايين الأميال بعيدا عن الأرض ولم تصطدم بالسماء بدأ الناس يشكون فى الدين ـ مع أن هذه الرحلات ليست إلا عبث أطفال إذا ما قورنت بما سوف يكشفه العلم فى المستقبل .. ومع أن الكون نفسه أعظم لغز يدل على عظمة الله .. فليست هذه الاكتشافات إلا محاولة متواضعة لمعرفة سر الكون ، وعظمة الذى خلق الكون .. ولكن الشبان بطبعهم متمردون على الأب والمدرس والقسيس والسياسى .. ولذلك فقد اهتز إيمانهم فى أوروبا وأمريكا أيضا .

وقد كانت المسيحية فى عصرها القديم ترى أن المرأة هى مصدر الخطيئة . وكان القديس بولس ينصح الناس بألا يلمسوا المرأة .. وإذا تزوجوها فليكن لمسها معتدلا أو معدوما .

وقد ساهمت المجلات الجنسية العارية فى إشعال النار فى ملابس الجنسين . وهناك مجلات تنادى بعبادة الجسم .. جسم المرأة . وتفننت هذه المجلات فى الصور والألوان والأحجام ، وإذا كانت الصور عارية فإن الكلمات أكثر عريا ..

وإذا كان الرجل ينادى بالمساواة منذ ثورة سنة ١٧٧٦ حتى القرن الـ ١٩ ، فمن المعقول أن يطلب المساواة له وللمرأة أيضا . ولذلك فالمساواة حق طبيعى للمرأة . وجاء الحب الرومانسى فجعل موقف المرأة أقوى . لأن الرجل الذى يحب ، هو الذى يتنزل عن كثير من حقوقه من أجل المرأة التى يحبها .. فكأن المرأة قد حصلت على المساواة ، وجاء الحب وأعطاها ماهو أكثر من المساواة ..

ولأول مرة نجد أن الشبان يتأثرون بأناس آخرين خارج الأسرة ، فليس الأب هو الشخص الوحيد الذى يقوم بتطوير وتشكيل أفكار أولاده .. وإنما هناك أناس آخرون : الأدباء والصحفيون والممثلون .. وهناك الرحلات التى يقوم بها الأبناء خارج البلاد يرون ويقارنون ويتأثرون وتكون لهم أفكار مستقلة ومختلفة عن أفكار الأب ـ ومن رأى الأبناء أنها أفضل .

٦ ـ وآخر التغيرات كان بسبب الحرب والتوترات الدولية . فالرجل مفتون بالقوة وهو ضحيتها أيضا . والرجل يعلم أنه كلما ابتعد عن البيت ، تحررت منه المرأة وانشغلت واستقلت عنه . والمرأة التى كانت فيما مضى تقاوم الحرب : قد استفادت منها .

فالحروب أعطت المرأة فرصة نادرة لأن تملأ مكان الرجل أثناء الحرب العالمية الأولى . وليس من الصدف أن تفوز المرأة بحق الانتخاب بعد الحرب العالمية

الأولى .. لقد كان انتصارها هذا مكافأة على خدماتها ، أما أثناء الحرب العالمية الثانية فقد ذهبت ملايين النساء إلى المكاتب ليشغلن مكان الرجل . والحرب إذا كانت قد هزت المجتمع وباعدت بين المحبين ، فإنها خلقت نوعا من الحرية والتحلل من القيود العاطفية ..

كما أن الحرب الحارة والباردة والتشنجات الدولية قد خلقت شعورا عاما هو : عش اللحظة التى أنت فيها .

ومن هنا كان الحب الخاطف . واللذة العابرة . والحرية المركزة .

فالقنبلة الذرية قد خلقت عندنا احساسا حزينا بأنه من الممكن أن يموت الناس فى أى وقت .. ولذلك يجب أن يعيشوا فى أى وقت .. ولأى وقت .. فالغد لايهم . اليوم هو الأهم .

هذا الضياع الجنسى الذى غرقت فيه أمريكا وأضاع أوروبا ، أشكال وألوان .. حتى الشرق الأوسط بدأ يتعلم لعبة الضياع . فالنساء سافرات . والشبان أكثر تأثرا بالحضارة الأوروبية والأمريكية فى الأزياء والرقص والعادات الأخرى .. التوجه إلى نزهة على النيل (؟) ولم يكن ذلك مألوفا من قبل .. وفى اليونان لانجد الزواج منظما ولا دينيا فى المدن . وإنما الأغنياء فقط هم الحريصون على هذه الطقوس التقليدية . وفى الحدائق يتعانق الشبان علنا . بينما فى الريف اليونانى لايسمحون للمرأة أن تكشف أبعد من قدميها ويديها ووجهها أحيانا .

ومنذ ثلاثين عاما كان الرجل اليابانى سيد البيت . سيد المرأة ، وكانت طاعته واجبة . وإرادته قضاء وقدرا أما الآن فقد ألقت المرأة قنبلتها على الرجل فمزقت إرادته وقداسته .. وربما كان ذلك هو سبب عودة كثير من الرجال إلى البيت فى ساعة متأخرة مخمورين .. وفى نفس الوقت هناك رجال يقدمون مرتباتهم إلى زوجاتهم فى مظاريف مقفلة .. أى ينقلون الفلوس من الصراف إلى الصرافة ـ أى إلى الزوجة . وأصبح من حق المرأة أن تذهب إلى المدرسة وإلى

الجامعة ومن حقها تحديد النسل ومن حقها أن تنفصل عن الزوج بالطلاق .. ومن حقها أن تتناول طعامها وتنام . وأصبح الرجل مضطرا أن يخلع حذاءه ويغسل قدميه .. ووجهه أيضا .

والمرأة الأمريكية هي المسئولة إلى حد ما عن ذلك . فالجنرال ماكارثر عندما أعلن الدستور اليابانى ، جعل من الضرورى تحرير المرأة .

وغير المرأة اليابانية نساء كثيرات تحررن .. وتحللن أيضا ..

وليست هذه صورة لأعماق المجتمع الأمريكى وأوضاع المجتمع الأوربى ومخاوف العائلة الأفريقية والآسيوية ولكنها وعد برسم صورة وتشخيص حالة وعلاجها بعد ذلك .. وكما أن المرض عام ، فالعلاج عام أيضا .. وإذا كان الآباء هم الذين صنعوا هذه البيئة التى ألقوا فيها بأبنائهم ، فإن الأبناء هم الذين خلقوا الشكوى من البيئة ومن الآباء . فالشكوى كالمرض وكالعلاج ، عامة أيضا .. والمشكلة كرة يضربها الآباء فى الأبناء ويضربها الأبناء فى الآباء .. وأرضية الملعب ملتهبة .. وهذه صورة للجميع ..

عصر ترى فيه الفتاة أمرًا ولا تسمع أمرًا

- ٢ -

ويمكن أن يقال عن الشباب إنهم غابة مشتعلة .. قل ما يعجبك .. ولكن قل لى بعد ذلك ما الذى يجب أن نفعله أمام هذا الدخان الذى ينعقد فى العقول والقلوب .. وتحول إلى حجارة والحجارة إلى جدران .. والجدران تفصل بين الجنسين .. وتجعل كل جنس معتقلا فى خوفه .. ثم تتباعد المسافة بين هذا الجيل والجيل الذى قبله .

إن فلاحا إيطاليا رفض أن تسافر ابنته إلى أمريكا إلا إذا وافقت إحدى شركات التأمين أن تحمى عفتها .. ووافقت شركة التأمين . فهذا الخوف على البنت من الولد قديم جدا . فالكاتب المصرى القديم قد نصح بأن يبعد الولد عن البنت فى النوم والمرح . ولا مانع أن نجمع بينهما فى العمل . وعمر هذه النصيحة أربعة آلاف سنة .

وإذا كان مزاج الشبان مختلفا عن مزاج الرجال ، فإن هذا الخلاف يصبح أقوى وأعنف لأن الشبان عددهم أكثر . وقد حاول كثير من العلماء أن يفهم ماذا يريد وماذا يقول الشبان . وأعلن أنه لم يفهم بالضبط . وهذا ما يعرفه الشبان أيضا . إنهم يتكلمون لغة أخرى بأساليب أخرى .

بل إن الشبان حريصون على أن يظلوا شبانا ومنعزلين عن غيرهم من الكبار . لقد قال لى شاب إنه فى الاجازة الصيفية لم يتحدث إلى واحد أكبر من ٢٥ سنة . ولم ير ضرورة لذلك .

ولأن فترة التعلم قد طالت ، فإن الشبان يعتمدون على آبائهم أو على إخوتهم الكبار .. وعلى الرغم من حاجتهم إلى الأكبر سنا . فإنهم يظلون منعزلين يحتمون فى سنهم وفى عاداتهم وفى دنياهم الغريبة ..

ومن العجيب أن نجد فى مدينة نيويورك محطتين للإذاعة : إحداهما للشبان والأخرى للكبار .. وكثيرا ما استمع الكبار إلى إذاعة الشبان ، ويندر أن يستمع الشبان إلى إذاعة الكبار .

والسؤال الذى يقول : ما الذى نصنعه مع الشبان فى فترة « اليقظة الجنسية » هو الذى سوف أنقل الإجابة عنه حالا ..

هناك دائما « يقظة جنسية » أو « صحو عاطفى » أو « فوران عضوى » أو « غليان كيماوى » فى جسم كل شاب . هذه حقيقة . وإطفاء هذه النيران ليس موضوعا . وإنما توجيه فائض البخار هو الموضوع .. تماما كالقطار . نحن لا نطفئ ناره ولانحبس دخانه . وإنما نحن نوجه هذه الآلة إلى الأنفع والأهدأ .

من المؤكد أن البيئة تغيرت .. أن الظروف التى يعيش فيها الشبان قد تطورت . وليس صحيحا أن الشبان فى عزلة تامة عن العالم .. فمثلا ..

١ ـ لقد تغيرت سيطرة الأبوين على الأبناء . ولم تعد قوية ولا محكمة . فالخلاف بين البنت وأمها حاد . والمسافة التى تفصل بينهما أطول وأعرض من الشارع الذى تسكنان فيه .. فالأم تتهم ابنتها عادة بأنها جريئة وأنها لاتستحى . وخصوصا قبل الزواج . ولذلك عندما تتزوج الفتاة تحس الأم أنها أعفيت من الرقابة الليلية على ابنتها . وأن أحد رجال الشرطة الشرعيين قد تكفل بهذا

العبء الثقيل . ومن النادر أيضا أن تستشير البنت أمها فى عريسها . إن الأم تفاجأ بالعريس فى البيت أو على الباب إذا كانت الأسرة محافظة . وفى أمريكا اللاتينية اختفى تماما الزواج العائلى . فالفتاة تختار وتقرر وتتزوج . وتدعو أمها وأباها حتى اليوم لشهر العسل. وليس الزواج فقط هو الذى يعتبر مفاجأة فى سلوك البنت .. ولكن كل سلوكها سر ولغز . وأصبح من شعار الأمهات والآباء : عندها البيت تفعل فيه ما تشاء بشرط ألا تكسر الأدوات وألا توقظ الكلاب .

وليس هناك نصائح أو موعظة . ثم إن الشبان خاضعون لنفوذ أناس آخرين فى الصحف والمجلات والكتب والميكرفون والشاشة . وفى هذه الأجهزة الإعلامية القوية دعوة للفتاة أن تنتهز الفرصة . وأن بيضة اليوم أحسن من دجاجة الغد . وتمسكت الفتيات بالبيض . وشجعت الصحف الشبان على الثورة والتمرد على البيت والأسرة والكنيسة . بل إن إحدى المجلات السينمائية عندما تحدثت عن الممثلة تيوزداى ولد قالت : إنها أصبحت تصافح أمها كلما رأتها خارجة من الغرفة المجاورة ولكنها لاتعيش معها ولا تكلمها .

وانتشار الروك اندرول وبقاؤه حتى الآن دليل على أن الشبان يهتمون جدا بإزعاج الآباء وتحديهم أيضا . وانتشار التدخين والخمور والسيارات كل ذلك يؤكد أن الشبان حريصون على صدم الرأى العام بكل الوسائل ليفهم الجميع أنهم مختلفون . وأنه من الضرورى أن يختلفوا .

وتحير الآباء ماذا يفعلون . إنهم ضعاف أمام هذا العدد الهائل من القوى الضاربة فى الخيال وفى نفس الوقت لاتعتقد أنها خيالية . أكثر الشبان يقول : أنا واقعى ..

وهو بالفعل واقعى : لأنه يتصرف طبيعيا . والطبيعى أنه قوى . وأن أفعاله عنيفة . وأنه مختلف عن والديه ..

والفيلسوف أفلاطون قد حدثنا فى كتابه المعروف « الجمهورية » عن دوخة الآباء والأبناء .. فقال : اضطرب كل شيء : الآباء يسلكون كالأطفال . والأطفال يتصرفون كالرجال والرجال يقلدون الشبان حتى لايصفهم الشبان بالجمود أو الرجعية .

ومع ذلك فالشبان يطلبون النصيحة إلى الوالدين فى المشاكل الاجتماعية والأخلاقية . والأرقام تنطق بأن الشبان يقبلون النصيحة وينفذونها أيضا .

ومنذ أقدم العصور نرى أن المجتمع سلطان قوى على كل الناس . وأن المجتمع يعتمد على قوته التاريخية فى مواجهة الشبان وعيوبهم .. ففى سفر « التثنية » من الكتاب المقدس يقول : إن الأب إذا اكتشف أن ابنته ليست عذراء عليه أن يحملها إلى خارج البيت وعلى الناس جميعا أن يضربوها بالحجارة حتى الموت .

فالمجتمع قوى . وسلوك الشبان هو نوع من الهرب من المجتمع ومن عيون الناس . ولذلك فإن ٧٠٪ من الشبان الأمريكان يرون أن امتلاك سيارة أمر حيوى .. فالسيارة ليست وسيلة للانتقال بل هى أيضا غابة يقضى فيها الشبان أجمل أوقاتهم .. ومعظم اللقطاء فى أمريكا هم أبناء السيارات أيضا . والشبان فى أمريكا يقولون : لاسيارة .. لافتاة .

وإلى جانب ضعف سيطرة الآباء على الأبناء ، هناك ضعف الكنيسة أيضا . فرجال الدين يريدون ألا يكونوا مكروهين لدى الشبان ولذلك لايضغطون على سلوكهم . ولايضعون النصائح عقبات فى طريقهم وإذا التقى رجال الدين بالشبان فإنهم لايتحدثون عن الحرام والحلال ، وإنما يتحدثون عن الصحة الجسمية والصحة النفسية .. إنهم يريدون أن يكونوا علماء فقط .

كما أن الجامعات لاتسيطر على الشبان . فالفتاة تجد حبوب منع الحمل فى

أجزاخانة الكلية . ولا أحد يسألها عن سبب شرائها للحبوب . بل إن الجامعة ترى أن حبوب منع الحمل مثل أى دواء آخر لمنع الزكام مثلا .

ولا تتدخل الجامعات فى شئون الطلبة إذا هم تركوا غرف النوم وذهبوا إلى الفنادق المجاورة .

وعندما سافر بعض الأمريكان إلى روسيا ووجدوا أن روسيا تسمح بزيارة الجنسين فى أماكن السكن الجامعية ولساعات محدودة رجعوا إلى أمريكا يتوسعون فى ساعات اللقاء ، وأنه كانت هناك كليات كثيرة ترفض الزيارة الليلية لبيوت الطلبة والطالبات . وهناك طبعا تعليمات مضحكة فى الطريق إلى غرف النوم مثل : يجب أن تكون هناك ثلاث أقدام على الأقل ملامسة للأرض .. والشبان ينفذون هذه التعليمات حرفيا فينامون على الأرض .. وهناك تعليمات تطالب بأن يكون الباب مفتوحا بحيث تدخل فيه سلة المهملات ـ وكثيرا ماطبق الشبان سلال المهملات ووضعوها بين ضلفتى الباب .. أو يكون الباب مفتوحا لدرجة يدخل منها كتاب من ٥٠٠ صفحة ـ والشبان يفتحون الكتاب على صفحة ٢٥٠ ويضعونه بين ضلفتى الباب ـ ومن الضرورى أن يكون مصباح الغرفة مضاء ، ويطلونه باللون الأزرق القاتم .

إن الأيدى التى تمسك أيدى الشبان قد تراخت .. ولم يجد الشبان صعوبة فى أن ينطلقوا وفى أن يستغرقهم شبابهم . ويهدهم . ويهدمهم أيضا ..

٢ ـ وفى نفس الوقت يتعرض الشبان لغارات ليلية مركزة على أعصابهم من السينما والتليفزيون .

فكل الشبان فى السادسة عشرة قد رأوا القبلات أشكالا وألوانا والعناق الرقيق والعناق العنيف . إن أى شاب أمريكى رأى ١٥ ألف ساعة تليفزيونية ورأى « الجو » الذى يؤدى إلى ذلك .

ورأى « الجو » الذى تم فيه ذلك و « الحالة » التى كان عليها الجنسان بعد أن تم ذلك وذلك .

ففى أحد الأفلام خلعت صوفيا لورين ملابسها مع الموسيقى .. كأن كل نغمة أصبع رقيقة واثقة تسحب منها ومن عليها قطعة من ملابسها .. ورأى الشبان أفلاما تتساقط فيها الفتاة بين الأحضان وكل واحد يقبلها بصورة مستقلة مختلفة . والفتاة سعيدة . وبعد مشاهدة هذه الأفلام العارية تتحدث الصحف عن هذه الأفلام وتشرح ما كان خافيا وتشجع عليه وتدعو إليه . وحتى إذا اكتفت الصحف بالكلام عن روعة الإخراج فقط ، ففى ذلك موافقة ضمنية على الجنس العريان .. موافقة أبوية واجتماعية أيضا على أن يحدث هذا وأن يشاهده الشبان . وأن يتخيلوا ويحلموا بعد ذلك .. وأن ينتقلوا من خيالهم إلى واقعهم . لأنه مسموح به ..

تغيرت الدنيا جدا . والذين شاهدوا فيلم « روميو وجولييت » بطولة لزلى هوارد ونورما شيرر لابد أن يضحك من الجملة التى قالتها جولييت عندما اقترب منها روميو : لا .. ياروميو .. يجب أن تبقى قدماك على الأرض ! .

وفى سنة ١٩٣٠ ظهرت هيدى لامار فى فيلم اسمه « منتهى النشوة » عارية تماما .. تماما . وبعد هذا الفيلم أصبحت الأفلام أجرأ .

وفيلم « الانفجار » يبين لنا صورة فتاتين عاريتين تغريان رجلا على كل شىء .

ولم يعد العرى كافيا لإثارة الجنس ولذلك اتجه التليفزيون إلى الإثارة العنيفة بالكلام والحركة ..

أما الأغانى فهى أيضا أكثر إثارة من الأفلام . ويكفى أن تستحضر كلمات الكثير من الأغانى التى تعجبنا أنها جنسية صارخة : خذنى بين أحضانك خذنى .. وهات عينيك وإيديك ورجليك .. الخ وعذاب الحب .. حب العذاب ..

وهوان العشق هو عشق للهوان .. وهناك أغنية تندب حظ فتاة قررت أن تعود مبكرة فهى لم تجد فراشا آخر تأوى إليه .

وكذلك الرقص . فمن المعروف أن الشبان أكثر خجلا من الشابات . وأن الفتاة أجرأ . وأكثر حبا لكل ماهو عريان فى الملابس وفى الكلام . ولكن الرقص الجديد يقضى على خجل الشباب . فابتداء من سنة ١٩٦٠ وجدنا الرقصات كلها تجرجر الشاب وسط عشرات الراقصات لينسى خجله فى الزحام . وليس على الشاب إلا أن يرمى نفسه فى بحر الرقص وبراكين الموسيقى ويستمتع بالنظر إلى الفتاة وهى تتلوى يمينا وشمالا .. وتعلو وتهبط .. وتقترب وتبعد .. تقترب بساقيها وتبعد بصدرها .. وكلها حركات جنسية .. أما الرقص الهادئ فهو التصاق ملتهب .. وفى بعض الرقصات الحديثة ينزل الشبان بالبيجامات والفتيات بقمصان النوم .. وأحيانا بالملابس الداخلية فقط وفى مصابيح خافتة .. كأن المصابيح قد تغطت بكل ملابس الراقصين .. وهناك رقصات يهيم فيها الراقصون على مراتب السرير وينزلونها إلى الأرض ويرقصون أفقيا .

ووراء هذا كله نجد الصحف والمجلات التى تناقش موضوعات على المكشوف .. فمثلا نجد مثل هذه الموضوعات : كيف تعودين عذراء مرة أخرى .. كيف تتزوجين لثالث مرة وكأنها المرة الأولى .. وإذا لم تكن عندك مغامرات فعندنا برنامج حافل لك .. إن الرجال يفضلونها صاحبة تجارب .. لا تظنى أن هذا هو الرجل الوحيد فى حياتك .. فى جسمك كنوز لا تعرفينها .. ليس بالشفتين فقط تعيش الفتاة .

وفى جميع الظروف كانت المرأة تتعرى . أو كان هناك من يحرص على تعريتها بمساحات متفاوتة وفى أماكن مختلفة . وقد تغيرت هذه المساحات وهذه الأماكن

بمرور الزمن . انتقلت من خط الوسط إلى خط الرقبة . ومن الركبة إلى مافوقها .. إلى الساقين والقدم ..

فى نهاية القرن الماضى كان منظر تحت الابط يثير الرجل . ومضت سنوات لم يعد أحد ينظر إلى هذا المكان . وفى سنة ١٩٦٠ اتجهت السينما للبحث عن أماكن أخرى تثير الرجل .

وفيما بين ٦٥ و١٩٦٧ ابتعدت الكاميرا عن الصدر الذى أثار الناس وقتا طويلا . وتركزت الكاميرات على السيقان . ولذلك قصرت الفساتين وضاقت البنطلونات . وقام القماش المطاط ببقية الإثارة ـ كما ظهرت الفتحات فى الملابس الداخلية للمرأة .. ولكن لا تزال الملابس الملتصقة هى المثيرة أكثر لأنها تطاوع خطوط الصدر ، وتنافق خطوط الأرداف ، وتتلصص على الساقين .. وتتطفل على كل شىء آخر ..

فى سنة ١٩٦٨ ظهرت البلوزات بلا حمالات ..

وعادت الموضات بعد ذلك إلى الصدر والتركيز عليه .

لتصرف العيون عن السيقان . وبذلك تتخلص المرأة من ملايين الفساتين القصيرة .

والمايوه البيكينى لم يعد موضة الآن . فقد ظهرت موضة أخرى تثير الرجال أكثر . وكل ما فعله المايوه البيكينى هو أنه ترك المساحات العارية فى جسم المرأة . واخترع رجال الكيمياء دهانا جديدا للوقاية ضد الشمس ويحتاج إلى يد قوية لتمسح به الجسم . وهذه اليد القوية هى عادة يد الرجل . والرجل يمسح على ٩٥٪ من جسم المرأة ـ متعة للاثنين ! .

والإعلان فى أمريكا هو الذى يحرك الجميع فى اتجاه المرأة أو بعيدا عنها .

فهو يطلب إلى المرأة أن تستخدم أحدث العطور. إن هذه العطور مصيدة الرجال .. وهناك عطر اسمه : قبل وأثناء وبعد .. إنه هو وحده القادر على تزويج الأجسام والعقول والقلوب .. وفى أحد الإعلانات عن عطر يرى الشبان فتاة عارية فى الفراش .. وشعرها منكوش .. ويتلاقى على وجهها الاستسلام والإرهاق والارتياح ـ مفهوم. وتقول : لا أعرف إن كان هو أو عطره ؟

والأمريكان عندهم عقدة أن المرأة الأمريكية ليست أنثى. ولذلك يطلبون إليها أن تعرف كيف ترتدى الملابس لكى تخلعها بعد ذلك. ولذلك فالمرأة الأمريكية تسرف فى الظهور بمظهر الأنثى فتكون جريئة ووقحة وتحاول أن تبدو مثيرة جنسيا. مع أن الجرأة تتنافى مع الأنوثة. لأن المرأة من الممكن أن تكون مثيرة ورقيقة أيضا.

والأمريكان لهم مشكلة خاصة. وهى أنهم ينتقلون من مكان إلى مكان وهذا التنقل يجعل الأم تخاف على ابنتها ألا تجد صديقا أو عريسا. ولذلك نجد أن الأم تطلب من ابنتها أن تكون أنيقة مثيرة. ويسعد الأم أن يكون لابنتها صديق. ويسعدها أكثر أن يكون لها أكثر من صديق فى وقت واحد أو الواحد بعد الآخر. لأنها تريد من ابنتها أن تتفرج وتشوف قبل أن تختار ابن الحلال ولكن الفتاة تؤكد لأمها أن شخصيتها قوية وأن الذى يعرفها يتمسك بها ، أو أنها شخصية لا تخطئ فى الحكم ، فإنها تتمسك بصديق واحد .. وبصورة منتظمة.

وكثيرا ما ذهبت الأم الأمريكية إلى المدرسة وطالبت بحفلات للرقص والأم الأمريكية تشعر بالسعادة عندما تجد أن الشبان متمسكون بابنتها من أول الحفلة إلى آخرها.

والفتاة فى شمال أوربا تدفع حسابها إذا تناولت الطعام مع شاب. ولكن فى

أمريكا نجد الشاب هو الذى يدفع . أما الفتاة التى تدفع فينظرون إليها على أنها مسترجلة أو مستهترة .

وكل الأشياء المثيرة قد استخدمها الشبان . ولم تعد هناك أية مغامرات جنسية . ولكن هناك أفكارا أخرى عند الشبان . هناك الحرص على أن يعيش الواحد فى خطر . أو خطرا . أو قريبا من الخطر . وهناك انتشار المخدرات وعقاقير الهلوسة .. وهناك نوع من الشذوذ الجنسى عند الجميع . فمن المظاهر المتكررة أن تفاجأ الفتيات بأن شابا قد نزع ملابسه فجأة فتصرخ الفتيات . ويسقط الشاب على الأرض فى حالة نشوة ــ وقد اعترف الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو بأنه كان يجد متعة شخصية فى ذلك .

٣ ــ وإلى جانب ضعف السلطات المختلفة فى مراقبة الشبان ، وإلى جانب تعرض الشبان للحملات الإعلامية العنيفة ، هناك أيضا ضعف عام فى القيم الأخلاقية . وهزال فى التعاليم الدينية .. وعندما سئل أحد الشبان عن سبب هذا الإغراق فى الجنس .. قال : إننى لم أسمع كلمة : لا .. من أحد .

ولم يعد أحد أيضا يهتم بما كانت تفعله الفتاة قبل الزواج . ولا يدور حوار بين الفتى والفتاة بعد الزواج موضوعه : هل فى نيتك استئناف ما كان قبل ذلك أيضا .

كما أن هناك نظريات واجتهادات عديدة فى تفسير السلوك الجنسى للرجل والمرأة قبل وبعد وأثناء الزواج .

هناك رأى يقول إن المجتمعات القديمة حرصت على شرف البنت ، صيانة للنسل .. لنسل الأغنياء والأشراف فقط .

هناك نظرية تقول : إن ما كانت تفعله الفتاة قبل الزواج سوف تفعله بعد الزواج أيضا .

أما دائرة المعارف الكاثوليكية التي طبعت أخيرا فقد خصصت ٤٠ صفحة للكلام عن الخطيئة . من بينها ٣٠ صفحة عن الخطيئة الجنسية فقط .

وفى القرن ١٩ فى بريطانيا عاش الناس على الطهارة الأخلاقية والجنسية . والقرن ١٧ كان عصر الطهارة بالقوة . وكانت المرأة الشريفة هى التى لاتهتم بالجنس ولا تذكره . وتبالغ فى قرفها من الرجل واحتقارها للإنسان الذى يقلد الحيوان فى كل شىء . والموضة فى القرن ١٩ كانت توضح هذا المعنى فالمرأة قد غطت جسمها من القدمين إلى اليدين .

ولما جاءت الحرب الأولى أطاحت بهذه القيود . وهدمت العمارات الأخلاقية . ورصفت الطريق بين الجنسين . وانتقلت أسلاك الجنس بين الطرفين . ورأى الأوربيون مئات الألوف من الأمريكان .. ولا يزال الناس يتصورون أن المرأة الفرنسية هى أكثر النساء إثارة .. وأن صناعتها الحب .. وهذه شهرة فقط فقد جاءت الحرب الأولى . والحقيقة أن المرأة الفرنسية ليست كذلك . لا فى الحرب الأولى ولا الثانية . بل إنه من المؤكد أن المرأة الفرنسية هى أقل نساء أوروبا فجورا . بل أقلهن حديثا فى الموضوعات الجنسية بصورة علنية .

وبعد ذلك رفعت الفتاة شعرها ، وذيل فستانها ، وبرزت بصدرها ، وألقت بالنار على الجنس الآخر .

وأخيرا ..

ظهرت نظريات العالم النمساوى فرويد التى اكتشفها أثناء معالجته للمرضى والمجانين : فهو يرى أن المحرك الأول للنشاط الإنسانى كله هو الجنس . وأنه ليس من الطبيعى أن نضحى بالجنس من أجل القيم الأخلاقية المعاصرة . لأن معظم اضطرابات العالم بسبب الكبت الجنسى . وأن العلاج الوحيد هو : التفريج أو التصريف أو الانطلاق ـ هذا هو المعنى .

والغريب أن فرويد نفسه كان معتدلا جنسيا . بل كان دون الاعتدال .

وكان محافظا متمسكا بالدين اليهودى . وقد اعترف بأنه أصبح عاجزا جنسيا تماما دون الأربعين بكثير.

وظهر عالم آخر فى أمريكا هو الدكتور كنزى وحلل المجتمع الأمريكى وكشفه . وفضحه . وفى نفس الوقت قدم المجتمع الأمريكى هدية لعلماء النفس والأطباء ورجال الدين والسياسة . وكان من رأى الدكتور كنزى : أن الأشياء والعلاقات كما يجب أن تكون ، هى الأشياء كما هى . أى كل ماهو طبيعى ، هو ما يجب أن يكون . وأن الإنسان يحاول أن يكذب . فإذا اضطر إلى الكذب التوى . وإذا التوى فقدنا معالم الطبيعة الإنسانية .

وتقرير الدكتور كنزى صورة مخيفة للمجتمع الأمريكى والأوربى .. صورة للانحلال والإصرار عليه .

وبعد الدكتور كنزى ظهر الدكتور ماسترز وهو الذى صور العلاقات الجنسية بين الشبان فى أفلام ملونة . وهو يعتقد أن المجتمع الأمريكى يضع النبيذ القديم فى زجاجات جديدة . وأن الأمريكان يحاولون أن يحشروا آراءهم القديمة فى رءوس الشبان .. فى حين أن من الأفضل أن نستمع كثيرًا إلى الشبان وأن ننظر إليهم أطول . وأن نقترب من هذه الظاهرة الجديدة لعلنا نفهم الحاضر والمستقبل .

وأما التضارب الهائل بين كلمتى : نعم ولا .. وبين المنع والاباحة .. وبين الزهد الشديد والزهد المستمر فى العلاقات الجنسية .. وبين الارهاب الجنسى والانحلال الجنسى اضطرب الشبان . فهناك شعاران فى أمريكا : الجنس رجس والجنس أنس .. والشبان يقبلون والآباء يعدون القبلات .. والأمهات مشغولات باللقطاء ..

إن النيران قد أحاطت بالغابة .. وهنا نار وهناك دخان .. ولابد أن يكون هناك حل ما .

مكتوب على الفستان والجزمة : تاريخ المرأة

- ٣ -

كانت قوة شمشون الجبار فى شعره الطويل .

وكانت دليلة أقوى من شمشون لأنها هى التى حلقت له فأصبح ضعيفا . وكل شمشون له دليلة . وكل دليلة لها حيلة . ولا تزال دليلة وأخواتها يلعبن بكل شمشون : فى شعره وفى عقله وفى قلبه وفى مستقبله .

والمرأة بغريزتها دليلة .

وإذا كانت المرأة لا تعرف هذه الحقيقة فإن هناك ألوفا من الرجال يشرحون لها ذلك . يشرحون لها كيف يمكنها أن تتغلب على أى شمشون .. فالرجال هم الذين يساعدون المرأة على هدمهم وخراب بيوتهم وعقولهم وقلوبهم قبل ذلك .

وتجد المرأة من يقول لها دائما إنها ضعيفة ، مع أنها - بمعونة الرجل وضد الرجل - لا يمكن أن تكون ضعيفة ..

ولم يحدث فى عصر من العصور أن تحررت المرأة ، وأصبحت مساوية للرجل فى كل شىء ، كما فى هذا العصر . فمن حق المرأة أن تتعلم وأن تعمل ، ولها أن تختار الزوج ، أو لا تختار وأن تعمل أو لا تعمل ، وليس من الضرورى أن تبحث المرأة عن الفلوس يكفى أنها تتزوج رجلا عنده فلوس ، ولا يزال

المجتمع ينظر باحتقار للرجل الذى يتزوج المرأة لفلوسها .

وإذا كان الرجل هو الذى يكتب التاريخ ، فقد جاء دور المرأة أن تكتب تاريخها هى أيضا .. تاريخها بقلم الرجل . وما دامت المرأة هى التى سوف تقرأ تاريخها ، فالرجل المؤلف حريص على أن يكون محبوبا من المرأة ولذلك فالرجل يكتب التاريخ لصالح المرأة .. وبفلوسها ..

فالرجل هو الذى سجل على المرأة أنها كاذبة مخادعة ، وأن الحياة معها كالحياة على قمة بركان ثائر .. أو سوف يثور بين لحظة وأخرى ، وثورة البركان معناها أن البركان يدخل طرفا فى النزاع بين الرجل والمرأة وأنه يقف إلى جوار المرأة ضد الرجل .

والرجل هو الذى صور المرأة فى الروايات والمسرحيات فى شكل مخيف .. مخيف للرجل وللمرأة أيضا حتى أن المرأة كثيرا ما لعنت حظها أنها خلقت امرأة ، ولم يخلقها الله رجلا .

وإذا كان القديس بولس قد نصح المرأة ألا ترفع صوتها فى الكنيسة ، فإن الرجل قد أسكت المرأة بل كتم أنفاسها ـ تطبيقا لنصيحة القديس بولس .

ولكن شيئا حدث فى العالم كله بعد الحرب العالمية الأولى ..

انتقلت النساء أثناء الحرب إلى العمل فى أماكن الرجال . وبعد الحرب عاد الرجال يعملون فى أماكن الرجال والنساء أيضا ، وبعد الحرب أحس الرجال أن المرأة قد صنعت شيئا نافعا من أجل المجتمع .

ومن الصدف الغريبة أن يصدر فى أمريكا قانون بحق التصويت للمرأة وفى نفس الوقت قانون بتحريم شرب الخمور ، وكان ذلك فى سنة ١٩٢٠ ، وكانت المرأة هى التى تطالب بتحريم الخمور ، إذن لقد سمع الرجل صوت المرأة وأعطاها حق التصويت .. أى الحق فى أن يكون لها صوت ضد الرجل ..

وفرحت المرأة بالحقوق الجديدة التى اكتسبتها ، وفرحت أيضا بحريتها .. ولكن ما الذى صنعته المرأة بحريتها ؟ هل هى حرة فى الاستفادة من حريتها ؟ هل هى حرة فى حريتها ؟..

فى الأربعينيات من هذا القرن اشتغلت المرأة. ولم يعترض أحد على عملها، ولكن كان عند المرأة شعور بأنها ست بيت أيضا ، أو تحب أن تكون كذلك ، وأن العمل خارج البيت ليس إلا نوعا من الترف أو أنه دليل على أنها قادرة على أن تكون شيئا آخر غير الزوجة وغير الأم . وكانت المرأة تشعر بالسعادة وقد التف حولها أولادها الخمسة أو السبعة . وكان من مباهج الحياة العائلية أن تخرج الأسرة فى سيارة كبيرة امتلأت نوافذها بالأطفال ..

وكانت الصحف تتحدث كثيرا عن المرأة الصغيرة التى لها بيت صغير وتديره بنفسها والذى امتلأ بالأطفال الصغار السعداء .. إنها أسرة سعيدة .

والمرأة عندما تحس أنها مرغوبة ، فإنها تحرص على أن تكون أنثى ، والمرأة عندما تحس أنها أم سعيدة فإنها لا تهتم كثيرا بأن تكون رشيقة أو نحيفة . لأن البيت يحتم عليها الحركة البطيئة ، ويحتم عليها أن تكون فى صحة جيدة ..

وفى الخمسينيات من هذا القرن امتلأت الدنيا بالخوف من الحرب الذرية.. وبالخوف من الموت والفناء وأحس كل أب وكل أم أن حياته عبء عليه ، وأنه لا داعى لأن يأتى بأولاد من أجل الموت ..

ولاحظ أيضا علماء الاجتماع أن هناك اضطرابا نفسيا وعقليا عاما ، وأن التعليم قد أرهق الفتاة ، وأنه كلما تعلمت الفتاة وطالت فترة الدراسة ، وتعطلت عن الزواج ، ارتبكت عواطفها ، وهذا الارتباك قد ظهر بصورة صارخة فى موقف الفتاة من الرجل . هل تحبه ؟ نعم . وماذا بعد الحب ؟ إنها لا تعرف . ومتى تعرف ؟ إنها أيضا لا تعرف .

وعندما سئلت فتاة جامعية عن مشروعاتها للمستقبل قالت : عندى مشروعان .. واحد إذا تزوجت .. وواحد إذا لم أتزوج ..

وكثيرا ما سئلت عشرات الألوف من الجامعيات عن المستقبل ، وقد أجابت الأغلبية بأنهن حريصات على مواصلة التعليم الجامعى والعمل بعد ذلك ، ولكن المفاجأة تقع فى منتصف الطريق : عندما تتزوج زميلاتهن ويتركن الجامعة ، والزواج هو أحد الأمراض المعدية ، وهو ينتقل بين الأصدقاء بسرعة ، وقد سئلت إحدى الطالبات التى تزوجت فى الشهر الأول من عامها الدراسى الأول : وكيف تزوجت ؟.. فأجابت : لم تكن عندى أية فكرة إلى أن رأيت زميلتى قد تزوجت أحد أصدقائنا ، فذهبت إلى صديقى وقلت له : وأنت ما رأيك ؟ فتردد وقال : ليس الآن .. وقلت له بشدة : الآن وإلا .. فأحنى رأسه قائلا : الآن .

وهكذا تزوجت واحدة .. ومثلها عشرات الألوف .

ولما سئلت إحدى الفتيات أيضا عن مشاريعها بعد الزواج قالت : أن أتزوج وأن أستمر فى الزواج وأن يكون لى أطفال ، وأن أعمل ، وألا أكون مملة لزوجى . وأن أكون أنثى دائما .

إنها مهمة شاقة جدا أن تكون المرأة كل هذه الصفات فى وقت واحد ، وأن تنجح فى أدائها دائما وأمام شخص واحد . إن صعوبة مهمة المرأة ليست فى إيقاظ حواسها ، فهذا سهل ، ولكن فى إيقاظ حواس الرجل والاحتفاظ بحواسها أيضا ، وأن تفقد هذه فى العمل وأن تستعيدها مع الطفل ، وأن تشعل النار فيها للزوج .. فالمرأة ليست ضعيفة ولا قابلة للكسر كما وصفها الرجل من مئات السنين ..

ولكن هناك مفكرات وأديبات يستنكرن الزواج ، ويرين أن الزواج نظام استبدادى ، وأن الرجل طاغية ولا شىء يدل على طغيان الرجل إلا بقاء هذا

النظام الذى يربط المرأة فى سلاسل من حديد ، لا يتقيد بها الرجل

فالأديبة الفرنسية سيمون دى بوفوار - التى رفضت الزواج من الفيلد سارتر - من رأيها أن المرأة لن تستقل إلا إذا عاشت بعيدا عن الرجل - أى إذا تحطمت العلاقة الزوجية والأسرة .

ولكن هذا الرأى لا تؤيده معظم النساء ، فالمرأة تريد الأسرة ، و الطفل من الرجل الذى تحبه . وتريد القيد الذى يفرضه الحبيب ، وتريد ا. التى تشعها الرجولة . والأمان الذى يضفيه الحنان ، والضمان الذى تع الفلوس .

ولكن فى نفس الوقت الذى تريد أن تكون شيئا «أكثر» من أن تَ زوجة .. أو أما .. أن تكون موظفة أن تعمل شيئا .. حتى لا تفقد احتر لنفسها ..

والذى يرى الفتيات ذاهبات إلى العمل أو يراهن فى المكاتب والمؤسس يخيل إليه أنه لا توجد فتاة جالسة فى البيت ، فكلهن يعملن ولكن بريه تشكو من نقص فى الفتيات .العاملات ..

وفى أمريكا منذ ٢٥ سنة كان ٢٠٪ من النساء العاملات متزوجات ، الآن فمعظم العاملات متزوجات ، وأكبر نسبة للعاملات المتزوجات فى ال موجودة فى الاتحاد السوفيتى ..

ومن الملاحظ أنه كلما كان تعليم الفتاة عاليا ، كانت رغبتها فى العمل أك ونسبة المشتغلات أكبر. ففى أمريكا ٦٠٪ من العاملات مدرسات و. ممرضات و٥٪ سكرتيرات ، و٥٪ عاملات تليفون .

ومن بين الـ ١٥٠ وزيرا أمريكيا فى الأربعين عاما الماضية كانت وزير فقط وبين أعضاء المحكمة العليا لم يكن غير امرأة واحدة .

وفى أمريكا أيضا نجد أن أجر الموظفة أقل من أجر الموظف .. وفى معظم الدول الأوربية أيضا . وهناك محاولات للمساواة بين الجنسين ، ولكن حتى الآن لم ينجح .

فالذى ينظر إلى المرأة عموما يجد أنها تعمل ، وترقص ، وتدخن ، وتسكن وحدها ، وتتزوج مرة بعد مرة .. ولكن هل المرأة سعيدة بحريتها؟ .

إن المرأة تقول : لا لست سعيدة . فهل الرجل سعيد بحريته ؟ إن تاريخ حرية الرجل قديم جدا ، وتعاسة الرجل ليس سببها أنه حر أو ليس حرا ..

بل ويمكن أن يقال إننا مقبلون على مرحلة غريبة من تاريخ العلاقات بين الجنسين .. عصر يشتد فيه قلق الرجل ، ويزداد فيه هدوء المرأة ، كأنهما يعيشان فى عالمين مختلفين ..

وعلى الرجل أن يواجه «المرأة الجديدة» .. وعليه أيضا أن يتعامل معها .. وأن يواجه مشاكله ومشاكلها بروح جديدة : روح القسمة العادلة أى أن يحمل هو نصيب الأسد من الهموم ؟ .

منتهى الظلم . لأن هموم المرأة التى تضعها على دماغ الرجل أكثر من همومه ، ولأن الرجل ضحية أفكاره هو التى تقول إنه (جمل) وإنه (حمال الأسية) .. والحقيقة أن الرجل لا هو جمل ولا قادر على الأسى .. وإنما مقدرة المرأة على تحمل الهموم والتخلص منها أقوى .. وقدرة المرأة على الصبر أعمق .. ثم إنه لم يعد هناك مبرر لأن ينفرد الرجل بالهموم .. إن المرأة أصبحت مثله .. تعلمت وعملت وكسبت وهى قادرة على أن تتركه وتعاود الحياة مع رجل آخر فليس هذا الرجل بالذات هو كل ما لها فى الدنيا . فالذى لها فى الدنيا كثير غيره ..

ومن مخاوف المرأة : أنها لا تحب أن توصف بأنها أنثى فقط ، ولا تحب أن توصف بأنها موظفة فقط .

ومن مخاوف الرجل : أنه لا يحب أن يوصف بأنه رجل والسلام ، أو أنه موظف فقط .

ومعنى ذلك أن كلا منهما حريص على أن يكون صورة ناطقة لجنسه .. وصورة معبرة للوظيفة الاجتماعية التى يؤديها ..

وإذا كان الرجل فى أمريكا قد ترك مكانه للمرأة ، فإن الرجل الإيطالى ما يزال الصورة القوية للأب والأخ والزوج ، وما يزال هو السيد ، والمرأة التى تقتل زوجها الخائن جريمة عادية والرجل يرى هذا القتل طبيعى .. وأن هذه الجريمة التى ترتكبها المرأة هى تحية للرجل الذى مات والذى لم يمت ، فمعنى ذلك أن هناك امرأة رأت أن الموت من نصيب الرجل الذى يخونها أو الذى يهدد أمنها العاطفى ..

ومن الاكتشافات النفسية الفريدة أن الرجل الحديث يغار من المرأة القادرة على أن تنتج شيئا يعجز هو عن إنتاجه .. أن تلد مثلا ..

فالمألوف أن تغار المرأة من رجولة الرجل .. ومن المجتمع الذى صنعه الرجل لنفسه . ولكن العجيب أن هناك شبانا يغارون من أنوثة المرأة ومن قدرتها على أن تكون أشياء كثيرة فى وقت واحد . ويحسد المرأة على أنها تستطيع أن تعيش من غير زوج واحد بالذات . وأن المهم عندها أن تكون أما فى الدرجة الأولى وأن تكون زوجة فى الدرجة الثانية ، وأن إحساساتها اعميقة ، أما الرجل فإحساسه غير صادق فى الأبوة وفى الزواج وفى حبه لأولاده بعد ذلك . إن مشاعره تولد بعد كل طفل ، أما مشاعر المرأة فسابقة على كل طفل ومعه وبعده .

ويقال إن الهنود الحمر يتخذ رجالهم موقفا غريبا عندما تلد الزوجة . فالزوجة تذهب إلى الغابة مع بعض صديقاتها قبل الولادة بأيام . ويساعدنها على الولادة . فإذا ولدت اختفى الزوج وأضرب عن الطعام وقد يظل كذلك حتى

يموت ، أما تفسير ذلك فهو أن الزوج يغار من المولود .. ويغار من الزوجة التى انشغلت عنه هو بهذا الطفل ..

أما فى اليابان فقد تحررت المرأة لدرجة أن الرجال يصرخون من حريتها الزائدة ..

أما الشبان فلا مانع عندهم من أن تنال المرأة من حريتها ما تشاء بشرط ألا تمشى معهم فى الشارع ، فإن المشى فى الشارع يستنكره الآباء والأجداد .

وأمام التليفزيون تتم التسوية النهائية لما تبقى للرجل من سلطات فالمرأة أكثر الناس جلوسا أمام التليفزيون . وفى التليفزيون مسرحيات مضحكة ، ومادة هذه المسرحية السخرية من الرجل الذى يقف على شنبه الصقر ، والرجل الكشر ، والرجل البخيل والرجل الذى يدعى العلم بكل شىء .. وأعظم أبطال الكوميديا فى كل العصور : الرجل المغفل .

والتليفزيون يؤثر فى ملايين النساء ويتم بين التليفزيون وبين النساء اتفاقية علنية توقعها المرأة تحت أنف الرجل ، هذه الاتفاقية تقول : إن هذا الرجل لم يعد مخيفا ..

والاعلانات فى الصحف تؤكد أن المرأة هى التى تسحب الرجل وراءها إلى محلات الأزياء .. وهى التى تفرض عليه العلاقات الاجتماعية . وهى التى تغير أسلوبه فى الحياة .

فمثلا فى سنة ١٩٦٦ أعلنت شركة «كوتى» لمستحضرات الجمال عن عطر جديد .. فنشرت صورة لفتاة عارية وقد أفرغت زجاجة العطر على صدرها وتحت الصورة هذه العبارة : لكى تجعليه رجلا .. كونى أنثى .

وصورة أخرى لرجل عالى الرأس واقف الشارب وقد نامت على صدره نفس الفتاة العارية ، وتحت الصورة ... وهذه هى النتيجة ..

إن المرأة هي التي جعلته يشترى العطر الذى تريده هي ..

وفى سنة ١٩٦٠ وما بعدها حدث تطور خطير فى أزياء المرأة ، والذى سيكتب تاريخ المرأة سوف يقرأ سطور هذا التاريخ على شعرها وعلى فستانها وجزمتها . ومن الغريب أن معظم مصممى أزياء المرأة مصابون بشذوذ جنسى ، وهذا الشذوذ قد انعكس على فلسفتهم فى الأناقة .. كأنهم حريصون على أن يروا خليطا من الرجال والنساء .. الرجال فى ملابس النساء ، والنساء فى ملابس الرجال ..

والمصمم الممتاز هو الذى يرسم الذوق العام .. ويبدو أن الذوق العام هو التقريب بين الجنسين : أى أن يقرب الرجل من المرأة ، وأن تدخل المرأة فى ملابس الرجل ، وأن يكون هناك جنس ثالث : لا هو رجل ، ولا هو امرأة ، وإنما هو الإثنان معا .

والمرأة عندما حرصت على أن تكون نحيفة وعلى أن تكون منكمشة الأرداف ضيقة البنطلون ، فهى تريد أن تقول إنها ليست ست بيت ، وإنما هى خفيفة الحركة ، وأن حركتها خارج البيت ، وأن مثلها الأعلى : بريجيت باردو .. التى فيها صفات (الولد الناعم) أو (البنت المسترجلة) .. وليس أغرب من منظر بريجيت باردو وهى ترضع طفلا ..

وبعد سنة ١٩٦٠ رأينا المرأة وقد ارتدت ملابس الرجال ، البنطلون الضيق لرعاة البقر . والحذاء الغليظ والشعر المنكوش ، فهى لوليتا الصغيرة أو هى فتاة السيرك مروضة الوحوش مع أن الرجل لم يعد متوحشا بل المرأة هى التى أصبحت متوحشة ، ومع ذلك فالرجل لا يقوم بدور فتى السيرك ..

وقد ظهرت الفتاة فى الحفلات الرسمية بالبنطلون وهذا ما لم يحدث فى كل تاريخ الحضارة الغربية .

وتركزت الأضواء على ساق المرأة من جديد عندما ظهر الفستان القصير فى سنة ١٩٦٦ .

وأصبح من المألوف أن تذهب المرأة إلى محلات أزياء الرجال تشترى البنطلونات .. بل إن الذين شاهدوا فيلم (حيث توجد الجواسيس) بطولة دافيد نيفن يجدون فتاة تشد سوستة بنطلونها .. والسوستة من الأمام . لم تعد سوستة بنطلونات الفتاة على الجنب ، مع أن الرجل يجد حرجا فى أن يقفل سوستة بنطلونه أمام المرأة ..

وفى سنة ١٩٦٧ قدم ايف سان لوران مصمم الأزياء المعروف بنطلونات رعاة البقر ومعها أحذية عالية مفتوحة ..

وفى معسكرات الجامعة استخدمت الطالبات كولونيا الشباب .. وبعد أن كانت الفتاة تقول : أستطيع أن أعرف الرجل من رائحته ، أصبحت الفتاة تعجز عن ذلك .

وفى البلاد التى يكون فيها الرجل سيدا لا نجد المرأة ترتدى البنطلون .. فى ايطاليا وأسبانيا ومعظم دول أمريكا اللاتينية . فالرجال يفضلونها بالفستان .. وكذلك فى انجلترا والسويد ..

وكان الرجال يرون أن الشعر الطويل من الأنوثة .. أصبح الآن شعر الشبان أطول من شعر الفتيات . ومن الممكن أن ترى شعر الرجال طويلا على حدود أمريكا ، وذلك لندرة الحلاقين ، أما فى العواصم الأوربية والأمريكية فالشبان شعرهم طويل رغم كثرة الحلاقين ، بل من المناظر العادية أن يذهب الشاب إلى الحلاق يطلب وضع اللوسيون والبرمانت وأن يجلس تحت السشوار ساعة وساعتين .

وأكثر من ذلك حدث أيضا ، فالشبان أكثر نعومة ، وأكثر رقة . والخنافس الانجليز هم الذين نشروا النعومة والأنوثة بين الرجال فهم أطالوا

شعورهم ، وأطالوا كعب الحذاء ، ووضعوا الأحمر فى الشفاه ورسموا الحواجب الغليظة وزينوا أصابعهم وأيديهم وصدورهم وآذانهم بالحلى والمجوهرات .. بل إن فرقة من الخنافس الأمريكان قد ظهروا أمام مئات من الألوف من الفتيات المصابات بالجنون ، وقد صبغن الشعر بلون أحمر وردى ..

وخرج الشبان من البدل الزرقاء والرمادية ، ودخلوا فى الألوان الوردية الزاهية .. حتى بدل الرجال قد ضاقت أكتافها واتسعت أردافها

إن الرجل بدأ يتجه إلى المرأة : فهو يستخدم عطرها ودهونها ، والأرقام تقول إن الرجل الأمريكى أكثر من المرأة استهلاكا لأدوات التجميل . فى العام الماضى فقط استهلك بما يساوى ٧٠٠ مليون دولار .. وقد أخرجت شركات التجميل مساحيق لرسم عين الرجل ومراهم لإزالة التجاعيد ومراهم لنعومة اليدين وتلميع الأظافر..

ولكن لماذا اختار شمشون أن يكون دليلة ؟ .

لأن الرجل ما يزال فى حركة احتجاج على صورة (الرجولة الخشنة .. والرجل العضلات) .. ويرفض أن يدخل فى الإطار الذى وجده جاهزا عندما أصبح رجلا : لابد أن يكون غليظ الصوت رافع الشارب .. جافا مغرورا .. محتقرا للمرأة وخائفا منها .. إن الرجل لا يريد أن يكون كما أراد له المجتمع ..

أما هذه القذارة التى نجدها فى شعر وملابس الرجال فسببها أيضا : أنه لا يكترث باقتراب أحد منه .. ولا يكترث أيضا بنصائح الأب .. والمدرس ، والقسيس ، وهم جميعا يطلبون إليه أن يكون نظيف الملبس ..

والمرأة أيضا لا تريد أن تكون هذه الصورة التى اشتهرت بها .. والتى رأتها فى أمها وجدتها .. لا تريد أن تكون بالضبط كما أرادت الأجيال السابقة .. ولذلك فهى تتمرد على تمثال الأنوثة .. وتكفر بصورة الفتاة التى تمشى إلى جوار الحائط وتنتظر ابن الحلال .. إنها عرفت طريقها إلى ابن الحلال .. وابن الحلال

قد عرف طريقه إليها .. التقى شمشون بدليلة .. أو شمشون فى ملابس دليلة .

إن الشبان قد ابتعدوا عن الآباء .. ولكن هذا الابتعاد قد أقلقهم من جديد .. فهم إذا اقتربوا قلقوا ، وإذا ابتعدوا ازدادوا قلقا ..

أما الذى يريح الجميع فهو شىء بعيد ..

العلاقة التى يمسكونها بأوراق الورد

- ٤ -

هذه قاعدة : نحن نتعب فى البحث عن الراحة .. ونشقى فى البحث عن السعادة .. ونفلس وراء الفلوس .. ونولد ، ونموت وننسى أن نعيش .

قاعدة أخرى : الذى يشترى الحب بالفلوس يفقد الفلوس .. والذى يشترى السعادة الزوجية بالفلوس لا يجد الفلوس ولا السعادة ويجد الزوجية .

قاعدة ثالثة : التدخين وغسل الأطباق وكراهية السيارات القديمة .. والزواج عادة سيئة فى أمريكا .

وأحدث قاعدة : إذا لم نجد دبلة خطوبة فلنرسمها على أصابعنا ولنتزوج فليس عندنا وقت للتفكير فى النتائج .

وعندما نعرض هذه القواعد على الشبان فى العالم الآن فإنهم يختارون الزوجة التى تعجبهم . وبعد ذلك لا يهم ما يقوله الآباء فى البيت أو الأساتذة فى الجامعة . فالحب يعزلنا عن الناس . والزوجية تجعل العزلة سعيدة .. ولذلك يفضل الشبان أن يكونوا سعداء فى أى مكان بعيد .. عن الأهل والمدينة وعن الراحة التقليدية أيضا .

والذى يجعل العزلة حالة نفسية عند الشبان وضرورة بعد ذلك أن حياة المدن تفرض العزلة . فالمدينة الكبيرة مليئة بالناس من الجنسين . ولكن أهل العمارة الواحدة لا يعرفون بعضهم البعض . بل إن الكثيرين من أهل الدور الواحد لا يتعارفون ولا يتزاورون . ولذلك فإن الفتاة الأمريكية تشعر أن المدينة منفى هائل أو أن المدينة برج بابل القديم وقد هرب منه الناس كل واحد قد ابتلع لسانه ، أو هو يتكلم لغة أخرى لا يعرفها أحد سواه .. وليس من الضرورى أن يعرفها أحد .

ثم إن الحياة الحديثة تقتضى من الموظف أو العامل أن ينتقل من بيت إلى بيت ومن مدينة إلى مدينة ومن وظيفة إلى أخرى . وهذا معناه أنه من الصعب على الفتاة أن تعرف جارها أو تحبه أو تتزوجه بعد ذلك .

وكثيرا ما تسأل الفتاة الموظفين فى الشركة التى سوف تعمل فيها : وكم عدد الشبان هنا ؟ .

هناك أعمال مليئة بالفتيات . ومعنى ذلك أن فرص اللقاء والحب والزواج بعد ذلك ممكنة : مثل : التدريس فى المدارس الابتدائية .. وتفصيل الأزياء والعمل فى التليفونات والمجمعات النسائية وشركات التأمين .

وهناك أعمال تسهل على الفتاة أن تجد الزوج المناسب : كأن تكون سكرتيرة للمدير .. أو كأن تعمل فى إحدى شركات الاعلانات .. أو المجمعات الاستهلاكية أو أن تكون ممرضة فى إحدى المستشفيات الخاصة ..

وهناك تجار ورجال أعمال لا تغمض عيونهم عن التفكير فى الشبان . إنهم يبحثون عن الطرق التى يحصلون بها على أموالهم . فرجال الأعمال يعرفون أن الشباب الحديث يشعر بأنه وحده .. «وحدانى» .. فالمدينة كبيرة .. وهو لا يستطيع إلا القليل .. وهو مختلف عن أبويه ومختلف عن المدرسين .. وهو يقف وحده .. وهو لا يجد الصديق إلا بصعوبة ..

ولذلك أنشئت الفنادق والمطاعم والبارات وكلها تتجه إلى الإنسان «الوحدانى» . وتقول له فى استطاعتك أن تستمتع بوقتك ومع فتاة وحدها .. وهذه الفنادق موجودة بكثرة على البلاجات الأمريكية .. وهناك فنادق تنشر هذا الاعلان : أنت حر أيها الشاب الوحدانى . فى استطاعتك أن تفعل ما تشاء مع من تشاء وفى أى وقت تشاء .. بشرط واحد : ألا تلقى الورق أو أعقاب السجائر فى حمام السباحة .

والمجلات تنشر إعلانات راغبى الزواج .. ولكن الأمريكان ينظرون إلى . هذه الاعلانات ولا يندهشون .. ولا تمتد يد تقطع هذه الاعلانات باعتبارها وعودا بزوج أو بعريس .. ويقول المؤلف الأمريكى فانس باكار فى كتابه (الضياع الجنسى) .. إن المصريين يفعلون ذلك وهو ينقل معلوماته هذه عن كتاب صدر بالانجليزية بعنوان «اعلانات الزواج فى مصر» والكتاب من تأليف سيدتين هما (جانيت أبو لغد ولوسى أمين) وفى ألمانيا يهتمون بإعلانات الزواج أيضا .

ومن الممكن أن تجد فى أمريكا مثل هذا الإعلان : واحد عنده وابور جاز يريد أن يعرف واحدة عندها غسالة . أرجو إرسال صورة الغسالة .

وإذا كانت اللقاءات صعبة ، فإن الزواج أسهل بكثير جدا . لأنه من الممكن أن يلتقى اثنان من الشبان ، ولا يدور بينهما كلام كثير . وبعد ذلك يتزوجان قبل أن يفكر أى واحد منهما فى الخطوة التالية : الفلوس .. والبيت .. والأولاد .

وعلى الرغم من أن الشبان يجدون الشجاعة فى الزواج . فإن الزواج السريع ينقذهم من التفكير الطويل فى صعوبات وعقبات الحياة الزوجية . فالشبان عندهم مثل عليا . وهذه المثل العليا تملأ رءوسهم وتجعل العثور على هذه المثل العليا صعبة . وكثرة المثل العليا هى أحد عيوب الثقافة . ولذلك فأسهل جدا أن يقرر الشاب أن يتزوج من أن يفكر ويستشير .. ثم بعد ذلك يعدل عن الزواج يوما واحدا ويتزوج أية واحدة فى اليوم التالى ـ حدث ذلك كثيرا جدا بين طلبة

الجامعات الأمريكية ـ فقد حدث أن ابن عميد إحدى الكليات عرض على والده زميلة له . واعترض الأب ـ لأسباب وجيهة جدا صحية وأخلاقية ومادية ـ ولم يقتنع الابن . وفى اليوم التالى فوجئ الأب بأن ابنه قد تزوج فتاة أخرى . وسعد بها الأب فهى فتاة جميلة وذكية ومن أسرة محافظة .

ولما أحس الابن أن هذا الزواج جاء مطابقا لرغبة الأب تضايق ، وأحس ـ كما يقول ـ كأنه تزوج بناء على رغبة والده ومشورته .. ولذلك طلق الفتاة .

فما الذى فعله هـذا الإبن ؟ إنه فقط مارس حريته وعناده بصورة ظالمة له ولأبيه ولاثنتين من الفتيات .

وقد تغيرت الصورة المثالية للفتاة والفتى أيضا فى أمريكا وفى أوربا . والشبان يفضلون نوعا من الفتيات للنزهة ـ ونوعا آخر للزواج وهذا ما يضايق الفتيات أيضا . ولذلك تحرص الفتاة من أول لحظة على أن تعرف بالضبط ما هى الفتاة التى يريدها .. وأحيانا يتفق الشبان على ذلك من أول لقاء ..

أما الشبان فيفضلون : الجميلة اللطيفة المخلصة ..
أما الشابات فيفضلن : المرح الحنون الناضج عاطفيا ..
والفتيات يفضلن العلاقات الطويلة التى تنتهى بالزواج ..
والشبان يفضلون العلاقات السريعة المفيدة ..
ومن النادر أن تجد فتاة لا تتحدث عن الزواج ..
ومن النادر أن تجد شابا يتحدث عن الزواج ..

ولكن فى الجامعة يناقشون الزواج بوضوح بين الجنسين . وتحرص الجامعات فى أمريكا على أن تكون هذه المناقشات علنية . فالجامعات الأمريكية تعرف أن الشاب الحديث يعانى من العزلة . ولذلك توفر له الجامعة أن يكون قريبا من أحد . أو مع أحد . أو .. معا فى الأكل والفسحة والنوم .

وقد كانت عنابر النوم فى بعض الجامعات متباعدة .. الشبان فى جانب

والشابات فى جانب آخر أما الآن فقد رأى علماء التربية أن هذا سلوك غير طبيعى وغير حديث فتجاورت عنابر النوم . واشترك الجنسان فى الحمامات ودورات المياه . ويقال إن هذا التقارب قد أدى إلى تحسين السلوك الاجتماعى . وإلى تهذيب فى الألفاظ .. وإلى تقدم فى الذوق الفنى .

وإذا كانت هناك جامعات ترفض التعليم المشترك ، فإن مصير هذه الجامعات أن تجعل التعليم المشترك ضروريا فى المستقبل .. وقد حدث كثيرا أن تقدم الآباء أنفسهم يسحبون أوراق بناتهم من الجامعات النسائية ويقدمونها إلى الجامعات المشتركة . لأنهم لا يريدون لبناتهم أن ينظرن إلى الرجل على أنه وحش مخيف وفى نفس الوقت يطلبون من البنات أن يتزوجن عن حب وفهم سليم للرجل .

ومن الاستفتاءات التى اشترك فيها طلبة الجامعات أعلن عدد كبير من الفتيات : أنه من الممكن أن تعيش المرأة سعيدة من غير زواج . ولكنها لا تفضل ذلك ، لأنها لا تجد الاحترام الضرورى من الناس .. ولا تجد احترامها لنفسها أيضا .

وفى أمريكا وفى أوروبا اتجاه عام ضد الزواج . وكفر تام بالحياة الزوجية . على أساس أن العلاقات الطويلة الثابتة مملة . والملل يدفع إلى العنف . والعنف يؤدى إلى الجريمة ، وأهون أنواع الجريمة الطلاق ـ خصوصا إذا كان هناك أطفال صغار .

ثم إن الأسرة نفسها لم تعد تلك العلاقة الضرورية . فقد كان الإنسان من ألوف السنين يحتاج إلى معاونة الزوجة والأولاد فى حماية البيت وفى إنتاج الرغيف . أما حماية البيت فالدولة تتولاه . وأما إنتاج الرغيف فهناك شركات تنتجه وتبيعه وتبعث به إلى باب البيت .

ومعنى هذا الرأى أن الزواج علاقة لا ضرورة لها ..
وهناك آراء أخرى تقول بأن الزواج تكملة ضرورية ..
ورأى يقول بأن الزواج محاولة عاطفية عقلية للقضاء على العزلة والوحشة ..

وقد سئلت إحدى الطالبات عن مفهومها للسعادة فقالت : أن يكون هناك شخص آخر أرتبط به .

وقالت طالبة أخرى : لابد أن يكون حبى لشخص آخر قادر على أن أفهمه ويفهمنى .. وحريص على أن يكون أقرب وأقرب . وقالت فتاة ثالثة : إنما تزوجت حتى لا يسألنى أحد إن كنت متزوجة أو فى الطريق إلى أن أتزوج .

وإذا كان الآباء يرون فى الزواج عبئا ثقيلا . فإن الشبان لا يرونه كذلك . وقد كان الآباء من أربعين سنة مثلا إذا فكر واحد منهم فى الزواج فإنه يحس أنه الثور الذى حمل الكرة الأرضية على قرنيه .. ولا يتصور أن هناك كارثة أكبر من كارثته .. ويعرض أمره على أقاربه وعلى رجال الدين .. ويسأل ويجمع الآراء . ثم يقرر أن يتزوج تماما كأنه قد حصل على تفويض من كل الناس . مع أن الزواج قرار شخصى يلتقى فيه شخصان معظم الوقت وحدهما وجها لوجه . ومعظم الوقت فى الظلام .

أما الشباب الحديث فإنه يقبل على الزواج كما لو كان مدعوا لحفلة زفاف شخص آخر غيره . وكثيرا ما ذهبت العروس بعد العريس بساعات وكثيرا ما اضطرت العروس إلى تناول العشاء والرقص مع ضيوفها قبل أن يجىء العريس ويتناول طعامه وحده ويعاود الجميع السهر والرقص من جديد .

حدث أن ذهب أحد علماء النفس لمشاهدة فرح لاثنين من تلامذته .. ووجد مقعدا خاليا فجلس . فجاءت فتاة وجلست إلى جواره . وكانت تلهث ، وبدا شعرها منكوشا . وقال لها العالم النفسانى : يبدو أنك جئت إلى هذا الفرح بسرعة ..

وأدركت الفتاة أنه ينظر إلى شعرها وملابسها فقالت : فعلا . لقد حدث كل شيء فجأة .

وقال الرجل : الزواج تم على غفلة ؟ ...

قالت الفتاة : لقد كنت أظن أنه سوف يتزوج أختي .

وقال العالم : آسف .. أرجو أن تجد أختك عريسا أحسن منه ..

قالت الفتاة : أرجو ذلك .. ولكنه لم ينبهني إلى هذا كله . لقد حدث فى لحظة .

قال العالم : هل أنت صديقة العريس ؟ .

قالت : لا بل أنا العروس ..

بهذه السرعة والسهولة تم الزواج .

ومهما قيل فى الزواج ، فلا تزال هذه العلاقة قوية ومستمرة ، ولم تجد الإنسانية علاقة أقوى ولا أكثر احتراما منها . وإذا كان الزواج يقوى العلاقات ، فإن الأسرة هى ثمرة الزواج . والأسرة هى قاعدة المجتمع الإنسانى فى كل العصور .

ولكن لابد أن تكون هناك أسباب قوية تجعل الزواج منتشرا بين الشباب فى أوربا وأمريكا .. وفى العشرين من العمر .. ومتوسط زواج الشبان ٢٣ سنة ومتوسط زواج الشابات ٢٠ سنة ـ أقصد الزواج الأول .

ومن بين هذه الأسباب التى يذكرها الشبان : أن الزواج نوع من الهرب من الحياة الاجتماعية التى ليس فيها أمان ولا ضمان . ولا يجد الشبان إلا هذا المخبأ العاطفى الأكيد .. وأن هذا المخبأ قد يحميهم من الغارات الاجتماعية . ولكن المخابئ لا توقف الحروب .

ومن بين الأسباب أن يفاجأ الشاب بأن الفتاة التى أحبها قد حملت . وأنها

لا تريد أن تتخلص من الجنين وكثيرا ما تم الزواج والعروس حامل فى شهرها الثامن وأحيانا التاسع ..

وهناك أنواع من الوظائف تحتم على الشاب أن يتزوج . بل إن بعض الشركات لا يمكن أن تمنح موظفيها ترقية إدارية إلا إذا كان الموظف زوجا ولذلك كان الزواج ضرورة عملية ..

وعدد كبير من الشبان يريدون الزواج لأنهم يحبون الأطفال .

وقد حدث بعد الحرب العالمية الأولى أن عادت عشرات الألوف من الجنود وهم يحلمون بالبيت الصغير والزوجة والأولاد .. وتناثرت البيوت الصغيرة فى كل المدن وعلى أطرافها . وبعد الحرب العالمية الثانية ينشدون : البيت .. البيت .. ما أجمل البيت ..

وامتلأت البيوت بعد الحروب بالأولاد والزوجات ..

ولكن معالم المجتمع تغيرت .

وإذا كان الزوج من أربعين عاما يفكر فى أن يكون له بيت وقطعة أرض قبل أن يتزوج أو بعد أن يتزوج فالأزواج الشبان لا يفكرون فى أى شىء من هذا كله . بل إن الشبان إذا خيرتهم بين الزوجة وبين السيارة الجديدة ، يختارون السيارة .. وقد يتزوج الشاب عشر سنوات دون أن يفكر فى أن يملك شيئا على الإطلاق ولا يتصور أن هذا ضرورى وأن الحياة من غير امتلاك لا تساوى شيئا . إنه يفكر فقط فى أن يعيش وأن يستمتع بحياته .. وهذا يكفى أسلوبا وغاية .

وهناك اختلاف بين الرجل والمرأة فى النظر إلى الزواج ..

فالمرأة ـ قبل الزواج ـ تفكر كثيرا فى الزواج والرجل لا يفكر . ولكن الرجل هو الذى يفوز بالراحة النفسية والجنسية بعد ذلك ـ لأن الزواج يرهق المرأة بالعمل فى البيت والانشغال بالأطفال .

والرجال لا يعترفون بأنهم فكروا فى الزواج . ومع ذلك يتزوجون . ولكن

المرأة تعترف بأنها فكرت . وبعد الزواج لا تقول إنها هى التى استدرجت الرجل إلى الحياة معها ، ولكن تقول إنه هو الذى فعل ذلك .

والمرأة ـ طبعا ـ تفضل أن يشدها رجل إليه ، على أن ترمى نفسها عليه .. أو تقوم هى بشد الرجل وإرغامه على الحياة معها .

وإذا كان الحب قادرا على تخفيف أعباء الحياة عموما ، أو الزوجية بصفة خاصة ، فإنه يبرر كل تصرفات الاثنين فالحب هو المسئول عن العنف فى حياة الزوجين وعن الشجار . وعن الخلاف إلى درجة الطلاق . لأن الحب لا يواجه المحبين . إنه يبعث إليهم بمندوب عنه هو : الغيرة .. والغيرة لا تؤمن إلا بنوع واحد من المساواة : هى المساواة فى الظلم . وذلك بأن تضع المحبين فى إناء واحد يغلى : فيحترق الإثنان بنفس الدرجة .

فباسم الحب اقترب الناس أكثر وأكثر ، وباسم الحب تباعد الناس .. ولكن الحب نفسه لا يعرف الزمن .. فالذى يحب فتاة من عشرين عاما ويتركها ويذهب إلى آخر الدنيا .. ويتزوج .. ويكون له أولاد .. ويتزوج مرة ثانية .. فإن الفتاة الأولى تهز قلبه من مكانه .. ولذلك يحرص المحبون إذا كانوا أزواجا ، على أن تهتز قلوبهم من حين إلى حين بشرط أن تبقى فى مكانها . وأن يبقى الإثنان معا .. يعيشان معا .

وقد حدث تغير فى موقف الرجل فى الأسرة الحديثة . فمن المعروف الآن أن هناك مساواة بين الجنسين فى العلم والعمل . وقد حررت روسيا والصين وكوبا المرأة تحريرا تاما . وخلعت الرجل من زعامة البيت .

وكان الرجل مسموحا له منذ أوائل هذا القرن أن يضرب زوجته بشرط ألا تكون العصا أغلظ من أصابع اليد . وعلى الزوجة أن تطيع . لأنه هو الرجل وهو سيد البيت أو السيد فقط .

ولابد أن قوة الرجل كان مصدرها أن الرجل هو الأقوى صحيا أو الأقوى اجتماعيا . أو هو الذى يكسب لقمة العيش . ولكن العلم الحديث يؤكد حتى الآن أن المرأة أقوى صحيا . وأنها أقل تعرضا للموت والمرض، وأن المرأة تكسب أيضا .

وإذا كانت المرأة أكثر مالا . كانت أكثر سيطرة . .

وكان الحكيم الصينى كونفوشيوس يقول : على المرأة أن تطيع زوجها طاعة عمياء . وعليها أن تدوب فى خدمته .. حتى يتلاشى وجودها تماما ويبقى الرجل واحدا لاشريك له .

ومات كونفوشيوس من مئات السنين ولكن حكمته هذه لم تمت إلا أخيرا جدا .

ففى القرن الماضى فى انجلترا كان ترتيب الأسرة حسب الأهمية : الابن الأكبر والأخوة والأم والبنات بعد ذلك .

وفى البيت الأمريكى نجد المرأة هى المسئولة عن الطعام والغسل والأطفال .. والرجل مسئول عن الإصلاحات المختلفة وعن إصلاح النور وإصلاح السيارة . وهو أيضا الذى يلقى بالفئران التى ماتت فى المصيدة .

أما المرأة الفرنسية فهى أكثر نساء العالم محافظة على التقاليد . فهى تفضل أن تكون المرأة هى المرأة .. وأن يبقى الرجل رجلا وكثيرا ما سمعناها تطلب من زوجها أن يخرج من المطبخ . فالمرأة الفرنسية الحريصة على أن تكون أنثى وست بيت ، هى التى وضعت هذا الفاصل الحاد بين الرجل والمرأة .

وكذلك الروس ..

والأمريكان لا ينسون دهشة العالمة السوفيتية «ايلا مانفتش» عندما وجدت الرجل الأمريكى يساعد زوجته فى غسل الأطباق .. صرخت وقالت : إنهم يساعدون زوجاتهم . سأعمل على نشر ذلك فى روسيا .

وفى انجلترا نجد الرجل يساعد الطفل على النوم .. وكثيرا ما دفع عربة الطفل أمامه فى الشارع ، بشرط أن تكون زوجته معه .

باختصار : إن الأوضاع الإدارية قد تحددت بوضوح فى البيت الحديث : فالرجل هو عضو مجلس الإدارة المنتدب . والمرأة رئيس مجلس الإدارة .

وهذا الوضع ، واضح جدا فى الزواج الحديث ..

صحيح أن الزواج ليس معناه أن يلتقي اثنان أمام الناس ، ليفترقا بعيدا عن الناس .. ليس معناه أن يتواجد اثنان عند الطعام ، وأن يعطى كل منهما ظهره للآخر عند النوم .. ولا أن يقول كل منهما للآخر : أنت من هنا وأنا من هنا .. أنت فى حالك وأنا فى حالى ـ إن هذه نهاية علاقة .. نهاية زواج .

ولكن الزواج الحديث قد حول البيت إلى وحدة استهلاكية لا وحدة إنتاجية. فالأزواج يلتقون فى فندق.. فى مكان يتلقون فيه الخدمات. وليس فى مصنع. يقوم كل منهما بعمل شيء من أجل الحياة الزوجية ومن أجل الحياة العامة.

وكثيرا ما رأى الناس فى أمريكا زوجين فى حالة من التعاسة التامة أمام أنبوبة بوتاجاز خالية .. خلت فجأة لأن البيت مطعم .. وعدم وجود بوتاجاز معناه ألا يوجد طعام .. وألا يكون هناك بيت .

ومهما اختلفت أنواع الزواج ، سواء كان زواج الزمالة والتفاهم ، فإن موقف الشبان واحد وهو : انه ليس أسهل من الزواج ، وليس أصعب من الحياة بعد ذلك ..

ولكن الشبان لا يفكرون «بعد ذلك» .. المهم أن يقرروا أن يتزوجوا ..

وإذا كان الزواج فى الشرق أساسه : الناس يتزاوجون ثم يتحابون ، فإنهم فى الغرب يتحابون ثم يتزوجون ..

ولكن المهم يحدث بعد ذلك .. هنا يشعر الإنسان بأنه زجاجة ممتلئة بسائل

مركز هو خلاصة تجاربه الماضية فى الحياة وفى الحب .. أو أنه زجاجة خالية شفافة .. إن الزجاجات الخالية أكثر رنينا .. ولكنها أقصر عمرا وأقل فائدة .. ولكن الشبان يختارون ما يعجبهم . وما يعجبهم هو الذى ولد معهم فى عصرهم .. وقريب من عقولهم وقلوبهم . والقريب المهم هو الزواج السريع الخاطف الصغير بعيدا عن الناس . وعن المجتمع ..

وزواج الشبان ضرورة نفسية وجسمية واجتماعية وخصوصا فى المجتمع الحديث الذى اقتلعت جذوره وبذوره . فلابد أن يكون هناك رباط قوى يمسك النباتات الصغيرة لابد أن يكون هناك ماء كالصمغ . يمسك الأرض ويشد الأقدام إلى الأرض . وبذلك يستقر الشبان . وتكون لهم أوراق وثمار .. وحديقة .. وغابة بعد ذلك ..

أما الأسئلة التى يوجهها المجتمع للشباب فهى : إن كانت هناك دبلة .. أو كانت هناك ورقة تمسك العروسين إن هؤلاء الشبان يفضلون الأوراق الملونة .. أوراق الورد يسجلون عليها رغبتهم فى الزواج وفى الحياة معا حتى الموت .. ولكن المصيبة أن الشبان الذين يحبون الأوراق التى لها لون الورد ، لا يحترمونها .. إن آباءهم يفضلون الورق الأبيض وشهادة الشهود .. فقد عاشت الإنسانية واستمرت لأن عشرات الملايين قبلهم قد احترموا كلمات انطبعت على أوراق بيضاء .

وقد حدث أن احتفل عشرات الألوف من الطلبة منذ سبع سنوات بزواج جماعى .. ورفضوا أن يكون عقد الزواج على ورق أبيض .. لأنه يذكرهم بكراريس المحاضرات . واختاروا ورقا ورديا .. ولكن أوراق الورد نفسه كالورد نفسه سرعان ما تذبل ومعها الحب والزواج .

ومن قبل عاشت ملايين العائلات فى كل مكان لأنها اختارت ورقا لا يذبل وصانت عهودا لا تموت .

السويد: قلاع الحرية

ـ ٥ ـ

ليست مشكلة كبيرة أن تنتقل الدبلة من اليمين إلى اليسار .. وأن تظل فى اليسار حتى الموت .. وبعد الموت تنتقل دبلتان إلى أصبع واحد فى يد أحد الزوجين .. فقد عاشت الإنسانية ألوف السنين من غير أن تعرف الدبلة وكان هناك حب أفضى إلى الزواج .. وزواج أفضى إلى زواج آخر .

فكل إنسان يريد أن يحب . ويريد أن يتزوج بعد ذلك . وأهم من ذلك ــ وهو ما يهمنى هنا ــ أن يبقى الحب حيا . ويظل الزوج مخلصا . ويتعاون الزوجان على أن تبقى الأسرة هى أكمل العلاقات بين الرجل والمرأة . فإذا كانت هناك الأسرة ــ وألوف الأسرات ــ سعيدة أصبح المجتمع نفسه سليما قويا . وليس هذا أملا بعيدا ، فقد تحقق كثيرا وبدرجات متفاوتة فى بلاد مختلفة وعصور مختلفة أيضا .

ومن المؤكد الآن أن العلاقات بين الرجل والمرأة قد تغيرت . ولكن سيصبح هذا التغير واضحا بعد عشرات السنين . وليس من الضرورى أن يكون التغير إلى الأحسن . فأثر العلم الحديث فى سلوك الجنسين سوف يظهر بعد خمسين عاما أو أكثر . وسوف يكون لذلك أثره المباشر على الحب وعلى الزواج وعلى الأسرة وعلى الأطفال ، أى على الأجيال القادمة التى هى مستقبل الإنسانية كلها .

فمنذ أربعين عاما عندما انتشرت البطالة فى العالم ، كان من الضرورى أن تكون للرجل الأولوية فى الحصول على لقمة العيش . وكان يقال : يكفى أن يعمل شخص واحد فى الأسرة .. وأن يكون هذا الشخص رجلا .. وفى المستقبل عندما تؤدى الآلات الحديثة إلى تعطل الأيدى العاملة ، سوف يكون الرجل ــ مرة أخرى ــ هو المفضل عند اختيار العمل الضرورى .

وقد تنبأ كثير من العلماء الجادين والباحثين باختفاء الأسرة . وفشلت هذه النبوءة قبل ذلك مرات . ولا يزال بعض العلماء يؤكد أن الأسرة لن يكون لها وجود بعد قرنين من الزمان . ولكن يبدو أن هذه النبوءات جميعا لن تتحقق فقد مرت الأسرة ــ كشكل للعلاقة الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والجنسية ــ فى تجارب عنيفة . واستطاعت أن تواجه الريح . فاهتزت ولم تسقط . وأن تصمد للزلازل الاجتماعية والمدنية والسياسية . ولم تتكسر .

ولكن مع هذا التزايد الهائل فى عدد السكان فى العالم كله سوف يحدث شىء غريب . سوف تحتشم المرأة . وسوف نطلب منها ألا تكون عارية أو فاضحة . بل إننا سنطلب إلى المرأة ألا ترقص عارية وألا تسرف فى الأغانى العاطفية .. وألا تصدر كتب للرجال مثيرة جنسيا ، وألا تظهر الأحضان والقبلات العنيفة على الشاشة . لماذا ؟ لأننا نريد ألا يثور ويثار أى إنسان وتنتهى الثورة بالقبلات والقبلات بالأحضان . ويجىء الأطفال بعد ذلك إلى عالم ملىء بالرجال . وليس فى حاجة إليهم .

ولكن يبدو أيضا أن الإثارة الجنسية لا علاقة لها بالزواج . ففى القرن التاسع عشر كان متوسط عدد الأطفال فى كل أسرة فى بريطانيا ــ مثلا ــ من ٧ إلى ٩ أطفال . وكان عدد المواليد منخفضا فى أمريكا . ونحن نعرف أن القرن ١٩ كان نموذجا للطهارة الأخلاقية والاحتشام .

أما الذى يحسم الموقف فى داخل الأسرة فهو تطوير العلم الحديث لوسائل

منع الحمل . ولا شك أن اختراع حبوب منع الحمل هو اعظم ما اكتشف الإنسان فى العصر الحديث. وكان من نتائج حبوب منع الحمل أن يأتى الإنسان بالأطفال حسب الطلب . وعلى الرغم من أن حبوب منع الحمل ما تزال بدائية ، لأن المرأة يجب أن تحرص على تناولها فى مواعيد منتظمة . فتكون الحبة الأولى فى اليوم الخامس بعد المرض الشهرى حتى اليوم العشرين . وبعض العلماء يفكرون فى وسائل أدق من الحبوب . كحقن المرأة لمنع البويضة من التلقيح لمدة شهر أو أكثر . وهناك فكرة وضع حبوب تحت الجلد تفرز هرمونا يمنع الحمل لمدة ستة شهور أو لمدة سنة . فإذا قررت المرأة أن تحمل نزعت الحبة الموجودة تحت الجلد . وهناك مصل للرجال يحول بينهم وبين الإفراز الذى يؤدى إلى الحمل .

وهناك نوع من الأقراص اسمه «الأقراص الصبحية» وهى التى تتناولها المرأة فى الصباح . وهذه الأقراص لها نتائج ذات أثر رجعى . ففى استطاعتها أن تقتلع البويضة الملقحة من مكانها فلا تنمو .. ولا يكون حمل .

وهناك تغيرات أخرى ..

ففى السنوات العشر القادمة سوف يكون متوسط عمر المرأة ٨٠ عاما ، ومتوسط عمر الرجل ٧٥ عاما .

ومعنى ذلك أن يزيد عدد المتزوجات فى العشرين .. أى عدد الأمهات الصغيرات .. وينتظر أيضا أن تزداد مشاركة المرأة فى الحياة العامة . وسوف تهتم المرأة بالناس أكثر من اهتمامها بالأشياء الأخرى . فإذا دخلت المرأة فى الحياة العامة ، فسيكون لها أثر كبير على العلاقات الإنسانية وعلى الفكر الإنسانى أيضا ـ أى على تفكير الرجل .

وسوف يتسع الوقت أمام الأزواج .. فإذا اتسع الوقت ، فأول ما تسعى إليه المرأة أن تطالب بحقها أو نصيبها من الحياة أو من الرجل . فالمرأة لا تنسى

حقها ، سواء كان ذلك رغم أنف الرجل أو على عينه ..

ومن الطبيعى أن تتأثر الأسرة مرة أخرى فى المستقبل . ستبقى الأسرة . ولكن سيكون احترام الناس لها أقل .. وسوف تنحل الأخلاق ، بسبب حبوب منع الحمل ، وسهولة الاختلاط بين الجنسين على كل المستويات ، مستويات الدراسة واللعب والعمل واتساع المدن وانشغال الرجل والمرأة .. وانشغال كل الناس ، كل واحد بحاله .

وشىء آخر هام : ستكون الفتاة أيضا أكثر انشغالا بالجنس من أى وقت مضى . تماما كما حدث للرجل . أما النتائج فتقع عادة على رأس الرجل : الأب والزوج ..

وهناك تجربة اجتماعية كبرى حدثت فى روسيا بعد الثورة السوفيتية مباشرة . فقد أحس الناس بالانطلاق . وتفككت العلاقات الاجتماعية . وكان من السهل جدا أن يبعث أى زوج إلى زوجته بورقة الطلاق بالبريد . وينتهى كل شىء .. وقد يظل الزوجان يعيشان فى غرفة واحدة بعض الوقت إلى أن ينقل أحدهما إلى غرفة أخرى مع زوج آخر .. وقد ظن فى روسيا بعد الثورة مباشرة أن هذه هى الحرية . وأن الدولة عليها أن تعنى بالأطفال بعد ذلك ــ سواء كانوا شرعيين أو غير شرعيين .

ولكن لينين أنقذ المجتمع السوفيتى من الفوضى . فقيد الزواج والطلاق . وحرم الإجهاض . وتماسكت الأسرة .. وأصبحت ذات شكل تقليدى . كما أن الإثارة الجنسية نفسها قد اختفت من الصحف والمجلات والتليفزيون والسينما . وأقام الاتحاد السوفيتى «قصورا للعرائس» ينتقل إليها المتزوجون .. وفى هذه القصور يعيش الأزواج أجمل أيام العمر .. وفى غرف أنيقة فخمة .. ويرقصون فى الحدائق وحول النافورات ..

حتى الطلاق فى روسيا أقل من الطلاق فى أمريكا ..

وأدت الثورة إلى محو الظلم الجنسى .. أى ظلم جنس لجنس آخر .. فتحررت المرأة . وأصبح العلم والعمل من حقها . وتحررت المرأة أيضا من سجن البيت والمطبخ . فليس معقولا أن تقضى المرأة ثلاثة أرباع عمرها تطبخ وتغسل . وهذا العدل بين الجنسين كان من أهداف الثورة السوفيتية ، فالثورة فى حاجة إلى كل قوى البشر : الرجال والنساء . أما الأطفال فلهم دور حضانة ورياض أطفال . وهى جميعا ملحقة بالمصانع أو المؤسسات . ومن حق المرأة أن تحصل على أجازة أربعة شهور عند الولادة .. أما التلاميذ الصغار فيدخلون المدارس بعد الظهر أيضا ، حتى لا يدوروا فى الشوارع أثناء انشغال الأم والأب بالعمل فى المصانع والحقول

ومن المألوف فى روسيا أن تحمل الأم طفلها الصغير بعد الإفطار مباشرة وتتركه فى دار الحضانة . ومن حق الأم أن تجىء لرؤية طفلها لمدة نصف ساعة .. وأن يتكرر ذلك كل ثلاث ساعات دون أن يخصم من أجرها مليم واحد .. ولقد ظن بعض علماء النفس أن هذه التجربة سوف تؤدى إلى اضطراب الطفل الروسى . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . فمن الملاحظ أن الطفل الروسى مهذب ويحترم والديه . ووالداه يفعلان نفس الشىء ..

ومن الملاحظ أن المرأة السوفيتية ما تزال هى الأكثر اهتماما بالبيت : بالطبخ والغسل ..

وفى سنة ١٩٦٠ حدث تغير فى روسيا فقد اهتمت المرأة بالرشاقة والأناقة وبمظهرها العام .

وتغير آخر : لقد أحست المرأة الروسية أنه ليس من العدل أن تعمل المرأة فى الصناعات الثقيلة مثل الرجال . لأن هذا قد يرهقها ويكسر وسطها . وإنما العدل أن تعمل ما هى قادرة عليه أو ما يتفق مع موهبتها واهتمامها . وهذا يؤكد أن هناك رغبة قوية فى روسيا فى أن يعيش الناس وأن يتذوقوا الحياة . وأن يعمل كل إنسان

على قدر طاقته وعلى ذوقه.. فإذا عمل كل الناس بارتياح تحقق العدل العام لكل الناس . وزادت معدلات الإنتاج .. وابتعدت بذلك روسيا الآن عن الجمود الذى كانت عليه فى السنوات التالية لقيام الثورة السوفيتية سنة ١٩١٧ .

وهناك أحدث أنواع التجارب على الحرية بين الجنسين فى الدول الاسكندنافية .. وفى السويد بوجه خاص .. فقد اتخذت السويد شعارا هو : إننا نتجه إلى مجتمع لم تعرف له الإنسانية مثيلا فى كل العصور ..

والعلماء يؤكدون أن العالم كله يتجه إلى الحرية على الطريقة السويدية .. وإن كانت السويد سبقت الدنيا . وليس من المنتظر أن نبلغ ما بلغته السويد ..

والسويد أكثر تحررا من جارتها النرويج . فأهل النرويج محافظون نسبيا.. ولكن على الحدود بين الدولتين تتحقق الحرية الجنسية فى أكثر حالاتها انطلاقا . والناس يمارسون حرياتهم وراء الأشجار الكثيفة . وقد قال أحد الكتاب الساخرين : إنه لو أخفيت فى داخل كل شجرة جهاز تسجيل : لراحت كل شجرة تروى قصة أطول من أساطير الإغريق .

وأهل الدانمرك أكثر تحررا من أهل النرويج ..

ولكن الحرية متقاربة فى هذه الدول الاسكندنافية الثلاث .. وهناك قاعدة واحدة : إن الحرية العاطفية والجنسية جزء من الحرية العامة . فمن حق كل إنسان أن يدخن السيجارة التى تعجبه وأن ينام على الجنب الذى يريحه . وأن يختار لذراعيه الفتاة التى تسعده ..

وفى سنة ١٩٦٥ طالبت الأحزاب السياسية بأن المساواة بين الجنسين تحتم أن تشترك المرأة فى الجنس أيضا .

وبعض الأديبات يؤكدن أن هذه الحرية التى حصلت عليها المرأة ليس سببها أن الرجل أراد أن يريح رأسه من المرأة كأنها طفل لا يكف عن البكاء أبدا ..

إن المرأة تحررت لأن الرجل تحرر . ولأن المبادئ الأساسية تقول : لا فرق بين الرجل والمرأة . فليس ذلك من باب عطف الرجل على المرأة ولا الشفقة بها . ولكنها تحررت لأنه من الواجب أن تتحرر .. فليس الرجل صاحب فضل فى أن المرأة أصبحت مساوية له فى كل شيء . وإذا كان الرجل لا يحب أن تسأله المرأة عن ماضيه ، أو يحب ذلك ، فالمرأة لا تحب ولكن فى استطاعتها أن تتحدث عن ماضيها إذا شاءت .. لا فرق بين ماضيه وماضيها . سواء كان هذا الماضى مليئا بالأزواج أو بالأصدقاء ، بالأطفال الشرعيين أو اللقطاء .

ولكن لماذا يتحدث الناس فى السويد عن الجنس وأساليب الجنس وأشكال الحب بصورة واضحة فى كل مكان فى البيت فى الشارع فى المدارس فى الصحف؟.

من بين الأسباب أن مستوى المعيشة فى السويد مرتفع . وأن المجتمع منح كل شيء ويقدم لكل الناس فرصا متساوية . وأن هذه البلاد قد عرفت نوعا من الاستقرار السياسى أدى إلى الاستقرار الاجتماعى الطويل . فلم تعرف هذه البلاد المشاكل التى تهد حيل الدول الأخرى . فليس عندهم مشاكل لقمة العيش . ولا عندهم مشاكل الدفاع عن لقمة العيش .. لا أزمات اقتصادية ولا معارك عسكرية .

كما أن معظم أصحاب الآراء الحرة يشغلون المناصب الرئيسية فى أجهزة الإعلام . ولذلك يملأون الراديو والتليفزيون والسينما بالمناقشات الجنسية الصريحة .. الصريحة جدا . أليس الجنس حقيقة ؟ من المؤكد أنه حقيقة . أليس الشوق والحنين مثل الجوع إلى الرغيف والعطش إلى الماء ؟ من المؤكد أن هذه الحقائق ضرورية .. ثم ما دام الإنسان لا يعيبه أن يقول إنه لم ينم أمس بسبب الأرق فما الذى يخجله أن يقول نفس الشيء إذا أحس أن فراشه خال وأن حضنه خال أيضا ؟ .

إن أهل السويد قد جعلوها سهلة على أنفسهم .. وعلى غيرهم أن يفهمهم على هذا النحو . فهذه طبيعتهم .. وهذا هو الطريق الذى ساروا فيه ، ومن المؤكد أن تمشى فيه الشعوب الأخرى بعد ذلك .. فالإنسانية واحدة وأهدافها واحدة ..

وأول ما يشاهده زائر السويد هذا المرح على وجوه الفتيات . وهذه الابتسامات الداعية أو المرحبة .. ولكن ليس هذا ابتذالا فى سلوك الفتاة .. وإنما هن مهذبات فقط .. فالفتاة لا تشكو من نقص فى شيء . فالمجتمع سمح لها بكل شيء . فهى لا تلقى نفسها عند قدميك من أول ابتسامة . وإن كانت سوف تفعل ذلك فيما بعد الابتسامة الثانية أو الثالثة .

والفرق بين الفتاة السويدية والفتاة الأمريكية أن الفتاة الأمريكية تجد متعة فى أن تثيرك وتشعل النار فيك ، وليس من الضرورى أن يكون بينكما أية علاقة بعد ذلك .. أما السويدية فهى تبحث عن الود عن الصداقة عن الدفء ، أما النار فتجيء بعد ذلك من تلقاء نفسها .. فالأمريكية لعوب ، والسويدية جادة .. والأمريكية مشكلتها أن الرجل يؤكد لها أنها ليست أنثى . ولذلك تحب أن تلعب بأنوثتها ، وتتعذب من الحرمان بعد ذلك .. أما السويدية فهى تعرف عن يقين أنها أنثى . قيل لها ذلك ألوف المرات . وهى قادرة على أن تثبت ذلك . ومن هنا فلا يهمها إلا الصديق ، أما الباقى فأمره سهل جدا .

ومن المناظر المألوفة فى استوكهلم عاصمة السويد أن يلتقى الشبان فى « حديقة الملوك » فالفتيات يرتدين الصنادل والشبان يلبسون جاكيت من الجلد ، حتى لو لم يكن هناك مطر .. وينحنى أى واحد منهم . وتبتسم الفتاة . ويختفى الجميع بعد ذلك فى الغابات .

ولقد عرفت السويد هذه الحرية الاجتماعية والعائلية أكثر من أربعة قرون .. ومن المألوف جدا أن تحتفل الأسرة بالعلاقة الجديدة بين ابنتها وجارها . وتقام

حفلة صغيرة .. وقد تمضى شهور أو سنوات قبل أن يكون لهذه العلاقة أى شكل قانونى . أو قد لا يكون لها ، ومن المألوف أيضا أن تعيش الفتاة مع شاب سنوات عديدة دون أن يرتبط الاثنان بالزواج ودون أن يعترض أحد على ذلك .. أى أحد .

وفى سنة ١٨٨٠ كان أكثر من ٧٥٪ من النساء قد أنجبن أطفالا قبل أن يعقد الزواج نفسه .

ومن الطبيعى للفتيات والفتيان أن يمارسوا العلاقات الجنسية المتعددة الطويلة قبل سن السادسة عشرة .. ولا اعتراض لأحد على شىء .. أما الآباء أنفسهم فيغمضون عيونهم ، أو يفتحونها على شىء آخر ليقولوا : أبناؤنا أحرار .

ولكن لماذا هذه الإباحية فى السويد ؟ .

هناك أسباب عديدة . مثلا . ليالى الشتاء الطويلة الباردة ..

كما أن الكنيسة ليس لها أى دور قوى . فالسويد لم تعرف المسيحية إلا فى عصور متأخرة جدا .. فى أواخر القرن الحادى عشر بعد الميلاد . حتى أهل السويد القدامى كانوا فى غاية التحرر . أما الآن فقد اتجه أهل السويد إلى بعض التمسك بالدين ومعظم عقود الزواج تتم فى الكنيسة وإن كان ٥٠٪ من الشعب لا يتردد على الكنائس .

وعقد الزواج لا يهم . الذى يهم هو ما قبل العقد ، وما بعد العقد .. فليس العقد هو الذى يمسك الناس .. ولكن الناس هم الذين يصنعون العقد ويتمسكون به أو يمزقونه بعد ذلك .

ثم إن معظم أهل السويد يتزوجون فى العشرينيات. ومتوسط عمر الأزواج فى الدول الإسكندنافية هو ١٦ سنة للفتاة و ٢٣ سنة للشاب . وسبب ذلك هو أنه ما دامت عندهم حرية مطلقة ، فلماذا يتزوجون . إن الزواج لن يعطيهم أكثر مما يأخذون . ولولا أن هناك مشاكل أخرى لتزوج الشبان فى سن مبكرة جدا ،

أو لتوقفوا عن الزواج نهائيا . فالشاب لا يريد أن يتزوج لأنه لا يجد الشقة .. وأحيانا يتزوج لأن الدولة تعطيه الشقة .

وهناك سبب آخر يرغم الشاب على الزواج : أن تحمل فتاته ولا تريد أن تتخلص من الجنين .. وهو لا يريدها أن تفعل ذلك .

وفى الدانمرك من حق كل فتاة حامل أن تحصل على شقة .. ولذلك تحمل الفتاة لتجد الشقة وتتزوج فيها .

ولابد أن الحمامات العامة فى السويد قد ساعدت على هذه الاباحية . فالحمامات العامة وحمامات البخار يتعرى فيها أبناء الجنسين .

والفن أيضا أدى إلى تشجيع التعرى وجعل الجنس شيئا عاديا . فهناك حديقة للنحات الكبير فيجلاند .. وفى داخل الحديقة تمثال ارتفاعه ٥٦ قدما . التمثال على شكل عضو الرجل وقد امتلأ بعشرات من النساء والرجال العراة تماما .

ومن أغرب الأرقام فى السويد أن ٨٠٪ من الفتيات لسن عذارى عند الزواج وأن ٥٠٪ فى حالة حمل ..

ولابد أن يكون للرياضة دخل كبير فى التقريب الشديد بين الجنسين . فأهل السويد رياضيون من الدرجة الأولى . والشاب الرياضى يغفر له المجتمع الكثير من الحماقات . بل إنه من العادى جدا أن تخرج فتاة وفتى للانزلاق على الجليد . ويبيتان فى الخيام والفنادق . وأحيانا يطلبان المأوى فى أى بيت قريب من الجبل . وصاحبه يعلم طبيعة العلاقة بين شابين فى السادسة عشرة . ولكنه يطلب أولا أن يريه قدرته على الانزلاق قبل كل شىء . ويذهب الشاب يستعرض قدراته .. وهنا تفتح للشابين الصغيرين غرفة ويقفل عليهما باب .

وفى جامعات استوكلهم من حق الطالب أن يستضيف طالبة فى فراشه وإن

كانت اللوائح تستنكر ذلك . ولكن إذا لم يحدث إنسان ضوضاء فلا أحد يعترض على شيء .

وأهم من ذلك ألا يكون هناك إكراه على شيء .. فإذا أكره طالب زميلته ، طردته الجامعة فورا .

ورغم هذه الحريات ، فإن الفتاة السويدية ــ كالمرأة فى كل الدنيا ــ تتطلع إلى الزواج .

وفى كل أسرة فى السويد عندها فتاة فى العشرين من عمرها ، يوجد شاب صديق لها يأكل ويشرب وينام فى البيت . إنه صديقها .

وكثيرا ما دارت مناقشات بين الأب والأم والبنت وهذا الصديق فى مستقبل العلاقة بينهما . وقد تجيء هذه المناقشة بعد سنة من إقامة هذا الشاب فى البيت .

وإذا واجهت الفتاة مشكلة : كالإجهاض مثلا ، فإن الدولة تتدخل فقط من أجل صحتها . فإذا كان الإجهاض ضارا بها منعتها .. وإذا لم يكن هناك ضرر سمح لها الأطباء .. وإذا لم يسمح الأطباء سافرت الفتاة إلى بولندا مثلا وتخلصت من الجنين .

فإذا أنجبت الفتاة طفلا أعلنت الصحف عن ميلاد هذا الطفل هكذا : ولد لفلانة وفلان طفل اسمه حنفى ــ مثلا ــ والصحف لا تقول إن كان هذان الشابان زوجين أو صديقين .

ويحدث كثيرا جدا أن تتزوج الفتاة والد هذا الطفل بعد ذلك .

وإذا حملت تلميذة فى مدرسة ثانوية فإن المدرسة تعنى بصحتها وإذا حدث ذلك فى أمريكا طردوا الفتاة فورا .

وفى الحدائق العامة والغابات لوحات تنبه الشبان إلى نتائج هذه العلاقات الجنسية . مثلا ــ لوحة تقول : فكرى .. فكرى .. هل يمكنك الاعتماد

عليه ؟.. ولوحة أخرى تقول : أطفال جدد ؟ فقط عندما نريدهم ! .

وفى الشوارع عقول ألكترونية تشرح للشبان معنى العلاقات الجنسية والأمراض والحمل والولادة .. فكل المعلومات الجنسية فى متناول الجميع فى كل وقت .

وفى المدارس يتعلم الأطفال بصراحة معنى الجنس ولكن على درجات . ففى السابعة من العمر يعلمون الطفل من أين جاء وكيف ولد ؟ ولماذا ؟ وفى سن ١١ و١٣ يشرحون للطفل تفاصيل الجسم الإنسانى والأمراض الشهرية عند المرأة . ولا يشرحون له العلاقات الجنسية .

ومن الطبيعى أن تكون أخلاقيات الأسرة منحطة فى السويد .. فنسبة الخيانة الزوجية عالية جدا ..

وفى السويد من الممكن أن يترك لك الزوج زوجته إذا كنت ضيفا عنده . ويرى أن هذا من الكرم . ولكن المرأة السويدية تضيق بهذا الموقف . لا لأنها تعترض على أن تذهب إلى فراش الضيف ، ولكن عندما يتصور زوجها أنه هو الذى قدمها للضيف . كأنها شىء يفعل به ما يريد ، إنها إذا ذهبت إلى فراش الضيف ، فلأن الضيف أعجبها وهى التى ذهبت بمحض إرادتها وحريتها وليس بأمر من الزوج . فالزوج لا حق له فى أن يفرض عليها الفراش الذى يعجبه .

والمرأة فى السويد مع ذلك ـ ككل نساء العالم ـ تفضل أن تكون مخلصة لزوجها ..

ودفعت المرأة السويدية ثمن حريتها غاليا .. فقد أسفرت هذه الحرية عن مشاكل ومتاعب وأمراض واضطرابات نفسية لا حد لها ..

فالشبان دون الـ ١٦ سنة ١٠٪ منهم يعيشون مع أم فقط أو مع أب فقط .

أى يعيشون فى أسرة لها عائل واحد .

كما أن نسبة الأمراض الخبيثة عالية جدا ..

٦٠٪ من حالات الزواج تنتهى إلى الطلاق ..

أما نسبة المواليد بلا زواج فعالية أيضا ..

أما البغاء فلا وجود له فى السويد ، لأنه لا ضرورة له ..

كما أن الكتب الجنسية الفاضحة قد انتشرت فى السويد وتباع فى كل مكان . حتى دورات المياه .. وكذلك الأفلام الجنسية العارية مثل فيلم «أزيد أن أعرف» وهو فيلم ملون يشرح عمليا وبالتفصيل ما يدور بين رجل وامرأة ..

والقانون الذى صدر بشأن الزواج فى سنة ١٩٢٠ ينص على : أن الزوجين مسئولان مناصفة عن البيت ومصاريف البيت . وأنهما يلتزمان بمعاونة كل منهما للآخر . وأن تربية الأطفال مسئولية مشتركة .

والمرأة فى السويد تقوم بدورين معروفين : أن تعمل وأن تكون ست بيت . ولكن هناك حدودا بينها وبين زوجها . فهى مسئولة عن إرضاع الطفل وتغيير ملابسه لفترة معينة . وبعد ذلك يقوم الأب بإرضاع الطفل بالزجاجة وتغيير ملابسه وغسلها أيضا .

وليس من العدل ـ هكذا تقول المرأة فى السويد ـ أن المرأة التى لها وظيفتان مستريحة كالرجل الذى له وظيفة واحدة . ولذلك يجب أن يشاركها الرجل فى أعبائها المنزلية. وإلا كان هذا العدل كاذبا ..

أما كيف يتحقق العدل الشامل فى السويد ، فهناك مشاريع تتقدم بها المرأة كل الهيئات الاجتماعية .. والسياسية .. لأن المرأة السويدية لم تبلغ العدل المطلوب بعد .

ولذلك يجب أن يعمل الرجال بعض الوقت كالمرأة تماما . وبذلك يستطيع أن يساعدها فى شغل البيت .

يجب أن يستبعد الرجل من رأسه تماما أن هناك أعمالا للرجل وأعمالا للنساء . فحيث يوجد الرجل تكون المرأة .

لابد أن يقتسم الرجل والمرأة العمل فى البيت . وأن يصدر بذلك قانون ينظم العمل المنزلى .

يجب أن يكون هناك بيوت للحضانة حتى لا يتعطل الأبوان عن العمل ..

يجب أن يكون التعليم مشتركا فى جميع المراحل .

وقد حدث ذلك فى معظم المراحل . فالأولاد يدرسون علوم المرأة مثل شغل الإبرة والطبخ وتربية الطفل . والحضانة . والتدبير المنزلى . والبنات الصغار يدرسن الأعمال اليدوية وفك الأبواب وإصلاح أدوات البيت . (ولكن من الملاحظ أن التفوق فى كل الفنون ما يزال من نصيب الأولاد) .

ومعظم الذين يدرسون فى كلية الهندسة من الذكور .. ومعظم الذين يدرسون فى طب الأسنان من الإناث و ١٤٪ من أعضاء البرلمان من السيدات . وتوجد وزيرة واحدة . ومن المشاهد المألوفة فى استوكهلم أن تجد رئيس الوزراء يركب فى سيارة زوجته المدرسة فى الجامعة . وتقوده إلى مكتبه ثم تتجه إلى عملها .

وما تزال ٩٠٪ من الأعمال القيادية السياسية والخارجية والاقتصادية فى أيدى الرجال ..

وهذه الروح المتحررة قد انتقلت إلى العمارات نفسها . فكما أن هناك شققا مفروشة ، هناك شقق مزودة بالمربيات . فالأسرة تنتقل إلى شقة جديدة . وفى الشقة يجدون مربية للطفل . أو تجد الأسرة فى العمارة شقة خاصة بحضانة الأطفال . أو فى العمارة تجد الأسرة مطعما عاما يقدم الوجبات لكل أسرة وبذلك لا يتعب الزوج أو الزوجة فى اعداد الطعام ..

وبعض العمارات تنظم رعاية الأطفال فتتولى كل أم يوما فى الأسبوع رعاية أطفال العمارة كلها ..

ومن حق الأم أن تأخذ أجازة ستة أشهر عندما تنتظر مولودا .. ومن حق الأب أيضا أن يحصل على أجازة مماثلة إذا كانت زوجته فى حاجة إلى مساعدته .

ومن حق الزوجة أن تحصل على ستة أشهر أخرى ، ولكن بلا مرتب . وكذلك الزوج .

وإذا نهض الطفل من النوم واحتاج أن يشرب أو يستحم أو يأكل ، أو يذهب لدورة المياه ، ففى استطاعته أن ينادى على أبيه أو على أمه وهو ضامن أن أحدهما سوف ينهض فورا .. وعندما يسمع الأبوان صوت الطفل يفتح كل منهما النور ويمد يده تحت المخدة ليقرأ الجدول ليعرف إن كان هو الذى عليه الدور لرعاية الطفل هذا الأسبوع ــ أو هذا اليوم .

ومهما تقاربت المسافة بين الجنسين فسوف تبقى هناك مسافة أخرى .. هذه المسافة تحت الجلد .. هناك خلافات واختلافات بين الجنسين . لا دخل لهما فيها .. هذه الاختلافات تغرى الجنسين بأن يتقاربا ، وتضطرهما إلى أن يتباعدا .. وفى هذه المسافة بين الرجل والمرأة توجد كل المشاكل الإنسانية منذ كان هناك رجل وامرأة .. لا على الأرض وإنما فى الجنة .. وسوف نرى ..

مرحبا أيها الجنس الثالث

- ٦ -

الرجل تعب من محاولة فهم المرأة ..

المرأة لم تتعب لأنها لم تحاول .. ولابد أن يكون سوء التفاهم قد بدأ منذ كان الاثنان فى الجنة .. وكل شىء بعد الجنة قد تغير. ولكن بقيت هذه المشكلة دون تغيير.

وإن كانت هناك نظرية حديثة تقول بأن النساء سوف يكن فى حجم وشكل بريجيت باردو .. وأن الرجال سيكونون فى حجم توت عنخ آمون - أى تختفى الفوارق بين الرجال والنساء، لا عضلات ولا شوارب للرجال، ولاصدر ولا أرداف للنساء.

وقد حدث فى المؤتمر الدولى للعائلات الذى انعقد فى أمريكا سنة ١٩٦٥ أن وقف أحد العلماء يتساءل جادا : هل من الضرورى أن نستعد الآن لعالم الغد الذى تتحكم فيه المرأة بشكلها وذوقها ؟ هل من المناسب أن نرسم العلاقات بين الجنسين على نحو ما يجرى فى السويد الآن ؟.

ومن الغريب أن هذا المؤتمر قد أسفر عن إجابات مختلفة عن هذا السؤال. فقد قرر العلماء أنه من الخير للمجتمع أن يبقى الرجل رجلا وأن تبقى المرأة أنثى. ولكن من الواجب أن تكون الفرص متساوية أمام الجميع.

وقرار آخر يقول : صحيح أن الرجل مختلف عن المرأة .. وصحيح أنهما متشابهان أيضا .. ومن الممكن أن تذوب هذه الخلافات التى بين الجنسين بأن يعلم الأطفال الذكور مبادئ الرقة والحنان .. وبذلك نجعل الرجل أقرب إلى المرأة . ومن الممكن أن نعلم الأطفال الإناث كيف يكون العمل اليدوى . وكيف تكون العناية بالآلات والأجهزة . وفى ذلك تقريب للإناث من الذكور ..

ومهما حاولنا التقريب برفق أو بشدة ، فهناك خلافات واضحة بين الجنسين .. خلافات جسمية ونفسية واجتماعية وتاريخية . فإذا كانت المرأة تحب أن تكون محكومة من الرجل ، فهى أيضا تحب أن تكون حاكمة ! ! .

وإذا كان الرجل يحب أن يكون طفلا للمرأة ، فإنه يحب أن يكون أبا أيضا ..

ثم إنه لا يوجد مجتمع فى العالم كله يساوى بين الرجل والمرأة فى كل شيء .. لا أكثر المجتمعات تطورا ، ولا أكثرها تخلفا . صحيح أن كل رجل له خمس حواس ، وللمرأة أيضا ، ولكن هناك خلافات أخرى شديدة وعميقة وحادة ..

مثلا .. على الرغم من أن المرأة قادرة على الاستمرار طويلا فى المباريات الرياضة ، فإنها عندما تلعب يظهر عليها التعب بوضوح . بينما لا يكون الرجل كذلك . وفى نفس الوقت يكون قادرا على الوصول إلى النهاية ..

ويبدو أن الطبيعة قد قررت أن تكون متوازنة : فعدد المواليد من الذكور أكثر من عدد المواليد من الإناث . ولكن الإناث أقوى صحة وأطول عمرا . ومن الإحصائيات التى أجريت سنة ١٩٦٣ فى ٨٣ دولة لم نجد غير خمس دول فقط يزيد فيها المواليد الإناث على الذكور .

كما أن الرجل ميال إلى العدوان بطبعه . فالمرأة تنتظر والرجل يجيء . المرأة تتلقى والرجل يعطى .

والرجل ميال إلى المغامرة والمقامرة منذ أيام الحياة فى الكهف .. ولو درسنا الأطفال الصغار لوجدنا الذكور أعنف وأميل إلى التدمير ..

والمجتمع يقبل هذا السلوك ويشجعه . ويحرص عليه أيضا ..

وفى المناقشات نجد أن الرجال يتكلمون أكثر وبصوت مرتفع .. وعند الأطفال دون الرابعة نجد الذكور ميالين إلى التدمير . وهم أكثر قلقا . وهم حريصون على تكسير أدوات غرف النوم ..

ومن الملاحظ أن الصحف تنشر أركانا أو صفحات خاصة بالمرأة . صفحة المرأة . أخبار حواء . للنساء فقط .. وهذا يدل على أن الصحف حريصة على أن تعطى المرأة ما تريده ..

ومعنى ذلك أيضا أن المرأة تحرص على موضوعات خاصة بها . ويهمها أن تجدها وحدها بعيدة تماما عن السياسة والاقتصاد والموضوعات الأخرى . وإن كانت المرأة تشارك الرجل الاهتمام بالرياضة .

وقد أجريت تجربة فى أمريكا على ١٥٠ طفلا و ١٥٠ طفلة .. وطلب إلى الجميع أن يقوم كل منهم بإخراج فيلم سينمائى .. وأعطيت لهم جميعا أدوات متشابهة . فماذا حدث .. كان اهتمام الذكور بالمناظر الخارجية والحوادث والكوارث .. وكان اهتمام الإناث بالمناظر الداخلية فى البيوت ..

وعندما أجريت تجربة أخرى على نفس الأطفال . وطلب إليهم أن يرسموا أى شىء . رسمت الإناث وجوها وأشخاصا ، ورسم الذكور سيارات وحدائق وعمارات .

فالمرأة تهتم بالأشخاص ..
والرجل يهتم بالأشياء والأفكار ..

ولذلك فالذكور يختارون علم الكيمياء والإناث يخترن علم الحياة .

والمرأة لا تهتم فقط بالأشخاص ، وإنما بالعلاقات الشخصية . ولذلك تحرص المرأة على أن تنظر إلى الإنسان فى وجهه وإلى ملامحه واحدة واحدة وبدقة .. بينما يهتم الرجل بالعلاقات الإنسانية عموما وبالعواطف الإنسانية .

ولذلك تحب المرأة أفلام رعاة البقر وأفلام الحياة فى الغابات ، لأنها تهتم بالعلاقات الإنسانية المحددة أو تهتم برؤية الأشخاص بوضوح أكثر ..

والمرأة خبيرة بمعرفة ما الذى يمكن أن يفعله الإنسان إذا وضع فى موقف معين . وليس الرجل كذلك . وقد أجريت تجربة على عدد من الأزواج والزوجات . وكان السؤال : ما الذى يمكن أن يفعله زوجك إذا حدث كذا وكذا ؟ وقد نجحت كل النساء فى الإجابة وفشل كل الأزواج .

وفى داخل الأسرة الواحدة نجد الخلاف واضحا بين الرجل والمرأة . فالرجل أقدر على تكوين علاقات عملية ناجحة . وأقدر على الاتصال بالعالم الخارجى .

ولكن المرأة أقدر على التعاون والتدبير وتنظيم حال الأسرة .. والرجل أكثر تركيزا وأكثر استغراقا فى عمله . ولذلك يبدو الرجل كأنه منعزل عن الدنيا ، إذا راح يفكر فى شئونه العملية .. لدرجة أنه لا يشعر بالبيت أو بمن فى البيت .. ولكن المرأة تنشغل بالبيت وبكل مسمار فى البيت ، لدرجة أنها تحس أن الدنيا كلها قد انكمشت وانحشرت فى جدران شقتها الصغيرة .. ولو جلس رجل وامرأة أمام التليفزيون ورأيا انفجارا ذريا وقال الزوج : كارثة ما الذى سوف نفعله بعد ذلك ؟ لأجابت الزوجة على الفور : ولا كارثة ولا حاجة نطلب من البواب أن يبحث لنا عن واحدة أخرى ؟ .

وواضح أن الرجل يتحدث عن الإنسانية ومصيرها بعد هذه

الانفجارات .. أما الزوجة فتتحدث عن مشكلتها مع الخادمة .. وأنها لابد أن تبحث عن غيرها .

وعندما يتشاجر رجل وامرأة . فكل الرجال ميالون إلى الصمت . أو الانسحاب أو الخروج من البيت .. أما المرأة فهى تواجه الموقف بالصراخ والبكاء .

والعالمة الأمريكية مرجريت سيد ترى أن الدنيا من الممكن أن تكون أحسن لو اعترف الجنسان بأن كل واحد منهما أقدر من الآخر فى مجالات مختلفة .

فالرجل أقدر من المرأة فى الموسيقى والعلوم والرياضيات .. (فالرجل من الممكن أن يحسب المسافة التى بين النجوم . ولا يعرف كيف يحسب أقساط الثلاجة على عشرين شهرا) .. والمرأة أقدر من الرجل فى العلوم الإنسانية لأن هذه العلوم تحتاج إلى حاسة سادسة .

ولا تزال المرأة أقدر من الرجل فى الكلام ، وهى طفلة وهى شابة . وأقدر من الرجل فى التعبير عن نفسها ولذلك تفوقت المرأة فى اللغات . والرجل أقدر من المرأة فى حل الألغاز والفوازير ، والرجل أقدر منها على حل الأشياء وتركيبها . والمرأة أقدر من الرجل فى الأعمال التى تحتاج إلى إلمام سريع شامل ولذلك تفوقت فى أعمال السكرتارية .

والمرأة أقدر من الرجل فى التربية والعناية بالآخرين . فالمرأة لها موهبة خاصة فى مراقبة الحياة عند الطفل وفى الحيوان وفى النبات ـ والإنسان الآن أحوج إلى المرأة من أى وقت مضى . لأننا فى عصر صناعة الموت بأشكال مختلفة . كما أننا فى عصر تتقدم فيه العلاقات الإنسانية مثل : التربية والتمريض والتعليم . ولذلك تفضل المرأة أن تشتغل بالتدريس والصيدلة والبحث الاجتماعى .

وفى الأرجنتين نلاحظ أن ٩٠٪ من الذين يدرسون علم النفس فى الجامعة من الفتيات ، بينما ٩٠٪ من الذين يدرسون الهندسة من الفتيان .

وفى المستعمرات الاسرائيلية كانت المرأة تقوم بكل ما يقوم به الرجل . ولكن اتجهت من تلقاء نفسها إلى اختيار الحضانة والتربية والطهى .

وعندما حاول شباب «الهيبز» أن يثوروا على التقاليد والعادات وعلى الأسرة ، فإنهم عادوا إلى التقاليد القديمة . فهؤلاء الشبان أقاموا فى الشوارع والاصطبلات وفى الخيام . ولكن اتجه الشبان إلى جمع الخشب وإحراقه بينما اتجهت الفتيات إلى الغسل والطهى والكنس .. وفى الوقت الذى خرج فيه الشبان يبحثون عن عمل ومال ظلت الفتيات يقطعن الانتظار فى التريكو ..

وإذا كان الرجل يحب المغامرة ، فإن المرأة تفضل أن تكون محافظة . ولا تغامر . والأحزاب السياسية فى النرويج تدين بوجودها لمشاركة المرأة فيها .

وفى سنة ١٩٦٥ ليلة الانتخابات الفرنسية توجه الجنرال ديجول إلى الشعب الفرنسى قائلا : «إلى كل سيدة فرنسية وإلى كل رجل فرنسى» ونجح ديجول لأن المرأة هى التى أيدته .. لقد حصل ديجول على ٤٠٪ من أصوات الرجال و٥٣٪ من أصوات النساء .. والمرأة سعيدة بأنها أعطته صوتها : لأن المرأة تحب أن يكون لها هذا الأب الطيب الذى ينظر إليها ويرعاها . والمرأة تكره العنف وتكره الحروب وتكره الفتن ـ لأن المرأة تحب أطفالها .. وأبناءها ولا تريد لهم أن يموتوا . ومن الملاحظ أن المرأة فى الجامعات الأمريكية بعيدة تماما عن كل الاتجاهات الثورية . ولذلك فالمرأة أميل إلى الدين والأخلاق والعلاقات الشخصية من الرجل ..

والمرأة أكثر إحساسا بالروائح من الرجل . وإذا كنا نرى فى الإعلانات رجلا يعانق زوجته قائلا : ما أجمل هذا العطر وراء أذنيك .

فليس سبب ذلك حب الرجل للعطور. ولكن سببه أن المرأة هى التى تحب العطور. وهذا الاهتمام بالعطور هو الذى جعل الرجال ينفقون ملايين الجنيهات على الصابون وعلى الكولونيا ..

أما الأشياء المنظورة فالرجال يفضلون الخطوط البسيطة الواضحة أما المرأة فتفضل الأشكال المعقدة الملونة .. حتى فى البلاد التى لا يرتدى النساء والرجال فيها شيئا . فإن الرجل يصبغ جسمه بخطوط متقاطعة .. أما المرأة فإنها تضع بقعا لونية متعددة الألوان على الصدر والخدين والظهر والساقين ..

والمرأة أسرع نضجا من الرجل .. فى الـ ١٤ سنة الأولى تجد الفتاة تنضج أسرع من الفتى .

بل إن الفتاة أكثر تقدما فى النضج بستة شهور من أى شاب فى سنها أى تسبقه فى النضج العقلى والجسمى أيضا . وتكون أطول منه بثلاثة أرباع البوصة. ولذلك تحرص الفتاة على ألا يكون صديقها فى مثل سنها، لأنه فى هذه الحالة يكون أقل منها نضجا . ولذلك تفضله أكبر سنتين أو ثلاثا .. أى فى مثل نضجها العقلى ولذلك نجد الفتيات فى المدارس الثانوية أكثر وعيا من الفتيان. أما فى الجامعات ، فإن الشبان يستدركون ما فاتهم بسرعة ..

ولكن من الواجب أن نتساءل هل صحيح أن هذه الخلافات الاجتماعية بين الرجل والمرأة طبيعية ، أم المجتمع هو الذى خلقها ؟ .

هناك رأى يقول إن أناث القرود تميل إلى ارتداء الملابس وخلعها . وتميل إلى الزينة أيضا ، ولو أعطيت هذه الملابس إلى الذكور لجعلتها على شكل كور وراحت تتقاذفها ــ بين القرود . ومن الممكن أن نجد سلوكا شبيها بذلك بين أطفال الإنسان أيضا .

ومعنى ذلك أن هذه الخلافات فى السلوك الاجتماعى طبيعة عند الانسان وعند القرود أيضا .

ولكن يلاحظ أن الأدباء إذا وجدوا طفلا ناعما رقيقا انزعجوا لسلوكه وطالبوه بأن يكون رجلا حمشا . وإذا وجدوا طفلة فيها خشونة وعنف طالبوها بأن تكون رقيقة . فالمجتمع لا يريد الأنثى التى تسترجل ولا يريد من الرجل أن « يستأنث » . وإنما يريد الرجل رجلا ، والأنثى أنثى . ويحرص على ذلك . ويدعو إليه . ويكافئ الجميع .

ومن المؤكد أنه فى تاريخ الحضارات الإنسانية ـ وعددها أكثر من مائة ـ وجدنا الرجل هو الذى يصيد الوحوش ويصنع الأسلحة ووجدنا المرأة هى التى تطحن القمح وتجمع الأخشاب والبذور وتربى الطفل ..

وبعض العلماء يؤكدون أن الكيمياء سوف يكون لها أثر كبير على السلوك الاجتماعى للرجل والمرأة . فقد لاحظ بعض العلماء أنهم عندما حقنوا أنثى القرد أثناء الحمل كان وليدها بعد ذلك عنيفا شرسا حتى لو كان هذا المولود أنثى . إذن فى الإمكان أن تكون الأنثى مسترجلة ـ إذا أردنا .

والتربية المنزلية لها دخل فى تشكيل السلوك الاجتماعى للأطفال . فلو فرضنا أن إحدى الأمهات تعامل طفلها ـ ولدا أو بنتا ـ بمنتهى القسوة والاهمال . فسوف تكون النتيجة أن تصبح البنت عنيفة ، أما الولد فسوف يكون مائعا . وإذا أحبت الأم بنتها ، عادت للولد صفات الرجولة . أما البنت فستكون فى غاية الرقة والحنان .

ومن المناسب أن نسأل : هل التعليم المشترك هو الذى أدى إلى نعومة الأولاد وخشونة البنات ؟ وإضعاف الفوارق بين الجنسين ؟.

إن التعليم فى العالم كله لا جنس له . ففى رياض الأطفال يجد الأطفال

الذكور أنفسهم فى مجتمع نسائى تماما . فالناظرة والمدرسات والطالبات أغلبية ساحقة من الجنس الآخر. وسوف يجد الطلبة الذكور أن هذا المجتمع يطلب إليهم ضرورة الطاعة والكلام بصوت منخفض أو الصمت والنظافة وعدم اللعب وعدم تكسير الأدوات ـ وفى هذا الجو تستريح الطفلة ـ لأنه جو نسائى طبيعى جدا وهوعكس ما يريده الطفل فالطفل يستريح إلى الصراخ والزعيق واللعب العنيف والحركة . ولذلك يضيق الأولاد بهذا الجو .

وفى المدارس التى يجلس فيها الذكور وحدهم والاناث وحدهن أثناء الدراسة ، يشيع الهدوء والصراحة . فكل جنس يشعر أنه فى مكانه الطبيعى وأنه منسجم مع الآخرين ..

ولكن من الأفضل أن يلتقى الأطفال الذكور والاناث بعد ذلك فى الفسحة وفى المطعم وفى الملاعب .. يجب ألا يتباعد الجنسان ويجب ألا ينعزلا .

ومن المؤكد أن تقارب الجنسين يؤدى إلى القضاء على الكثير من الأوهام والمخاوف بين الجنسين. وما دامت الأسرة رجلا وامرأة وأطفالا بعد ذلك ، فلابد أن يلتقى الجنسان فى كل المناسبات ليكون التفاهم بينهما مؤكدا بعد ذلك . وما دام الحب طريقا إلى الزواج ، فكيف يكون حبا بلا رؤية واضحة وتعاطف واحساس بالتواجد والتقارب المستمر ؟ .

وأقرب الآراء إلى المنطق أن يقال إن هناك خلافا بين الجنسين . لاشك فى ذلك . ولكن هناك آمالا وأحلاما مشتركة . ولابد من أن نؤكد الرجولة للرجل ، والأنوثة للأنثى ..

والأطفال محتاجون إلى نماذج جيدة : الطفل إلى الأب والطفلة إلى الأم ..

والمجتمع نفسه محتاج إلى قدرات خالقة من الأناث والرجال : عبقرية

الرجل فى التفكير والابداع . وعبقرية المرأة فى الانسجام والعناية والرعاية والحب من أجل أن تبقى الانسانية ، وأن يبقى العالم الذى نحلم به ..

لابد من وجود الرجل والأنثى لكى يكون لدينا نوع من الاثارة اللذيذة التى لا يمكن أن تتوافر فى مجتمع كله رجال أو فى مجتمع كله إناث .. لابد من الجاذبية الجنسية بين الطرفين .

ومن المؤكد أن الحياة تصبح أجمل وأروع لو استخدم كل جنس أسلحته فى اجتذاب الجنس الآخر . وليس أعظم من بيت يصنع فيه السعادة اثنان . ويقتسمه اثنان ويبنيه اثنان . ولابد أن يكون هناك اثنان هما مصدر الحب والسعادة والحياة لأطفال آخرين ..

أما إذا حاول كل جنس أن يبدو كالآخر ، فالمرأة كالرجل ، والرجل كالمرأة ، لخسرنا الرجولة والأنوثة وخلقنا جنسا ثالثا . إن كل الاتجاهات الحديثة فى الفكر الأوربى ترحب الجنس الثالث .. وتهتف بحياة الجنس الثالث .. ولكن من المؤكد أنه لن يبقى إلا الجنس الأول والجنس الثانى .. هذان جنسان يختلفان ويلتقيان ويتعانقان .. بشرط أن يكون للجنسين نفس الحقوق ولكن لهما واجبات مختلفة ..

فى القرن الواحد والعشرين

ـ ٧ ـ

لن يكون هناك فارق كبير بين زوجتك يوم ٣١ ديسمبر سنة ٢٠٠٠ وبينها يوم أول يناير سنة ٢٠٠١ أى فى اليوم الأول من القرن الواحد والعشرين . وربما كانت مرهقة بعض الشيء بسبب الضحك المفتعل الذى أطلقته من أعماقها كأنها تريد أن تقتلع الماضى فى نفسها .. أو كأنها تريد أن تقتلعك أنت وقرفك من تاريخها ..

وربما كان الضحك والإرهاق وهذه المحاولة العنيفة قد هدت حيلها وجعلتها أهدأ جسميا ونفسيا ، وقد تتوهم أن القرن الواحد والعشرين قد بدأ والعالم كله لا يدرى بنهاية قرن وبداية قرن آخر .. وفى استطاعتك أن تقوم بتجربة واحدة لاتخطئ : امتدح أية واحدة كانت بالقرب منك يوم رأس السنة .. وإذا حاولت زوجتك أن تتظاهر بأنها لم تسمع بوضوح .. فقل لها بوضوح .. وهذا الوضوح من جانبك سيغرى الزوجة بأن تكون أوضح ، وسوف تستعين زوجتك على توضيح وجهة نظرها بيديها وعينيها فى معظم الاحيان ، فإذا وضعت يديها فى خصرها وأمام كل الناس فهى تريد بذلك أن تكون واضحة مرئية للجميع ، الذى يراها يريد أن يسمعها أيضا ، وسوف تقول بالحرف الواحد « أنت فاكر نفسك إيه .. أنا أتيت بك من الشارع وعلمتك كيف تسكن البيوت النظيفة .

أنت لم تكن تعرف غير الجرابيع من مثل هذه السيدة . ولكنك الآن تعرف أحسن الناس . أنت لم تكن تعرف معنى الطعام النظيف والملابس النظيفة والنوم الهادئ » . ولا داعى لأن تنفعل بالمرة . ولا تشعر مطلقا بأن زوجتك قد افتتحت القرن الواحد والعشرين بفضيحة . لاتغضب فسوف يتصرف جميع الأزواج من تلقاء أنفسهم والزوجات أيضا .

فقد حدث ذلك فى كل بيت فى نفس اليوم أو قبل ذلك بأيام . ومادام قد حدث فى القرن الواحد والعشرين فسوف يظل إلى نهاية القرن . إن طبيعة المرأة لم تتغير . ولن تتغير . وسوف تشعر المرأة دائما أنها محكوم عليها بأن تظل مرتبطة بالرجل ، وأن تعلن هذا الارتباط .. ولذلك لاتجد متعة فى الارتباط ولا تجد مفرا منه .

ولو خرجت أمام البيت الذى أمضيت فيه رأس السنة يوم ٣١ ديسمبر سنة ٢٠٠٠ لوجدت اثنين من المتسولين : رجلا وامرأة ولسمعت هذا الحوار بالحرف الواحد ، كما رواه لنا الأديب اليابانى الفائز بجائزة نوبل فى العام الماضى ..

تقول زوجة الشحاذ : كنت لاتجرؤ على الجلوس أمام العمارات أما الآن فأنت تجلس .. بل أنت تبصق على الأرض أمامها . وتمسح قدميك فى جدرانها .. كيف الحال الآن ..

ـ لا أفهم .

ـ أنت عادة لا تفهم ما يضايقك ..

ـ لا أفهم أيضا ..

ـ لأنك لاتفهم أى شىء على الاطلاق أنا لا أعرف كيف كنت تعيش .. لا أنت تفكر فى شىء .. لا فى نفسك .. ولا فى غيرك .. ولا مستقبلك .. من الذى جعلك تفكر فى كل شىء .. من ؟ قلها ! ولو مرة واحدة ! قلها ! .

ـ أنت ..

ـ وتقولها من تحت الضرس .. صعب عليك أن تعترف لى ولو مرة واحدة بأننى نقلتك من الحوارى إلى أرقى الأحياء .. حتى ولو ألقى القبض عليك الآن .. فلن يقول أحد إنك شحاذ .. سيقولون إنك متشرد فقط .. ومعظم الناس متشردون ..

ـ ولكنك لست متشردة ..

ـ هل أتشرد وأنت على قيد الحياة . أين الرجولة .. أين التضحية .. لو كنت رجلا لركبت سيارة ومددت يدى للناس .. ولكنى امرأة كل ما تملكه هو قلب يحس .. ويحب رجلا لا يدرى به ..

ـ وهل للشحاذ قلب .. قلب الشحاذ فى معدته ..

ـ أنت وحدك الذى لك قلب فى معدتك .. اننى أعرف شحاذين يتناولون طعامهم المتواضع فى ظلال الأشجار فى الليالى المقمرة ..

ـ لأنهم وجدوا الخبز أثناء ظهور القمر فى السماء .

ـ أنت لا ترى القمر .. أنت لا ترى غير رجال البوليس .. ومع ذلك فأنت لم تعد تخافهم .. أنا شددت ساعدك وجمدت قلبك .. ولكنك تنسى .. وحتى إذا أخذك رجال البوليس وضربوك بالكرباج فهذا أفضل لأنهم فى الأحياء الفقيرة يضربون الناس أمثالك بالجزمة . ألا تقل لى كلمة شكر واحدة .. كلمة واحدة .

ـ بل أجد أكثر من كلمة : ألف شكر يازوجتى العزيزة .. ويجب أن نعود إلى الحوارى ..

ـ إلى الحوارى ؟.. عد وحدك .

ـ وأنت سوف تعودين .. لأنك هنا تتكلمين كثيرا وتصدين نفسى عن التسول .. فإما أن تسكتى أو نموت جوعا ..

.. الخ هذه القصة التى تؤكد أنه حتى زوجة الشحاذ تذكر فضلها عليه لأنها ارتفعت بمستواه من حارة إلى شارع .. ومن الضرورى أن يذكر لها زوجها هذا كله بالامتنان .. ولو أدى ذلك إلى موته جوعا ، أما هى فلن تموت وإنما سوف تبكى عليه . وفى بكائها إثارة لشفقة الناس .. وعلى شفقة الناس ، وعلى جثة الزوج تعيش من جديد ..

وسوف تبقى المرأة عاملة فى القرن ٢١ فالعمل قد أعطى للمرأة أهمية وجعل لها شخصية ، وأدخلها فى برواز اجتماعى . فلها ساعات عمل . ولها صفة ، ولها مرتب ، وهى فى ذلك تتساوى بزوجها ، ولم تعد مجرد ست بيت .. أو ست فى البيت ..

وإن كانت المرأة العاملة تتمنى لو استطاعت أن تشعر بأمومتها معظم الوقت وكثير من العاملات يندمن على أنهن لم يمضين وقتا كافيا مع الأولاد . وإن كنا نجد أمهات عندما يذهبن إلى مكان العمل يحمدن الله بصوت مرتفع : فلا أطفال ولا دوشة ..

وأحيانا : ولا أطفال ولا زوج ولا قرف ..

والأرقام تؤكد أن الزوجات العاملات يتمنين لو كانت عندهن امكانيات العناية بالطفل . وهذه مشكلة سوف تقوى فى القرن ٢١ ، فإذا كانت الأم قد اعتادت الآن أن تنجب أطفالا حسب الطلب . فمشكلة هؤلاء الأطفال المرغوبين أنهم لايجدون الأم ولا يجدون الأب : أى لا يجدون النموذج والقدوة الحسنة . وإذا كان القرن العشرون قد عانى كثيرا بسبب هؤلاء غير المرغوب فيهم من الأطفال ، فسوف يتعذب القرن التالى من الأطفال الذين دعاهم آباؤهم إلى الحياة فلما جاءوا لم يجدوا أصحاب الدعوة .

صحيح أن الفتاة تفضل وهى دون العشرين أن تكون جذابة للرجل . ولأن المرأة لا تريد أن تكبر وأن تظل صغيرة ، فهى تحب أن تكون جذابة أطول وقت

ممكن . وهذا يضيع عليها فرصة أن تكون زوجة وأن تكون أما ولكن إذا أصبحت أما فإنها تحب أن تكون أما محبة لأطفالها ، ولا توجد أم تفضل أن يكون لها طفل واحد ولا اثنان . أكثر الأمهات يفضلن أن يكون لديهن ثلاثة من الأطفال على الأقل . فى القرن الماضى كان من المألوف أن تجد الأم ووراءها سبعة أو تسعة من الأطفال ..

وإذا اشتغلت المرأة ، فى هذا القرن أو القرن المقبل فمن الضرورى أن تجيب عن هذه الأسئلة الثلاثة : ما أثر العمل على الزوج ؟ وما أثره على الأطفال ؟ ثم ما أثره فى الحياة الزوجية نفسها ؟ .

كثير من الأزواج يفضلون أن تعمل الزوجة . لأن العمل يريحها نفسيا أو لأن العمل يستغرق فراغها . أو لأن العمل يجعلها تعرف كيف يتعب الرجل أو كيف يحصل على القرش الذي تتخلص منه الزوجة بلا تعب .. أو لأن الرجل يريد أن تذوق زوجته معنى المساواة فى التعب والعرق والحرمان من البيت والأطفال ، ولكن المرأة تفضل أن تعمل وسوف تعمل وسوف تدفع الثمن من راحتها ومن أنوثتها أيضا .

وبعض الرجال يفضلون أن تعمل الزوجة ، لأنها تساعده فى نفقات الحياة .

وفى الكتاب المقدس جعل الله العمل عقوبة للرجل وجعل الولادة عقوبة للمرأة ، ولكن أقسى العقوبات أن يعمل الرجل ولاتقدر المرأة تعب الرجل . فالعمل مرهق وسوء التقدير عذاب آخر . وأقسى من هذا العذاب أن يجد الرجل نفسه مربوطا من عنقه بامرأة تحرص على أن تسيء إليه وإلى عمله .. وأن تحول بأصابعها الساحرة كل ما جاء من ذهب إلى تراب . وإذا وجدت يدها خالية حولت الرجل أيضا إلى تراب .. ومشت على الجميع ؟..

ولكن المجتمع الحديث ينظر باحترام واشفاق أيضا إلى أصحاب الياقات البيضاء .. أى العاملين من الرجال والنساء .. ولكن الاحترام الاجتماعى

شىء .. والحياة الاجتماعية شىء آخر .. وإذا كان الناس يريدون الاحترام
الممكن أن يحصل عليه الإنسان بالصمت .. أى بالامتناع عن الكلام .. ول
الحياة شىء آخر. ولذلك عندما ينفرد الزوجان فى بيت واحد فليست هـ
ياقات بيضاء ولا مجتمع ولا احترام المجتمع ولذلك يحس الزوجان أن المجت
أرحم لأنه أوسع وأكثر تنوعا وأقل تضييقا وقيودا . وهناك مثل أمريكى معرو
يقول : إن الإنسان لايكون فى نظافة الياقة البيضاء التى يضعها أمام الناس

ومن الأمثال أيضا قول الحماة : بل أريد أن أراه من غير ياقة بيضاء ـ
تريد أن ترى العريس على طبيعته ..

ولابد أن يكون لعمل الزوجة أثر على أطفالها . وأثر على حياتها الزو-
نفسها طبعا . ومن المناظر المألوفة فى المدن الأمريكية أن نجد (أطف
المفاتيح) ـ أى الأطفال الذين تعلقت المفاتيح فى أعناقهم ـ يدخلون البي
ويخرجون كما يريدون دون أن يكون هناك أحد ، لأن الأم تعمل والأب أيضا

ويمكن أن يقال إن الرجل نفسه فى القرن ٢١ لن يكون حمشا ولن تكون
عضلات مخيفة . فالعلم الحديث قد وفر على الرجل عضلاته فهو لايمشى
القاهرة إلى الإسكندرية إنه يركب المواصلات وهو لايقطع الصخور . الآلا
تفعل ذلك ، وهو لايحمل أثاث بيته على كتفيه ، السيارات تنقل ذلك ..
توجد فرص للرجل لكى يظهر عضلاته وقوته . وهنا تجد المرأة التى انتظر
طويلا فرصة مناسبة . فهى بلا عضلات ، ولكن عضلات المرأة أعصابها
وقوة المرأة احتمالها وعمر المرأة صبرها .

ولن يطرأ أى تغيير على الرجل فسوف يبقى محكوما بالعمل ، وسوف يستغر
العمل حتى يغرقه . فإذا أغرقه العمل أرهقه وهد حيله ، ولكن المرأة تنتا
منتعشة ولا ترى إلا رجلا مهدما ، والمرأة لن تضيع وقتها فى الرثاء لحال الرج
والبكاء على شبابه . فهذا شأنه وهو الذى اختار وهو الذى يجب أن يبكى ع

حاله وأن يمشى فى جنازة نفسه . وان يترحم على حياته الغالية وهو على قيد الحياة ، أما المرأة فيجب أن تستدرك ما فاتها مئات السنين ، وأن تعيش .. فالحياة للأصلح . والمرأة أم الحياة وأصلح للحياة من الرجل . والمرأة قادرة على أن تعيش . ولكن الرجل قادر على أن يخلق أساليب المعيشة : يشق الطريق ولايمشى فيه . يصنع الطعام ولا يذوقه . يضىء لغيره ويموت ليعيش غيره .. وغيره هو المرأة دائما ..

ولكن المرأة لاتتسلط على الرجل ــ عادة ــ إلا إذا كان ضعيفا .. ضعيف الجسم أو ضعيف الشخصية أو فقيرا ..

ومن المشاهد الجميلة فى تعبيرها فى إحدى قصص دستوفيسكى أن زوجة تلقت فى يوم واحد أن زوجها فصل من عمله ، وانكسرت ساقه ، وأحرقت النيران بعض مذكراته . وأصيبت الزوجة ببرود شديد .. وعجزت عن البكاء لأول مرة . وأخيرا نهضت تقول لزوجها : هل من الضرورى أن أدعو أقاربك ليشهدوا هذه النهاية ؟ .

ولم يفهم الزوج . فعادت تقول له : إن لم تكن تعرف أنك مت فعلا .. فتى تعرف ذلك ..

وقامت الزوجة ولفت الزوج فى ملابسه .. وكومتها على رأسه وطلبت إليه : تستطيع الآن أن تموت فى هدوء . فقد كان يوما قاسيا عليك .. لقد قتلوك أكثر من مرة .

وسألها الزوج ساخرا : وإلى أين تذهبين ..

قالت الزوجة : لا أخفى عنك .. فأنت الآن على فراش الموت . فلا أنت تكذب ولا أنا .. سأذهب إلى ابن عمى لقد انتظرنى طول عمره .. هل نسيت ..

وخرجت . ولم يعترض الزوج ، وظل فى مكانه ينتظر الموت الذ « فرضته » الزوجة على زوجها .

فهل سيبقى الجنس ضرورة أيضا ؟ .

والجواب أن الجنس إحدى الضرورات ، ولكنه لم يكن الضرو الوحيدة .. فهناك ضرورات : الطعام والشراب والأمن والجنس والتقد والعمل .

وفرويد كان يقول : إن الحضارة لم تتقدم إلا على أساس من التضح بالضروريات .. ومن الضروريات الجنس . فقد تسامت الحضارة بالجنس واتجهت الغريزة الجنسية إلى أنواع مختلفة من النشاط : الحب وحب الجما والموسيقى والغناء والرياضة .

والأديب همنجواى يقول : إن الجنس قوة خطيرة ولكنها قوة تدمر الابدا الإنسانى أيضا . ولذلك على الذى يبدع أن يربط نزعاته ويحبسها فى داخله .

ويقول كامى : إن أعظم ينابيع الحياة قد فجرها الإنسان فى السرير وترك هناك . وعاد أخف وزنا وأقل قلقا وأقصر جناحا ..

ولكن الحب هو وحده القادر على أن يجمع بين طرفين من الناس . وأ يذيبهما بالجنس . وأن يذيب المسافات الباردة ـ العزلة ـ بين الناس ، وبعد أ تذوب المسافات . يتجمد الناس على مسافة واحدة أو تتجمد المسافات بي الناس .

وكان العالم الكبير اشتراسمان يقول : إنه كلما كبر صدر المرأة صغر عقلها وكلما كبر عقلها صغر صدرها .

وقد جاءت هذه النظرية تتويجا لدراسة شاملة على مئات النساء اللاتى لاينجبن .

غير أن هذه النظرية التى هزت الفكر الإنسانى فى أوائل القرن العشرين ليست دقيقة ، فهناك سيدات ممتازات عقلا وجسما أيضا . وهناك سيدات عظيمات أمهات أيضا . ولكن من الصعب أن يكون للمرأة صدر وتفكر بعقلها . ومن الصعب على الرجل أن يرى ساقين جميلتين ويستمع إلى ما تقوله المرأة .

ولن يكون الزواج هو بر الأمان فى القرن ٢١ ، لن يكون الزواج هو المنقذ من الضلال ، ومبعوث العناية الآلهية .. ولن تكون الزوجة أيضا هى منحة السماء والملاك الحارس . وإنما سيكون لكل شىء حجمه ووزنه . فالزوجة : امرأة . والزوج : رجل . وشاءت الصدفة أن ترمى بالاثنين فى مكان واحد . وشاءت صدفة أخرى أن تقرب ذبابة من وجه المرأة فأخرجت منديلها بسرعة من شنطتها وسقطت الشنطة عند قدمى رجل كان يلعب فى شعره .. والتقت عينان ، وخرجت بسرعة من فمها كلمة : شكرا .. ومن فمه كلمة : عفوا .. وكانت كلمة المرأة (سنارة) متواضعة جدا .. وتعلق فيها الرجل الطويل العربة وشاءت المرأة بذكائها وخبثها أن يسبقها الرجل وهو مربوط فى السنارة ليتصور أنه هو الذى يسحبها وراءه .. وسحبها إلى البيت .. وعلق السنارة على الحائط رمزا لانتصاره فى عالم الصيد ..

وسوف يكون الطلاق أمرا سهلا .. لأن الزواج كان سهلا .. وسوف يتخذ الزواج شكل الأعمال التجارية شكل الشركات .. التى تكون لها شروط .. قابلة للفسخ إذا قرر أحد الطرفين ذلك . وبذلك لا يكون الزواج نعمة ولا يكون الطلاق نقمة . وإنما هى علاقات حرة . تظل ما دامت ضرورية . وتنفك عندما لاتكون لها أى ضرورة وفى ذلك أمان وضمان للمرأة . وقد كان الزواج ــ فيما مضى ــ هو الضمان الوحيد للمرأة فأصبح العمل والاستقلال الاقتصادى والاعتماد على النفس هو الأمان الوحيد عند المرأة ..

وفى أمريكا اتجاهات علمية للتخفيف من أعباء الحياة الزوجية أو الزواج نفسه. وذلك بأن يكون للزوجين الحق فى أن يتعاقدا لمدة سنتين فإذا نجحت هذه العلاقة لمده سنتين كان فى إمكان الزوجين أن يتعاقدا مرة أخرى على الاستمرار فى الزواج . فإذا فشل الاثنان فى السنتين الأوليين كان من حقهما أن ينفصل كل منهما عن الآخر..

أما العلاقات بين الجنسين فى القرن ٢١ فسوف تكون لها أشكال مختلفة :

١ ـ الزوجة الواحدة .. أى يكون للرجل زوجة واحدة دائما .. لا زوجة واحدة حتى الموت .. ولكن من حين إلى حين . أى أكثر من زوجة ..

٢ ـ وعلاقات زوجية أو جنسية بلا مسئولية . وهذه العلاقات موجودة الآن فى كثير من الطبقات الفقيرة وربما كانت هذه هى العلاقة التى سوف تنتشر فى القرن ٢١ ، أى علاقات ثابتة غير زوجية .

٣ ـ وعلاقات متعددة للرجل وللمرأة أيضا .. أى تكون هناك واحدة للحب وواحدة للفسحة وواحدة للأطفال وواحدة للفلوس .. ونفس العدد للزوجة أيضا . ومن حق الزوجين أن يتساءلا أيضا : ولماذا الزواج ؟ .

٤ ـ وسوف يعرف الناس أبوة بلا زواج .. وأمومة بلا زواج .. وهذا منتشر جدا فى السويد . من المألوف فى السويد أن تجد الفتاة أما لأربعة من الأطفال : كل واحد له لون وله أب .. والأم لم تتزوج قط .. ومن الممكن أن يكون هناك أب دون أن تكون له زوجة . كأن تكون الأم قد ماتت . أو اختلفت مع الزوج وتركت له الأطفال لأنهم صورة منه . وهى لاتريد لا الصورة ولا الأصل .

٥ ـ وتقول العالمة الأمريكية الكبيرة مرجريت ميد : إن المستقبل سوف

يعرف الأسر التى تنجب الأطفال فقط . والأسر التى لاتنجب الأطفال .

وأن الأطباء والعلماء هم الذين سيقررون أن بعض السيدات أقدر على الأمومة من غيرهن .

٦ ـ العلاقات الشائعة .. أو علاقات المشاع كالتى بين شباب الهيبز الآن . فهم يعيشون فى أماكن محددة : الشبان والشابات معا .. يناموان معا ويأكلون معا .. إلى آخره .. إلى آخره .

٧ ـ تعدد الزوجات شرعا .. فقد لوحظ فى أوائل هذا القرن أن عددا كبيرا من الأرامل قد تجاوزن الستين وأنهن غير قادرات على الحياة . ففكر عدد من الرجال الطاعنين فى السن القادرين ماليا ، على الزواج من أكثر من واحدة . واستنكرت الكنيسة ذلك ، ولكن أمام إصرار العواجيز والشيوخ وحسن النية ، سكتت .. وسوف يحدث ذلك فى المستقبل دون أن يعترض أحد ..

٨ ـ وسوف يحلم الناس فى القرن ٢١ بحياة ممثلى الشاشة الذين يتزوجون وينفصلون بسهولة ؟ وعلى الرغم من هذه الحرية التى يستمتع بها الممثلون ، فلهم علاقات أخرى .. ومع ذلك لا يستنكر الناس المعجبون بهم ، هذه العلاقات الخارجة على القانون والتقاليد والأخلاق والدين .

أما الزواج نفسه فهو فى معظم الأحيان مقامرة .. والقمار فى معظم الأحيان جنون .. والزواج الطويل ليس معناه الزواج الناجح ولكن سوف يبقى الزواج إطارا تتحرك وتتحرق فيه العلاقات الإنسانية .. وسوف تجد المرأة حريتها فى هذه القيود الزوجية ..

وسوف يجد الرجل فى قيود العمل حريته .. وسوف تتصارع حرية المرأة وحرية الرجل فى ميدان واحد ضيق هو البيت .. وسوف تتطاير شظايا تصيب الاثنين أو الصغار .

ورغم هذا كله فسوف يبقى الزواج لأن الإنسانية لم تجد شكلا أحسن منه : ولا إطارا أقوى منه ، ولاقيدا يتحداه الرجل ويستسلم له فى النهاية . أما المرأة فسوف تظل تتفرج على الرجل وتبكيه . وتبكى عليه .. وعلى نفسها أكثر .. ولكن الدموع لم تغرق أحدا ولاشيئا .. ولذلك بقى الحب وعاش الزواج ومات الأزواج أولا .. والزوجات بعد ذلك .. واستأنف الأطفال لعبة الحب التى هدفها الوحيد : الزواج ..

أجمل وأقسى ما خلق الله

النساء شياطين أو رياحين خلقن لنا

- ١ -

المرأة أقل من رجل وأكبر من طفل .

إنها باب جهنم ..

لم يخلقها الله من رأس آدم حتى لاتسرف فى طموحها ، ولم يخلقها من قدميه حتى لاتمرغ كرامتها فى الأرض ، خلقها من ضلعه لتكون قريبة من قلبه .

أسهل جدا أن تمشى وراء أسد من أن تمشى وراء امرأة .

ليس أسوأ من امرأة ، ولو كانت طبيبة .

وعبارات أخرى التصقت فى عينى الرجل وهو ينظر إلى المرأة من خلال منظار متلون اسمه : رغباته الملتهبة .

وإذا مسح الرجل هذه العبارات من ذاكرته ونظر إلى الشارع .. أى شارع .. فمن السهل جدا أن يرى أن الإنسانية مكونة من جنسين مختلفين فى الشكل والملامح والأزياء والوظيفة والهموم : رجل وامرأة . وليس من الصعب أن يلاحظ أن هناك ميلا خفيا بين الجنسين . وأن كل واحد منهما يحاول أن يخفى هذا الميل أو يتفنن فى إخفاء مايريد أو فى إظهار مالايريد .

وإذا اقترب من المرأة أكثر فإنه يجد أن المرأة تشعر بشىء من « الحرج » من وجودها « مع » الرجل فى مكان واحد .. أى مكان . ولذلك فهى تحاول أن

تبذل جهدا كبيرا لتبدو طبيعية . كأن أحدا آخر ليس موجودا . ومن بين محاولات المرأة فى أن تكون طبيعية كأى رجل . حرصها على أن تستعير بعض أساليب الرجل فى الكلام والحركة وبعض العادات . بعض النساء يحاولن أن يستخدمن عضلاتهن وكثيرا لا يفلحن .

هناك أديبة معروفة غضبت من أنهم وضعوا صورتها بين مجموعة من الأديبات .. وطالبت بأن تكون صورتها بين الأدباء .. ولم يستمع أحد إليها . فاستعانت بنفوذ زوجها ! فكأنها وحدها لم تستطع .. وهى وحدها عاجزة عن أن تفعل شيئا . وهذا مايضايق المرأة كثيرا .

كما أن المرأة التى تحاول أن تقلد الرجال لاتلقى احتراما من الرجال ومن النساء .

ولكن احساس المرأة دائما أنها أقل من رجل ، يضايقها . ولا تعرف ما الذى تفعله لكى تبدو مساوية للرجل . إن الكتب التى تدرسها المرأة تؤكد لها دائما ، أنها أقل . وأنها تعتمد عليه . أنها شىء يضاف إليه .. أنها من « متعلقات » الرجل .. أنها ضمن عالمه .. وليس لها عالم خاص ولا يمكن أن يكون لها عالم خاص ..

فالمرأة تقرأ أن الفيلسوف أرسطو يقول : إن المرأة رجل ناقص التكوين ..

وتقرأ أن القديس توماس يصفها بأن خلقها لم يتم ..

والكتاب المقدس يقول : إن الله خلقها من ضلع آدم ..

أى أنها أقل من الرجل أو جزء منه ..

والحديث النبوى يقول : إنهن ناقصات عقل ودين ..

ما الذى تصنعه المرأة أمام هذا « الموقف » ؟..

إن المرأة ليست ضعيفة . ولا هى أقلية . فعدد النساء مثل عدد الرجال .

ولكن النساء لسن طبقة . أو لسن عنصرا . فلسن كالطبقة العاملة مثلا التى تريد التحرر من الاستغلال . ولسن مثل الزنوج ..

والنساء ليس لهن تاريخ خاص بهن وليس لهن دين خاص بهن . وإنما النساء مبعثرات فى دنيا الرجل . لاتربطهن أية رابطة واحدة تجعلهن قادرات على التحرر من الرجل . ومن قيود الرجال .. ومن عالم ولدن فيه وربين وكبرن وثرن عليه اسمه : دنيا الرجال .

والنساء فى دنيا الرجال كل واحدة مرتبطة أو مربوطة من رجل : أبيها أو أخيها أو زوجها أو ولدها .

إن المرأة إذن ليست حرة تماما .

وفى كل تاريخ المرأة لم نجدها قد اكتسبت حقا جديدا . وإنما أخذت المرأة ما أعطاها الرجل من حقوق . فكأن المرأة لم تفز بحق . وإنما فقط تسلمت حقا من حقوقها .

وعلى الرغم من أن علاقة المرأة بالرجل كانت ـ زمنا طويلا جدا ـ علاقة السيد بالخادم .. أو علاقة الحر بالعبد . فإن المرأة لم تستغل ضعف الرجل أمامها .. احتياجه الشديد لها . وإنما ازدادت حقوق السيد ولم تزد حقوق العبد . والسيد يضيف إلى حاشيته مزيدا من الحريم ولكن الحريم لايضفن إليهن مزيدا من الرجال ..

والأساطير الاغريقية تحدثنا عن هرقل الذى مرض . فحكمت عليه الآلهة بأن يعرض نفسه للبيع فى سوق العبيد . فنى ذلك شفاء له . واشترته الملكة « أمفال » وأحبته . وأنجبت منه طفلا . وكانت تجد متعة فى أن تجعله يجلس بين النساء يمسك لها الخيوط وهى تغزل . وكانت تجد متعة فى أن ترتدى هى ملابسه ويرتدى هو ملابسها . وكانت تجد لذتها الكبرى فى أن تضربه بالكرباج وبالجزمة وكانت تجد متعة أكبر فى أن يفعل بها ذلك ..

ولكن « أمفال » هذه لم تستطع أن تتحكم فى هذا البطل هرقل بسبب حبه الشديد لها .. إنها أعطت نفسها وكانت نشوتها الكبرى فى أن تذوب بين ذراعى الرجل الذى تحبه .

وقصة ميديا التى أحبت جانسون . وكانت تعلم أنه يحب أولاده . وخانها فانتقمت منه بأن ذبحت أولاده أمام عينيه . وكان فى استطاعتها أن تتحكم فيه بسبب حبه الشديد لأولاده . ولكنها لم تفعل .

والفنان العظيم اريستوفانس يروى فى إحدى مسرحياته كيف أن النساء انتقمن من الرجال . وذلك بأن سيطرن عليهم تماما . أى أن النساء تحكمن فى الرجال . ولكن هذه السيطرة لم تظهر إلا على المسرح فقط .

كما حاولت نساء مقاطعة سابين أن يعذبن الرجال فأضربن عن الحب والقبلات والحمل والولادة .. ولكن هذا العناد لم يستمر طويلا .. فقد تهاوت قلوب النساء واحدا بعد واحد .

ولم يحدث قط أن تحررت المرأة من قيود الرجل عن طريق التحكم فى رغباته وشهواته ـ أى عن طريق التحكم فى الجنس وانجاب الأولاد .

وعلى الرغم من أن فرص المرأة فى الحياة أكثر من أى وقت مضى عليها ، فإن هناك صعوبات وعقبات كثيرة فلا يزال الرجل يحتكر المراكز الكبرى ويحصل على أكبر أجر . ولايزال هو السيد المطلق فى عالم السياسة والصناعة . صحيح أن المرأة قد احتكرت مهنة التدريس للأطفال . ولكن ما الذى تقوله للأطفال ؟ إنها تلقنهم تاريخ الإنسانية . وتاريخ الإنسانية هو تاريخ الرجل . أما الذى تقوله المرأة أيضا للفتاة الصغيرة فهو تاريخ الرجل أيضا . وإذا كانت المرأة هى التى تعلم المرأة ، كان الزواج هو هدفها النهائى والزواج هو حصن الأمان للمرأة فى دنيا الرجال .

ولكن ماذا يحدث لو أنكرت المرأة هذه التقاليد والعادات التى سبقتها إلى الوجود ؟ .

إن المرأة قبل أن تولد سبقتها إلى الدنيا قواعد ثابتة . وقوانين وأصول . كلها من صنع الرجل لحماية الرجل وربط المرأة به . فالرجال من اليهود فى دعائهم فى صلاة الصبح يقولون : شكرا لله فقد خلقتنا رجالا ولم تخلقنا نساء . أما النساء اليهود فيقلن : شكرا لله فقد خلقتنا كما شاءت إرادتك .

وكان أفلاطون الفيلسوف الاغريقى يقول : شكرا للآلهة مرتين .. مرة لأنهم خلقونى حرا .. ومرة لأنهم خلقونى رجلا .

وكان يكفى لأفلاطون أن يقول إنه رجل . فالرجل هو الذى عنده الحرية . فالرجولة حرية والأنوثة قيد .

أما الذى يفعله الرجال بحرياتهم ، فإنهم يجعلون رغباتهم قانونا ويجعلون هذه القوانين مبادئ الطبيعة نفسها . أى أنه من قانون الطبيعة أن يكون الرجل سيدا . وتكون المرأة عبدا .

فإذا حاولت المرأة أن تصطدم بهذه القوانين وحاولت أن تنكرها كان عقابها أليما . فالمجتمع أقوى منها . والمجتمع هو الرجل . فإما أن تطيع أو تموت ــ وليتها تفعل ذلك ! .

ومنذ أقدم العصور نجد الأدباء والشعراء يصورون المرأة إنسانا غامضا خبيثا . وإن كانت المرأة معذورة تماما فى أن تدور حول القيود الحديدية فلا يملك الضعيف إلا أن يلف ويدور .. ولكن لم يحدث أن استطاعت النساء أن يتآمرن أو يقمن بثورة على الرجال .

وهذا العداء بين الرجل والمرأة . أو بين جنس الرجل والجنس الآخر أصبح تقليديا . وإذا كان بعض الرجال يصفون هذا العداء بأنه تافه فلأن الرجال

حولوا الخلاف بين الجنسين إلى نوع من « الخنافة » . فإذا تحولت قضية المرأة إلى خناقة أصبحت شيئا تافها . مع أنها ليست كذلك . فهى عميقة فى جذور تاريخ العلاقات الجنسية والاجتماعية .

ولم ينظر الرجال إلى المرأة بوضوح إلا فى القرن الثامن عشر . فى هذا القرن فقط ترددت عبارات ونظريات تقول : بل هما متساويان تماما . وعلم التشريح يؤكد ذلك . والوظائف تقطع بذلك . فإذا كانت للمرأة غدد وهرمونات فللرجل أيضا . لاخلاف من الناحية العلمية . ولكن التاريخ يكذب ذلك .

فالرجل عندما يقول : نحن الرجال ــ فهو يجلس على عرش صنعه من قبله كبار الفلاسفة والعلماء والساسة والشعراء والعباقرة فالرجل وريث لمجد طويل عريض أكيد . ولكن عندما تقول المرأة : نحن النساء فلابد من أن تجىء عبارات أخرى للدلالة على الظلم والاضطهاد وأنها طعام يشتهيه الرجل ويخطفه ويجرده من إنسانيته ويجعله مجرد شىء .

وفى القرن التاسع عشر عادت مشكلة الجنسين . والخلافات بينهما وجاءت الثورة الصناعية فأخرجت المرأة من البيت وألقت بها فى المصانع إلى جوار الرجل . منافسا خطيرا له وفى القرن التاسع عشر تمسك الرجل بالأسرة .. أى بسحب المرأة من المصنع إلى البيت . إذا كانت الطبقة المتوسطة لاتملك الأرض ، فإنها تملك شيئا جديدا اسمه «كيان الأسرة » . أما الطبقة العاملة فقد ضاقت بالمرأة لأن المرأة إذا عملت فإنها تقبل أجرا أقل . وفى ذلك خطورة على الرجال العاملين .

ويبدو أن العلماء عندما وصفوا الجنسين بأنهما متشابهان تماما ، قد أعلنوا هذه العبارة العلمية ووضعوا لها شرطا اجتماعيا هو : انهما متشابهان فى كل شىء ، بشرط أن يبقيا منفصلين .

وهذا يشبه بالضبط القانون الذى وضعته أمريكا للزنوج : لافرق بين أبيض

وأسود فى الحقوق والواجبات بشرط أن يظل الاثنان منفصلين تماما .

إذن ماهو الحل ؟ .

هذا السؤال ليس معناه أن هناك مشكلة وأن هذه المشكلة لها حل . وأن من الواجب أن يكون لها حل .. وأن هذا الحل طبعا فى صالح المرأة . فالظلم كله واقع عليها . ثم إن المرأة مرتبطة تماما بظالمها وقاهرها وسيدها .

وقبل التساؤل عن الحل ، هناك سؤال آخر : ماهو موقف المرأة ؟ ماهو وضعها ؟ .

إن برنارد شو يقول : إن الأمريكان يطلبون من الزنوج أن يمسحوا الأحذية ، ثم يقولون إن الزنوج لايصلحون إلا لمسح الأحذية .

وكذلك المرأة حين تقول إنها ضعيفة وإنها مسلوبة الحقوق وإنها مظلومة . هذا صحيح . ولكن ليس معنى ذلك أنه من الواجب أن تكون هذه حالتها وإنما يجب أن نتساءل : ولماذا كانت المرأة كذلك ؟ من فعلها ؟ من ظلمها ؟

إن هناك رجالا يحبون المرأة ويمتدحونها . ولكن رجالا آخرين يلعنونها . هناك رجال يقولون : إن الله خلق آدم أولا .. وخلق حواء بعد ذلك ، فآدم هو الطبعة الأولى وحواء هى الطبعة الثانية . ولذلك كانت أجمل .

وهناك من يقول : إن الله جعل أنبياءه من الرجال . لأنه من الضرورى أن يكون النبى متواضعا .

من إذن الذى نحتكم إليه فى قضية المرأة ! .

هل نحتكم إلى الرجل ، فيكون قاضيها والقاضى عليها أيضا ؟ .

هل نحتكم إلى المرأة فتكون هى القاضى والمحامى والمتهم ؟..

هل نحتكم إلى كائنات « خنثى » ـ أى تجمع بين صفات الرجل وصفات

المرأة ـ وبذلك نضمن الحياد فى الحكم للمرأة أو عليها .. إن مثل هذه الكائنات ليست هى المعادلة الصعبة بين الرجال والنساء ، وإنما هى كائنات ينقصها أن تكون رجلا أو تكون أنثى . إنها حاقدة على الاثنين لأنها تشويه للاثنين .

وليس باستطاعتنا أن نحتكم إلى الملائكة ..

وعيوب الكتب التى أصدرها الرجل عن المرأة أنها كتب مغرضة .. أنها تشبه تماما القصة العربية المعروفة التى نسبت إلى كثيرين يقال إن رجلا أحب فتاة جميلة . ووعدته أن يلتقيا . وذهب إلى لقائها فلم يجدها فكتب على بابها :

إن النساء شياطين خلقن لنا　　نعوذ بالله من شر الشياطين

ويقول إنه بعد أن كتب هذا البيت رآها مسرعة إلى لقائه فأعاد تصحيح البيت هكذا :

إن النساء رياحين خلقن لنا　　وكلنا يشتهى شم الرياحين

والمرأة دائخة منذ مئات السنين بين السرعة التى تتحول بها الشياطين إلى رياحين .. وبالعكس ..

ولكن من المؤكد أن المرأة أقدر على فهم عالم المرأة من الرجل . وأقدر فى الدفاع عنها .. وعن نفسها .. ولكن عيب الكتب أو الروايات التى تؤلفها عن المرأة أنها تطالب بحقوقها دائما . فقط تسجل ظلم الرجل لها . ثم تتقدم بشكوى وفى الشكوى شهود من الرجال ثم تبكى وتثير شفقة الآخرين عليها . ولكن المرأة لاتوضح قضيتها . ولا تعرضها بصورة تقنع المرأة أولا ثم تقنع الرجل أن هذا لم يحدث إلا نادرا .. ومن الحالات النادرة لذلك كتاب « الجنس الثانى » بجزأيه للأديبة الفرنسية سيمون دى بوفوار . وعلى الرغم من أن هذا الكتاب قد صدر من حوالى عشرين عاما ، فإنه مايزال الكتاب رقم واحد فى تاريخ المرأة الحديثة . فالأديبة الفرنسية لاتعرض قضية فقط . إنها تعرضها وتدافع عنها . وتتلفت إلى

الحضور فإذا بهم يتحولون إلى شهود اثبات أما القضاة فقد ألقوا عليها بالورود .. وفى نهاية الجزء الثانى يصدر الحكم لصالح المرأة منتهى الأدب من الرجال . وأعظم تحية للأدب والفكر الجميل .

ولاتزال قضية المرأة بكل ملفاتها ودوسيهاتها وحيثياتها معروضة . حتى المؤلفة الفرنسية نفسها لم تشأ أن تتزوج ، وتخضع بذلك لتقاليد المجتمع التى ترفضها .. وعلى الرغم من حرصها على ذلك واعتزازها بهذا الموقف ، فإنها عندما تتلفت وراءها تجد أن الطابور الذى وقفت على رأسه له رأس وليس له ذيل .. فهى وحدها التى قررت أن تحرر نفسها من قيود الزوج .. لا من قيود الرجل ..

ولا يزال كتابها « الجنس الثانى » هو أروع ما كتبته امرأة عن امرأة .. فى كل تاريخ المرأة ، الخادمة والعاملة والمتمردة .

المحبون ليس لهم قوام مشدود

- ٢ -

هناك أسطورة يونانية قديمة تقول : إن الآلهة خلقت ثلاث أنواع من الكائنات : الرجل والمرأة و « الخنثى » - أى التى تجمع صفات الرجل والمرأة معا .. وخلقت الآلهة لكل واحد من هذه الكائنات رأسين وأربع أذرع وأربع سيقان . ثم شطرت كل كائن منهما قسمين .. ثم « لخبطت » هذه الأطراف وبعثرتها .

ومنذ ذلك اليوم يحاول كل كائن أن يبحث عن النصف الآخر . وهذا البحث ليس عقليا ، وإنما هو بحث عاطفى حار ملتهب مضطرب ومن النادر أن يجد الإنسان نصفه الآخر وإنما يجد فى كثير من الأحيان نصفا « آخر » .. وليس نصفه « الآخر » .. ولذلك يتعذب الناس فى الحب وبالحب وبسبب الحب . ويتساءلون من ألوف السنين إن كانت هناك طرق أخرى يعثر بها الإنسان على النصف المناسب له .. عن النصف المكمل له ..

وهذه الأسطورة إهانة للمرأة .. إهانة قديمة . لأن الرجال هم الذين يشكون عادة من أنهم لم يجدوا النصف المناسب . ولأن الرجال هم الذين يقولون ويحكمون ويعلمون .. لأن صوتهم هو المسموع دائما . ولكن أحدا لم يسأل المرأة إن كانت قد وجدت نصفها الآخر ؟ .

ومن المؤكد أن للمرأة شكوى مماثلة ولكنها ليست مسموعة لا لأن المرأة لا تقول . ولكن لأنها تقول .. أما الذين يسمعونها فلا يرددون شكواها .. وإنما يكتفون فقط بسماعها .. واستنكارها أى القضاء عليها فى حينها . والمرأة هى التى تشجع الرجل على ذلك . إذ يكفى أن يقبلها فتموت بين الشفاه وعلى الشفاه أعظم شكايات المرأة وأوجاعها .

وأسطورة أخرى عن خلق المرأة لاتقل اهانة وهوانا للمرأة .. يقال إن آلهة الاغريق عندما خلقوا أول « حواء » جعلوها من الطين . ثم عرضوها على الآلهة واحدا واحدا . فأعطاها كل واحد منهم موهبة : الجمال والدلال والسحر والفصاحة والرشاقة والأناقة والخبث ..

ولم يكن الآلهة مشغولين بخلق حواء وإنما كانوا يريدون أن ينتقموا من أحد الآلهة فأرسلوها إليه . ولكنه كان يشك فى زملائه الآلهة . فرفضها. وأرسلتها الآلهة إلى أخيه . وتزوجها . وكان الآلهة قد أهدوها صندوقا نادرا . ووضعوا فى هذا الصندوق كل شرور الإنسانية : المرض والفقر والجهل واليأس . وجاءت حواء وقدمت هذا الصندوق لزوجها الذى أعجب بها وأحبها . وفتح الصندوق وخرجت كل الشرور . ولكنه أقفل الصندوق فى آخر لحظة .. أقفل الصندوق على شيء : الأمل .. الأمل فى القضاء على الفقر والجهل والمرض واليأس .. والقضاء على حواء أيضا ..

وحواء هذه اهانة لحواء نفسها . فقد خلقتها الآلهة مجردة من كل صفة وتصدقوا عليها بالصفات ثم وضعوا فى يديها كل الشرور . وقدمت هذه الشرور للرجل الذى تزوجها .. فحواء بهذه الصورة مقلب .. أو مصيدة لمن يحبها .. ولمن لايحبها أيضا .

ولم يتغير هذا المعنى منذ آلاف السنين ، وحتى إذا تغيرت أقلام الأدباء

والمفكرين ، يظل هذا المعنى هو اللون الواحد الثابت فى أشعارهم وروراياتهم .

وفى الأدب العالمى ، وفى كل أدب ، أمثلة كثيرة للمفكرين الذين فرضوا على الرجال وعلى النساء فلسفتهم الخاصة .. رأيهم فى المرأة التى تصوروها . وأثروا بذلك فى كل الصور والأحلام التى عاشت فى عقول الملايين بعد ذلك ..

واحد من بين هؤلاء المفكرين : الأديب المعاصر مونترلان . إنه نموذج غريب عنيف لأعدى أعداء المرأة . وعنده أسباب وجيهة لأن يكره المرأة فى صورتين : الأم والعشيقة .

هذا الرجل ـ يؤكد أنه رجل إلى حد ما ـ يرى أن المرأة باختصار شديد : ليل وفوضى . أو فوضى الليل . أو ليالى الفوضى .

فليس صحيحا أن المرأة تحب النظام . وإنما تحب النظام والدقة والنظافة من أجل أن تعجب شخصا أو إنسانا يهمها فقط . ولو تركت وحدها لمزقت ثيابها ونكشت شعرها وتركت أظافرها صفراء وأسنانها أيضا .

أما فى الليل فهى إحدى متوحشات الليل . والليل يهمها جدا لأنه يساعدها على القيام بدور حيوان متوحش يمتص الرجال . وهى عندما تفعل ذلك تكون فى أكمل صورة للأنوثة عندما توهمك بأنها تعطيك ، مع أنها فى الحقيقة تأخذ منك أكثر .

ولاشك أن غباوة الرجل هى التى جعلت للمرأة قيمة خاصة . وغباوته هى التى جعلته يقول عن المرأة : أنها مرهفة الحس . إن لها حاسة سادسة . ذكية . تفهمها وهى طائرة . وقبل أن تطير أيضا . مع أنه من الأصح أن يقال إن المرأة لامنطق لها . وإنها جاهلة. وعنيدة .. وليست لديها قدرة على الملاحظة . وعلى

تعمق ما تراه أو تحسه . وليس لدى المرأة ما تعطيه للرجل بصدق وإخلاص .. سوى الألم .

ولابد أن يكون حب الأم لأولادها أحد أسباب تعويق تطورهم وتقدمهم فى هذه الحياة . فالأم تمسك أولادها وتشدهم إليها حتى لايبعدوا عنها : أم لاتريد لأولادها أن يكبروا .. وأن يعملوا من أجل المجتمع . أو لأن يعملوا لغيرها من الناس . والأم التى يطلب منها ابنها أن يشترك فى لعبة رياضية وتمنعه ، هى لا تريد له الصحة الجسمية أو النفسية ليظل معتمدا عليها . مستندا إليها .

وأسوأ من هذه الأم امرأة أخرى هى : العشيقة . فالعشيقة لاتريد من الرجل سوى الرجل . فقط الرجل . حياته .. بل حيويته لاتحب أن يكون رجلا عظيما . وإنما رجل فقط . وإذا كانت المرأة هى وسيلة الحياة نفسها لكى تستمر . فإن العشيقة هى الحياة نفسها وقد قررت ألا تستمر . فقط حياة مهتزة مضطربة دون أن تكون لها ثمرة . معظم العشيقات يفضلن ألا يكون لهن أولاد .. أى يفضلن أن تتوقف عندهن وفيهن الحياة فقط . والعشيقات يفضلن أيضا أن يكون العشيق نهاية لحياة . لحياته هو يسبح فى اللذة حتى يغرق . موجة تذوب فى موجة . وتجىء بعدها موجة أخرى لرجل آخر .

ولايستريح الأديب مونترلان إلى عبارة قالتها أرملة تولستوى : عشت فيه من أجله ، وأريده كذلك ـ إنها تريد أن تقول إنها أفنت حياتها من أجل تولستوى فأنجبت له ١٣ ولدا .. ولكن الحقيقة غير ذلك . لعل تولستوى لايعطى أرضه للفلاحين ويتركها لأولاده . ولعله يحمل معها هموم تربية الأطفال وينصرف عن الأدب . وتنصرف عنه المعجبات .. أو لعله يمرض فيلتف حوله أولاده ، فيعرف أن زوجته قد خلقت له أصدق جمهور فى أضيق نطاق .. فليس صحيحا أنها عاشت فيه ، وإنما الصحيح أنها عاشت به أملا فى أن تقضى عليه . فالزواج قاتل

للعبقرية .. لأنه يقضي على « العزلة الرائعة » للأبطال . فالعزلة ضرورية للمفكر . ولا شيء يفسدها أكثر من زوجة . لأنها تقضي على حريته .. حريته فى أن يعمل أى شيء . أو لا يعمل أى شيء .

والأديب مونترلان يقول عن نفسه : كنت مشتعلا .. فأخمدتنى. كنت أمشى على الماء فأغرقتنى . إن الأسد العظيم يخاف من ذبابة لأنها أنثى _ ومعه حق ! .

إلى آخر عشرات المئات من الصفحات التى كتبها الأديب مونترلان عن هذه المرأة .

وخلاصة فلسفته : أن الرجل من حقه أن يتعالى ويسمو . أما المرأة فليست لها موهبة خاصة . وإذا كانت ضرورية ، فهناك أشياء كثيرة ضرورية . ولكن ليس معنى ذلك أن ترق إلى مستوى الرجل . فالرجل ليس أحد فى مستواه غير الرجل . والرجل على مائدة المرأة يجد أمامه طعاما واحدا عليه أن يأكله بشهية مفتوحة : احتقاره لها .

ولكن إذا كانت المرأة بهذه الصفات أو بلا صفات ، فكيف أصبحت لها كل هذه القوة ؟ كيف تسلطت على أفكار مثل هذا الرجل ؟ وإذا كانت المرأة تافهة ، فلماذا كل هذا الاهتمام كأنها شيء لا يمكن الاستغناء عنه ؟ وإذا كانت ذبابة ، فلماذا يخاف منها الأسد ؟ هل هو أضعف من ذبابة وهى أقوى من أسد ؟ .

لابد أن يكون هناك عيب فى فكر الأديب مونترلان . وهناك عيوب بالفعل . فهو يرى أن الرجولة فى ذاتها ميزة كبرى . ولأنه رجل فهو قوى . عضلاته وذكاؤه . وله مستقبل وله ماض . ولكن يمكن أن يقال إن الأنوثة نفسها ميزة . وقوة . وهو أول من يقول إن الأنوثة قوة . وهو يكره الأنوثة لأن الإنسان يكره القوى . ولا يحب الذى يخيفه . والمرأة تخيفه لأنها تهدد كيانه : رجولته وحريته .

وهو لايمشي على الماء كما يقول . ولكنه يتخيل ذلك . وهو يفضل أن يتخيل المشي على الماء . ولا يفكر في المشي على الأرض . لأن المشي على الأرض أصعب . وهو كذلك يتخيل المرأة في أسوأ حالتها . ويعاقبها في خياله . في رواياته .. وهذا أهون وأسهل من أن يعايش المرأة أو يرتبط بها . ففي روايات مونترلان نجد أن المرأة العاملة مهلهلة الثياب ، منكوشة الشعر ، طويلة الأظافر واللسان معا . جاهلة فقيرة . والمرأة بهذه الصورة تجعل الرجل ينفر منها . فكأن مونترلان يريد أن يعاقب المرأة لأنها تحاول أن تعمل . تحاول أن تكون شيئا آخر غير مجرد أنثى . فهو يجعلها فقيرة لكي تضعف أمام المال .. ويلعنها .. ويجعلها سيئة المظهر لكي تفكر في الفساتين ، فإذا حصلت عليها من رجل غني ، لعنها .. ويجعلها جاهلة حتى إذا أرادت أن تكون شيئا وقف الجهل في طريقها . وفي هذه الحالة يتهمها بأنها أوزة تريد أن تكون صقرا ـ مع أنه هو الذي جعل ريشها قصيرا وجسمها كبيرا .

إنه ـ إذن ـ قرر أن يلعنها . ولذلك اختار الأسباب الوجيهة لذلك . وليس مخطئا إذا وصفها بعد ذلك بقوله : إنها فشلت في أن تكون رجلا .

والرد على ذلك : إنه هو فشل في أن يجعلها امرأة ..

وهو مثل كثير من الرجال ينظرون إلى المرأة على أنها : جسد . متعة . أنثى . مثل كل نساء « ألف ليلة وليلة » وهي تنشد الجسم والجنس . فصراحة الفتاة الراعية شولوميت في سفر « نشيد الأناشيد » .. وهو يصف لنا فتاة عربية اسمها راضية بأنها : حيوان الحب الهادئ الذي يحب المال ويلتهم الحيوية .

إن مونترلان هذا نموذج للرجل الذي يريد أن يأخذ بلا مجهود والذي لايريد أن يقول إن هذا الذي أخذه ضروري . وإنه لم يأخذ وإنما هو أعطى . وحتى إذا أخذ ، فهو قد تفضل على المرأة بذلك . إنه يجب أن يقوم بدور « الأمير المتوحش » .. يلتهم المرأة ويجردها من كرامة الأنثى وينتظر من المرأة أن تشكره على

ذلك .. لأنه بعد أن انتهى من مهمته المتوحشة ، جلس على عرش الملك .. وأمام الملك يجب أن تنحنى المرأة بشرط أن تنسى أنه هو نفس الحيوان المتوحش قبل ذلك بساعة أو ساعات .

ولابد أن تكون هذه القصة التى يرويها مونترلان عن نفسه صحيحة . ولها دلالة واضحة . يقول إنه وهو طفل كان يأتى بكوب الماء ثم يلقى به على النمل . وكان يجد متعة هائلة فى ذلك .. فهو فى استطاعته أن يميت النمل غرقا . وفى استطاعته أن يعطيه الحياة ولايوجد أى منطق لذلك .. إنها ارادته . أو هى نزواته ..

ويبدو أن الذى كان يفعله مع النمل هو بالضبط ما يفعله مع المرأة . يهبها الحياة والكرامة . ويغرقها فى العار إذا أراد ـ وهذا صحيح .. ولكن من هى هذه المرأة التى يحييها ويميتها؟ إنها المرأة التى فى خياله. المرأة التى فى رواياته فقط. وهو ـ ككل إنسان ـ ملك إذا جلس وحده . ولكنه ليس كذلك إذا انفتح الباب ودخل إلى غرفته ألف رجل أو ألف امرأة .. أو إذا هو نزل إلى المجتمع ولذلك فهذا الأديب قد حبس نفسه فى نفسه .. أو فى غرفة من المرايا .. لايرى إلا نفسه . مالا نهاية له من المرات .. فهو وحده لاشريك له .. من النساء أو من الرجال .. بل إن روايات مونترلان ليس فيها رجال يقفون وجها لوجه .. لا صراع .. لا معركة بين الرجال وإنما فقط : الكثير من التعالى والاحتقار للمرأة ..

وهذا الاسراف فى التعالى ، هو اسراف فى الخوف من المرأة . أو الخوف من قوة المرأة . أو من ضعفه أمام المرأة . ولذلك هو يكره مايخيفه .. وبدلا من أن يحتقر ضعفه أمامها .. يحتقر قوتها .. إن نظرته إلى المرأة كنظرتنا لإنسان فى يده مسدس .. ويهددنا بإطلاق الرصاص . إن أحدا لايستطيع أن يقدس المسدس ولا أن يبارك البارود فى هذه اللحظة .

ومع أن المرأة ، حياة وخيالا . يصف مونترلان نفسه قائلا : أنا ثور يدور فى ساقية شرقية .. أدور وأدوخ وأخطو على خطواتى .. ولا أرفع ماء جديدا إلى سطح الأرض .

ولابد أن هذه الصورة قد اسعدت المرأة ، فلم تشأ أن ترثى لحاله ولا أن تناقشه.. واكتفت بأن نظرت إلى هذه النهاية التى اختارها لنفسه : بأن يكون ثورا فى ساقية المرأة .

وهناك نموذج آخر للمفكرين فى العالم : الأديب الفرنسى استندال . إنه واقعى . ولكن الواقع جميل . وإذا لم نر الواقع جميلا . فأين نجد الجمال .. إن الذى يحب هو وحده القادر على أن يتذوق الجمال ويبحث عنه .. ولاجمال بلا سعادة . بل إن السعادة نفسها قمة من قمم الجمال . فالذى يحب .. هو الذى يهزه جمال الجسم وجمال الاثم .. وهو الذى يبحث عن سعادة تذيبه وهو الجمال فى إطار واحد أو فراش واحد ..

واستندال كان يحلم بأن تحبه ــ ولو مرة واحدة ــ فتاة جميلة .. تائهة ضائعة تعيسة . ثم يتتشلها .. ويرفعها .. ويحبها .. ويكون حبه لها نوعا من الاعتراف بالجمال . ويكون حبها له نوعا من العرفان بالجميل . والسعادة هى عناق الجمال والجميل .

وفى إحدى المرات عندما ذهب استندال إلى البحر اكتشف نفسه . وعرف كلمة السر فى هذا الكون ، يقول : رأيت الصخور عارية كفتاة جميلة .. ورأيت الماء يضربها . كأنه لص يستدرجها إلى كهف بعيد ورأيت الشمس من وراء السحاب سعيدة بذلك .. وتمنيت أن أكون الماء والرمل تحت الصخور والشمس أيضا .

اكتشف استندال أن المرأة هى العالم . هى الدنيا .. وأنه بها وعن طريقها ومن أجلها يدرك جمال الدنيا .. وروعة الحياة .. وأمام المرأة يجب الإنسان أن يكون رقيقا . لأن الرقة لغتها .. ويجب أن يكون أنيقا .. لأن الأناقة أسلوبها ..

ولكن هذا الرجل العاشق للمرأة لا يؤمن بأنوثة المرأة .. ولا سحرها .. وإنما هو يحب المرأة كما هى .. كائن حى مختلف عنا . ولكنه جميل .. ويملك مفاتيح المشاعر القوية الموجودة فى الرجل .. والمرأة ليست لغزا .. وإنما يجب أن نحبها كما هى .. وإذا أتينا برجل قروى وجعلناه يمشى فى شوارع المدينة كل يوم .. فهو معذور إذا تصور أن الشوارع مرصوفة بطبيعتها .. وهو معذور إذا رأى أشجار الحدائق مهذبة .. فاستنتج أن الأشجار فى المدن تنمو مهذبة .. مع أن الحقيقة غير ذلك .. فالساذج هو الذى يتصور أن المرأة رقيقة كما نراها فى بعض الأحيان .. أنيقة دائما . مهذبة دائما .. إن المرأة كالرجل مهذبة أحيانا .. أنيقة أحيانا .. وأنها حريصة على أن تكون جميلة .. ونحن حريصون على أن نكون أذكياء .

فليست المرأة ساحرة باهرة محيرة دائما .. وإنما هى أحيانا كذلك ونحن أيضا .

والمرأة ليست فى حاجة إلى العقل ـ هذا ما نقوله ـ ولكن المرأة معذورة فى ذلك لأنها لاتقوم بأعمال كبرى تحتاج إلى مسئوليات ضخمة : ولكن إذا كانت أهم الأعمال أن تظل طوال اليوم أمام المرآة أو تتحدث إلى جاراتها .. أو تروى قصص أطفالها .. أوكوارث زوجها .. فإنها لاتحتاج إلى أكثر من لسان وأذنين ..

ولكن من الذى نلومه ؟ إننا يجب أن نلوم أسلوب التربية والتعليم الذى يجعل المرأة تافهة فى دنيا الرجل .. فالذى تتعلمه المرأة هو تمجيد مستمر للرجل .. وتأكيد لأنها بلا عبقرية .. وإذا ظهرت لها عبقرية فشىء نادر .. لأن المرأة ممنوعة من التعبير كما تحب .. فلا يزال الرجل هو الذى يحتكر التعبير إذا كانت المرأة هى مصدره ..

ولذلك ليس غريبا أن المرأة إذا كبرت طال شعرها وأظافرها ولسانها وقصر ريشها وطموحها .

ولو أننا نظرنا إلى الأطفال لوجدناها فى سن العاشرة أذكى من الرجل فى هذه السن .. ولكن فى العشرين نجدها تخاف من الصرصار ونجد الولد مثلها أيضا .. ولكن الطريق مفتوح أمامه .. وعلى بابه تقف عربة يجرها حصان المستقبل .. أما عربة المرأة فهى عادة تنتظر الحصان الذى هو الزوج دائما ..

وكثيرا ما يكون الحصان من اختيار والدها .. ومعنى ذلك أن المرأة تعيش مع رجل رغم ارادتها واحساسها .. وبعد ذلك مطلوب من هذه المرأة التى لاتعرف الحرية أن تعلم أبناءها معنى الحرية وقداسة الحرية .. وتقديس الرجل الذى هو قاهرها وكاسرها . فى بيت أبيها وفى بيت الزوجية ..

إنك فى حاجة إلى تجربة صغيرة لتعرف ما الذى تفعله المرأة فى حياتنا .. دون أن نحتاج إلى أن نصفها بالسحر .. إن المرأة عندما تدخل فى حياتنا تجعلنا نهتم بكل ما هو رقيق .. وما هو جميل .. ونهتم بالألوان والعطور .. ونهتم بالزمن .. وبمظهرنا ومستقبلنا .. فما الذى حدث ؟ ان المرأة تثير الحب .. والحب يثير فينا الاحساس بالحياة .. ويدفعنا من الحياة وحدنا إلى الحياة معا . والحياة معا رغبة عميقة فى نفوسنا .. ولكننا نخجل منها .. لأننا تصورنا دائما أن الاستقلال معناه : ألا يعتمد الإنسان على أحد . ولكن كيف يعيش الإنسان دون حاجة إلى أحد .. إن الاستقلال هو أن نكون أحرارا فى الاعتماد على من نحب .. والذى يمشى على ساق واحدة يعرج .

والذى يمشى على ساقين لايمكن أن يقال إنه ليس مستقلا .. وإنما يقال هو مستقل تماما لأنه يعتمد على ذراعيه وساقيه وعينيه وأذنيه .. على نصفيه : الرجل والمرأة .

وإذا كان مونترلان عندما ينظر إلى اثنين من المحبين يمشيان فى الطريق يصفق سعيدا لأنه اكتشف حقيقة المرأة فى حياة الرجل . فإن استندال يصفق أيضا لأنه اكتشف فى هذا المشهد شيئا آخر .. إن مونترلان يقول : إن الرجل إذا مشى إلى جوار المرأة وتعلقت هى بذراعه فمن الصعب أن يكون مشدود القوام .. إنه ينحنى قليلا .. وفى ذلك دليل على أن المرأة تحنى الرجل وتكسر ظهره أولا بأول .

ولكن استندال يقول : بل إنهما ينحنيان معا كل منهما للآخر .. والاثنان ينحنيان لشىء نبيل أعظم وأبقى منهما : لحكمة الحياة .. التى تبدأ بالحب وتنتهى بحياة جديدة ليبدأ حب جديد .. وإلى الأبد !.

ومن الذى يعجن الأطفال ؟

- ٣ -

عندما اكتشف الفيلسوف اليونانى ديوجين أن الناس تحولوا إلى وحوش ، أمسك مصباحه وراح يبحث فى النهار عن إنسان . ولم يجد الإنسان .. ولما رأى سفالة الأبناء والبنات أمسك مصباحه وراح يبحث فى ضوء النهار أيضا عن أب . ولم يجد الأب . وفى يوم سمع طفلا يحلف بالله العظيم ثلاثا أن يقول الحق .. فاقترب منه وسأله عن أبيه .. وأشار الطفل إلى أبيه فانهال الفيلسوف ضربا على الأب وهو يقول : أنت كذاب وتعلم ابنك أن يكذب أيضا .

والفيلسوف على حق ، فالآباء والأمهات هم الذين يعلمون الطفل أن يكذب وأن يقول الحق .

بل المجتمع كله الذى يعلم الطفل أنه ذكر وأنه أفضل ، ويعلم الطفلة أنها أنثى وأنها دون ذلك . فالطفلة لا تولد امرأة ، وإنما تصبح امرأة . ولا يوجد أى فارق جسمى أو وظيفى أو نفسى بين جميع الأطفال الذكور والأناث .

ولو قدر لطفلة أنثى أن تعيش وحدها فإنها لن تشعر بأنها أقل من طفل ذكر وإنما هى كائن حى ، وأنها إنسان ، وكل الأطفال لهم نفس المواقف فى حياتهم : يجدون متعة فى الرضاعة .. وراحة فى الحضانة ، ويجدون لذة فى التبرز ، ثم إن

كل طفل يدرك العالم عن طريق جسمه ، فجسمه هو وسيلته الوحيدة إلى الدنيا : يراه بعينيه ويلمسه بيديه ويسمعه بأذنيه . والطفل يستطلع جسمه بلذة ودهشة وإذا كان هناك شيء يثيره جنسيا فلامسته لجسم أمه : الناعم الطرى والطفلة أيضا : تحب القبلات واللمسات وتتمسح فى أمها . وكل الأطفال يشعرون بالغيرة بنفس الدرجة فيكون الغضب وتكون لهم مصاعب فى التبول ، ثم انهم جميعا يحاولون كسب عطف الأم .

وحتى سن الثانية عشرة فإننا نجد الفتاة فى قوة الفتى ، الجسمية والعقلية . ولا يوجد أى شيء يمنعها من منافسته وإذا بدت لنا الفتاة فى مرحلة المراهقة أو قبلها ، قد تحدد جنسها بوضوح فليس سبب ذلك أن شيئا سحريا قد حدث فى جسمها ، وإنما الذى حدث هو أن الآخرين قد نبهوها إلى ذلك والآخرون هم الأم والأب والأخوة والمجتمع كله يقول للفتاة : أنت بنت أما هو فولد .

ومعنى ذلك أن الأنوثة يغرسها الآخرون فى الفتاة فى سن مبكرة جدا ..

والطفل ـ ذكرا أو أنثى ـ يعيش فى (حضن) كبير :. حضن الأسرة وحضن الأم فى دفء وحنان ولا يستطيع الطفل أن ينفصل عن هذا الحضن . وحتى عندما يحاول الطفل أن ينفصل عن هذا الحضن خصوصا فى الشهر السادس نجده يحاول أن يعود إليه ، ففى هذا الشهر السادس يميز الطفل بين نفسه وبين غيره ، وبذلك يحاول أن يجذب إليه الآخرون .. بحركاته وضحكاته وهنا فقط ينحنى عليه العالم الخارجى .. وكلما اهتم به الآخرون تحول الطفل الصغير إلى بهلوان : تضحك له الأسرة كلها . وبذلك يصبح للبهلوان الصغير جمهور احضان كثيرة تحرص عليه وتدنو منه وبذلك ينجح الطفل فى أن يظل فترة أطول فى حضن الجميع .

وكل مشاكل الطفل ـ ذكرا أو أنثى ـ تبدأ فى هذه المرحلة : مرحلة الرضاعة

والفطام ، والرضاعة هى الاتصال الحيوى بالآخرين والفطام بداية الانفصال عن الآخرين . وهى مرحلة دقيقة جدا .

ولاشك أن الإنسان يخاف من العزلة يخاف أن يكون وحده . ولا يمكن أن ينظر الإنسان إلى عزلته بلا قلق أو فزع . وربما كان حرص الإنسان على أن يعود إلى احضان الآخرين هو الذى يدفعه : إلى النوم والاشتياق والموت والجنون أيضا .

ولكن عندما تتجه إلى الطفل (نظرات) الآخرين يدرك أنه إنسان آخر .. أنه بعيد .. أنه (موضع نظر) .. وأنه لذلك مختلف عن غيره .. متميز .. ويجد نفسه مرة أخرى عندما يقلد والديه .. يرتبط بهما .. ويرتبطان به .. والطفل لايجد نفسه ولايشعر بوجوده إلا عندما ينظر إليه الآخرون .

ومن الغريب أن الطفل هنا يتخذ موقفين : فهو يرفض الانفصال ولذلك يسارع بالعودة إلى حضن الأم والتمسك به .. وفى نفس الوقت يحاول إرضاء الآخرين ، وإرضاء الآخرين هو نوع من الامتنان الطبيعى للذين يعطونه الاحساس بوجوده لأنهم نظروا إليه . وتحدثوا إليه .. وداعبوه .. وهو ينظر إلى الآخرين على أنهم أقوى منه .. على أنهم قوة كبرى لأن مجرد نظراتهم إليه تمنحه الوجود ، وهم يصفونه أحيانا بأنه ملاك طاهر أو شيطان رجيم . فإذا أثار الطفل اهتمام الآخرين لقى منهم الشكر على ذلك بالقبلات ، ومعنى ذلك أن الطفل فى هذه المرحلة المبكرة يعيش فى حالة سلبية سعيدة بين أحضان الأم .

ولافرق بين سلوك كل الأطفال فى السنوات الثلاث الأولى ، فهم جميعا حريصون على إرضاء الكبار وإضحاكهم وحريصون أيضا على أن ينالوا إعجاب الجميع ..

وكلما كبر الطفل أحس الآباء أنه لم يعد شيئا ممتعا ، وإنما هو كائن متعب ، ويقولون له ذلك ، وكثير من الأطفال لايحبون أن يكبروا بل يرون أن عالم الكبار

مخيف ، والأديب التشيكي كافكا كان يقول : كلما كبرت كبرت مخاوفى أيضا ، وعندما كنت صغيرا كان أبي أكبر من كل المخاوف والهموم .

ولذلك يخاف الأطفال أن يكبروا لأنهم لن يجدوا حنان الأب ، بل يخشى الأطفال أن يناموا وحدهم ، ويدرك الأطفال أن الابتعاد عن صدر الأم يجعلهم يشعرون بقسوة العزلة والانفصال . وهو شعور لا يمكن أن يعانيه الإنسان بلا قلق .

هنا فقط تشعر الأنثى بأنها أحسن حالا ، لأن الطفل الذكر يصاب بفطام آخر .. وهو الابتعاد عن حضن الأم الذى يجعله يشعر بقسوة العزلة عن قبلات الآخرين بالتدريج ، أما الطفلة فتظل تتلقى القبلات مدى حياتها ، ويجلسها أبوها على حجره ويلعب فى شعرها . ودموعها مقبولة ، والكبار يبدون إعجابهم بدلالها ، وهذا الحنان يعفيها من القلق .. أما الطفل الذكر فممنوع من الدلع والبكاء ، ويقال له دائما : أنت رجل .. يجب ألا يقبلك أحد .. الرجل لا يقف أمام المرآة .. الرجل لا يبكى .. أنت رجل صغير الآن ..

ويجب أن يكون الطفل الذكر ذا شخصية مستقلة حتى عن الرجال ، وإذا كان يسعد الآخرين بلعبه وهو صغير ، فليس من الضرورى أن يسعد الآخرين على حساب شخصيته ورجولته يجب أن يكون مختلفا حتى عن الرجال .

وهذا العالم الغريب الذى يدخله الطفل عندما يستقل عن الأم يخيف الأطفال ، وأكثرهم يتمنى لو كان بنتا . وبعض الأطفال يبكى عندما يخلعون عنه ملابس الفتيات ويحشرونه فى البنطلونات .. ويقصون شعره . وبعض الأطفال يرفضون الانتقال إلى الجنس الآخر هذا الرفض إذا استمر طويلا كان بداية الشذوذ الجنسى ، أى التعلق بنفس الجنس .

يقول الأديب موريس ساكس عن نفسه : كم تمنيت أن أكون بنتا . ورفضت أن أكون ذكرا لدرجة أننى كنت أتبول وأنا جالس .

وإذا كان الطفل الذكر لايلقى من العناية ما تلقاه الطفلة ، فلأن الأسرة والمجتمع يدخر له مزايا أخرى كثيرة .

فى سن صغيرة جدا نجد أن الأم تنظر إلى ابنها نظرة فيها تقدير زائد وهذه النظرة هى بالضبط نظرة الأم إلى زوجها وأبيها وأخيها .. وفى سن مبكرة يشعر الطفل أن لديه شيئا (أزيد) من الطفلة ، يكفى أنه يستطيع أن يتبول وهو واقف ــ وهناك نظريات لكبار علماء النفس فى تفسير هذه المقدرة عند الطفل الذكر ، وتعميقها وجعلها الأساس لكل الخلافات النفسية والاجتماعية والتاريخية عند الرجل والمرأة.. أما الذى تطلبه الأم من الطفلة الأنثى فهو فقط أن تغطى نفسها تلمس جسمها .. وتدرك الطفلة الصغيرة أنها (دون) أخيها الطفل الذكر ، وتدرك الطفلة الصغيرة أنها لكى تتبول يجب أن تجلس وأن تتغطى وأن تتوارى .. وهذا كله يجعلها تشعر بالخجل من نفسها ومن هذا الخلاف الغريب الذى بينها وبين أخيها الذكر .. وفى كثير من الأحيان تفاجأ الطفلة بأنها بللت نفسها ، إذا ماضحكت بشدة ، وكل هذا يضاعف خجلها .. ويعمق شعورها بالنقص .. وبعض النساء يجدن لذة فى رى الحدائق بخرطوم المياه .. وليس من الضرورى أن تكون لهذه اللذة أى تفسير جنسى .

وإنما تفسيرها أن اندفاع الماء إلى أعلى هو نوع من اللعب بقانون الجاذبية .. أو نوع من الانتصار الصغير على قوانين الطبيعة التى تحتم أن يهبط الماء إلى الأرض ، بدلا من أن يندفع إلى أعلى .

ولهذا الشعور بالنقص عند الفتاة الصغيرة يعطونها (العروسة) كنوع من التعويض وهذه العروسة التى تلعب بها الطفلة هى نموذج لإنسان آخر ، تتحدث إليه الطفلة . وتداعبها وتأمرها وتضربها وترضعها وتنظر إليها الطفلة على أنها شىء رائع . وهنا تتدخل الأم لتقول لابنتها الصغيرة : يجب أن تكونى كهذه العروسة ..

جميلة ونظيفة ـ وسلبية أيضا . ومن المألوف فى هذه السن أن نجد الطفلة تنظر إلى نفسها فى المرآة وتقلد الأميرات والملكات .. والملائكة أيضا .

وتقول أديبة روسيا ماريا بشكرتسف عن نفسها عندما بلغت الخامسة من عمرها : ارتديت ملابس أمى ووضعت الزهور فى شعرى ، ورحت أرقص والأسرة كلها تتفرج على الأبنة الصغيرة .

واهتمام الفتاة بنفسها سيلعب دورا عميقا بليغا فى حياة المرأة بعد ذلك .

كما أن هذه السلبية التى تتصف بها الأنثى لم تولد معها ، وإنما غرست فيها عن طريق الأم والأخوات والخالات والعمات .. أما الطفل الذكر فهو أكثر حركة ، وأكثر حرية ، فمن حقه أن يتشاجر ، يضرب وينضرب ، ومن حقه أن يتسلق الأشجار ، وأن يفخر بعضلاته ، وبجنسه ، ويتعلم كل دروس العنف ويغامر .. فعن طريق العمل يحقق الذكر وجوده ، فحياته هى عمله ، ورجولته هى عمله ، وعمله هو جوهر حريته ، وحريته هى طريق إيجابيته .

أما الطفلة الأنثى فهى شىء آخر منذ البداية . يعلمونها أنها لكى تدخل السرور على الآخرين يجب أن تبذل جهدا ، ولكى تسر الغير يجب أن تعطى نفسها للغير . يجب أن تبذل نفسها يجب أن تكون كالعروسة : جميلة ونظيفة وسلبية . ولكن الطفلة الأنثى ليست لها حرية ، ومطلوب منها ، رغم ذلك ، أن تؤكد وجودها ، مع أن الفتاة إذا اعطيت لها الحرية فإنها ستكون قادرة على العمل وعلى تحمل الصعاب كأى ولد ، وهذا يحدث فقط عندما تنشأ الطفلة فى بيئة من الذكور . وهذا بالضبط ما يريد الأب أن يعلمه لابنته ، ولكن العادات والتقاليد ترفض إرادة الأب .

فالأم تحس أن ابنتها نسخة منها ، وهى لذلك تحبها وتضيق بها . تحبها لأنها مثلها ، أو صورة منها ، وتضيق بها لأنها نسخة أخرى من ضعفها . تماما كما يشعر

المقامر والنصاب والسكير أنهم جميعا من طينة واحدة وفى نفس الوقت يحتقرون هذه الطينة ولذلك فالأم عندما ترزق بطفلة فإنها بسرعة تدخلها فى عالم المرأة : بالتربية والنصائح والتدبير ، لكى تكون أنثى ،، فتعلمها الطبخ والخياطة والكنس والغسل وتمنعها من الرياضة العنيفة وتمنعها من المشاجرة مع الأولاد ، وتنصحها دائما : لا تكونى ولدا .. ولا تمشى كالبطة منفرجة الساقين .

أما الآن فقد أصبح من الطبيعى أن تدخل الفتاة المدرسة والجامعة وأن تعمل ، وأن تشترك فى الرياضة أيضا . ولكن إذا لم تنجح فالمجتمع يغفر لها هذا الفشل ، وفى ذلك موافقة صريحة على أن النجاح للرجل فقط .

والطفلة مشغولة بداخلها ، مشغولة بجسمها ، وبطنها ، وهى تتساءل من أين يجىء الأطفال ، ثم لاتصدق بعد ذلك أن الأطباء هم الذين يأتون بالأطفال فى حقائبهم ، ولا تعرف الطفلة ماهو دور الأب بالضبط ، وكثيرا ماتتصور الطفلة أن أمها تحمل وتلد بسبب تناولها لبعض الأطعمة .

وانشغال الطفلة بأعمال البيت ، يجعلها تستشعر الهموم فى سن مبكرة أى يجعلها تحس بأنها نوع من الرقيق وأن حياتها المقبلة سوف تكون عبئا بلا ملذات ، ولكن رغم ذلك فإن الطفلة أو الفتاة تشعر بأنها مثل الكبار وأنها تستطيع أن تتكلم مع أمها بدرجة متساوية . أما الابن فلا يعرف بالضبط ما هذا العمل الذى يؤديه أبوه ، فأبوه يقضى يومه خارج البيت . ولذلك فمن السهل أن تصبح الفتاة امرأة صغيرة ، وفى سن مبكرة ، ولأن الأنوثة نوع من الطفولة ، فالطفلة أنثى فى كل سن . ولذلك تجد الفتاة الصغيرة أكثر فهما لأشياء كثيرة فى البيت ، ولذلك تحس بأنها أقوى من إخوتها الذكور وكثيرا ما تتعالى عليهم .

وعلى الرغم من كل هذه المزايا ، فان الفتاة لاتقبل مصيرها دون أسف على ذلك . وكلما كبرت حسدت الأولاد على قوتهم ، وكثيرا ما تسمع من والديها

أنهما كانا يفضلان أن تكون ولدا لابنتا .. ولذلك يعاملان الذكور معاملة خاصة ، فلهم كل الحقوق . أما الفتيات فلا يلقين إلا القيود والسدود والاحتقار ، ويرفض الأبوان أن تشترك البنت فى اللعب مع الأولاد ولا توجد أسباب واضحة عند البنت لهذا المنع الشديد ..

وفى المدارس المشتركة نجد أيضا شللا للذكور وأخرى للاناث .. وإذا حاولت فتاة أن تدافع عن حقها أمام الذكور ، فإن الناظرة تمنعها من ذلك والفتيات يحقدن على الفتيان مرتين .. مرة لأن لديهن الرغبة فى عرض وفرض قوتهن على العالم ، ولأنهن فى حالة احتجاج على هذا العجز والوضع المنحط الذى وجدت فيه الفتاة نفسها .

وبعض علماء النفس يفسرون رغبة الشبان الصغار فى تسلق الأشجار بأن الذكر يريد أن يعلو ويتعالى .. وأن يكون فوق ليتفوق .. وهذه رغبات عميقة عند الذكور .. أما الفتاة فإذا جلست عند جذر الشجر فمن المؤكد أنها سوف تشعر بأنها شىء آخر .. لا يعلو ولا يتعالى ولايتفوق .. وإنما شاء المجتمع أن يجعلها تحت .. الخ ! .

ثم تدرك الفتاة شيئا آخر هاما وهو أن ارتباطها بالأم لا يعطيها الكثير من الانتصار على الولد ، وإذا كانت الفتاة قد قبلت أن تكون أنثى أول الأمر ، فلكى تتحكم فى الرجل بعد ذلك . ولذلك فالفتاة تريد أن تكون أما ــ أى مثل أمها ــ لأن الأم أحسن حالا من الفتاة . وعندما تدرس الفتاة وتعلم وتعمل تتأكد الفتاة أن الرجال لا الأمهات ، هم الذين يحكمون العالم . وهنا فقط تغير الفتاة رأيها فى أمها . وأن الأب إله ــ هذا هو شعور الطفل الصغير عندما يرفعه أبوه إلى أعلى بين ذراعيه ، ويظل هذا هو شعوره وقتا طويلا ، ولكن الطفلة ترى أن أباها له سلطة ، وأنه هو الذى يعمل خارج البيت ، وأنه هو الذى

يربط الأسرة بالعالم الخارجى ، وأنه مختلف ، وأنه أقوى .. وان الفتاة لاتستطيع أن تكون رجلا ..

هنا تسقط الأم من عرشها .. تماما كما اسقط الإله رع أيزيس عن عرشها ..

ولكن إذا لم تفز الفتاة برضا أبيها وارتياحه فإنها تشعر بأنها مذنبة .. بأنها خارجة . منشقة .. ولكن فى نفس الوقت تبحث الفتاة عن بديل للأب .. عن شخص آخر . فإذا وجدت الشخص اتخذت من أبيها موقفا معاديا . فليس الأب وحده هو الذى يمسك مفتاح الحياة .. وإنما هناك رجال آخرون . بل كل الرجال الأخوة والأصدقاء والزملاء . والحياة اليومية تقول ذلك . والحياة اليومية من ألوف السنين اسمها التاريخ .. أعظم استعراض لعظمة الرجال وسفالتهم أيضا ..

والطفلة الصغيرة لا تولد أنثى ولا امرأة .. وإنما تولد عجينة .. والمجتمع هو الذى « يخبزها » رغيفا أو كعكعة .. ويقول لها : أنت جنس آخر .. جنس ثان ..

أما الجنس الأول والأصيل فهو الرجل ..

إذا وجدت في المرآة رجلاً فلا تخافي

ـ ٤ ـ

من الذى فعلها ؟ اسم سلسلة من الحلقات فى الاذاعة والتليفزيون وكلها عن الجريمة . ويمكن استعارة هذا الاسم ليكون عنوانا لكل شىء فى عالم المرأة . ويكون الجواب واحدا فى جميع الحالات : إنه الرجل ! .

فنى عالم الفتاة الصغيرة تجد كل شىء من صنع الرجل . فى الثقافة والأدب والأغانى . فالرجل هو الذى اكتشف وهو الذى اخترع وهو الذى حكم ـ وما يزال . وفى الأساطير لا نجد إلا بطولات الرجل وإلا غروره .

ومعنى ذلك أن الطفلة الصغيرة عندما كانت فى بطن أمها ، كان المجتمع قد أعد لها منظارا من صنع الرجل، لترى به الدنيا، ولتقرأ به ما كتب الرجل عن الرجل ، فكل الأنبياء والخلفاء وأبطال الأساطير من الرجال . وإذا ظهرت هناك امرأة مشهورة حرص الرجال على أن يجعلوا لها عيوبا صارخة لكى يشوهوا عظمتها فى عيون الرجال والنساء أيضا . فإذا ظهرت شجرة الدر أجلسوها على هرم من القباقيب : نصفه استخدمته فى قتل زوجها ، ونصفه الآخر دفنوها تحته . وإذا ظهرت كليوباترة جعلوها غانية فاجرة وإذا أرادت كليوباترة أن تنتحر كأبطال الرجال ، جعلوا موتها نوعا من الاستعراض الجنسى المثير.. حتى الملكة

حتشبسوت التى حكمت مصر اهتم المؤرخون بأنها أول امرأة صنعت لحية مستعارة فى التاريخ ـ لقد حاولت أن تكون رجلا فاستعارت لحية رجل ، ويقال قطعة من جلد خروف مقدس .

وأكثر من ذلك فإن الرجال يصورون النساء العظيمات على أنهن غانيات يتمددن فى شمس رجل عظيم ، أى انهن يعشن على « فضلة » خير و « بقشيش » من عظمته .

حتى أمنا حواء لم يخلقها الله إلا لكى تكون فى خدمة رجل ، ولا بد أن الحياة كانت قاسية على آدم وحده حتى ولو كان ذلك فى الجنة ، ولذلك خرجت منه حواء .. وقيل فى تفسير ذلك الكثير : قيل إنها خرجت من قلبه .. وقيل خرجت من عينيه .. وقيل إنها خرجت من ضلعه لكى تحطم الضلوع الباقية .. وقيل إنها خلقت لكى تظهر الخطيئة فى الدنيا ويعاقب عليها آدم بالهبوط .. إلى الأرض وتحت الأرض ..

وأساطير الاغريق تقول بينما كان البطل بروفيسوس يحتج على الآلهة ويسرق منهم النار ليعطيها للإنسان ، كانت « باندورا » تلعب فى صندوقها ومن الصندوق خرجت شرور البشرية .. ليس كل الشرور ، فأعظم الشرور لم تخرج من الصندوق : حواء نفسها .. فهى الشر الأكبر الذى يطلق على الناس شرورا أخرى .. وهى أكبر من أن يحتويها صندوق ! .

والطفلة الصغيرة تقرأ فى قصص المغامرات : أن الولد هو الذى يغامر ويقاوم ، ويصبر ، وينتصر ، وهو الذى يقوم بالرحلات فى البحر والجبل والغابات ، فكل الأعمال يقوم بها الأطفال الذكور ، وليس على المرأة إلا أن تصفق للبطل .. أى هى التى تقف عند النهاية دائما ، ومطلوب منها أن تصفق ، وهو موقف سلبى ، حتى إذا كان ضروريا لرفع معنويات البطل فإنه موقف سلبى ،

وإذا قرأت الفتاة الصغيرة الصحف والمجلات وجدتها تتحدث عن الرجال أيضا ، فهم الذين يكتبون ، وهم الذين يحكمون .

ومعنى ذلك أن الرجل هو الذى يشغلها ويملأ خيالها .

وعلى الرغم من أن الفتاة أكثر تمسكا بالدين من الرجل فإن عالم الدين ملىء بالرجال أيضا ، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ اسم مذكر ، والأنبياء كلهم من الرجال والخلفاء والصحابة والأولياء والقديسون حتى الملائكة الذين لا جنس لهم ، أسماؤهم رجال . والمرأة فى صلواتها تتوجه إلى الله ، وكأنها تتحدث إلى رجل ، والمرأة المتصوفة تخاطب الله وكأنها تخاطب معشوقا . ورابعة العدوية تقول : أحبك حبين : حب الهوى .. وحبا لأنك أهل لذاك .. وتقول : ياحبيبى خذنى إليك .. ضمنى إلى صدرك .. إلى جوارك .. لعلى أفنى فيك .

والقديسة تريزة تقول : يا حبيبى .. يا أعز من أحب قلبى .. إلى متى تتركنى وحدى فى ليالى الشتاء .. من غير حنانك أموت .. ومن غير حرارتك أتجمد .. أريد أن أذوب فيك .. فأكون أنا وأنت ..

والأغنية المصرية تقول : ولا عارف بكره من امبارح ولا دقة قلبك من قلبى ..

وفاطمة بنت برى التى أحبت السيد البدوى كانت تقول له : ياسيدى ومولاى .. خذنى تراب نعليك .. وسعادتى فى ظلك .. ونعيمى فى عذابك .

وليس من الضرورى أن يكون هناك أى معنى جنسى فى هذه الدعوات الصوفية ، ولكن عن طريق الدين أيضا تتلقى الفتاة الصغيرة : عبادة الرجل .. عشق بطولته والاتجاه إليه دائما . وعن طريق الدين تتلقى أول طعم للقداسة .. لقداسة الرجل .. والرجال .

وكلما كبرت الفتاة عرفت شيئا آخر : لكى تكون سعيدة ، يجب أن يحبها هذا

المعشوق .. هذا المعبود أيضا ، ولكن إذا أحبته هى ، فهذا ضرورى وطبيعى .. والسعادة تصبح كاملة إذا هو أحبها أيضا ، وإذا قدر للفتاة الصغيرة أن تختار بين رجل تحبه ، ورجل يحبها ، فإنها تختار الرجل الذى تحبه هى .. وتصبح السعادة كاملة إذا كان الحب من طرفين .

واعتادت الفتاة أن تكون هى «الجمال النائم» أى الجميلة التى تنتظر دائما . ويجيء الفتى عبر الجبال والأهوال ، على حصان أبيض .. ومن نافذتها تطل على رجولته وشهامته وعرقه ودموعه .. أما هى فمربوطة إلى شجرة الأسرة ، مشدودة بسلاسل التقاليد والعادات ، وعلى الشاب من جديد أن يتعذب من أجلها لتصفق له فى النهاية ، فقط تصفق .

والأغانى الأوربية تقول : فى يوم من الأيام .. بعد يوم .. بعد شهر .. بعد سنة .. يجيء الأمير ويخطفنى .

والأغنية العربية تقول : خذنى لحنانك خذنى .. عن الوجود وابعدنى .. بعيد لوحدينا .. بعيد أنا وأنت ..

ومطلوب من الفتاة الصغيرة ألا تضيع وقتها فى الانتظار ، وإنما انتظارها يجب أن يكون فى الاستعداد للقائه . وعلى المرأة أن تتسلح بكل ما أعطتها الطبيعة من وسائل الاغراء ، ولذلك فالمرأة يجب أن تنتظر الرجل وهى جميلة ، وجمالها هو الذى يجذب الرجل ، يشد رمش عينه ويسحب رجليه ويفصل يديه عن ذراعيه ليتقدم إليها خطوة ويخطفها . ومن هنا كان من الضرورى أن تهتم الفتاة بجسمها ، فعن طريق جمالها تفوز بالرجل .. بأحسن الرجال الذين يبذلون كل ما يستطيعون من أجل أن يفوزوا بها فى النهاية ..

والقصص والأفلام تحدثنا أن السعادة من نصيب الجميلات أما الدميمات فالويل لهن .

وتتعلم الفتاة أنه عن طريق الاستسلام للرجل تستطيع أن تكون أقوى منه . فالرجل يتعب من أجل أن يفوز بها ، فإذا فاز بها ضعف . وهنا يجب أن تأخذ المرأة الكرة من رجليه وتسددها إلى الهدف : إن نابليون كان إذا تمدد على فراشه لا يقول لزوجته : لا . ولذلك كانت تطلب منه أن يحقق لها رغباتها ومؤامراتها وهو نائم فى الفراش .. فالرجل عندما يحقق رغباته يضعف ، وهنا يجب أن تقوى المرأة . فقوتها عندما يضعف الرجل .

تقول كاتبة المذكرات الشهيرة مدام دى نواى : وأنا صغيرة أردت أن أخيف الرجال وأن أعذبهم وأن أجعلهم ينقذوننى لأموت فى أحضانهم بعد ذلك .

وتقول مدام لوهاردان فى مذكراتها : كنت أحبه .. وكنت أتخيله يضربنى لأتفه الأسباب ، وعندما يحدثنى يتولانى الفزع ، وعندما أخاف أقبل يديه وأطلب الرحمة ، وعندما يمزق قلبى وأحس أقصى العذاب أشعر أيضا بأسمى درجات السعادة : عندما يلتقى أقسى عذاب بأعمق لذة .

فالاستسلام هو سعادتها التامة فى النهاية .

وعندما تبلغ الفتاة العاشرة من عمرها تحس أنها كبرت ، وأنها قادرة على الحب ، ولذلك تسوى شعرها . وتجمل وجهها وشفتيها وحاجبيها ، وترتدى ملابس أمها . ولكنها فى هذه السن لا تفكر فى الجنس ، وإذا كانت الفتاة تشترك فى اللعب مع الأولاد الذكور ، وخصوصا تلك المباريات التى تقتضى تفتيش الملابس ، فسبب ذلك أن لديها نوعا من الاستطلاع الجنسى .

وهناك لعبة مشهورة عند كل أطفال العالم : لعبة الدكتور والعروسة المريضة .. هذه اللعبة يقوم فيها الولد بدور الطبيب ويكشف على العروسة ويقلبها ويتحسسها .. وليس هناك أى احساس جنسى عند الاثنين ، ولكن لديهما رغبة خفية فى أن يلمس كل منهما الآخر .. نوع من التعارف البرىء .

والفتاة فى هذه السن تحلم بشاب آخر أو برجل سواء كان له وجود حقيقى ، أو وجود فى خيالها ، ولكنها لا تفكر فى هؤلاء الأطفال الذكور الذين يلعبون معها .

وبعض الفتيات فى هذه السن وبعدها تتمنى أن يكون حبيبها فى خطر ، وتقوم هى بإنقاذه ، أو يصاب فى حادث وتبكى من أجله .. أو حتى يموت لترتدى عليه ملابس الحداد طول عمرها . أو هكذا تتخيل .

وفى هذه السن أيضا تتمرد الفتاة على أمها ، لأنها لا تريد أن تكون مثل أمها مربوطة فى البيت ، ست بيت ، محبوسة ، قعيدة . نهاية الخط . ثم إن الأم كثيرا ما تشكو من هذا المصير الأسود : أن تكون امرأة . ومن الغريب أن الأم تطلب من ابنتها أن تكون مثلها : امرأة ، وزوجة ، وأما ، وست بيت .. أما الابنة فإن تمردها يتخذ شكلا عمليا وذلك بأن تعجب بالممثلات والراقصات والأديبات والرياضيات والمدرسات .. أى بهذا النوع من النساء اللاتى لا يجلسن فى البيت ، واللاتى يعملن مثل الرجال .. أى اللاتى يختلفن تماما عن أمها ، وعن الصورة التى رسمتها الأم لابنتها . ولذلك نلاحظ أن الفتاة فى هذه السن تحب الجلوس إلى الأولاد ، والاشتراك فى المناقشات معهم ، وتقليدهم ، واستنكار الفتيات ، واحتقار الأنوثة ، وكراهية الزواج ، ولذلك تجد الفتيات الصغيرات يلعبن الألعاب العنيفة ، ويتسلقن الأشجار ، دون أن تهتم الفتاة الصغيرة بما يظهر من جسمها .. إلى أن ينبهها أحد إلى ذلك .

فبعض الفتيات الصغيرات يرتدين البنطلونات القصيرة ، أو يمزقن الملابس عند فتحة الصدر كما يفعل الأولاد .. وخصوصا أثناء المشاجرات الحامية .

ولابد أن تكون للفتاة صديقة . واحدة اخرى غير أمها . وغير أختها الكبرى ، واحدة تعترف أمامها بكل شىء ، ويكون بينهما سر ورموز ، وغالبا

يكون هناك طرف ثالث ، هذا الطرف الثالث هو أخو الصديقة . ففى رواية «الحرب والسلام» لتولستوى نجد أن للبطلة صديقة ، وللصديقة أخا ، هو الطرف الثالث ، وتكون هناك أسرار أعمق ، وتكون هناك اهتمامات جنسية ، وتكون الفتاة سعيدة إذا عاملها الشبان بدرجة متساوية ، وإذا قدروها ، وكل هذا يغرى الفتاة الصغيرة بالابتعاد عن بنات جنسها .. وعن جنسها ، وتكره ملابسها التى تميزها عن الأولاد . وتكره أنوثتها ، وتلعنها ، وتعترض على هذا الهوان : أن تكون امرأة .

وهناك بنات يكرهن أن يكن بنات .

ويقول العالم الكبير هافيلوك أليس إن ١٪ من الأولاد كانوا يتمنون أن يكونوا بنات .. و٧٥٪ من البنات يتمنين أن يكن أولادا .. ويذكرون السبب لذلك بأن الأولاد أكثر حرية ثم إن ملابسهم لا تضايقهم .

وفى سن الثانية عشرة لا تضيق الفتاة بأنوثتها بعد ، ولكن بعد ذلك تدرك الفوارق بين الجنسين فى كل مكان وفى كل موقف .

والفتاة لأن عالمها محدود ، ونشاطها محسوب ، فإن حيويتها الشديدة تتحول إلى سلوك عصبى ، فالأعمال لا تستنفذ قوتها ، ولذلك تشعر بالملل ، ومن الشعور بالملل تدرك الفتاة أنها دون الأولاد ولذلك تهرب من الواقع إلى أحلام اليقظة وفى الرومانسية الحزينة ، وتعشق الخيال . وبدلا من أن تقوم الفتاة بأى عمل ، فإنها تبدد نشاطها فى الكلام .. فى الثرثرة .. ثم تستسلم للانفعالات الشديدة ، وتحس الفتاة أنها فى المؤخرة .. أنها على رصيف المحطة .. وأن القطار قام وتركها .. وأنها أهملت وهذا الشعور بأنها أهملت يتحول فى داخلها إلى صورة تعويضية أخرى .. صورة فيها رد اعتبار لها

فتعجب بنفسها ، وترثى لحالها أيضا ، ولا توجد امرأة فى الدنيا لا تعجب بنفسها ، ولا تبكى على ما أصابها من الظلم .. وهذه التعاسة تظهر فى عصبية المرأة، وفى دموعها، وليس صحيحا أن دموع المرأة تضايقها، إنها تجد لذة فى البكاء . فالبكاء يريحها وينعشها ويفتح شهيتها لمزيد من النشاط، والشىء الوحيد الذى تحتفظ به المرأة فى كل سن : هو البكاء . لماذا ؟ لأن المرأة تحب أن تلعب دور الضحية فى حياة الرجل ، وهذا الشعور هو استمرار لاحتجاجها على أنها أنثى ، وفى نفس الوقت تؤكد حرصها على أن تثير شفقة الرجل واهتمامه بها ، والمرأة وهى تبكى تشبه الشمس من وراء السحب .. فهى ترقب وتنظر وتتحفز من وراء الدموع .

والفتاة الصغيرة تنظر إلى نفسها فى المرآة وهى تبكى ، وكلما نظرت إلى نفسها بكت أكثر .. إن منظرها يثير شفقتها على نفسها ، ومعنى ذلك أن الفتاة لا تبحث عن طريقة لكى تكف عن الدموع ، وإنما تبحث عن الذى يضاعف دموعها ..

وفى كتاب «الأغانى» لأبى الفرج الأصفهانى يحدثنا عن المطرب المسمى بالغريض . هذا المطرب استمع إليه عدد من النساء وأعجبن به وطلبن إليه أن يسمعهن وهن يندبن ويبكين ، وأن يحفظ كلمات الندب والبكاء .. ثم يطلبن إليه أن يغنى الندب بصوته الجميل .. لماذا ؟ لكى يتأثرن ويبكين ويمزقن ثيابهن من شدة الحزن .. فهن لا يبحثن عن مناديل تجفف الدموع .. وإنما يبحثن عن الذى يهز القلب ويعصر العيون .

وإذا حاولت الفتاة الصغيرة أن تعبر عن مشاعرها فى أعمال أدبية ، فإنها تتحدث عادة عن العلاقة التى تربطها بأمها ، وكيف تتمنى أن تتمزق هذه

العلاقة ، أى أنها تتخذ موقفا عدائيا من أمها وتؤكد حاجتها إلى من يحميها ، وتتمنى لو كانت هي وحدها التي تحب أباها ، وكان هو يحبها وحدها ، ولذلك تغار على الأب وتخاف على حبه لها ، وكثيرا ما قرأنا قصصا لفتيات صغيرات يتخيلن أن الأب ليس أباهن الحقيق ، وإنما هى طفلة تبنتها الأسرة .

ومن خلال ما تقرؤه وما تسمعه وما تتخيله تجد الفتاة نفسها وراء حوائط كثيرة ، وسقف واحد ، الحوائط تقترب وتبتعد ، أما السقف فقريب جدا : لأن الفتاة مهما تعلمت وتقدمت فلن ترتفع .. وإنما عالم الرجل عالم بلا سقف وبلا جدران أيضا .. كل شيء واسع عريض عال عميق .. وموقف الفتاة مفهوم ليس فريدا ، فالزنوج فى أمريكا يشعرون مثلها ، مهما تقدموا وتعلموا فهم سود فى عالم البيض . وكذلك الفتاة تحس أنها سوداء فى عالم البيض .. أى فى عالم الأقوياء من الرجال ، ولذلك فمستقبلها محدود . طريق مسدود . عالمها مقفل عليها منذ ولادتها حتى الموت .

ومن المؤكد أن انشغال الفتاة بجسمها وجنسها أكثر من الأولاد ، فالفتاة تعرف أن جسمها هذا يتغير بصورة عنيفة كل شهر ، وتعرف أنها سوف تكون زوجة : تحمل وتلد وترضع وتحمل وتلد . ولذلك يجب أن تعرف ماذا سيحدث لها ولماذا ، وكيف ، ومن المهم جدا أن تعرف معنى الزوجية ، والحياة الزوجية ، بينما تجد الأولاد لا يهتمون بالزواج ولا بمشاكل الجنس .. ولا بالأمومة ولا الأبوة ، ومن المؤكد أن الفتاة تخاف مما سيحدث لها ، تخاف من الأمومة وتخاف مما يسبق الأمومة ، ومن الزواج ، ومن الحياة مع رجل فى فراش واحد وتحت غطاء واحد عاريين ..

والفتاة عندما تقول : لن أتزوج فلأن معلوماتها عن الجنس تصيبها بالقرف ، ولأنها تخاف مما يصيب جسمها ، ولذلك فهى تسأل فى سن مبكرة : من أين

جاءت .. وكيف ولدت .. وكيف دخلت بطن أمها .. وكيف خرجت .. ولا تتصور لحظة واحدة أن والديها يفعلات ذلك الشيء الكريه الذى سمعت عنه من زميلاتها فى المدرسة أو من الخادمة .. وعندما تقول إنها لن تتزوج فهى تريد أن تعلن أنه مهما حدث لها فلن تصل إلى هذه الدرجة من الهوان النفسي والقذارة الجسمية والجنسية ..

ولكن هذه الأنوثة التى تبرز فى الفتاة ـ وخصوصا صدرها ـ ليس شيئا يضايقها دائما ، فعندما يبرز صدرها تشعر الفتاة بالكبرياء وبالعار معا .. فهى سعيدة بأنها كبرت ، وهى تتفرج على صدرها فى المرآة ، وتلمسه بدهشة وذهول .. وفى نفس الوقت تشعر بالخجل لأنه بارز ولأنه جذاب .. ولأنه يؤكد اختلافها التام عن الشبان ، ثم إنها لا تكشف صدرها لأمها أو أختها . ولكن لسبب لا تعرفه كان لها نفس مصير الأم والأخت ..

ولكن بروز صدرها هذا يلفت إليها الأنظار . لأنه غريب ، عجيب ، لقد أصبح لها جسم ، لقد أصبحت جسما ، ولذلك تحب الفتاة فى هذه السن أن تكون نحيفة ، أى تريد أن تختفى هذه المعالم التى تميزها والتى تبرزها ، والتى تلفت إليها العيون ، والفتاة لا تنسى هذه العيون التى نظرت إليها بجرأة ووقاحة ورغبة أيضا ، لذلك إذا نظرت إلى نفسها فى المرآة للمرة الألف فسوف تجد فى المرآة وجوها وعيونا لرجال .. وحتى إذا أغمضت عينيها ، فلن تختفى عيون الرجال من عينيها .. لأنهم سيكونون هناك دائما .. فى المرآة ومن غير المرآة .. إنها تعيش فى عالم من صنعهم ، وعليها أن تسايرهم وأن تقاومهم ، وأن تقلدهم وأن تختلف عنهم .. وأن تستسلم وتتحكم أيضا ..

المرحلة التى يسمونها : أموت فى نفسى

ـ ٥ ـ

من أسباب الدوخة التى يعانيها الرجل مع المرأة ، أنه لا يفهم هذا الكائن الغريب الشديد الحساسية الكثير الدموع الهائل التقلب . فلا الرجل عنده وقت لكى يفهم المرأة . ولا المرأة عندها فرصة لكى تفهم نفسها .

ولذلك يلتقى الرجل والمرأة وكلاهما لا يفهم الآخر ، ومن المفروض بعد ذلك أن يتسع وقت الاثنين لكى يتفاهما .. ومن النادر أن يحدث ذلك .

فالمرأة وهى صغيرة ـ تسمع معنى واحدا : غدا يجىء ابن الحلال ، بعد غد ربنا يرزقك بابن الحلال الذى يريح بالك ، ويسعد حالك .. أو ابن الحلال الذى « يشكمك » ويعلمك كيف تمشين على الصراط المستقيم . إنها فى انتظار دائم « لابن الحلال » ـ والرجل عادة « ابن حلال » ـ سواء كان هو بالفعل كذلك أو لم يكن . ومعنى ذلك أن الفتاة فى سن صغيرة تسمع التقديس المستمر للرجل الذى سوف يجىء ، وتسمع أنها يجب أن تنتظر ، فحياتها انتظار مستمر له .

وقبل أن يجىء ابن الحلال أو فتى الأحلام أو « الأمير الساحر » أو « الفارس المغوار على حصان أبيض » تكون الفتاة قد أصيبت فى جسمها بتغيرات تفزعها ،

هذه التغيرات ضرورية لها ولابن الحلال هذا . ففى مرحلة المراهقة تشعر الفتاة بأن شيئا مخيفا يحدث فى جسمها ، ويصبح جسمها هو مصدر فزع لها ، ففيه تغيرات ، وفيه أشياء برزت فى صدرها وتتجه الفتاة إلى جسمها ، إلى مراقبته وملاحظته ، والخوف منه ، الخوف عليه أكثر . بينما نجد أن الشاب ليست له مشاكل فى المراهقة فهو ينتقل من الطفولة إلى المراهقة إلى الرجولة بلا خوف . فالطريق مفتوح أمامه ، وكل علامات المرور خضراء . بينما لا تعرف الفتاة إلا العلامات الحمراء معظم الوقت ، وتكون أمها هى عسكرى المرور دائما .

والفتاة تحلم بالشاب . ولكن الشاب إذا حلم بالفتاة ، فلأنها جزء من حياته ، ولكن ليست كل حياته ، إنها أحد عناصر حياته .. ولكن الفتاة تنظر إلى الشاب على أنه حياتها : مصيرها .. قدرها .. بختها أو « ميلة بختها » ..

والفتاة فى كل مراحل حياتها تنظر إلى الرجل على أنه وسيلة من وسائل الهرب من حياتها فى البيت .. فهو الذى يخطفها ، وتتمنى ذلك .. وهو الذى يحررها من قيود الأم وتكشيرة الأب وفضيحة الأخ .. وهو وحده الذى يحررها ثم يحميها .. أو هو الذى يحميها أثناء الهرب من البيت .. والفتاة تجد عند الرجل كل مفاتيح السعادة .. وكل صمامات الأمان .. وتجد الصدر الحنون ، مثل صدر أبيها .. وتجد الذراعين القويتين تماما كأبيها .. فالفتاة مؤمنة منذ الطفولة بقدرة الرجل وتفوقه ، وتفوقه حقيقة اجتماعية واقتصادية ، فالرجال هم سادة العالم ، ولذلك فالفتاة تصبح ناجحة فالحة إذا نظر إليها الرجال وأعجبوا بها ، وفى المدارس الأمريكية نجد أن الفتاة الجذابة هى التى لها أكبر عدد من الأصدقاء بشرط أن يكون هؤلاء الأصدقاء على علاقات منتظمة بها .

فإذا فازت الفتاة برجل وتزوجته كانت هذه نهاية سعيدة ، أو على الأصح نهاية محترمة ، وليس من الضرورى أن تكون النهاية المحترمة سعيدة ، ولا أن تكون النهاية السعيدة محترمة أيضا . ولكن أكثر العلاقات الاجتماعية احتراما هى

الزواج ، وهى علاقة أهون وأسهل من علاقات أخرى بين الرجل والمرأة ، فنى الزواج تجد المرأة احتراما اجتماعيا ، وتجد راحة عاطفية ، لأنها محبوبة وأم ، وهذا ما يقوله كل الذين حولها ويشجعونها على أن تؤمن بذلك وأن تهدف إليه وتحرص عليه . فأهم حدث فى حياة المرأة هوأن تجد زوجا ، وهى لا تصل إلى الزواج عن طريق الغزو والانتصار وإنما عن طريق العطاء والاستسلام الرقيق المحترم ، وهذا الاستسلام ليس سببه : التربية فى الأسرة والتقاليد الاجتماعية ، فكلها تقول للبنت : انتظرى حتى يجىء ، فإذا جاء فكونى له ..

ولاشك أن مرحلة المراهقة عند الفتاة تضايقها ، وتجعلها عصبية أياما كل شهر ، وأحيانا تصل إلى حالة من الجنون ، وصدرها يضايقها ، وخصوصا عندما تشترك فى الألعاب الرياضية ، وتشعر الفتاة بأنها غريبة عن الأولاد ، وغريبة عن الدنيا كلها . ففى سن ١٣ يبدأ الشبان فى الرياضات العنيفة ، وتبدأ الفتيات فى التوقف عن العنف ، وبين الشبان منافسات حادة ، ولكن بين الفتيات لا توجد منافسات وإنما توجد مقارنات فقط . والرياضة العنيفة لا تستهوى المرأة ، فهى لا تستطيع أولا .. وثانيا لا دور لها فى المنافسة والمسابقة ، وأنها تترك ذلك كله للرجل .. وفى أمريكا نجد أن الزنوج ممنوعون من استخدام العنف مع البيض . ولا تزال المرأة لها «الروح السوداء» كأنها أحد الزنوج فى عالم البيض .

والرجل يحتل مكانه بالقوة والغزو أما المرأة فهى تحتل مكانا قد أعد لها من قبل ، ولذلك فدورها يجىء فى الدرجة الثانية ، أما الرجل فدوره فى المقام الأول ، إنه هو الذى يغزو ويتقدم ويحتل ، ثم يترك ذلك للمرأة من بعده .

إذا فكرت الفتاة فى أن تلعب فى الشارع ، فهى مطالبة دائما بألا تحدث صوتا ، وألا تعرى جسمها ، فلو خرجت بعض الفتيات إلى الشارع وحاولن أن يمشين بسرعة وأن يتحدثن بصوت مرتفع أو يضحكن لكان ذلك مثيرا للاهتمام ، وربما تساقطت عليهن الشتائم واللعنات ، ومن الطبيعى أن يطاردهن الشبان . ولو

رآهن أحد رجال الدين لرفع يديه إلى السماء طالبا من الله الرحمة بعباده .. ومع أن هذا المشهد يتكرر من الشبان كل يوم ومن ألوف السنين ، وقد سجلت المقابر الفرعونية شبابا يلعبون فى الحارة وأحد الملوك يبارك الطوبة التى ألقاها الشبان فأصابت الملك فى التاج على رأسه .

فالفتاة مطلوب منها أن تضبط نفسها، وأن تمتنع عن الحركة التى تعريها، وأن تمتنع عن رفع صوتها وعن النظر، وعن اختلاس النظر والسمع ، وممنوعة أن تقول ما تريد وأن تقول ما تعتقد ، وهذه الفرامل الكثيرة والشديدة ، تقضى على انطلاقها وعلى أن يكون لها رأى خاص وذوق خاص وموقف خاص . والنتيجة طبعا : أن تكون الفتاة عصبية معظم الوقت ، وأن تكون فى حالة ملل مستمر ..

ويصبح هذا الملل عنيفا أليما إذا عاشت الفتاة باستمرار فى عالم النساء ، فالفتاة تمل الفتاة بسرعة ، فحياتهما متشابهة ، وحديثهما شكوى ، ولذلك كان الولد ضروريا فى مجتمع الفتيات . وهذا معناه أن حياة الفتاة سخيفة مملة إلى أن يظهر فيها فتى . ومعنى ذلك أيضا أن الفتى هو وحدة القادر على أن ينقذها من بنات جنسها وأن ينقذها من الملل ومن القرف اليومى وأنه هو وحده القادر على أن يجعلها شيئا .. لأن الرجل شىء هام ، والمرأة تعلم أنها لن تفوز بالرجل لأن لها أحلاما ، ولكن لأنها تحقق أحلامه هو ، فهى تستعير أحلامه ، ثم تعمل على تحقيقها له ، وهذا ما يعجب الاثنين : هو يعجبه أن يغزو خيالها وينتصر عليها ، وهى يسعدها أن تحقق أحلامه وتعطى نفسها له .

وقبل أن تحقق الفتاة أحلام الرجل هناك نصائح هامة وضرورية من الأم ، فالأم تنصح ابنتها بأن تكون صاحبة الخطوة الأولى أو الكلمة الأولى ، لا مانع من أن تكون لها النظرة الأولى ، فالنظرة الأولى هى « طعم » فى سنارة غرامها ، وإذا التقط الرجل الطعم ووقع فى الشبكة فعلى الفتاة ان تفهمه أنها هى التى وقعت وليس هو .. فالرجل يجب أن يكون هو الذى « صاد » وليس هو الذى وقع فى

المصيدة .. والفتاة يسعدها أن تكون «الصيد» لا أن تكون الصياد .. وفى المصيدة يشعر الاثنان بأنهما سعيدان ولأسباب مختلفة .

ولذلك يجب أن تؤهل الفتاة لكى تكون جذابة .. أى لكى تكون مصيدة جميلة . وهذا الجمال هو جمال جسمها فى الدرجة الأولى ، ولذلك يجب أن تهتم الفتاة بإظهار أنوثتها ، فتقف أمام المرآة كثيرا تسرح شعرها وتدرس ابتسامتها ونظراتها . فمن طريق جسمها ستكون النهاية السعيدة ، فجسمها هو كنزها وهو سلاحها أيضا . ففى جسمها كل ما تملك ، وهذا الجسم هو العيار النارى الذى تطلقه على الرجل وقبل أن يسقط على الأرض تنهار إلى جواره .

وكثيرا ما وقفت الفتاة أمام المرآة تتأمل كتفها المستديرة الناعمة وتقبلها ثم ينظر إلى صدرها باهتمام وعناية ثم إلى ساقيها وتمضى فى أحلامها وكل شيء فيها يقول : أنا أحب جسمى ..

والفتاة تريد أن تكون جذابة لكى تلفت الرجل ، فإذا التفت الرجل إليها تأكدت من أنها فعلا جذابة أو جميلة ، فإذا تأكدت من ذلك فلا نهاية لأحلامها ، ولا نهاية لأبطال أحلامها : أبطال لهم وجود أو أبطال لا وجود لهم ..

وأعنف صورة لأحلام اليقظة هى حياة الأديبة الروسية الشابة المعذبة ماريا بشكرتسف (١٨٦٠ ـ ١٨٨٤) التى توفيت عن ٢٤ عاما فى أحد المستشفيات العقلية ، فقد كانت فتاة شديدة الذكاء ، شديدة الاضطراب ، تنام فى سريرها بالسنوات لا تتحدث إلى أحد ، وإذا تحدثت فهى تتعالى على كل الناس ، وقد وصفت نفسها فى أحد المرات بأنها ملكة أسبانيا ، وأعلنت كثيرا أن لها عشاقا .. مع أن هذا ليس صحيحا ، وأن لها أطفالا منهم ، وأنها عندما تخلع ملابسها تلتقى بعشرات من عشاقها .. وليس هذا صحيحا ، وكثيرا ما أعلنت أن لها أكثر من

حياة ، وفى كل حياة لها دور ، وهو دور البطولة عادة ، وهى أكثر من بطلة .. وقصص كثيرة أخرى تتحدث عن سحرها ، وعن الذى يفعله جسمها بالرجال .

والفتاة عادة تحس أن الحياة حولها غير حقيقية .. حياة غير ممكنة أيضا . حياة كلها ممنوعات ومخاوف ولذلك تهرب الفتاة إلى الأحلام ، وفى أحلامها تفعل ما تشاء مع من تشاء من الناس ولكن هذه الأحلام لا تكفى ، لا تشبعها ولا ترويها ، لأنه من الضرورى أن يحس بها أحد من الناس ، فتجد عن طريقه المعنى الحقيقى لجسمها ولنفسها ، ولوضعها فى الحياة ، ولذلك يجب أن تعايش الآخرين ، وأن تعيش بهم ومعهم وضدهم ، وعلى صلة بالعالم الذى حولها ..

أما عالم الفتيات فهو عالم «الفرجة» على الرجال وانتظارهم ، وهو عالم المقارنات السلبية ، فالفتاة تقارن جسمها بجسم غيرها . وكثيرا ماتعرت الفتيات وراحت كل منهن تقارن صدرها بصدر الأخرى ، وكذلك خط الوسط واستدارة الأرداف ، وهذا دليل على أن الفتاة تقدس أنوثتها .

وقد حدثتنا أديبة فرنسا مدام كوليت فى قصة «كلودين فى المدرسة» عن تقديس الفتاة لجسمها ، لسلاحها ، لأنوثتها ، تلك المصيدة الناعمة لعين الرجل ، والرجل بعد ذلك .

ولأن هدف الرجل أن يجد الجنس الآخر ، تفرق الرجال كل واحد إلى سبيل . ولكن الفتيات يتقارين . فبينهن مشاكل وأحاديث وأسرار ومذكرات خاصة ومعلومات عن الجنس الآخر . ولذلك كانت الصداقة بين الفتيات أقوى من الصداقة بين الأولاد وكثيرا ماكانت خطابات غرامية بين الفتيات . هذه الصداقة لا ضرر منها ولا خوف . والفتاة إذا أحبتها صديقة لها ، كان هذا الحب نوعا من تكرار حب الفتاة لنفسها . وعشقها لجسمها . وكثيرا ما اتجهت الفتاة فى حبها إلى واحدة من بنات جنسها تكون لها بعض مزايا الرجال . كأن تكون

موظفة . مدرسة . تكسب عيشها . ولها قيمة اجتماعية . وتفضل الفتاة أن تكون المدرسة التى تحبها غير متزوجة ، أى لا تخضع لسيطرة رجل . فالمدرسة المتزوجة تضايقها .

ولكى يكون للفتاة حب لا يخيفها ، فإنها تميل إلى نجوم السينما أو الأدب أو الفن . وتضع صورته إلى جوار سريرها . وهى آمنة . لأنها ليست رجلا من لحم ودم تخاف أن تقترب منه . بل إنها تجرده من رجولته وتحتفظ له فقط باللمعان والشهرة . فهو رجل ولكنه فى نفس الوقت ليس رجلا . إنه حب لا يخيف . وحب بلا أمل . إنه نوع من المستحيل . فهو المستحيل الذى لا يخيفها على جسمها . وحتى إذا أحبت الفتاة رجلا حقيقيا فإنها تختار رجلا عجوزا ــ رجلا ولكنه لا يخيف . وفى مثل هذا النوع من الحب يكون عند الفتاة نوع من : الأمل والحنين والمرارة . وهى بذلك تتفادى التجربة المباشرة . أو الصلة المباشرة وهى شىء مخيف .

وتظل الفتاة تحلم بالعمالقة ، ولكنها لا تجد فى حياتها غير الأقزام ..

كثير من الفتيات فى مرحلة المراهقة يكتبن خطابات إلى فتى الأحلام أو رجل الأحلام ، ثم لا يبعثن بها . بل يكتبن ردا على هذه الخطابات أيضا .. ولكن هذه الصور مختلفة عن أحلام اليقظة . أى الهرب من الواقع الذى لا يريح ، إلى واقع يريح ولكنه لا يشبع ولا يروى . ولابد من الهرب منه . فالأحلام لحظات عابرة ، ويجب أن تكون كذلك .

ومن المألوف فى هذه المرحلة أن تحب الفتاة أو تحلم بالرجل الدون جوان ، صاحب المغامرات والغراميات الذى لا يحتفظ بالنساء طويلا . فهى مغامرة . وهى فرصة لكى تثبت لنفسها قدرتها . وفى نفس الوقت بأن تصلحه . وأن تجعله يتوب عن النساء ويكتفى بها. وهى تعلم أيضا أن هذه مغامرة وأنها سوف تفشل.

وهذا الفشل هو الذى يغريها أكثر .. لأن الفشل معناه أن هذه العلاقة لن تستمر. وأن هذا الرجل سوف يبعد عنها . وهى تريده أن يبعد عنها حتى لا تكون هناك تجربة مباشرة . ولذلك فهى تفضل هذه العلاقة المستحيلة التحقيق وأن تعيش فى حلم مستحيل أى أن تنشغل بهذا الدون جوان دون أن تقترب منه.. ولو حاول هذا الدون جوان أن يقترب منها ، فإنها تقرف منه. وتقرف من هذه العلاقة. لأنها تنظر إليه على أنه بطل أو نصف إله . ولا تريده أن يكون « مثل كل الرجال » .. فإذا حاول أن يكون « رجلا ككل الرجال » فإنها تصاب بصدمة عنيفة . فهى فى هذه المرحلة تحب البعيد العالى المستحيل ـ لأن هذا حب لا يخيف .

والرجال يندهشون لتصرفات المرأة . فهى تشد صدرها وتبرزه وتكشفه . ثم تعرى ساقيها . وتخنق وسطها . وتضغط على أردافها وترسم شفتيها وعينيها. وتخرج إلى الشارع . هى تريد أن ينظر إليها الناس . وفى نفس الوقت تضيق بعيون الناس . لماذا هى تقول إن الناس لهم عيون جريئة . وأنهم يذهبون إلى بعيد ولا يفهم الرجل هذا الموقف المتناقض من المرأة : فهى تعرض نفسها فى أجمل إطار لكى يراها الناس ، ثم لا تريد أن يراها الناس .

والفتاة تريد أن يراها الرجل . فنظرته تحية لها . ولكن النظرات الجريئة للرجل تخجلها .

والمرأة تريد أن « تلهلب » الرجل ، فإذا شمت المرأة رائحة «شياط » فى عينى الرجل تضايقت وكرهت الرجل . ولكن تعود فى نفس اليوم إلى الخروج إلى الشارع ومراقبة كل عيون الرجال والاستماع بعناية شديدة إلى كل تعليق يرضى غرورها . ولا توجد امرأة لا تحتفظ فى أذنيها بعشرين تعليقا على جمالها ودلالها وهى أنها .. خسارة ـ أى خسارة فى أهلها وزوجها ـ خسارة ألا تكون له أو تكون لأى انسان آخر . فإذا كانت تمشى على الأرض ، فهى خسارة ألا تكون لها سيارة .

وإذا كانت لها سيارة صغيرة فخسارة ألا تكون لها سيارة كاديلاك .. ومن الغريب أن النساء ، فى كل سن وكل ثقافة ، يصدقن هذه العبارات الكاذبة التى يلقيها الرجال فى الطريق كأعقاب السجائر .. ولكن غرور المرأة واحتياجها إلى الرجل وإيمانها بعظمته وذوقه ، هو الذى يحول أعقاب السجائر إلى خراطيش سجائر أمريكية تحتفظ بها المرأة فى أعماق أعماقها .

ولا توجد امرأة فى أى سن وعلى أية درجة من الثقافة ، لا ترى فى نفسها شبيهة بإحدى كواكب السينما .. أى شبيهة بذلك النوع من النساء الذى يعجب الرجال . فعلى الأقل شفتاها أو عيناها أو مشيتها أو ساقاها .. ولو قامت بعمل استفتاء فى العمارة التى تسكنها لوجدت شبيهات لكل نجوم السينما .

ومن المشاكل التى تحير الرجل والمرأة أيضا ، أن المرأة فى سن المراهقة فى حالة احتجاج مستمر . فلا هى تريد أن تكون طفلة ، ولا هى تريد أن تكون أنثى كاملة الأنوثة .. فهى لم تعد طفلة : جسمها يصرخ بذلك . وهى لا تريد أن تكون أنثى . فهى تكره هذا المصير المفروض عليها . تكره أن تكون محبوسة . مقيدة تقطع عمرها كله تنتظر واحدا لا يجىء . فإذا جاء فهو ليس الذى تحلم به . وإذا جاء الذى تحلم به فليس هو الذى كانت تتصوره .. انه «حيوان» آخر .. ومن مظاهر احتجاج الفتاة فى هذه السن : الضحكة العالية .. فالفتاة فى سن المراهقة لها ضحكات ساخرة .. فهى تضحك على المحبين وعلى العشاق . وهى تضحك على الشبان . وتحرص على أن يسمع الشبان ضحكتها العالية ، بل الفتيات فى هذه السن يجدن متعة كبرى فى أن يتقربن من الرجال والنساء فى الحدائق العامة أو فى دور السينما . ثم يضحكن بصوت مرتفع . هذا النوع من الضحك هو نوع من الاحتجاج الصارخ أو السخط العالى . والفتاة تحتج على مصيرها . أو على ما سوف يحدث لها فى المستقبل . وفى هذه السن أيضا نجد الفتيات الصغيرات يستخدمن عبارات جريئة . وأحيانا ألفاظا نابية تصدم الأم والأب وتجعل وجه

الأخوة يحمر خجلا .. وهذه العبارات ، كالضحكات الساخرة نوع من الاحتجاج على الوضع . على وضعها كفتاة . وكثيرا ما لجأت الفتاة أيضا إلى تناول أطعمة غريبة تماما كأنها « تتوحم » .. وأحيانا تحب الأشياء القذرة . كأنها تريد أن تقول : ولا يهمني . ماذا يحدث لى . إذا كانت أمراضى الشهرية كامرأة هى أن يسيل دمى . وهذا شىء كريه . فإننى أقبله ولا أستنكره . وأقبل ما هو أسوأ من ذلك أيضا .

وأسوأ من ذلك هو قدرها كامرأة فى عالم الرجال . وكأنها تريد أن تقول : إن الرجل الذى سوف يكون زوجى فى المستقبل ، لن يستطيع أن يعذبنى أو يضايقنى أكثر مما أفعل بنفسى .

وكانت الفتاة ماريا بشكرتسف تقول : إذا كانت قبضة الرجل يمكن أن تخدش أصبعى ، فأنا سأقطع ذراعى حتى لا يتوهم أننى عاجزة عن احتمال الألم .. فأنا قد قبلت حياتى معه . وليست حياته معى مصيرا محتوما .

والفتاة تقاوم أو على الأصح « تفلفص » ، ولكنها لا تستطيع أن تتخلص من الرجل تماما .. ولذلك يمكن أن يقال إن المرأة تكافح الرجل وهى فى داخل القفص . ولكنها لا تفكر فى تحطيم القفص أو الخروج منه ..

حريتها مثل ضفيرتها : تقصها وتبكى عليها

- ٦ -

الدموع والصرخات والتقلبات العاطفية عند الفتاة المراهقة ليس سببها أنها ضعيفة جسميا . ولكن سببها أنها غير قادرة على التوافق فى البيت أو خارج البيت .

ومن مظاهر عدم التوافق احساسها بأنها لا هى طفلة ولا هى فتاة ناضجة . ومفروض أنها الاثنتان معا ، ولكنها لا تعرف متى تتصرف كطفلة ، ومتى تتصرف كفتاة .. وأن كانت تتعجل أن تكون زوجة لتتخلص من أعباء الطفولة والشباب فى نفس الوقت ، ولذلك تتمرد على هذه القوالب والقيود التى تضعها الأسرة والمجتمع ، أما هذه القوالب فهى أن : تكون الفتاة فى حالة انتظار ، وأن تخفى أفكارها وأن تربط مصيرها بشاب أو رجل لا تعرف عنه أى شىء .

وأحيانا نجد الفتاة فى سن المراهقة تصاب بجنون السرقة ، تسرق أى شىء دون أن تكون فى حاجة إليه ، وهذه السرقة هى نوع من تحطيم القيود أو القضاء على «الممنوع» وبذلك تؤكد استقلالها ، وقدرتها على أن تفعل شيئا ضد الآخرين ، ومن الغريب أن الفتاة التى تثور على أنها مجرد «شىء» فى الأسرة لا حيلة له .. تتحول بعد هذه الفضيحة «شىء» لا حيلة له .. شىء مفضوح يستحق العقوبة .

وربما كان حرص الفتاة على أن تحطم القيود يعادله حرصها على أن تتعذب أيضا . إنها لذة التعذب مرة أخرى .

أما لعبة المراهقة المتكررة فهى أن الفتاة تريد أن تأخذ دون أن يأخذها أحد ، فلا تكون ضحية لعمل قامت به ولذلك نجد بعض الفتيات يبعثن بخطابات مجهولة إلى أناس بقصد ازعاجهم أو افساد حياتهم الزوجية ، وأحيانا يخترعن قصصا وهمية عن بيوت بها عفاريت أو عن رؤية عفاريت .. هذا معناه أن الفتاة فى سن المراهقة تريد أن تؤكد لنفسها أنها تستطيع أن تفعل شيئا ، أن تزعج أحدا ، أى أنها قادرة على فعل شىء مخيف ، وليس صحيحا أنها لا تقدر على شىء ..

ولكن بعد أن تفعل الفتاة ما تريد فإنها تعود مرة أخرى إلى أن تكون « شيئا عاجزا » وإلى أن تتحكم فيها الأسرة مرة أخرى .. فكأن الحالة التى تهرب منها تعود إليها ، ولكن عن طريق آخر .

وقد تضيق الفتاة بقيود الأم ، فتخرج من البيت ، بلا هدف تمشى ساعات ، وأحيانا تختفى أياما ، ثم تعود إلى البيت ، ولو حاول انسان أن يقنعها بالعدول نهائيا عن العودة إلى البيت لرفضت ، فكأن الفتاة ترفض البيت وتقبله ، وكأنها ترفض القيود وترتضيها ، فالهرب نوع من المهزلة . فهى ليست جادة لأنها تريد أن تهرب وفى نفس الوقت لا تريد ذلك .

ولأن الفتاة تعيش معظم الوقت بخيالها تحلم وتنطلق إلى المستقبل البعيد ، ولأن الاحساس بالواقع أقل فإن الفتاة تتصور أنها عندما تخرج من البيت قد أصبحت حرة . وأن حريتها معناها تحطيم قيود الأم والأب نهائيا ، وقد تتخيل أيضا أن فى استطاعتها أن تعطى نفسها لأى انسان مجانا . وفى هذا العطاء المجانى اهدار لكل مقدسات الأم ، فكأن الذى يعنى الفتاة هو أن تتحرر من أمها فقط .. وليست الحرية كأسلوب أو هدف للحياة كلها ..

ومعنى هذا كله أن الفتاة إذا تمردت فهى داخل اطار ، فهى «عفريت» فى داخل زجاجة .. فهى دائما عفريت ودائما فى داخل الزجاجة .. أى أنها ترفض عالمها وتقبله دائما ..

ومرة أخرى إذا كان حاضرها لا يرضيها ، فإن مستقبلها أيضا لا يرضيها ، ولذلك تريد أن تقفز من مرحلة المراهقة إلى مرحلة الأنوثة الناضجة . ولكن رغم أهمية هذا الانتقال عندها ، فإنها لا تفعل شيئا جوهريا ، فالفتاة دائما مشغولة ، ولكنها ليست مشغولة بشىء ، فهى لا تفعل أى شىء ، ولذلك فهى لا تساوى أى شىء ، ومن الواجب أن تكون شيئا . لذلك يجب أن تفعل شيئا ، وهذا الشىء الذى تفعله هو الذى يحررها من البيت .. من الأسرة ، ومن هنا كان العمل ضروريا للفتاة .

وبعد أن تعمل الفتاة إلى جانب الرجل ، يلاحظ الرجل أنها مختلفة تماما عنه ، كاذبة ، فشارة ، وأنه لا يفهمها ، ولا يعرف متى يتمكن من ذلك . ولكن الفتاة وصلت إلى هذه الحالة لأسباب خاصة بها ، فهى محكوم عليها أن تخفى أسرارها ، أن تكذب أيضا ، فمنذ السادسة عشرة من عمرها تحدث فى جسمها تغيرات أساسية لابد من أن تخفيها عن عيون الشبان والرجال ، فالمراهقة عذاب والمرض الشهرى لعنة ، واليقظة الجنسية والرغبات الأولية والتحذيرات الكثيرة التى تصبها الأم فى أذنيها ليلا ونهارا ، كلها تحتم على الفتاة أن تخفى حالها ، وأن تتستر على ظروفها الغريبة . ولذلك اعتادت الفتاة أن تقفل على نفسها الأبواب والنوافذ وأن تمحو آثار كل ما بقى فى وجهها أو فى جسمها أو فى ملابسها ..

وقد صدر أخيرا فى أمريكا كتاب عنوانه «الأخلاقيات القديمة» لمؤرخ معروف اسمه بورتر . يحدثنا عن فتيات أمريكا سنة ١٩٠٠ ، هؤلاء الفتيات كن يأكلن الأطعمة الغارقة فى الملح والليمون حتى يتأخر المرض الشهرى بعض الوقت

لتتمكن الفتيات من الرقص مع الشبان دون أن يتمكن الشبان من ملاحظة شيء بمجرد لمس اليدين أو النظر فى العينين أو رائحة الملابس .. ومن الصعب طبعا أن تكون الفتاة أميرة للأحلام وجميلة وعندها احساس بأنها مريضة أو بسبيل أن تكون كذلك .

وموقف الفتاة من جسمها هذا معناه أنها ترفض هذا الجسم ، وهذا الرفض نوع من النفاق . لأنها لا تستطيع أن ترفض ما تعيش به وما تعيش عليه .. وإذا رفضته فإن أحدا لا يصدقها .. إنها هى لا تصدق نفسها إذا توهمت ذلك ..

وكيف تتوهم الفتاة أن جسمها هذا شيء تنكره أو تستنكره ، والدنيا تطالبها بأن تكون جميلة ، أو «شيئا جميلا» ، وجمال المرأة هو الذى يجنى عليها ، لأنه يدخلها فى تهمة أخرى : أنها كاذبة . فالمكياج والباروكة والسوتيان والكورسيه والكعب العالى والرموش والأظافر كلها أنواع مختلفة من الكذب ، وهذا الكذب معناه أن الفتاة ترسم كل ملامحها ، ويصبح هذا الرسم له معنى واحد : أن كل شيء ينتظر . وكل ابتسامة : دعوة ، وأنها هى من أولها لآخرها زهرة أو ثمرة تنتظر من يقطفها ..

وإذا كان التجميل نوعا من الكذب فالرجل شريك المرأة فيه ، لأن الرجل يطلب من المرأة أن تطارده وتلاحقه لتوقعه فى شباكها .. لتصيده فى النهاية ! وهو الذى يطالب المرأة أيضا أن تقوم بدور الفريسة المستسلمة له ، وأن تكون دائما هذا الكائن المحكوم عليه بالاغراء والانتظار . فإذا سقط الرجل من مصيدة المرأة ، اتهمها مرة أخرى بأنها غادرة وأنها خائنة ، وأنها هى التى خدعته والتى استدرجته .. جرجرته .. أدخلته المصيدة التى هى الحب أو هى بيت الزوجية .. فكأن الرجل يريد من المرأة أن تكون مصيدة ، بشرط ألا يقع فيها .

وإذا اتهم الرجل المرأة بالخداع والغدر فهو على حق ، لأن المرأة تعلم من

البداية أن مصيرها هو: الرجل.. وأن الرجل يجب أن يغزو وأن ينتصر والمرأة تمكنه من هذا الشعور ، فإذا انتصر وجد نفسه مهزوما ، ثار على المرأة . ولكن هذه الثورة لا معنى لها . لأن الثورة على المرأة معناها أن الرجل قد نسى شروط اللعبة . فليس من المعقول أن تلقى المرأة بنفسها عند رجليه . إنه يرفضها . وليس من الممكن أن تقاوم المرأة حتى النهاية لتكون : الشهيدة العذراء . فالمرأة التى تقاوم المجتمع والرجل تموت أو تصاب بالجنون ، فهى لا تضيع وقتها فى الانتظار ، وإنما هو انتظار مدروس محسوب .

ويحتار الرجل مرة أخرى فى فهم الفتاة ، فهى دائما مترددة ، ليست متأكدة ، وسبب ذلك أن الفتاة تعتمد فى كل شىء على غيرها ، رأيها فى نفسها ليس إلا صدى لرأى الآخرين ، كلمة من هنا ، وكلمة من هناك ، وهؤلاء الذين يقولون الكلمات هم الناس .. هم الرجال ، هم الأب والزوج والأخ ، هم الذين يحكمون الدنيا .. دنياها ودنيا كل النساء ، ولذلك فهى لا تعرف بالضبط : من هى ؟ ولا ما هى صفاتها ؟ ومن أجل هذا كانت شديدة الحساسية : كلمة تأخذها وكلمة تعيدها ، كلمة مدح تطير بها .. وكلمة نقد تنسفها . فالفتاة تستمد قيمتها من اتفاقها مع الرغبات والمزاج والمثل العليا عند الآخرين . وفى هذه المرحلة تجد الفتاة المراهقة أن زميلاتها أعداء لها ، ومنافسات خطيرات ، وباسم الغيرة تتخلص منهن واحدة بعد الأخرى .

والفتاة معذورة فى هذه المرحلة ، يكفى أن تتصور أن الفتاة فى سن الحياة والإقبال على الحياة والتفتح ليست لها إرادة مستقلة ، وإنما عندها فقط رغبات متقلبة . وفى نفس الوقت نجد الشاب له إرادة وله حياة وله مستقبل ، وأن مستقبلها من أوله لآخره يتوقف على ضرورة إسعاد رجل ـ أو على الأصح ـ على ضرورة «امتاع» رجل ، أيا كان هذا الرجل .

وتجيء الدموع والصرخات أسلوبا فى التعبير عن ضيقها وقرفها وتمردها .. ولكن رغم هذه الدموع ، ورغم أسبابها فإن حياتها النفسية أغنى وأكثر تنوعا من حياة أخيها ، لأنها مشغولة طول الوقت بإحساساتها ، وتأملاتها واسترجاعها . ولذلك لديها قدرة على الفهم ، وقدرة على التفرقة بين المشاعر المختلفة .. وتذوق الكلام الجميل : فى الشعر والأغانى ، هى أيضا تحب مشاهد الطبيعة ، لأن الطبيعة مثلها : جميلة مفتوحة الصدر والذراعين .. وتنتظر من يقطفها .

والمرأة تعلم فى هذه السن ، أنها لكى تكون مقبولة من الرجال ، يجب أن تعمل وتفكر كالرجال ، وفى نفس الوقت ألا تكون كالرجال . لأنه من الضرورى أن تكون أنثى دائما ، والمرأة تعرف قيود الأنوثة الناعمة المتينة ، وهذا ما شكت منه الأديبة العربية « مى » عندما بعثت بخطاب إلى الشاعر جبران خليل فى سنة ١٩١٢ تقول له : آه .. إنها تلك القيود الحريرية الدقيقة كنسيج العنكبوت ، المتينة كأسلاك الذهب ..

والأديبة الانجليزية الكبيرة فرجينيا وولف تحدثنا عن أدق مشاعر المرأة عندما تقول : عن طريق اغرائى للرجال وإطراء الرجال لى يصبح لى طموح .

ومعنى ذلك أن المرأة لم تعد ترتجف لنظرات الرجال وتكتفى بهذا القدر ، وإنما تذهب إلى أبعد من ذلك فى خيالها . إنها تراقب وتدرس وتحسب وتتخيل انتصارها فى النهاية .

وتقول فرجينيا وولف أيضا : نظروا إلى .. ونظرت إليهم ، ونظروا .. وانتظرت ، وأحسست بأن لى جذورا .. وأحسست أننى راسخة ، ولكننى فى نفس الوقت أطفو على وجه الدنيا من شدة الفرح .

وكلما كبرت الفتاة زادت توصيات الأم ونصائحها ، وزادت هموم الفتاة أيضا ، فإذا عملت الفتاة فى البيت ، ضايقها ذلك ، لأنها لا تريد أن تظل عضوا

فى هذه الأسرة تعمل من أجل أمها وأخواتها ، وإنما تريد أن تعمل لنفسها .. لبيتها وأولادها ، وإذا رزقت أمها بأولاد ، فإن الفتاة «تشمت» فى أمها وتقول فى نفسها : اعملى الآن من أجل أسرتك الخاصة .

وإذا اشتغلت الفتاة خارج البيت فإنها تكره العودة إلى البيت ، لأنها فى البيت يعاملونها كما لو كانت طفلة فى حين يعاملونها خارج البيت على أنها شخصية مستقلة ذات سيادة ، ولذلك تفكر الفتاة فى الزواج .

ومن المألوف أن تفكر الفتاة فى الحب لا فى الزواج فى مرحلة المراهقة وتفكر فى الزواج لا فى الحب بعد ذلك . ولكن قيود البيت هى التى تفرض على الفتاة أن تهرب بالزواج . وفى هذه الحالة لا تنظر إلى الزوج على أنه كائن مقدس ، وإنما فقط على أنه كمسارى « أتوبيس الحرية » من قيود البيت ، وسلاسل الأب والأم والإخوة. وفى هذا الوقت يطرأ شىء غريب على الفتاة فهى تتخلص من كل صديقات الدراسة .. فالصديقة التى أصبحت ست بيت تضايقها ، والصديقة الجميلة تخيفها وتشعل الغيرة فى قلبها .

واحتياج الفتاة إلى الزوج ، والبحث عنه ، يجعل عالمها ضيقا ، وأفكارها محدودة ، وهدفها مركزا ، فإذا لم يأت الزوج أصابتها المرارة والأرق .

والمرأة العاملة لها مشكلة : هى أنها تريد أن تنجح وفى نفس الوقت أن تكون أنثى ، أى تكون جميلة ، وهذا يرهقها ، ويبدد قدراتها ، وربما كان هذا هو السبب الحقيقى فى عدم تفوق المرأة فى كثير من مجالات العمل . وإذا اضطرت المرأة إلى أن تختار بين العمل أو الدراسة وبين الزواج فإنها تختار الزواج. ولا تشعر المرأة بأنها خسرت كثيرا ، لأن الذى بذلته من مجهود فى هذا النشاط الخارجى ليس شيئا كبيرا ، فهى لم تخسر عندما تركته ، ولم تكسب عندما حرصت عليه ، ولكن الزواج يعطى للمرأة وضعا اجتماعيا ووزنا وقيمة ، فالمجتمع هو الذى كافأ

المرأة على جمالها جسما ونفسا بالزواج . فالزواج بطاقة شخصية وجواز سفر ودلالة القبول والامتنان . والمرأة تعلم أنها لا تستطيع أن تحقق شيئا من الاحترام التام إلا بالزواج .

وإذا كانت الفتاة تشكو من قيود الأم ، وتريد أن تتحرر بالزواج ، فإن الزواج قيود أخرى .. وإذا قررت المرأة أن تتحرر من قيود الزواج ، فإن هذا يعذبها أيضا ، فحرية المرأة مثل ضفائرها تقصها وتبكى على ذلك ، فهى تنتقل من قيود إلى قيود أخرى .. وليست هى وحدها ، ولكن الرجل أيضا ، لأنه لا توجد حرية مطلقة .. وإنما الحرية هى اختيار أكثر القيود خفة ومتعة وفائدة لنا جميعا .

كانوا يزوجونها أصبحت هي التي تتزوج

- ٧ -

كل فتاة تتمنى الزواج .. وكل زوجة تندم عليه .

ولكن الزواج ، رغم ذلك ، ضرورى للمرأة . أما رأيها فى الزواج بعد ذلك ، فهو مثل رأيها فى الأزواج ، يتغير حسب الأحوال وحسب مراحل العمر المختلفة . ولكن سوف يبقى الزواج درعا حيويا لها .. يحميها من المجتمع .

والمجتمع هو الذى فرض عليها هذه العلاقة ، فالمرأة لا يكتمل وضعها النفسى والاجتماعى والاقتصادى إلا إذا تزوجت .

ولذلك فالفتاة ليست مخطئة إذا سئلت عن مشاريعها للمستقبل فقالت : أريد أن أتزوج أولا .

أى أنها تريد أن تتزوج أولا وبعد ذلك يكون أى شىء آخر . ومن بين الأشياء الأخرى قد يكون تخلصها من الزواج نفسه .. ولكن لابد أن تتزوج أولا ..

وفى المجتمعات القديمة كان الرجل لابد أن يجد الزوجة .. يخطفها أو يشتريها .. أو يبادل عليها بالأبقار والجواميس أو ثمار الغابة .. وكانت المرأة ضرورية لأنه يريد أولادا . ولا توجد وسيلة أخرى – حتى الآن – للحصول على أطفال من غير المرأة ، وإن كان العلم الحديث يحاول ذلك .

وعلى الرغم من أن الزواج أصبح عقدا بين رجل وامرأة ، على مسمع من الدولة ـ أو على الأصح ـ بضمان الدولة ، فإن الرجل والمرأة ليسا متساويين فى الحقوق والواجبات . فلا يزال الرجل فى وضع أحسن . ليس فى الشرق فقط ، بل وفى الغرب أيضا . فلا يزال الزواج هو الوسيلة الوحيدة للمرأة فى أن تكون فى « المسار » الصحيح . وأن يكون لها وزن اجتماعى . وأن تكون « مأمونة » تستطيع أن تدخل كل بيت وأن تنتقل من مكان إلى مكان دون خوف .. ومن الممكن أن تجد الزوجة نفسها تقول : أنا زوجة فلان وهى تقصد بذلك أنها الزوجة وأنها سيدة محترمة .. وهى فى نفس الوقت لا تحترم الزوج ولا تراه شيئا هاما . وإنما هى فقط تجعل من زوجها سلاحا تشهره فى وجه الناس سلاحا تخيف به ولا تحترمه .. ورغم ذلك فهو السلاح الوحيد الذى يمكنها أن تستخدمه أو تعتمد عليه .

وإذا كان الزواج عقدا ، فالخيانة الزوجية اخلال بهذا العقد . والطلاق فسخ للعقد .

ولأن المجتمع هو الذى يغرى الفتاة بأن تتزوج ، فالمجتمع هو الذى ضمن للفتاة حقوقها . وضمان هذه الحقوق مكافأة للفتاة على أنها تزوجت . فالمجتمع يحتم أن يكون هناك مهر ومقدم ومؤخر ونفقة إذا تم الطلاق . وبذلك لا تخاف الفتاة إذا تزوجت ولا تخاف إذا طلقت .

والمجتمع يشجع الزواج لأنه لابد أن يكون هناك أطفال . أى لابد أن يستمر . ولا يحدث أن يتدخل المجتمع فى إنجاب الأطفال إلا قليلا : فى أيام اسبرطة القديمة ، وفى ظل النازية فى ألمانيا . فالدولة هى التى تختار الأمهات القادرات على الولادة وهى التى تحدد عدد الأولاد .

والمجتمع يرى أن الزواج ضرورى لأنه لابد أن يكون للفتاة زوج . أى أن المجتمع لا يفضل أن يكون هناك فتيات آنسات عانسات . ففى زواجهن تعديل

للقيم وانكماش للرذيلة . وليس معنى ذلك أنه لم تكن هناك رذيلة فى كل العصور . كانت هناك رذيلة وما تزال وسوف تبقى . وكانت هناك دعارة وما تزال وسوف تبقى أيضا . وكان للرجال صديقات . ولكن ظل المجتمع يحترم العلاقة الزوجية . ويطالب باحترامها أيضا . وإذا أساء الرجل إلى زوجته ، فإن المجتمع يعطيها الحق فى أن تعود إلى أهلها .. وقد أسرف الفراعنة فى تعويض المرأة عن خسائرها تماما كما يفعل الأمريكان اليوم .

والزواج عبء على الاثنين ، ومنفعة لهما .. والزواج كالولادة : فيه أعظم لذة وأكبر ألم .

وكل اجتهادات العلماء هى فى كيف تبقى اللذة مدة أطول من الألم . ولابد أن استمرار الزواج حتى الآن دليل على أن أكثر الناس لم يفقدوا الأمل .

وما يزال المجتمع ينظر إلى الفتاة التى لم تتزوج على أنها فتاة « ضائعة » .. أو « بائرة » . وهى اهانة للفتاة لأن معنى ذلك أن أحدا لم ينظر إليها .. وأن الذين نظروا إليها ووضعوها فى عيونهم سقطت هى من عيونهم .. فهى لم تملأ العين لأن بها عيوبا جوهرية . ولذلك فالفتاة تحب أن تتزوج . وأمها تعلم ذلك وتشجعها .

ومنذ أقدم العصور نجد الأمهات يدفعن البنات إلى طريق ابن الحلال وبأشكال مختلفة . ومن النقوش السومرية القديمة فى العراق نجد امرأة تمسك ابنتها .. والأم بعين واحدة .. أو على الأصح بعين مقفلة والأخرى مفتوحة . ويقال فى تفسير هذه العين الواحدة أن الأم تغمز لابنتها عند مرور أحد الشبان .

وفى إحدى روايات الأديب الفرنسى زولا يصور لنا ماذا جرى عندما زار الأسرة شاب غنى . وكان عشاء وكان رقص . وجاءت الأم تسأل ابنتها : لاحظت أنك ترقصين معه كأنك لوح خشب .

وقالت الابنة : كيف أرقص مع رجل غريب ؟ .

وقالت الأم : بعد أن أمسك يدك ، ظل غريبا .. وبعد أن اقترب وجهه من وجهك .. وبعد أن رأيت لمعانا غريبا فى عينيه .. ألم تلاحظى أن يده ترتجف .. وأن هناك قطرات من العرق على جبينه .. كل ذلك يدل على أنه ليس غريبا .. وإنما على أن فى داخله عمليات كيماوية .. هذه العمليات هى الشىء الضرورى .. هى الدليل على أن قلبه قد تحرك .. فماذا فعلت ؟ .

قالت الابنة : لم ألاحظ ذلك ..

قالت الأم : ولكنى لاحظت أنه اقترب منك أكثر وأكثر .. ثم وقعتما أنتما الاثنان فى ركن من الغرفة .. ماذا حدث .. ؟ .

فقالت الابنة : حاول أن يقبلنى فألقيت به على أحد المقاعد .

قالت الأم : على أحد المقاعد .. تريدين أن تكسرى المقاعد الجديدة . وهل تظنين أن والدك يتعب ويتعذب ليلا ونهارا لكى تحطمى هذه المقاعد .. لماذا لا تتظاهرين بأنك لا تفهمين ماذا يقصد . وأن هذه القبلة جاءت مفاجأة لك . إن هذا يؤكد سذاجتك وبراءتك .. ولا شىء يغرى الرجل ويوقعه أكثر من فتاة ساذجة .. وفى سذاجة الفتاة أعظم الخبث واللؤم .. هل تعرفين كيف تزوجت أباك .. إنه ما يزال يتحدث حتى الآن على خيبتى .. وكيف أننى لا أعرف معنى أن ينام زوجان فى فراش واحد .. وهكذا تصور .. وهكذا جعلته يتصور .. وهو سعيد وأنا أيضا .. وكان لنا من هذه العلاقة السعيدة ، ابنة تعيسة مثلك .. الخ .

فهذه الأم تريد أن تلقى بابنتها فى أحضان رجل ، أمام عينيها ، وبعلمها من أجل الوصول إلى نتيجة مؤكدة : الزواج .. لأن الزواج ، بكل عيوبه ، أهون من بقاء الفتاة فى البيت .

فالزواج يعطى الفتاة ضمانات قانونية ضد نزوات الرجل . ولكن فى نفس الوقت يجعلها الزواج تابعة للرجل . تأخذ اسمه فى الدول الأوربية ــ وتحاول أن

تفعل ذلك فى الدول الشرقية .. وتنتقل إلى أسرته وتصبح « نصف » الرجل . أو نصفه الآخر . وتذهب إلى أى مكان يذهب إليه . وإذا عمل الاثنان فى مكانين مختلفين ، فإنها تنتقل بعملها إلى حيث يعمل الرجل أيضا ، وتعطيه نفسها وجسمها .. وبذلك تفقد بعض حقوق المرأة غير المتزوجة .

والزواج مفروض على الفتاة ، وليس مفروضا على الفتى . فالفتاة إذا لم تتزوج فإنها تظل خادمة فى البيت ، أو تابعة لأخيها الأكبر . أو لزوجة الأخ . أما إذا تزوجت تحررت واكتسبت حقوقا جديدة . وكثيرا ما فضلت الفتاة الزواج على العمل خصوصا إذا كان الزوج له وضع اقتصادى أفضل ، أو سوف يحقق نجاحا أكثر من نجاحها .. فالزواج أحسن من وظيفتها .

وما يزال المجتمع ينظر بنصف عين إلى الفتاة المتحررة . وأكثر المجتمعات تقاوم هذه الفتاة . صحيح فى فرنسا لا يوجد نص قانونى يعاقب على الخيانة الزوجية ، ولكن مع ذلك هناك فى كثير من الريف الفرنسى قيود شديدة على الفتاة . بل أن هناك مراسم وتقاليد صعبة وخصوصا فى ليلة الزفاف . وهناك دخلة وهناك مراسم لإعلان أن الفتاة كانت عذراء وأن هذا هو مصدر فخر الأب والأم وأن هذا فى الريف فقط ، بعض الريف .. أما فى أمريكا فالفتاة حرة . ولكن الفتاة لا ترى نفسها طبيعية إلا إذا تزوجت مرة .. فإذا كانت مطلقة عاودها القلق من جديد . فلابد أن تتزوج وأن تبقى زوجة أيا كان رأيها فى الزوج وفى الزواج . فإذا كانت الفتاة أما بلا زواج ، فهذه مشكلة لها ولطفلها .. وفى المجتمع الأمريكى يوجد أناس محافظون إلى أقصى درجة . بل إن كثيرا من العائلات الأمريكية الريفية تبعث بالبشرى إلى أقاربهم فى أوربا ان ابنتهم عندما تزوجت كانت عذراء .. أمام شهادة الشهود .

والمشكلة الصعبة هى أن كل الفتيات يردن أن يتزوجن ، وكل الشبان

لا يريدون ذلك . ولكن يتم الزواج رغم ذلك وينتشر ، وليس ذلك دليلا على أن الفتاة قادرة على تحقيق أحلامها ، وأن الفتى عاجز.. ولكن على أنه رباط ضرورى ، والإنسان أمام الضرورة يحاول أن يؤكد لنفسه أنه ليس مضطرا ، وإنما هو اختار ذلك ، ولهذا يتحدث عن الزواج كرغبة وأمل وحلم ورباط واستكمال الوجاهة الاجتماعية والأخلاقية . والحقيقة أنه ضرورة ، وأن الإنسان يضع على الضرورة ورودا : يزينها ويخفيها فى نفس الوقت ..

والشاب لا يرى أن الزواج مشروع كبير ، وأنه مستقبل ، وأن من الضرورى أن ينجح الزواج ، فالزواج أحد مشروعات الرجل ، احدى المحطات فى حياته .. وليس الزواج حياة الرجل ولا هو مستقبله ولا الفشل فيه فشل عام . على عكس الفتاة . والحياة الحديثة قد سهلت للرجل الكثير ، وهونت عليه الكثير أيضا . فهو يستطيع أن يجد المسكن والمأكل وغير ذلك دون أن يكون زوجا ، ودون أن يحتاج إلى زوجة ، ولكن الزواج يعطيه البيت الخاص والمزاج الخاص ، والأمان والأطفال وهذا مالا يستطيع أن يجده بغير زواج ..

وليس الزواج تقريبا لوجهات نظر مختلفة بين الرجل والمرأة ، وإنما الزواج هو تقريب رجل وامرأة فقط . وقد تبقى وجهات النظر متباعدة ، كما يجلس اثنان متجاورين وقد نظر كل منهما إلى ناحية .. أو كما يجلس انسان فى المقعد الأمامى للسيارة ، أحدهما يقود والآخر يتفرج ، فهما متجاوران فى المكان ، وليس فى الهم والاهتمام .

وعندما سئل أديب فرنسا بلزاك عن دور المرأة فى الحياة الزوجية قال : المرأة هى الشجرة والرجل هو الماء والهواء ، ومعنى ذلك أنهما ضروريان . وليس هذا هو رأى الزوجين عادة ، فلا أحد بالذات ضرورى للآخر ، لأنه من الممكن أن يكون للزوجة أى رجل آخر ، وأن يكون للرجل أية زوجة أخرى فالضرورى فقط هو :

اثنان .. أى اثنين ، لتكون حياة ، أية حياة . وليكن أولاد .. أى عدد .

وفى العصور الوسطى وقعت قصة مشهورة بين رجل وامرأة ، وكان الخلاف على ولد ، وأيهما أحق به من الآخر . وقالت الأم : أنا أول وجه رآه .. وأنا وحدى الذى أستطيع أن أقول إنه ابنى .

ولم يكن لدى الرجل ما يقوله : فلا هو رآه .. ولا هو قادر على أن يقول إنه ابنها أو ابن غيرها .

وعلى الرغم من تفاهة هذه الأسباب فقد حكم القاضى للأم بأن تحتضن طفلها .

وفى الأدب العربى حادثة مشهورة فقد اختلف أبو الأسود الدؤلى هو وزوجته على حضانة طفل فى السابعة من عمره . ودار بينهما حوار عنيف أمام القاضى .

قالت الزوجة : هو ابنى ، كان بطنى وعاءه ، وحجرى وقاءه ، وثدياى سقاءه ، أرعاه إذا نام وأحفظه إذا قام .. سبعة أعوام .

وقال الزوج : أنا حملته قبل أن تحمليه ، ووضعته قبل أن تضعيه ، وأمنحه اليوم علمى وحلمى ..

وقالت الزوجة : أنت حملته خفيفا وأنا حملته ثقيلا ، وأنت وضعته فى لذة ، وأنا وضعته فى ألم .

ومن الطبيعى أن يحكم القاضى للأم .

ومن الطبيعى أن يظل هذا الخلاف قائما بين الرجل والمرأة على أهمية الدور الذى يؤديه الواحد فى حياة الآخر .. ربما كان دور الاثنين تافها ولكن من المؤكد أنهما يؤديان دورا هاما للمجتمع وللطفل .

وهذا هو الذى يعبر عنه الأديب بلزاك بقوله : الطفل هو : دقائق من اللذة وشهور من الألم .

والزواج قديما هو الشرف ، بمعنى أن الزوجة يجب أن تحافظ على شرف الزوج مقابل ما يقدمه لها من طعام وشراب وهدايا ، فهو يصونها وهى تصونه ، وعلى الرغم من أن هذا المعنى يبدو عنيفا ، فإنه ليس بعيدا عن الحقيقة ، فالزواج شركة اقتصادية كل واحد يدفع ما يقدر عليه ، وعندما يفض الزوجان هذه الشركة يكون السبب عادة : أن كل واحد منهما لا يدفع نصيبه المتفق عليه .

والزواج غير الحب ، فمن الممكن أن يكون زواج بلا حب ، ومن الممكن أن يكون حب بلا زواج ، ولكى يلتقى الحب بالزواج يحتاج الإنسان إلى معجزة . أو شىء كالمعجزة ، والفيلسوف الوجودى المؤمن كيركجورد يقول : الحب تلقائى والزواج إرادة .

أو بعبارة أخرى : أن الحب ينطلق من القلب دون أن تكون لنا إرادة ، أما الزواج فقرار يتخذه العقل . أو بعبارة أسهل : الحب كماء الينابيع ، والزواج كماء الحنفية .

ويقول الفيلسوف كيركجورد : الله وحده هو القادر على أن يجعل الزواج يجلس عند صدر الحب ويرضع لبن الحياة الدائمة .

أما الفيلسوف نفسه فقد تخلى عنه الله .. ولم يفلح الفيلسوف أن يتزوج محبوبته ، لقد تركته ، لماذا ؟ لأن الزواج أسهل مما تتصور ، فقد كان ينتظر المعجزة ، أما هى فلا صبر لها على انتظار المعجزات ، وإنما تقدم لها شاب آخر أكثر ثراء ، وأصح جسما وعقلا ، وقال لها : ما رأيك فى أن نتزوج ، كان ردها : لا مانع .. وقال لها : ولكنك كنت مخطوبة للفيلسوف ؟ وقالت : هذا صحيح ولكن لم أفهم منه أننا سوف نتزوج ..

ومعنى ذلك أنها تزوجت الذى لم يخطبها ، ولم تتزوج الذى خطبها ..

وأهم من هذه القوانين بين الرجل والمرأة فى النظر إلى الزواج : أن الزواج لا يعطل الرجل ، ومن الأفضل ألا يعطله ، ولذلك فالرجل حياته خارج البيت . عمله . مستقبله . قدرته على التغيير والتطوير ، ولذلك فمستقبل الرجل بلا نهاية .. وللرجل أهمية اجتماعية تاريخية ، لأنه مربوط بالتقدم وبالحضارة الإنسانية كلها .. ولكن الزواج يربط المرأة بالبيت ، وحتى لو كانت عاملة فإنها فى النهاية تعود إلى البيت ، وفى البيت يصبح عالمها أصغر . أضيق . وتصبح مشغولة بالرجل وأولاد الرجل ، وتبدأ المعركة التى لا تنتصر فيها أبدا : معركتها مع النظافة ، فهى تعمل كل يوم على ترتيب البيت وتنظيمه وتنظيفه .. فلا التراب يختفى ، ولا المقشات ، ولا أمل فى النصر على القذارة ، ولكثرة انشغال المرأة بالتراب تتخيل فى بعض الأحيان أن كل شىء فى الدنيا تراب ، وأنه من الممكن تنظيفه وغسله .. وفى إحدى روايات الأديب الفرنسى مونترلان يدخل الزوج فلا يجد زوجته وإنما يجد ابنته الصغيرة تمسك فوطة وتمسح بها المقاعد ، ويضحك الأب لرؤيته ابنته الصغيرة ويقول لها : فى هذه السن المبكرة تصابين بجنون النظافة ؟ ويكون رد الطفلة : إننى مثل ماما .. ويكون رد الأب : تماما .. أنت تقلدين الجنون . وتقول الطفلة بذكاء وخبث : ماما مجنونة ؟ ويضحك الأب قائلا : فعلا مجنونة .

وتقول الطفلة بخبث أشد : هل هى مجنونة لأنها تقول إن كل شىء يمكن غسله إلا أباك .

والطفلة أصابت قلب أبيها .. وقلب الحقيقة برصاصة واحدة ! .

وعلى الرغم من أن الزواج لقاء بين اثنين .. أو خلاف بين اثنين ، فإن هذا الرباط لم يكن عادلا دائما ، فلا يزال الرجل صاحب الكفة الراجحة .. ولا يزال فى كل مكان يظلم المرأة ، حتى فى أكثر المجتمعات تقدما ، ولكن من المؤكد أن هناك

تغييرات جوهرية قد حدثت فى كل المجالات ، فلم يعد الزواج حفرة فى الأرض تسقط فيها الفتاة ، وينهال عليها الرجل ، ولم يعد الزواج مصيدة تدخلها الفتاة عمياء .. وإنما أتيحت للفتاة فرص كثيرة لأن تفهم ولأن تختار ولأن تذاكر دورها فى التمثيل على أهلها فى « اختيار » الزوج ، الذى اختارته واتفقت معه على الزواج قبل أن يتقدم لأهلها .. وإذا كان آباؤها يزوجونها قبل ذلك ، فإنها هى التى تختار زوجها ، ولابد أن يكون هذا هو الأسلوب فى الزواج ، فقط الأسلوب . أما ما بعد الزواج فقصة أخرى ومسئوليتها وحدها ، أو مسئوليتها المشتركة ..

ومنذ أكثر من ألف سنة أشفق الكاتب العربى الجاحظ من هذه الخلافات التى بين الرجل والمرأة ، وراح يحصى المزايا والعيوب عند الرجل والمرأة ، ولكنه كان أميل إلى تحرير المرأة من قيود الرجل ومن ظلم الرجل أيضا ، ففى كتاب له اسمه «النساء» يندهش كيف أن الرجل يأخذ حقوق أمه ويعطيها لأبيه .. وحقوق عماته وخالاته ويعطيها لأعمامه وأخواله ، ويندهش أكثر من أن الرجل يسمى عملية الأخذ الظالم والعطاء الأحمق نوعا من العدل الانسانى .

والأديب بلزاك يقول : ليس لأن المرأة قد طال لسانها أكثر من اللازم نختصر بقية أطرافها عقابا لها على ذلك .

وعبارة بلزاك حكيمة وبليغة لولا أن أطراف المرأة ، مثل عمرها طويلة أيضا ..

الزوجة من صنع الرجل : نظرة قديمة

- ٨ -

الأديب الروسى تولستوى : أسوأ زوج تعيس فى تاريخ الأدب .

فقد كان أميرا غنيا . وكان شابا . وكان أديبا . وأحبته فتاة صغيرة . وجلست عند قدميه وسمعته يقرأ مقالاته . وانهارت وذابت . وأحبها . وتم الزواج . ومع الزواج ولدت التعاسة والجنون . أما هو فرجل دميم الخلقة - أقبح قليلا من الفيلسوف سقراط أتعس الأزواج فى العصور القديمة كلها .

وكان تولستوى يخون زوجته مع كل فلاحة تقترب منه وكانت زوجته تعلم ذلك . وربما كان هذا هو السبب فى حرصها على أن تحمل وتلد له عشرين ولدا . فقد أصيبت الزوجة بجنون الحمل والولادة . كأنها تريد أن تؤكد لعشرات الفلاحات أنها ماتزال على صلة بالزوج . وأنها هى وأولادها سوف يرثون الأرض .. حتى الأرض قد وزعها تولستوى على الفلاحين ، فلم ترث زوجته إلا المرض والجنون والهوان والفقر . وعندما ذهبت الزوجة إلى القيصر تشكو زوجها ، سجل الزوج هذه الفضيحة فى إحدى قصصه . ولما أحس تولستوى أنه سوف يموت هرب حتى لا يكون وجه الزوجة هو آخر لعنة يراها قبل أن يموت .

ولحسن حظ المرأة ، أنه لا يوجد فى الدنيا رجال كثيرون مثل تولستوى وأنه

ليس من الضرورى إذا وجد مثل تولستوى أن تحمل المرأة كل هذا الهوان معه.. فنى استطاعتها أن تتركه . وفى استطاعتها أن تتزوج غيره . وليس من الضرورى أن يكون لها من كل زوج عدد من الأولاد . يربطونها به .

وهذه الحياة التى عاشها تولستوى قد سجلها فى قصة «الحرب والسلام» فقصة الفتاة ناتاشا وزوجها بيير هى قصة حياة تولستوى نفسه . وعندما حاولت زوجة تولستوى أن تدافع عن نفسها ، كتبت « يوميات » وقد ظلمت نفسها كثيرا . وأساءت إلى عواطفها . فقد كان تولستوى أذكى وأخبث وأعمق عندما صورها بصورة جميلة ظالمة ، وصورتها العادية لم تكن جميلة .

وزوجة الأديب راسين لم تكن تهتم كثيرا بعمله ، قدر اهتمامها بشجيرات الحديقة ..

والأديب بلزاك يقول : ليس من الضرورى أن يكون اهتمام المرأة بعمل زوجها مصدر سعادة له . فالمرأة عندما تهتم بالرجل يكون موقفها كرجل البوليس يبحث عن آثار جريمة ، أو مبررات جريمة . إنها تهتم لكى تتهم .

والأديبة مدام شاربير كانت زوجة لرجل ذكى عاقل ، عالم ، ولكنه مشغول عنها . ولذلك عندما كتبت رواياتها وصفت التعاسة الزوجية . وقالت : إن يكون اثنان معا ، وليست بينهما صلة . فكل شىء يؤكد انهما اثنان منفصلان . وتقول مدام شاربير أيضا : لقد اعتدت على وجود زوجى فى البيت .. كما اعتدت على رؤية السحاب فى السماء .. أو على رؤية هذه الجبال .

وقالت الأديبة كوليت عن زوجها : له مزايا كثيرة .. ومن أهم مزاياه أنه يعطينى شيئا من الارتياح عندما يقفل الباب وراءه ويخرج صباحا ويعود مع الفجر . تلك لذة لا أشعر بها لأحد من الناس .

وتقول عنه أيضا : عندما مرض انزعجت . فقد أحسست أن راحتى عند

خروجه من البيت سوف تضيع مني . فتمسكت به .. تمسكت بهذا الضيف الدائم الذى لا يذيقنى طعم الراحة إلا قليلا . لعل الله يشفيه ويخرج من البيت ! .

ولكن لأن هؤلاء جميعا صناعتهم الكلام والخيال ، ولأنهم على درجة شديدة من الحساسية فإنهم يبالغون فى تصوير مشاعرهم . ولا يهمهم مدى انطباقها على واقع حياتهم . وإنما يهمهم فقط هذا الاطار الفنى وما يضعون فيه من صور فنية .. صادقة أو كاذبة . ولابد أن الله لطيف بالرجال والنساء جميعا عندما لم يجعل من بينهم عددا كبيرا من المهتمين والمهتمات بالأدب والفن .. وإلا تحولت الدنيا إلى قطعة رائعة من جهنم .

ومع ذلك فالبيت ـ أو الحياة الزوجية ـ فيها كل أنواع اللذة والألم . صحيح تغيرت اللذة والألم . ولكنها دائما هناك . لقد اتسعت الدنيا أمام الفتاة الآن . ولم تعد مثل جدتها مربوطة فى البيت إلى جوار النافذة ويدها على خدها تنتظر السيد المطاع : الزوج . ولم تعد الفتاة تضع كل همها وغلها أيضا فى شغل البيت . تكنس وتغسل . وفى عمليات الكنس والغسل رفض للبيت وللحياة فى البيت . ولم تعد المرأة تجد كل راحتها فى أن تعبر عن ضيقها باستخدام المقشات وغلى الماء واحراق الأخشاب وكأنها فى معركة . تحرق عدوا أو ميكروبا أو عفريتا فى البيت . وفى هذا كله تعبير عن رغبتها فى الانتقام والتحرر من قيود البيت وصاحب البيت وسلطات المجتمع . وأصبحت الأجهزة الحديثة تتولى هذه الأعمال بالنيابة عن المرأة ، وبدون غيظ أو شعور بالانتقام من الرجل .

ومن الغريب أن المرأة التى تهتم جدا بالبيت وبنظام البيت وترتيب البيت ليست هى دائما السعيدة فى حياتها . كأنها تعوض السعادة بشغل البيت . ولكن لابد أن يكون الفراغ الهائل فى حياة المرأة هو الذى يجعلها تشغله بهذا العمل المستمر

فى إدارة البيت .. فمن الملاحظ أن نساء هولندا أنظف نساء العالم . ومن المؤكد أنهن أقل النساء ميلا إلى الجنس .. ونساء البحر الأبيض المتوسط أقل اهتماما بنظافة البيت ، ولكنهن أكثر النساء اهتماما بالجنس . ومع الاهتمام الشديد بالجنس يختفى الاهتمام بالنظافة والعطور .. وهناك نظرية تقول : إن الاسراف فى نظافة البيت دليل على أن صاحبة البيت عصبية . وأن مزاجها العصبى هو الذى يجعلها لا تطيق القذارة أو الاهمال . بل إنها تفرض على أهل البيت نظاما دقيقا . ولذلك كانت هناك بيوت يعيش فيها أهلها بصعوبة ! . لأن كل شىء فى البيت يصرخ قائلا : لا تلمسنى .

وأعجب من ذلك أن البيوت النظيفة جدا ، أى التى يعمل فيها الخدم ، نجد أن هؤلاء الخدم مطالبون بألا يلمسوا شيئا هم أيضا ـ مع أنهم هم الذين غسلوا وكنسوا ونظفوا .

ولكن المرأة عند زواجها ، تخرج من الفراغ بأن تشغل نفسها بالرياضة أو العمل فى الجمعيات .. أو بالعمل .. أو بالكلام فى التليفون أو بتربية الأطفال . ولكن من أهم ملذات المرأة أن تذهب لشراء شىء . إن عالم الشراء متعة ، اكتشاف ، اختراع . فالمرأة ترى وجوها وتقابل أناسا ، وتسمع وتعود إلى البيت وقد امتلأت عيناها بالمناظر وأذناها بالقصص وشنطها بالبضائع . وليس من المهم أن تكون مشترياتها ضرورية ليس هذا هو المهم . وإنما الذى يسعدها أنها تتصور أنها ضحكت على أحد الباعة . واشترت منه سلعة بثمن أرخص . أى أنها حققت شعارا هاما فى حياتها : الأحسن والأرخص . ولكن من الممكن أن يكون الذى اشترته ليس ضروريا ، ولكن الضرورى أنها ضحكت على البائع . مثلا : لو فرض أنها ذهبت لشراء شنطة يد بعشرين جنيها ، فى حين أنها كانت معروضة للبيع باثنين وعشرين جنيها . فهى قد اشترتها بثمن أرخص . وقالت له وقال لها .

وناقشته وغلبته وضحكت عليه . والنتيجة أنها اشترت شنطة غير ضرورية ، وفى نفس الوقت غالية ..

ولكن البيت وحياة البيت والعمل فى البيت ، كل ذلك نشاط مغلق . نشاط ليس له مستقبل . فالبيت لا يؤدى إلى تطور الحياة العامة . ولا يساعد الحضارة على تقدمها . ولذلك فالمرأة فى البيت عائق لقدراتها ومضيعة لنشاطها ودورها فى الحياة . ولذلك فالمرأة عندما تحررت من البيت ، فتحت لنفسها بابا على المستقبل . وجعلت البيت جانبا من حياتها .

ولا يمكن أن تتحرر المرأة ولا أن تحقق شيئا إذا كان الزواج هو قدرها النهائى الوحيد . ربما كان ذلك أحسن وأهدأ . ولكن العمل خارج البيت واعتمادها على نفسها ، يعطيها الحرية والتعاسة معا .

ولا شك أن حياة البيت فقط مقبرة لمتعة الحياة ووهج الشباب .. ولكن لا يمكن أن يحصل الانسان على كل ما يريد بلا مقابل . فكل شىء له ثمن . والثمن ندفعه عادة من راحتنا وسعادتنا .

وقد تتصور أن العشرة الزوجية تؤدى إلى الفهم . أو التفاهم . فمن الممكن أن يتعايش أناس غير متفاهمين ويظلوا على ذلك حتى يجمع الموت بينهم فى وفاق تام تحت الأرض . وكثيرا ما أقام رجل وامرأته فى بيت دون أن يسأل الواحد الآخر عن متاعبه ومشاكله ! دون أن يعرف إن كان طعم الحياة حلوا . أو كانت هناك حلاوة فى أية لمسة أو همسة أو إن كانت غرفة النوم هى غرفة تحضير أرواح الفاشلين فى الحياة الزوجية . وتمضى الحياة وكل منهما قد ابتلع حكمة قديمة تقول : الصبر والصمت : مقبرة كل شىء جميل فى هذه الدنيا .

وليس غريبا أن تردد المرأة ما قاله الأديب بلزاك : إنها تتزوج شاعرا ، وعندما تعيش معه تكتشف أنه يمسح شفتيه بيديه .

أو بعبارة حديثة جدا : إنها تتزوج نجما سينمائيا ، وبعد أيام تكتشف أنه لا يشد السيفون وراءه .

وهناك نقطة لا يفهمها الرجل ولا النساء عادة لنفرض أن الزوج مهندس أو طبيب أو أديب أو مأمور ضرائب هذا الرجل له اهتمامات خاصة . ولا يستطيع أن يشرك زوجته فى اهتماماته هذه . ويشعر الزوج أنه وحده . وأن له حياة خاصة . أو مشاغل من نوع خاص . هذه المشاغل تجعله على صلة بآخرين من الرجال يحدثونه فى همومه ويشاركونه . ويخففون عنه . فلابد أن يكون على صلة يومية بهم .. ولكن الزوجة لا تستطيع أن تكون طرفا . ثم إنها لم تتعلم أن تكون طرفا فى حياة طبيب أو أديب أو مهندس . لأنها عندما تزوجته ، فوجئت به فهو رجل غريب عليها . وحتى بعد أن عرفته ، لم تعرف كل شىء عنه . فلا وقته يتسع ولا صدرها ولا العمر كله يتسع لذلك .. ومع ذلك فمن الممكن أن يظل هذا الرجل شاعرا أو نجما سينمائيا ممتازا . حتى لو نسى أن يشد السيفون وراءه أو يقفل الحنفية أو الشباك .. أو فمه .

وهذه الصعوبات فى الحياة الزوجية معروفة وطبيعية . ولكن المشكلة دائما أن الفتاة تواجهها وحدها . وهى جديدة بالنسبة لها . وتريد أن تزيلها أو تعتاد عليها .. ومن الصعب أن يعتاد الانسان على الصعوبات . وأصعب من ذلك أن نزيلها بسهولة ولهذا تفضل بعض الفتيات أن يتركن المشاكل للزوج يتولى هو حلها . وإذا كان الزوج نفسه مشكلة فمن الذى يصفق للحل السعيد ؟

كانت جداتنا يتركن أنفسهن للزوج تطبيقا للقاعدة التى تقول : الرجل لعبته المرأة . وعلى المرأة أن تعتاد على اللعبة الجديدة . هل الزوج يريدها كرة قدم أو كرة سلة أو كرة ماء .. المهم أن تكون كرة عند قدميه أو يديه . فالزوج هو الذى يصنعها أما هى فعجينة فى يده إن شاء أكلها نيئة وإن شاء أحرقها

بنار الفرن . وتعلمت المرأة أن تستسلم للرجل وفى نفس الوقت تكون على حذر .. أن تكون عند قدميه وفى خيالها أنه يكون هو أيضا . أن تستسلم له وهى غالبة . وأن تقع بين يديه منتصرة .

ولكن هذه الصورة تغيرت أيضا .. فلم يعد الرجل هو الذى يلعب بالمرأة . وإنما الحياة الزوجية لعبة الاثنين . لا غالب ولا مغلوب . مباراة بلا أهداف ولا كأس ولا دورى . فليس من أهدافها أن يخرج أحد من الملعب أو من الدورى . وإنما أن يتظاهر الاثنان بأنهما حكمان . ويتظاهر الاثنان بأنهما مقامران . ويكسب كل منهما الآخر . والذى يكسبانه ينقلانه من جيب إلى جيب ومن شبكة إلى شبكة .. فهى مباراة ودية ، وإن كانت لها حماسة الخصومة .

ومن المؤكد أن المرأة أقرب إلى البيت . والبيت أحب إليها من الكتب . والرجل يجاريها فى ذلك .. أو يوهمها بذلك أو توهم نفسها بأنها فعلت به ذلك .. ولكن لا تزال طبيعة الرجل مختلفة .. فالرجل يريد المرأة على كل لون وكل طعم .. تكون عندما يريد وعندما لا يريد .. حارة وباردة .. مقبلة عليه ونافرة منه .. قريبة بعيدة . أن تكون له ولا يكون لها .. أن تضعه فى مكان ثابت من عالمها . وأن تتركه هناك وحده حرا .. وأن تحتفظ له بالنظام اليومى فى حياته ، ولا تكون مملة .. أن يكونا اثنين ، وفى نفس الوقت يظل واحدا وحيدا .. إن تريحه وأن تسمح له بحق الشكوى منها أو من غيرها .. أن تكون فى حياته ، جوهر حياته ، وتفاهتها أيضا .. أن تتزوجه وأن تشعر أنه ليس زوجا ، وأنه حبيب .. عشيق .. أنه أعزب .

والمرأة تحتاج إلى كثير من العقل والتجربة لتقوم بدور البهلوان فى سيرك الحياة الزوجية .. والذى ينظر إلى الصورة من بعيد ، يحس أنه لا توجد امرأة

فى العالم تستطيع أن تكون هذه الساحرة القادرة على تحويل النمر إلى قط .. والقط إلى فأر .. والفأر إلى المصيدة وتعلق على المصيدة ورقة مكتوب عليها : نهاية زوج ؟ .

ولكن الذى لا تعرفه المرأة أنها قادرة على ذلك وأكثر من ذلك .. وأنه ما من أسد إلا تحول على يديها إلى أرنب .. وما من غابة إلا تحولت على يديها إلى زهرية ورد .. ولا يوجد وحش لم تروضه امرأة صغيرة أو كبيرة ..

والذى يقرأ قصة زواج الشاعر العربى امرئ القيس من فتاة صغيرة يعرف ما الذى تستطيعه فتاة . لقد بعثت له بفوازير .. وأجاب عنها .. وأطعمته وقلبته فى الماء والنار والشمس .. حتى عرفت كل شىء عنه ثم تزوجته .. وبعد أن قطع لها الصحارى والليالى وسقط فى الآبار ومرض وكاد يموت .. وكانت دون العشرين بكثير .. لم تكن سوى فتاة صغيرة عاشت فى الصحراء منذ أكثر من أربعة عشر قرنا . ولكن كان لديها خبث ودهاء بنت القرن العشرين !

إنها تستطيع لو أرادت .. وهى تريد . وبذلك فلا خوف عليها من الرجل . بل الخوف عليه اليوم ، وكل يوم ! .

الأمومة مثل الحب ولكن بلا مقابل

- ٩ -

بعد أن ارتكب آدم وحواء أول خطيئة ، هبطا إلى الأرض . وقالت التوراة : ستلدين فى ألم وتشتاقين إلى زوجك الذى يتسلط عليك . ومعنى ذلك أن حواء عوقبت بالشوق إلى الرجل وهذا الرجل يتسلط عليها . ومن هذا الشوق تحمل وتلد وتتعذب . أما آدم فقد كان عقابه بالإضافة إلى حواء هذه ، أن يأكل فى تعب وعرق .

منذ ذلك اليوم وكل من آدم وحواء يسف التراب لكى يعيش ، وكلاهما تراب الآخر . حياته ومماته ، بيته ومقبرته . وتلك هى حكمة الحياة : إن الذى نعيش به ، نموت به أيضا .

أما المرأة فتكتمل أنوثتها إذا حملت وولدت ، تماما كأنها شجرة أزهرت وأثمرت ، وبعد ذلك تزهر وتثمر من جديد ، والمرأة تتمنى أن تكون أما ، ولكن أمنيتها هذه بشروط يحددها المجتمع ، وهى أن تكون أما لرجل يعرفه القانون والقانون لا يهتم كثيرا بمدى موافقة الرجل لطباع المرأة أو أحلامها وأنما الرجل ضرورى لاستيفاء الاجراءات فقط ، وعلى المرأة أن تختار ، أو يختاروا لها الزوج القادر على تحقيق رغباتها وأحلامها .

ولذلك فمن الضرورى أن يكون «حمل» المرأة شرعيا. أما إذا حملت بصورة غير شرعية ، فالمجتمع يطالبها فورا بأن تتخلص من هذا الجنين ، ومن مئات السنين كانت الفتاة تنتحر أو يتولى أهلها قتلها ، ولكن فى العصر الحديث أباحت بعض الدول الإجهاض ، أو اخترعت لها حبوب منع الحمل ، وبذلك لا تحمل فلا يعرف أحد من الناس ماذا جرى لها ، وكثير من الدول تحرم الاجهاض ، وبعض الدول تراه جريمة ، وهى جريمة لا يقدر عليها إلا الأغنياء فقط ، أما الفقراء فالخطيئة هى الموت ، والحمل هو مبرر الموت السريع أو العار الذى يؤدى إلى الموت ..

والمجتمع موقفه غريب من الجنين ، فعلى الرغم من أن الدول تترفق بالجنين فإن موقفها من الجنين إذا ولد ليس رحيما ، فالابن غير الشرعى يلاقى عذابا شديدا هو وأمه .

ومن المألوف أن نجد بعض الأدباء يصفون عمليات الولادة ، ولكن من النادر أن نجد أديبا يصف ما تعانيه الأم إذا ولدت ابنا غير شرعى ، مع أن الولادة واحدة ، وربما كان العذاب فى الولادة غير الشرعية أقسى على الأم ، ولكن المعنى الأخلاقى أقوى وأقسى .. حتى الأديبات لم يستطعن أن يصفن هذه الحالة التى تعانيها واحدة منهن وفى ظروف شديدة القسوة . إذن فالمجتمع أقوى من الألم ، والأخلاق أقسى من الولادة .

ولم تكن المرأة من مئات السنين تعرف ما الذى تستطيع أن تفعله لتحدد أطفالها ، إنها تلد ، والرجل يضيق بالزوجة التى لا تكف عن الولادة : ويضيق أكثر بالاحتياطات التى يتخذها الاثنان ولكن النتيجة واحدة دائما : المزيد من الأولاد .

ومن المعروف أن دخول المياه الجارية ـ مياه الحنفيات ودورات المياه ـ

هو الذى ساعد المرأة الفقيرة على التخلص فورا من مبررات الحمل ـ وعلى الرغم من كل آلام الحمل والولادة فإن المرأة تنسى ذلك مع كل حمل جديد حتى لقد تصور الرجال أن المرأة «تمثل» عليهم ، وأنه ليس صحيحا أنها تتعذب أو تتألم ، ولكن الولادة هى الحادث الخطير فى حياة المرأة الذى يلتقى فيه أعظم لذة بأعظم ألم ، وعندما اخترع الإنسان البنج والمواد المخدرة رفضت بعض النساء استخدام البنج ، وكانت حجة المرأة أن الطفل الذى لا تتألم فى ولادته ، ليس ولدها ، وقد هاجم رجال الدين البنج لأنه يتنافى مع ما جاء فى التوراة من أن المرأة يجب أن تلد فى ألم .. فكيف تلد بلا ألم ؟ مع أن الرجال الذين يحرمون البنج لم يحرموا على أنفسهم أنهم يأكلون بلا تعب : ويرثون أموالهم بلا عرق ..

وإذا حملت المرأة ، دون رغبة منها فإنها تقع فى حيرة : إنها لا تريد الطفل وفى نفس الوقت تريده ، تريده لأنه جزء منها ، ولأنها لا تستطيع أن تقتل طفلها ، ولدها ، قطعة من كبدها .. من قلبها ، وفى نفس الوقت لا تريده أن يتعذب ولا أن يجوع ولا أن يكون سببا فى خلاف مع الرجل الذى تحبه . والمرأة إذا أحبت زوجها ، فإنها تحقق له ما يريد ، ولو كان أقسى شىء : ألا تنجب أطفالا ، ولكن إذا كرهت المرأة زوجها ، فإنها لا تهتم كثيرا أن تحدد نسلها ، وإنما ترى فى زيادة عدد الأطفال مبررا قويا للعن الزوج والحياة معه .. وقد وصفت لنا زوجة الأديب تولستوى فى مذكراتها : كيف أنها كرهت الحياة ونفسها وجسمها فى كل مرة حملت فيها ، إنها تحتفظ لزوجها بأسوأ ذكرى لأسوأ شهر عسل .. الليلة الأولى من شهر العسل .

وبعد أن تتخلص الأم من الجنين ، فإنها لا تنسى هذا الحادث أبدا ، بل أن الكاتبة الكبيرة هيلين دويتش تحدثنا عن حالة مرضية لسيدة كانت تعالجها ، هذه السيدة تخلصت من الحمل ، وعرفت أنها تخلصت من

توأمين ، فأقامت السيدة قبرين لها ، مع أنها قد أنجبت بعد ذلك عددا كبيرا من الأطفال ، فالمرأة لا تنسى أنها قتلت بيديها طفلا .. طفلها .

وتروى لنا الكاتبة هيلين دويتش أيضا أن فتاة تخلصت من الجنين حتى لا تهدم مستقبل حبيبها ، وبعد أن تخلصت من الجنين ، لم تستطع أن ترى هذا الحبيب لأنه هو الذى أرغمها على ارتكاب هذه الجريمة .

والرجال لا يعرفون ـ عادة ـ معنى أن تحمل المرأة وأن تلد ويكون لها طفل . لأنهم لا يعرفون معنى الوحدة والملل والمرض والشعور بالنقص الذى تحس به المرأة التى لم تلد .. والرجال لا يعرفون أيضا معنى عذاب الولادة والحضانة والتربية ، ولا يعرفون أن هذا العذاب نفسه هو الذى يجعل المرأة تكره أنها أنثى ، وتكره الجنس ، وتكره العلاقة التى تربطها بالرجل وينفرد الرجل باللذة ، وتنفرد المرأة بالألم .. إن المرأة تكره الجنس فى أحيان كثيرة ، أى تكره جنس الرجل ولذلك أحيانا تتجه المرأة إلى بنات جنسها ، إلى الصداقة الشديدة التى هى أرحم من صداقة الرجل .

ومن التناقض والنفاق عند الرجال أنهم يرفضون الاجهاض ويرفضون حبوب منع الحمل عموما .. ولكن إذا وقع الواحد منهم فى كارثة فهو أول من يتحمس ويطالب بضرورة الأجهاض وضرورة حبوب منع الحمل .

والمرأة تحتاج دائما إلى من يساعدها فى حالة الحمل والولادة ، وكذلك إناث الحيوانات التى استأنسها الانسان ، وإن كانت هناك نساء يستطعن أن يلدن وحدهن دون مساعدة أحد ، وقد لجأت المرأة إلى ذلك فى بعض الأحيان خوفا من الفضيحة ، فماتت ومعها طفلها أيضا .

وإذا كانت الولادة ضرورية للمرأة ، أو للأنوثة ، فاحتفاظ المرأة بجمالها وجمال جسمها ضرورى أيضا ، والمرأة التى تحرص على أن يكون جسمها

سليما ، ولا يتشوه بالحمل أو الولادة ، فلا يترهل وتتدلى الأثداء ، وإنما تظل البشرة مشدودة ، ولذلك فهذه ترفض أن تكون أما كثيرا أو أما على الاطلاق .

وفى رواية «الحرب والسلام» لتولستوى يقول : إن المرأة تنظر إلى الولادة على أنها حكم بالاعدام ثم لا يتم الاعدام ـ مع الأسف ..

وفى احدى روايات مدام فرناى نجد زوجة قد عرفت أن الرجل الذى طلقها تزوج امرأة أخرى ، وقيل إن وجهها دميم ، ولكن الزوجة لم تصدق ، وأصرت على أن ترى الزوجة الجديدة وكان وجهها دميما . فقالت : لابد أن لها مزايا أخرى ، واستمعت إليها دون أن تدري ، فوجدت أن عقلها أكثر قبحا من وجهها . واتفقت مع خادمتها على أن تراها عارية مقابل مبلغ من المال . ورأتها عارية تماما ولم تجد مبررا لأن يتزوجها ، فذهبت إليه وسألته فقال : إنها تريد أن تكون أما لأولادى مائة مرة ـ إذا أنا أردت ..

وفى التاريخ العربى يقال إن امرأة اسمها رملة بنت عبد الله قررت أن ترى الزوجة الثانية لزوجها واسمها عائشة بنت طلحة . فاتفقت مع خادمة عائشة على أن تراها عريانة مقابل مبلغ من المال ، وذهبت الخادمة وأخبرت سيدتها ، ووافقت عائشة بشرط ألا تعلن الخادمة ذلك ، وقامت عائشة ونزعت ثيابها وراحت وجاءت ، ورأتها الزوجة الأولى وتأملتها ، وقالت للخادمة : كنت أفضل أن أعطيك ضعف هذا المبلغ ولا أراها .

فقد كانت جميلة جدا ، وقال عنها زوجها : إنها ليست زوجة واحدة .. إنها حريم ..

ولكى تكون المرأة «حريما» للرجال فأنها تحرص على معالم الأنوثة .. كلها ..

وكما أن الحب ضرورى للمرأة ، فالأمومة ضرورة أيضا ..

غير أن هناك فارقا بين الحالتين ، ففى الحب تجد المرأة من يبادلها الحب ، من يحاول معها ، وتحاول أن تهرب منه ، أو تشده إليها ، هناك معركة ، ثم اتفاق . ثم استسلام . ثم حرص على حالة الاستسلام ، وهناك تفكير وعقل ومنطق وقيم ومبادئ ، ولكن عندما تحب المرأة طفلها الصغير ، فهو حب بلا مقابل ، فالأمومة هنا بلا ثمن . الأم هى التى تتعب وهى التى تجد الثمن من متعة تحس بها ، أو أوهام تملأ رأسها ، فالطفل الصغير ليس طرفا ولا عاقلا ولا متحدثا ، ولا توجد هناك قيم ولا مبادئ ، إنه كائن صغير ولد ليعيش ، ومعه مبرراته ، ومعه حقه فى البقاء ، هذا الحق لم يكتسبه بتعب ، وإنما ولد به ومعه ، والأم تعلم أن هذا الطفل الذى يعتمد عليها يجب أن تعلمه وهو جالس على حجرها ألا يجلس على حجرها ، وهو يرضع ثديها ألا يفعل ذلك ، وهو نائم فى حضنها أن يبحث عن حضن امرأة أخرى ؟ .

وأعجب من ذلك أن الأم المعذبة المعقدة الفاشلة المحرومة من حنان الزوج ، يجب أن تعلم ابنتها معنى الحرية ومعنى حب الحياة ، وتقول الأم لابنتها عندما تكبر : لا تصدقى كلام الرجل . امشى دوغرى . لا تتلفتى وراءك ، الرجال مخادعون كذابون . اسألينى أنا .

وتسأل الفتاة : إن كانت لأمها أية تجارب ..

ويكون رد الأم : طبعا لا ...

ومعنى ذلك أن تجربتها الوحيدة كانت مع زوجها ، وهو أبو هذه الفتاة فالفشل بسبب هذا الرجل والكذب والخداع والخيبة كلها صدرت عن هذا الأب الذى يعيش مع الأم والابنة فى بيت واحد ، ويضحكون ويأكلون ويشربون وينامون تحت سقف واحد .

فإذا ارتفعت يد الأم ونزلت على خد الفتاة لأى سبب ، فالأم معذورة فهى لم تضرب ابنتها ، وإنما تنتقم من زوجها .. أى أنها لا تضرب الابنة وإنما تضرب الأب ، وإذا انحرفت يد الأم ونزلت على خد الخادمة كان المقصود هو خد الابنة ، وخد الابنة لم يكن مقصودا ، وإنما هو الأب الذى تقصده الأم .. ولكنها أخطأت الطريق إليه فتوجعت الخادمة بالنيابة عن الجميع ..

وكان يقال دائما إن زوجة الأب هى التى تقسو على أولاد زوجها والحقيقة أن زوجة الأب عندما تقسو على أولاد الزوج ، فإنما تريد أن تقسو على الزوج فلا تستطيع ، فتضرب أولاده من الزوجة الأخرى .

ومعنى ذلك أن الأم لا تضرب طفلها وإنما تضربه بالنيابة عن الآخرين ..

وأسوأ من الأم التى تقسو على طفلها ، تلك الأم التى تحب طفلها أكثر مما يجب ، فلا تعطى لأولادها حرية المشى أو الأكل أو النوم ، إن هذه الأم قد اعتقلت أولادها فى حنانها ، وجعلت نفسها أقدامهم وأيديهم وعيونهم وشفاههم .. وقررت أن تعيش بالنيابة عنهم ، إن هذا الحب نوع من القسوة والأم بهذه الصورة تجعل من أولادها عبيدا لها ، وتجعل من نفسها عبدا لهم ، فهم مجموعة من العبيد فى حالة من الالتصاق الشديد ، من الاحتكاك الشديد ، من الحب الخانق ، أو القبلات المميتة .

وفى جميع الحالات تجد المرأة متعة كبرى فى أن تقوم بدور الضحية : الأم التى يعذبها أولادها .. فتقسو عليهم ، أو تحنو عليهم .

وكثيرا ما أحسست الأم بأن الأمومة لعنة ، كالأنوثة تماما ، ولذلك تبعد أطفالها عن البيئة التى تعيش فيها ، فتبعث بأطفالها إلى المدارس الداخلية أو إلى مدارس الراهبات .. أو إلى التعليم فى الخارج . معظم بنات الليل يفعلن ذلك ، معظم الراقصات .. وأكثر كواكب السينما . ومعنى ذلك أن هؤلاء

الأمهات جميعا يرين أن حياتهن متعفنة ، وأن أولادهن يجب أن يعيشوا فى هواء أنظف .. وأخلاقيات اسمى .. وفى ذلك اعتراف من كل أم ، بأنها ليست الأم المناسبة لأطفالها ، وأن أطفالها يجب ألا يروا حياتها . وألا يكونوا على مقربة منها .. وإنما يعيشوا بعيدا عن العيون التى تراها والآذان التى تسمعها ، والأيدى التى تمتد إليها .. وبذلك يكون هؤلاء الأطفال غرباء عن الأمومة وعن بيئة الأم .. وأن يشاركوا أمهم أيضا فى احتقار حياتها وبيئتها .

وفى ذلك منتهى التعذيب للأم . فكأنها تربى أطفالها على احتقارها ، واستنكارها والتنكر لها .

وفى رواية «الاختناق» من تأليف ترفانى نجد الأم تقول لابنتها : اياك والرجال . أنت ترين أمك ، إنها ضحية لواحد منهم ، فسدت حياتها وتحطم قلبها ، فاجعلى قلبك حديدا .. وتهتكت أعصابها ، فضعى أعصابك فى الجليد .. إن فعلت مثل أمك ، أنكرتك .. برئت منك ..

وهذه الأم قد علمت ابنتها أن تتبرأ منها وأن تنكرها منذ اللحظة الأولى .. وتنكرها مرة أخرى لأن هذه الفتاة سوف تعيش وسوف تنظر إلى الرجال وتهمس وتلمس وتغمز وتحب ..

وعلى الرغم من أن المرأة تلعن أنوثتها فى كثير من الأحيان فإن رجالا كثيرين كانوا يتمنون أن تعطى للمرأة فرصة أن تحكم العالم .. المفكر الفرنسى مونتسكيو يقول : أعطوها فرصة ، إنها ليست أقل عقلا ولا ذكاء من الرجل ، ثم إنها أقدر على التنظيم وعلى الصبر منه ..

والفيلسوف مونتسكيو يرى الأمومة هى أعظم رسالة تقوم بها المرأة ويعجز عنها الرجل . لتربية المواطن تقوم هى بمهمة : المدرسة والمستشفى والمعبد

والشارع وأجهزة الأعلام والتكنات والملاعب .. كل هذه المهام تقوم بها الأم وحدها دون مساعدة من أحد .

ولذلك يقول نابليون : أنا أساوى ماصنعته أمى ، فأنا أحد تماثيلها .

ويقول الرئيس **لنكولن** : ما أعلمه وما أعمله وما أحلم به .. كل ذلك من صنع أمى .

ويقول **هيجو** : إن الطفل يقول : ماما .. لأنه لم يتعلم بعد أن ينطق كلمة . الله .

ويقول **شوبنهور** : اذهب إلى المستشفيات .. واجعل طريقك على السجون ، وأنت ترى ما الذى فعلته المرأة .. الزوجة والأم ، وخصوصا الأم . إنها هى التى علمت ابنها الجبن ، فكان وحشا ، وهى التى علمت ابنها الانحناء الكاذب فكان مغرورا متغطرسا .. وهى التى أرضعت ابنها اللبن ، لينتقم منها فلا يشرب إلا الخمر وإلا دماء البشر .. إنها أمك .. وأمى .

أما إنها أمه هو فهذا صحيح ، فقد كانت أمه فى غاية القسوة ، وكانت تغار منه وكانت تحسده على عبقريته المبكرة ، وكانت تستضيف فى بيتها كل الفلاسفة والأدباء فى عصرها ، وكانت تقفل الباب فى وجه ابنها . وفى يوم التقى بأمه على السلم وركلته برجلها ، وتماسك الابن ليقول لها : سوف تعيشين وتموتين ولن يعرفك الناس إلا على أنك أم شوبنهور .

وهذا ما حدث ، فأمه هو تستحق منه أكثر مما قال .. وفعل ..

أشياء تقدمها المرأة ولا تجد من يراها

- ١٠ -

أمل الرجل : الشهرة .

أمل المرأة : الحب .

الحب عند الرجل أن يأخذ الكثير . وعند المرأة أن تعطى بلا حساب . .

الحب عند الرجل أن « يضم » المرأة إليه . وعند المرأة أن يضمها الرجل إليه .

الزواج ينطبق عليه المثل الشعبى : لاقينى ولاتغدينى . . أى أن اللقاء أروع من الغداء . . أى أن الحب أروع من الزواج نفسه . ولكن لم يتوقف الناس عن الزواج ، ولن يتوقفوا عن الحب . والرجل يرى الحب مصيدة دخلها . . والمرأة ترى الحب مذبحا تضحى فيه بجسمها وروحها وهى راضية . وهذه التضحية ليست موتا . لأن الموت هو ألا تحب المرأة . ولكن إذا ماتت المرأة فى الرجل . فهذا ليس موتا . لأن الموت هو ألا تحب المرأة . ولكن إذا ماتت المرأة فى الرجل . فهذه هى الحياة . وإذا فنيت المرأة فى رجل . فهذا هو البقاء . وإذا ذابت المرأة فى رجل فهذا هو

التماسك . وإذا فقدت المرأة عقلها وقلبها فى حضن رجل ، فهذا هو الوجود .

ولذلك فلا يوجد رجل يمكن أن يوصف بأنه عاشق عظيم . وإنما توجد عاشقات عظيمات فى التاريخ . لأن الحب : عطاء . والمرأة أقدر على العطاء من الرجل . لأن المرأة لا تعرف حدود العطاء . فإنها تعطى نفسها . ولا تعرف ما الذى أعطته . وما الذى أبقته لنفسها .. بل إن نفسها هى أول ما تعطى للرجل الذى تحبه . والحب عند المرأة نوع من الدين . أو هو دينها الوحيد .. بينما الرجل عندما يحب امرأة فإنه يريدها أن تحبه هو أكثر .

والمرأة تعلم أنها من غير رجل تحبه ، باقة ورد متناثرة .. حبات عقد بلا خيط .. عربة بلا حصان .. سماء بلا شمس .. أرض بلا زرع ..

ومادامت المرأة تعتمد فى حياتها على الرجل : الأب والأخ والزوج والحبيب . فإنها لابد أن ترضيه ولكى ترضيه لابد أن تعطيه . ولكي تعطيه لابد أن تستسلم له . والمرأة تحب أن تستسلم للرجل الذى تحبه بل ترى أن الاستسلام هو أقصى درجات الاستقلال . وترى سيادتها فى ذلها له . وليس من الضرورى أن يكون الذل ركوعا ، وإنما يكفى فقط أن يركع قلبها فى صدرها . هذا هو منتهى الحب .

ومن الممكن أن يهتز قلب المرأة . وأن يهتز قلب الرجل . ولكن ليس هذا هو الحب الكبير . الحب الكبير زلزال يجعل الرأس العالى ينحنى ، والقلب الجامد يغلى . والمرأة تفضل الحبيب مهما كان ظالما ، على الأب والأخ والابن والزوج أيضا .

وبعض علماء النفس يقولون إن المرأة تختار الرجل القوى . لأنها تبحث عن الأب .. هذا صحيح . ولكنها تختار الرجل دائما . وأحيانا تختار الرجل العنيف .

لأنها تحب أن ترى القسوة فى عينى الرجل . بل أحيانا تطلب إلى الرجل أن يشترك فى معارك مع غيره من الرجال لترى قوته وسيطرته على الرجال أيضا . فهى تريده قويا . لأن قوته تملأ جسمها بالرعشة . هذه الرعشة هى متعة كبرى ..

والحب لا يشغل وقتا كبيرا فى حياة المرأة كما يتصور الرجال . إنه هام جدا . ولكن مشاغلها اليومية تأخذها وتستغرقها : البيت والعمل والزيارات والواجبات الاجتماعية .. ومستقبلها أيضا يشغلها عن الحب . وأحيانا تضحى المرأة بالحب من أجل أن يكون لها وضع اجتماعى يوقفها على رجليها فى مجتمع الرجال ..

ولكن لاتوجد امرأة لم تحلم بحب عظيم ..

حب يهد حيلها .. ويهز كيانها . ويحطمها ويعجنها ويصبها فى قالب من حديد . والحديد من صنع رجل والرجل يملك فرنا من الشوق والوهج . وهذا الفرن يصب فيه المرأة التى تحبه لتكون على صورته .. على هواه . على مثاله . لكى تعجبه فقط . ولا يهمها هى أبدا ما الذى يعجبها هى . فالذى يعجبها قد تركته . وعاشت من أجل الذى يعجب الرجل . وأغلب النساء اللاتى يحلمن بالعشق الكبير فاشلات فى حياتهن . أو أنهن نساء لم يتجاوزن مرحلة المراهقة . ولذلك تحلم الواحدة بأن تلقى بحياتها هذه عند قدمى رجل .

فقد جربت المرأة حياة السلبية والأمان فى بيت الأسرة . وهى تحن إلى هذه السلبية الآمنة فى أحضان رجل . وهذا الحب العظيم يحقق للمرأة كل شىء . فهى تحس بأنها «أم» لحبيبها .. وتحس أنه أبوها أيضا .. وبذلك تتكون أسرة عاطفية من أب وأم وطفل وطفلة .

فكأن المرأة عندما تحب تريد أن تجد السقف الذى يحميها ، والجدران التى تلمها من الضياع ، والباب الذى له قفل ، مفتاحه فى جيب سجانها وسيدها وابنها وأبيها وحبيبها : الرجل .

والحب عذاب أيضا للمرأة .. إنه يخنقها . ويقيدها . ويربطها ويشدها . ويحبسها . ويجعل عينيها غير قادرتين على الرؤية وأذنيها عاجزتين عن السمع . أنها حددت كل أشكال الدنيا وأحجامها وألوانها وأصواتها : كلها فى شخص واحد .

وفى احدى قصص الكاتب الدنمركى اندرسن نرى عروس البحر وهى سمكة كبيرة تقف على ذيلها . وقد حول الحب ذيلها إلى ساقين جميلتين .. وعندما نبتت لها الساقان جف ماء البحر وتحول إلى أرض ملتهبة .

والمرأة ترى فى العذاب ضرورة .. فالحب الذى لايعرف العذاب ليس حبا .. إنه يشبه ولادة بلا ألم .

وأروع ما كتبته الأديبة الفرنسية كوليت : إننى أحسد مريم المجدلية التى أحبت المسيح .. إنها سارت وراءه .. فى ظله .. تشم ترابه .. وتموت ولكنه فى قلبها حى لايموت .

والمرأة عندما تعطى نفسها لرجل . أو لحب عظيم ، فإنها ترى أن هذا الحب يرد لها اعتبارها . يعطيها وزنها واسمها وانتمها وجسمها ورسمها . ويلسعها ويكويها ويشويها .. ولكنه لايحرقها وإنما ينضجها فقط . فحرارة الحب . مثل الاحمرار فى خد التفاحة .. نار لاتحرق .

والمرأة لا تطيق أبدا أن يتجاهلها الرجل . ولا تطيق ألا تكون تحت نظره .. ونظراته الملتهبة . بل المرأة تتمنى أن يتحسسها الرجل بعينيه . وأن يتعمقها وأن تتساقط رموشه على منحدراتها ومنحنياتها وأن يتأنى فى ذلك . وهى فى غاية

النشوة .. وأقسى أنواع العذاب الذى يستخدمه رجل مع امرأة هو ألا ينظر إليها . فإذا نظر إليها تفاداها . كأنها لا تعترض نظرته . كأنها لاتستوقفه . كأنها لاشيء ولا شيء فيها يعجبه . فإذا أعجب الرجل بعينى المرأة ، وضعت المرأة فى كل ركن من بيتها مرآة .. لترى نفسها .. أى ترى عينيها اللذين تعجبانه .. وتكون سعيدة لأنها ترى عينيه فى عينيها وتسمع رأيه ألف مرة فى اليوم .. فهى لا ترى ما ترى .. وإنما ترى ما يراه هو ..

قالت الأديبة كاترين مانسفيلد : أمس اشتريت ملابس داخلية جميلة انيقة زاهية ودامية .. ولكن واأسفاه لن يراها أحد .

فهى لم ترتد هذه الملابس لأنها تعجبها .. ولكن لعل أحدا غيرها يعجب بها .. أى يعجب بها أكثر إذا رآها عليها .. وإذا رآها بغيرها ..

وأسوأ شعور فى الدنيا ، وأقسى عذاب هو أن تحس المرأة أنها زهرة لا يراها أحد . وعطر لا يشمه أحد ، ونعومة لا يلمسها أحد ، وحرارة لايشتهيها أحد . ويبدو أن الرجل يعرف ذلك أحيانا .

وفى إحدى مسرحيات الأديب الأمريكى تنسى وليامز يدور مثل هذا الحوار :

يقول الرجل : متى عدت .. فقد كنت نائما لم أتنبه إلى صوتك وأنت تفتحين الباب وتخلعين حذاءك .. وتقفلين باب الثلاجة بعنف . كما هى عادتك .

وهجمت الزوجة على زوجها تقبله بعنف . وحاول أن يبعدها عنه .. ولكن طال العناق . فقد عرفت الزوجة أن زوجها لم يم . وأنه كان يتظاهر بالنوم . فهى دخلت وفتحت الباب بعنف وألقت بحذائها وكان للحذاء صوت . وكذلك

باب الثلاجة .. فهو لم يطق أن ينام . ثم إنه عندما عانقها وقبلها اكتشف أنها لم تدخن سيجارة واحدة . ومعنى ذلك أن السجائر التى كانت موضوع الخلاف بينهما . قد انتهت . فقد قررت ألا تدخن آرضاء له .

وقبل أن تطفئ الزوجة المصباح وتخلع ملابسها سألته ؟ وما رأيك فى فستانى ؟ .

فأجاب الزوج ضاحكا : إنه ليس جديدا .

وكان على حق . فلأول مرة يدرك الزوج أن هذا الفستان ليس جديدا . مع أنه فى كل مرة تسأله زوجته عن فستانها يقول لها : رائع . مناسب .

وتخفى الزوجة دموعها فى منديلها وهى تمسح أنفها .. لأن الفستان قديم جدا . وقد ارتدته عشرات المرات .

وإذا كانت المرأة قادرة على الحب العظيم ، فهناك رجال لديهم هذه القدرة أيضا . فراقصة البالية ايزادوره دنكان تصف الشاعر الايطالى داننسيو: إنه أقدر إنسان على أن يجعل المرأة التى تجلس إليه تحس أنها مركز الكون . وأن الله خلق السماء من أجلها والأرض أيضا . وأنها خلاصة الزهور والطيور والعطور .

وتقول عنه أيضا : ولكن عندما تنتهى نزوة هذا الشاعر يترك المرأة تسقط . تماما كما سقطت حواء التى شجعتها على الخطيئة كلمات هامسة من أفعى مثلها فى الجنة .

وإذا ما كان هناك حب عنيف . كانت هناك غيرة أكثر عنفا . فالغيرة أساسها شعور بالخوف على الرجل الذى تحبه . فإذا غارت المرأة فالنساء جميعا أعداؤها . وكل نظرة عين وحركة أصبع وكل كلمة يقولها الرجل . يصبح لها معنى خاص آخر .. وكل امرأة أخرى ينظر إليها الرجل ، كانت هذه النظرة

مسروقة منها . كل اهتمام آخر . حتى عمل الرجل يضايق المرأة . لأنه يأخذه منها . يخطفه . وإذا أطال النظر فى كتاب أو فى صورة أو استمع إلى أغنية وتأثر ، كل ذلك يثير المرأة يحركها ضده ـ ولذلك لا استبعد أن تكون امرأة هى التى حرقت مكتبة الإسكندرية ـ زوجة بواب المكتبة عندما ضبطته يتعلم القراءة والكتابة . والرجل من الممكن أن ينشغل عن المرأة تماما ، ولكنه يظل يحبها . ولكن المرأة لاتستطيع أن تنشغل عن الرجل الذى تحبه . وإذا انشغلت عنه ، فإنها لاتسامح نفسها على ذلك . ولاتتصور أنها سوف تنشغل عنه . فإذا حدث أن انشغلت عنه انزعجت . وتشاءمت . وأحست أن خطرا يوشك أن يقع . وأنه من الأفضل أن تعود إلى حضن الرجل ، كما تذهب السفينة إلى الميناء خوفا من العاصفة .

وهنا يحتار الرجل . لأنه يجد امرأة فى حضنه خائفة كطفلة صغيرة . ويتساءل الرجل : هذا الوحش الجميل خائف ؟ هذه التى دوختنى تحتمى بين ذراعى ؟ .

هذه هى المرأة مخيفة خائفة . تعطى الأمان الذى لاتجده . تخطف القلب بمنتهى العقل . وتفقد القلب بلا عقل .

وعبقرية المرأة فى انتظارها . فعندها قدرة خارقة على الانتظار . وقد عاشت ألوف السنين تنتظر . ولم تضيع وقتها أثناء الانتظار . وإنما سمعت وعرفت . وتلقنت حكمة الجنس والاحتفاظ بالزوج والطفل . فإذا جاء الزوج كانت هى أكثر مرونة منه . وأقدر على ارضائه وامتاعه وتعذيبه .

وجولييت دوريه عشيقة الشاعر الفرنسى فيكتور هيجو أحسن نموذج لذلك . إن هذه العشيقة قد أحبت الأمير دوميدوف الذى كان ينفق عليها بعد أن فشلت كممثلة مسرحية ـ وهذه نهاية الجميلات جدا . ولكن عندما أحبها

فيكتور هيجو حبسها فى شقة من غرفتين ضيقتين . وظلت محبوسة إحدى عشرة سنة لاتخرج من هذا البيت . بل إن الشاعر حرم عليها الظهور تماما حتى لاتلتقى بواحد من عشاقها القدامى . ورضيت بالانتظار . ولم يكن الشاعر يراها إلا قليلا . وكانت له عشيقة أخرى . ولكن جولييت هذه أرسلت للشاعر ثلاثين ألف خطاب ، أى بمعدل ثلاثة خطابات كل يوم وبانتظام . وهذه الخطابات دليل على الصبر الطويل ، والحرارة التى لم تخمد ، والمرارة التى ملأت قلبها . ولكنها ظلت تحبه حتى الموت .

وعلى الرغم من أن الرجل يعرف أن الكلام الذى يسمعه كل ليلة من فوق المخدة المجاورة لايستطيع أن يصدقه كله ، ولا أن يرفضه كله .. فإن هذا هو الحب ، لايستطيع أن يرفضه ولايستطيع أن يقبله .. هذا هو منطق الرجل . أما منطق المرأة فهو أن تقبله مهما كان الثمن .. فإما الحب أو الموت .. ويكفى أن تحب مرة واحدة ، وتقول : عشت فى حياتى مرة واحدة .. أما بقية العمر فذكرى لأيام جميلة .

قرود في كل مكان

أنا ... وأنت؟

- ١ -

وكنت أفضل أن تكون الصفحات التالية فى أول هذا الكتاب .. فهى تصف الحيوان وسلوكه دون تحفظ .. أى دون قيود عليه ..

والحيوان حر .. هو بالضبط ما يتمنى أن يفعله الإنسان . ولكن الحضارة تجىء وتقيد الإنسان وتضع الفرامل والضوابط والقواعد والحلال والحرام واللائق وغير اللائق على كل مشاعره الحيوانية والإنسانية ..

ولكن بعد أن عرفنا جوانب من حياة الإنسان يمكننا أن نعرفها أعمق وأوضح إذا عدنا عشرات الألوف من السنين .. أو إذا ذهبت إلى حديقة الحيوان .. فنى الحديقة نجد الإنسان متخفيا وراء جلد الحيوان ..

ولكن الحيوان أكثر صراحة ..

لأن الحيوانات لم تتعلم الكذب بعد ..

ولذلك فهذه الحيوانات هى دليلنا الذى لا يخطئ إلى فهم الإنسان مرة أخرى ..

فإن كان قد فاتك الإنسان من مئات الصفحات السابقة ، فهذه هى فرصتك فى أن تستدرك ما فات وأن تفهم غيرك ونفسك ..

فإذا شعرت بالخجل فلأن الحيوانات لا تخفى ما تشعر به هى .. وما تشعر به أنت ! .

* * *

وإذا ذهبت إلى حديقة الحيوانات . وسمعت من يصرخ وراءك ويقول : يا حيوان فلا داعى لأن تلتفت وراءك لترى ماذا سيحدث .. فكل ما فى الحديقة حيوانات : التى فى الأقفاص .. والذين خارجها .

وإذا وقفت أمام قفص القرود ورأيت القردة تفلى ابنتها الصغيرة فلا تضحك .. فلنا أجداد يفعلون ذلك فى الريف . أما فى المدينة فالكوافير يقوم بهذا العمل أيضا مستخدما أحدث ما وصل إليه عقل الإنسان .

وإذا أنت ألقيت ببعض السودانى وتزاحمت عليه القرود وضحك طفلك الصغير ، فأظن أنه لا داعى لأن تضحك أنت . لأنك قد فعلت شيئا من ذلك فى المكتب أو الدكان أو المصنع الذى تعمل فيه . فمكان العمل هو قفص أقسى من قفص القرود . وأنت محكوم فى داخل القفص بقوانين ولوائح وقواعد ومخاوف .. وإذا أشار رئيسك فى العمل بالعلاوات أو الأرباح فإنك تقفز مثل هذا القرد وأكثر .. وليست العلاوات إلا أنواعا من الفول السودانى الذى يلقى لنوع آخر من القرود ..

وإذا رأيت القرد ــ أمام كل الناس ــ يركب ظهر الأنثى . فليس القرد قليل الأدب ، ولا نفسه انفتحت لمجرد رؤيتك . ولكنه فى حالة خوف . والخوف يثير الحيوان والإنسان أيضا . والناس فى جو الخوف يتعانقون .. إنهم يواجهون الموت بالقبلات ، ويواجهون الموت بغريزة حب البقاء .. والبقاء عن طريق الجنس ..

وإذا كان القرد ليس له مستقبل فى أن يكون إنسانا . فمن المؤكد أن الإنسان له ماض . وهذا الماضى ما تزال حروفه الغامضة يمكن قراءتها فى جبلاية القرود .. فإذا لم يكن هذا القرد جدنا البعيد .. فهو قريب من جدنا البعيد . وإذا كان الإنسان قد اكتسب عادات جديدة من مئات الألوف من السنين .. فإن العادات القديمة التى عاش بها من ملايين السنين ما تزال مصونة مكنونة فى أقفاص القرود ..

ولهذه الأسباب كان الكتاب الممتع الصعب أيضا الذى كتبه العالم دزموند موريس وعنوانه «القرد العريان» من أروع الكتب التى صدرت أخيرا فى العالم بلغات متعددة .

وإذا كان هذا الكتاب لم يلق التأييد الكامل من علماء الحياة والدراسات الإنسانية والحيوان ، فإنهم ـ عادة ـ لا يتفقون على رأى واحد .. ولكنهم أمام هذا الكتاب اتفقوا على أنه خلاصة دراسات وتأملات عميقة ومثيرة أيضا . وأن به نظريات جريئة وجديدة ولابد أن تدير آلافا من الأدمغة يمينا وشمالا .. وبعد ذلك فى امكانها أن تتساقط من التعب أو اليأس .

هناك ١٩٣ نوعا من القرود من بينها نوع واحد فقط ليس جسمه مغطى بالشعر : وهذا القرد العريان له صفات غريبة أخرى من بينها مثلا أنه يقضى نصف عمره بحثا عن معنى سلوكه وتصرفاته .. ويمضى النصف الثانى من عمره يحاول أن ينسى هذه المعانى . وهذا القرد العريان يعتبر نفسه عاقلا . والحقيقة أنه عاقل حقيقة ، ولكنه أكثر الحيوانات شراهة من الناحية الجنسية .. فالحيوانات كلها معتدلة ، وكل هذه الحيوانات تخجل من الجنس ، ولذلك فالذكر عند العناق لا يواجه أنثاه ..

والحيوانات لها مواسم . والإنسان ليست له مواسم للقبلات والحمل والرضاعة

والولادة .. فكل وقت عنده هو الوقت المناسب لأن يكون «حيوانا» ومن الضرورى أن نعيد النظر فى الحيوانات الأخرى ، وخصوصا الحيوانات الراقية مثل القرود لتعرف كيف عاش هذا الإنسان ومن أين جاءت عاداته كلها ، كيف نشأت وكيف تطورت وتحورت حتى أصبحت على الصورة التى تراها اليوم .. ولا تفهم الكثير من مقدماتها وأسبابها ..

ولعل من المناسب هنا أن نذكر أنه فى إحدى حدائق الحيوانات يوجد «سنجاب» وهو حيوان صغير أليف يظهر فى الحدائق ويداعب الأطفال . هذا الحيوان وضعوه فى قفص على انفراد .. وكتبوا على القفص .. هذا السنجاب أفريقى نادر . ولا نعرف اسمه العلمى.. فنحن لم نر الآن سنجابا له قدم سوداء.. وأنف أحمر..

وأمام هذا السنجاب النادر نجد علماء الحيوانات يبحثون عن وجه الشبه والخلاف بينه وبين الأنواع الأخرى ، لابد أنه كان من سلالة انعزلت من بقية الـ ٣٦٦ نوعا من السناجيب التى عاشت فى العالم كله . ولابد أن هذه الفصيلة النادرة قد انعزلت تماما وأصبحت لها عادات خاصة ، ولها نداءات جنسية خاصة . ولابد أنها مرت بظروف غريبة . وأنها توافقت مع هذه الظروف . وأصبحت لها ألوان وأشكال وعادات مختلفة عن بقية الأنواع الأخرى ..

نفس الموقف يجب أن نأخذه من الإنسان ـ هذا القرد العريان ـ نتساءل كيف عاش . ولماذا بقى . وكيف تطور.. وكيف تحول من مرحلة أكل فيها الحشرات إلى مرحلة أكل فيها أوراق الشجر. ثم الثمار.. ثم انتقل من الغابات إلى الأرض الواسعة .. ثم كيف تحول من التقاط الثمار إلى صيد الوحوش .. ثم إلى زراعة الأرض .. ثم كيف حاول الهرب . واستخدم رجليه .. واستخدم يديه فى صناعة أدوات حياته ..

وإن كان الإنسان مثل بقية الحيوانات الثديية التى يبلغ عدد أنواعها ٤٢٣٧ قادرا على أن يحتفظ بدرجة حرارة مناسبة فى الحر والبرد.. صحيح أن بعض الحيوانات الثديية ـ أى التى لها أثداء ترضع بها أطفالها ـ تعتمد على جلدها الغليظ وشعرها الكثيف فى حفظ درجة الحرارة فى الشتاء. والوقاية من حرارة الشمس فى الصيف.. والوطواط وهو طائر ثديى عريان فى معظم أماكن جسمه.. ولكن يوجد شعر أيضا يغطيه ويحميه.. وهناك حيوانات أخرى مائية ثديية بلا شعر مثل الحيتان والدرافيل.. ولكنها لاتقوى على مواجهة الشمس كما يفعل الإنسان..

والإنسان فى تاريخه الطويل فقد القدرة على الابصار. وفقد قوة السمع والشم. أما الحيوانات الأخرى وخصوصا آكلة اللحوم مثل الإنسان فعندها قدرات خارقة على الرؤية والسمع والشم. ففى سنة ١٩٥٣ أجريت تجارب على قدرة الكلاب المتوحشة على الشم، فأثبت العلماء أن قدرتها أقوى من الإنسان مليون ونصف مليون مرة..

والإنسان مثل الحيوانات آكلة اللحوم قاتل أيضا. وبعض الحيوانات لا تقتل لمجرد القتل. وإنما لأسباب وجيهة: الجوع.. أو جوع صغارها..

وحتى الحيوانات التى استؤنست ما تزال عندها غريزة الصيد.. والإنسان أيضا. فالكلب الأليف يحب أن يخرج به سيده إلى الشارع ليمارس لعبة الصيد والمطاردة.. وهى لعبه لأنها ليست خطرة. وكذلك القط الذى تلقى إليه بالطعام فيداعبه كأنه فأر صغير.

وبعض الكلاب تخفى طعامها.

وبعض الضباع تخفى طعامها فوق الشجر..

وهذه الحيوانات آكلة اللحوم لها طرق معروفة فى الصيد.. والأسود تبعث

واحدا منها يهاجم الفريسة حتى تهرب ..وإذا ما هربت وجدت أمامها عددا آخر من الأسود . والذئاب تحاصر الفريسة .. أما الكلاب المتوحشة فإنها تمشى فى طابور طويل .. وتظل تهاجم الفريسة واحدا واحدا حتى تنزف الفريسة وتموت .

هناك خلاف هام بين هذا الإنسان وبين القرود الأخرى . هذا الخلاف هو أن طفل الإنسان يستمتع بفترة طفولة طويلة . هذه الفترة يعيش فيها مع أمه . ويتعلم منها الكثير. وفى نفس الوقت يكبر عقله وينضج . ولا يزال يكبر حتى السابعة من عمره . ويبلغ العقل نضجه التام فى الثالثة والعشرين أما الحيوانات الأخرى فلها فترات طفولة صغيرة ..

والإنسان لم يستمتع بهذه الطفولة إلا بعد عادات أخرى اكتسبها .. وهى أن الرجل هو الذى انفرد بالصيد والقتال . لأن المرأة فى حالة الحمل لا تقوى على ذلك ولهذا ذهب الرجل وبقيت المرأة فى البيت مع أطفالها . والمرأة فى البيت بلا خوف من هجمات الذكور الآخرين لأن هناك اتفاقا روحيا بين الذكر والأنثى ، أن تبقى هذه الأنثى له وحده . وأن تبقى وفية مخلصة له إذا ذهب للصيد فى الغابات . هذا الاتفاق لم يتم بين الذكر والأنثى إلا بعد أن كان هناك حب بينهما . وهذا الحب أدى إلى الارتباط والارتباط أدى إلى قيام وحدة من رجل وامرأة وإنشاء أسرة أى جو مناسب لتربية طفل لاستقرار الأب والأم والأطفال .. وإذا كان من طبيعة الحيوانات الأخرى أن تتعاون فالإنسان أيضا حيوان متعاون ولكنه حيوان متنافس أيضا . وكثيرا ما أدى به التنافس إلى القضاء على الأسرة وعشرات الأسر.. وإذا كانت رغبة الإنسان فى التعاون هى التى جعلته يخلق الأسرة ، فإن رغبته فى التنافس هى التى جعلته يبتكر الزوجات ويخطف الأرض ويقتل القبائل الأخرى .. وأكثر من ذلك جعلته يبتكر أدوات جديدة فى الدفاع عن النفس وفى القتال .. وجعلته يشعل النار فى عقله ويلقى بضوئه ودمائه على

الأجيال القادمة . تاريخ الإنسان أضواء باهرة تنعكس على بحار من الدم ترفع شعارات اسمها : حب الإنسان لأخيه الإنسان ..

أما لماذا سمى الإنسان بالقرد العريان فهناك آراء كثيرة . هناك رأى يقول إن طفل القرد عندما يولد يكون عاريا من الشعر تماما .. ثم ينبت له الشعر كلما كبر. والإنسان لأن طفولته طويلة فقد ظل جسمه خاليا من الشعر .. ثم أصبحت هذه الصفات وراثية من مئات الألوف من السنين .

ومن المعروف أن الجنين فى الشهر السابع والثامن يكون جسمه مغطى بالشعر وقد رأيت ذلك فى الأطفال الذين ولدوا قبل الأوان .. وبعد ذلك يختفى هذا الشعر كلما تقدمت بهم السن .. وان كانت هناك حالات نادرة معروفة فى الكتب العلمية لأطفال ظل شعرهم طويلا يغطى معظم الجسم . كالقرود تماما ..

ويقال أيضا إن الحيوانات التى يتغطى جسمها بالشعر. تعيش عليها ومعها حيوانات طفيلية كثيرة . وكان الإنسان يعيش فى الكهوف .. ويقال لأن الإنسان قادر أن يستخدم يديه راح ينتزع شعره ويحلقه .. لأن الإنسان قادر على أن يستخدم يديه وأصابعه . على عكس الحيوانات الأخرى . وهناك نظرية تقول إن الإنسان عندما اخترع النار لم يعد فى حاجة إلى أغطية من الشعر .. أو فروة من الشعر . وأنه قادر على أن يجد الدفء فى ضوء الشمس نهارا . وأن يجد الدفء أمام النار ليلا .. وأن هذا الدفء هو الذى أغناه عن حاجته للشعر الذى يغطى جسمه كله .

ويقال بأن الإنسان قد عاش مئات الألوف من السنين يتنقل بين البر والبحر وأنه كان يعيش على أكل السمك . وعندما كان يصيد الأسماك كان الماء يغمر جسمه كله . ولا يبقى إلا رأسه على سطح الماء .. ولذلك ـ مثل كل الحيوانات

الثديية الأخرى ـ أصبح جسمه خاليا من الشعر .. وكلها نظريات تجتهد فى تفسير خلو جسم الإنسان من الشعر ، أكثر من الحيوانات الأخرى ..

وربما كان للشعر تفسير جنسى آخر .. فمن الملاحظ أن الذكور من الحيوانات الثديية بها شعر أكثر من الأناث ولذلك أصبحت الأنثى الناعمة البشرة مثيرة من الناحية الجنسية للرجل . وهى حريصة على أن تكون أنعم أيضا . بينما يحرص الرجل على أن يكون أكثر خشونة .. ولذلك يطلق شاربه ولحيته .. ويترك الشعر فى صدره وتحت ابطه بينما تحرص الأنثى على أن تكون ملساء ..

وليس معنى ذلك أن الإنسان يحب البشرة الناعمة ، ولذلك زال الشعر من جسم المرأة . ولا معنى ذلك أن المرأة أحبت الشعر فى جسم الرجل فظهر الشعر .. ولكن معناه أن الإنسان أحب الواقع .

نعود مرة أخرى إلى قفص القرود الذى نقف أمامه فى حديقة الحيوان .. إن القردة لم تذهب إلى حلاق ولا إلى صانع أحذية وإلى مصمم أزياء .. ولم تضع الأحمر والأبيض والسوتيان .. والكورسيه والكعب العالى .. ولا الغمز بالعين ...

كل هذا يدل على أن الحضارة الإنسانية علمت الإنسان أن يكون شهوانيا .. وأن يكون مشتعلا جنسيا . وأن يفكر فى الجنس ويهرب منه ويعود إليه .. وبسبب الجنس يحب وبسبب الحب يتزوج وبسبب الزواج تكون له أسرة وأولاد .. يهرب من الأولاد والزوجة باسم الكراهية ليقع فى الحب ، الذى هو اسم مهذب للجنس .. فهو يدور حول نفسه هاربا قلقا خائفا فى قفص محكم معقد اسمه الغريزة الجنسية . واسمه تجارب التاريخ الذى طواه ملايين السنين قطعتها القرود على الأشجار وتحتها وفى الصراع مع الحيوانات الأخرى تحركت ساقاها .. وقاومت فتحركت يداها .. واهتز عقلها أيضا .. وسكنت الكهوف .. واستقام ظهرها .. وكبر عقلها .

وأصبح انسانا لا يختلف كثيرا عن القرود وان كان هو يتوهم أنه مختلف عنها تماما .. ولكنه قرد يصنع الأقفاص لغيره .. ولنفسه .. ويجعل أقفاصه هو مكيفة الهواء إذا كانت على الأرض .. ومكيفة الهواء والضوء والضغط إذا كانت فى طريقها إلى القمر.

والإنسان قاتل من يومه ..

كان يقتل بالحجارة والفأس والسيف. وما يزال يقتل . فقد أصبحت لهذه الأسلحة أسماء جديدة : الصاروخ والطائرة والدبابة . فهو ــ اذن ــ لم يتغير.

والحضارة لم تطور رغبته فى القتل . وإنما هذه الرغبة هى التى طورت الحضارة الإنسانية وغيرتها وصبغت بالأسود والأحمر طريقها وأهدافها .. والإنسان ــ هذا القرد العريان ــ كان صيادا فى الغابة ، يعيش على التقاط الفاكهة : التفاح والرمان والتوت . وما يزال . ولكنه يصيد تفاح الخدود ورمان النهود وتوت الشفاه .

فالحضارة الإنسانية لم تضع الفرامل على رغبات الإنسان . وإنما رغبات الإنسان هى التى أشعلت فرنا ضخما شوت فيه كل معالم الحضارة الإنسانية . فلا يزال الإنسان أكثر الحيوانات الراقية شراهة جنسية : يجوع إليها ، وينشدها ويجدها ويطاردها ويعود إليها . ويبدأ الإنسان هذا الشوق الجنسى فى سن مبكرة . ثم يعرف اللعب الجنسى . والمداعبة . والمطاردة . والصيد . والانتباه الجنسى والهياج الجنسى .. والأشباع ..

والإنسان حيوان شهوانى أكثر من الحيوانات الأخرى ..

ولكن الإنسان هو أول حيوان يحرص على أن تكون له أسرة . أى تكون له امرأة واحدة . يحرص عليها ومن الضرورى أن تحرص هى أيضا عليه . والإنسان كحيوان صياد كان يخرج من الكهف إلى الصيد فى الغابة . ويبقى فترات طويلة .

ويترك وراءه أنثاه وأولاده . وهى بذلك تكون عرضة لعدوان الذكور الآخرين . ولابد من حماية لها أثناء غيابه .

ولذلك عرف الإنسان الحب . وعرف العطف على الأنثى . وعرفت الأنثى حماية الذكر. وهذا الحب كان ضروريا للانسان. لأنه عقد غير مكتوب وبمقتضاه يصبح لهذا الذكر الحق فى أن يحتفظ بهذه الأنثى . ويصبح لهذه الأنثى الحق فى أن تعيش فى كهف هذا الرجل ولهذا الرجل وألا تسلم نفسها لذكور آخرين ..

ولكى يبقى هذا «العقد» محترما كان على الذكر أن يحترم عقود الآخرين .

وفى الوقت الذى بدأ فيه جسم الإنسان يضعف بدأ عقله ينمو وينضج . ولذلك لم يعد هذا الإنسان فى حاجة إلى عضلات الحيوانات وسرعتها فى الجرى والهرب . وإنما عقله هداه إلى أساليب أخرى لالتقاط الفاكهة من الغابة . وهداه أيضا لاستخدام أسلحة أخرى للقتال والدفاع عن النفس .. وهداه إلى وضع حدود اجتماعية لتحميه وتحمى ذريته . وفى أثناء فترة الصيد هذه استطاع الإنسان أن يحرك أصابع يديه . وهو وحده القادر على ذلك من كل الحيوانات الأخرى . وهذه الأصابع هى التى مكنت الإنسان من أن يستخدم الأدوات وأن يصنعها أيضا . وهذا ما لم تفعله كل الحيوانات الأخرى ..

وتمكن الإنسان ـ خلال مئات الألوف من السنين ـ أن يصلب عوده . وأن يقف وتعلم الإنسان أن يكون له رفيقة واحدة . هذه الرفيقة هى الشريكة . أو هى اللصيقة . أو التابعة .. فلم تظهر كلمة الزواج أو كلمة الزوج إلا فيما بعد ذلك بألوف السنين .

وهناك اختلاف آخر بين الإنسان والقرد مثلا ..

ففى فترة الحمل عند القرود ـ أقرب الحيوانات إلينا ـ تقرف الأنثى من كل

صلة جنسية . بل إنها تبتعد تماما عن الذكور . فيما عدا الإنسان ـ هذا الشهوانى ـ لا يقوى على الحرمان الجنسى طويلا . ولذلك فمن الممكن أن يقرب زوجته معظم فترات الحمل وكأنه بذلك أراد ألا تتجه زوجته إلى ذكر آخر .. وكأن الأنثى أرادت هى الأخرى ألا يتجه الذكر إلى أنثى أخرى . فأصبحت هذه العلاقة ممكنة رغم الحمل .

وقد ورث الإنسان من مرحلة الصيد القديمة ، هذه النعومة فى البشرة .. فهو إذا عانق المرأة التصقت بأكبر مساحة ممكنة من هذا الجسم العريان . وأصبح الجسم الإنسانى شديد الحساسية للملامسة . وفى هذا الجسم الإنسانى مراكز كثيرة قادرة على إشعال الحس . والإنسان اكتشفها واعتاد عليها ويلهبها كلما أراد ذلك .. ولذلك فى استطاعة الإنسان أن يكهرب نفسه وغيره بمجرد أن يمر بأصابعه على الجسم الإنسانى العريان .

ومن الملامح الغريبة عند الإنسان : الشفتان ..
وقد أعلن كثير من العلماء أن الشفتين ليست لهما ضرورة خاصة . وكان من الممكن أن يكون الفم مجرد فتحة . ولكن الإنسان هو الذى جعل للشفتين معنى خاصا .. ويقول علماء آخرون : إن شفتى الإنسان قد كبرتا وتضخمتا لأن الإنسان له طفولة طويلة . أى أنه يرضع ثدى أمه سنوات عديدة بينما نجد القردة ترضع صغارها فترات أقصر .

ولكن الغريب فى شكل الشفتين أنهما مقلوبتان إلى الخارج . على خلاف شفتى القرد .. فإنهما حادتان بلا طبقة شحمية . فإذا اقترب منك القرد وقبلك فإنه يطبع فكيه فقط على وجهك أعلى عنقك . ولكن القبلة من شفتى إنسان ملتصقة ومندمجة وعميقة أيضا . ففى استطاعة الإنسان أن يعانق الشفتين بالشفتين ..

وفى الشفتين خلايا عصبية كثيرة . ولذلك فالإنسان قد جعل هاتين الشفتين

ذراعين تتعانقان .. وتنقلان الحرارة والوهج الجنسى إلى كل الجسم بل إن هناك نساء يغمى عليهن عند القبلات . وبسبب المعانى الكثيرة التى تعملها القبلة وتثيرها ، فإن تسليم الشفتين هو موافقة مبدئية بتسليم بقية الجسم الإنسانى.. وكما أن الطفل يرضع بشفتيه ، فإن الطفل الكبير يرضع أيضا بشفتيه احساسات أخرى ومعانى عميقة ومثيرة .

وبعد الشفتين تجىء الأذنان ..

يقول بعض العلماء إن أذنى الإنسان كانتا طويلتين ـ كأذنى الحمار مثلا ثم ضمرت الأذنان بمرور الوقت حتى أصبح لها هذا الشكل الذى نراه .. وهناك شبه بين أذنى الإنسان وأذنى القرد .

ولكن هناك خلافا واضحا : هذه الشحمة التى تتدلى من الأذن .. من أين جاءت ؟ ولماذا كانت ؟ وما فائدتها ؟ ليست لها فائدة . ولكن الإنسان خلال مئات الألوف من السنين قد استخدم هاتين الأذنين فى الإثارة الجنسية .. أمسك الأذنين بأصابعه أثناء اللقاء الجنسى . واعتاد ذلك وأصبحت لهذه الشحمة هذه الدلالة الجنسية . وأصبحت جرسا يضغط عليه فإذا كل الحواس الأخرى تصرخ وتثور وتنفتح ..

أما النهدان فهما عند أنثى القرد العريان متضخمان .. وتتضخمان عند الإثارة الجنسية أيضا .

ويقال إن النهدين مظهر من مظاهر الأمومة . وضرورة لها . ولكن أثداء القرود ليست فى ضخامة أثداء المرأة . على الرغم من أن أثداء القرود أكثر افرازا للبن . ولكن اللبن الكثير والرضاعة العنيفة عند صغار القرود لم تؤد إلى تضخم ثديى القردة . ولكن أنثى الإنسان لها نهدان يتضخمان وهذا التضخم ليس بسبب

الأمومة ، ولكن بسبب الأنوثة .. فالنهدان جهاز تنبيه جنسى أيضا . اعتاده الإنسان واستراح إليه وعليه .

والأنف يختلف عن كل الأنوف عند الحيوانات الأخرى . والخلايا والمراكز العصبية الموجودة فى الأنف كثيرة ، وإذا كانت خاصة الشم عند الإنسان قد ضعفت فإن هذه الحساسية تقوى عند العناق . ويصبح الأنف قادرا على أن يشم وعلى الاستمتاع بالشم ولذلك كانت الإثارة عن طريق العطور ورائحة الجسم الإنسانى نفسه .

هذه الاختلافات فى الهيئة والسلوك الإنسانى قد اكتسبناها من مئات الألوف من السنين .. واكتسبنا معها وبسببها هذا العقل الذى نمتاز به عن الحيوانات الأخرى ولكن ما الذى تغير فى الإنسان الآن .. هل ما يزال الإنسان كما كان من مئات الألوف من السنين .. هل نحن مختلفون عن أجدادنا فى الرغبة والاتجاه والاشباع ..

لم يتغير شىء .. وإنما الأسماء فقط هى التى تغيرت .. فالبيت بدلا من الكهف والعمل بدلا من الصيد . والحب بدلا من السطو . والزواج بدلا من التزاوج ..

كما ظهرت بعض القيود التى نسميها : القانون .. القواعد .. الأصول .. التقاليد ولكن متى ظهرت هذه الحواجز . هذه الفواصل . هذه الأسلاك الشائكة . هذه العلامات البيضاء على الأرض . علامات المرور العاطفية . متى ظهرت . متى أصبحت لها هذه القوة ؟ ..

عندما ظهر الغرباء فى حياتنا ..

فبين الرجل وأنثاه لا قيود . ولا تقاليد . ولا عادات . إلا ما اتفقنا عليه . وهو حر فى بيته . وهى أيضا . وفى استطاعة الأنثى أن تمشى عارية . والرجل

أيضا . ولكن عندما يظهر شخص غريب : تنكمش الحركة ويتغطى الجسم . وتنزوى المرأة . ويبعد الرجل عن زوجته ..

وإذا كان الرجال معا يذهبون إلى الصيد ، ويتركون النساء وحدهن فقد حدث كثيرا أن ذهبت النساء للصيد أيضا . هذا الاختلاط حتم اقامة الفوارق والحدود . وعرفت الإنسانية معانى العيب والحرام والشرف . أى أن المرأة لا يحق لها أن تعطى للغير ما ليس للغير.

وقد أسرف الرجال فى وضع الحواجز واقامة الجدران بين ما يخصهم وما يخص غيرهم . وفى العصور الوسطى كان الرجل يضع «حزام العفة» حول زوجته . ويضع على الحزام قفلا ويحتفظ بالمفتاح فى جيبه.. عاما.. وعشرين عاما. ويترك فى الحزام فتحات للضرورة الحيوية فقط . وكان البعض من المتزمتين يضع الحزام كالسد المنيع على زوجته عندما ينهضان من النوم كل يوم ! .

وقد اعتاد الرجل منذ وقت طويل أن تكون له امرأة خاصة . وأن يكون جسمها خاصا به . وأن يكون لهما مكان خاص ينامان فيه . (وفى كل اللغات نجد أن كلمة «نام» الرجل مع المرأة أى عاشرها كأنها زوجته) .. إذن لقد عرف الإنسان الزوجة الخاصة . والبيت الخاص . وعرف السرية والخصوصية فى كل تصرفاته الجنسية والعاطفية .. بعيدا عن عيون الآخرين وعن أيديهم أيضا .

ولو نظرنا إلى مكان يزدحم بالرجال والنساء لوجدنا هناك حرصا شديدا على ألا يصطدم أحد بأحد .. أو يصطدم رجل بامرأة . لأن الملامسة لها معنى جنسى . وإن كنا فى حياتنا العادية لا نقول ذلك . وإنما فقط نقول : عيب أن نصطدم بسيدة .

هذه قلة ذوق .. هذا سوء تربية .. ولكن المعنى الحقيقى أن جسم هذه السيدة ليس مباحا . وإنما هو خاص . وليس من حقك أن تلمسه .. وإنما من حق

غيرك ، وإن كانت هذه الملامسة مسموحا بها فى أماكن الزحام الشديد ، لأنه لا مفر من ذلك ، ومسموحا بها للحلاق والترزى والطبيب .. ولو فرضنا أن سيدة اصطدمت برجل فى الزحام ، ولم يعتذر لها لقالت إنه قليل الأدب .. ولكن لو ذهبت إلى الطبيب نفسه للعلاج فإنها تنزع ملابسها أمامه . ويتحسس جسمها . ويولدها . ولا يتهمه أحد بسوء الأدب لأنه فى المرة الأولى لم يكن له حق . وفى المرة الثانية له هذا الحق ! .

وبسبب هذا العدد الهائل من الغرباء فى كل مكان . كان من الضرورى أن تخفى المرأة معالم جسمها . وقد دفعت المرأة نفسها وراء الأبواب والجدران وتحت الملابس ألوف السنين . ولكن عندما أصبح «العمل» ضرورة حيوية .. خرجت المرأة وأخفت ملامحها أيضا لأن كشف هذه المعالم والنظر إليها ولمسها بالعين أو باليد ليس من حق كل الناس ! .

ولذلك نحن نطلب إلى الطفلة الصغيرة إذا جلست أن تضم ساقيها . وألا تفتحهما حتى تعتاد على ذلك .. لأن فتح الساقين لا يليق أمام كل الناس .. وكذلك المرأة عندما تضحك فإنها تحاول ألا يكون صوتها عاليا . وأن تخفى ضحكتها وراء يدها .. أو تنحنى لتخفى ضحكتها أيضا .

والسبب هو أن الضحك واللعب لها دلالة جنسية خاصة ، ويجب ألا تكون عامة !

ولكن ما الذى تفعله المرأة بملابسها الآن ؟

إن ملابس المرأة تخفى جسمها ولا تخفيه .. بل إن الملابس تبرز جسم المرأة أكثر مما تتستر عليه . فقد يكون الصدر مترهلا ذابلا ، ولكن السوتيان يشده ويبرزه وهذه الاستدارة والتضخم والبروز لها دلالة جنسية . فمن المعروف أن النهدين يتضخمان عند اللقاء الجنسى .

وكذلك أرداف المرأة . فهى حريصة أيضا على ابراز الردفين وتكبيرهما .. ولذلك تستخدم الكورسيه .. وأحيانا، تستخدم الأرداف الصناعية المصنوعة من القطن . وكما أن المرأة تحقن صدرها بالشمع . فإنها تحقن أردافها أيضا .

فكأن المرأة لا تخفى جسمها . وإنما هى تخفيه ليظهر أكثر. فلماذا ؟

نعود إلى جبلاية القرود : فى عالم القرود نجد أن الخوف والزحام يدفعان الحيوانات الضعيفة إلى الاستسلام للذكر القوى أو الأنثى القوية . وأول ما يفعله القرد الضعيف أن يدير ظهره للحيوان الأقوى . ويعتليه الحيوان الأقوى. والخوف فى جبلاية القرود سببه الزحام على القوة . وعلى السلطة . وعلى الطعام وعلى الأناث . ولا يملك الضعيف فى هذا الزحام الوحشى إلا أن يعطى نفسه لمن هو أقوى منه . وليس لدى القرود إلا جسمها .. فتضعه أمام الذكر الأقوى !

وفى عالم الإنسان أيضا . فالمرأة عندما تخرج إلى الشارع . تحرص على أن تكون جميلة ومثيرة فهذا الجمال والإثارة هما محاولة للفت نظر الرجل . وفى نفس الوقت تذويب رغباته العدائية أو العدوانية .. إلى مجرد رغبة .. إلى اعجاب .. إلى اشتهاء .. وبذلك تنجو المرأة من شر الرجل . وتنجو أيضا من الاعتداء عليها .. ولولا خروج النساء إلى الشارع لانهدمت الحياة الزوجية وانهدمت الأسرة الإنسانية . فخروج المرأة إلى الشارع خفف حدة الرجال الآخرين الشبان والمتزوجين .. فكأن المرأة عندما تخرج إلى الشارع جميلة أنيقة مثيرة عارية بارزة النهدين والردفين تقول : من الممكن أن تحبنى ولكنى بعيدة جدا ! .

ومعروف لنا جميعا أن المرأة عندما تخرج إلى الشارع سوف تكون موضع نظر الرجل .. أى رجل .. فهى لا تستطيع أن تسد عيون الناس . ولا أن تسد أفواههم . ولكنها فقط عن طريق إشباع العيون تقطع أيديهم .. وإذا كانت العين بصيرة ، فمن المؤكد أن الأيدى ستكون قصيرة ـ وهذا هو المطلوب !

فلماذا كل هذه الممنوعات والقيود ، ولماذا هذه الاثارة فى نفس الوقت ، لماذا نفتح النوافذ لتهب العواصف الباردة ولماذا نشعل المدفأة فى نفس الوقت ؟ .

لأن الرجل حيوان « بريالة » .. فإذا سال لعابه ، أصبح حيوانا ذلولا ذليلا .. فكأن المرأة هى وحدها القادرة على تحويل النمر إلى قط وتحويل الذئب إلى كلب .. إلى قرد عريان .. إلى عريان .. فكأن المرأة هى وحدها التى تقوم بترويض الرجل الشرس فى الشارع وفى البيت .. وهى وحدها القادرة على أن تحمى الحدود التى وضعها الرجل .. وعلى ازالة الحدود وازالة الرجل أيضا ! .

وقد اعتاد الانسان شيئا جديدا : اعتاد أن ينظر .. أن « يبص » وأن يجد متعة فى النظر والبصبصة .. واعتادت المرأة أن تكون منظورة . ملفتة .. وتصبح المتعة مشتركة بين الجميع .

ولذلك نجد متعة أيضا فى مشاهدة الأفلام والمسرحيات حيث نجد أناسا آخرين يحبون ويعشقون ويقبلون ويتزوجون .. إنهم يقومون بكل شىء بالنيابة عنا .. إننا نشاركهم فقط بعض اللحظات . بل إننا نعلن عن الأفلام العاطفية بإظهار البطل والبطلة فى حالة عناق حار . ولا أحد يسأل نفسه : طيب هو يعانقها ويقبلها واحنا أخذنا إيه ؟ ..

لا شىء طبعا . ولكن أثناء عرض الفيلم نندمج مع البطل والبطلة وننسى أن الذى أمامنا هو تمثيل فى تمثيل .. ولكن النظر متعة .. ولذلك عندما يتعانق البطلان نحس بالكهرباء ويسيل اللعاب.. وتتعالى آهات الحرمان .. آهات صاحب العين البصيرة واليد القصيرة ! .

وفى الصحف والمجلات صور عارية .. وفى الروايات قصص عارية .. وصفحات غرامية من نار .. كل هذا نبحث عنه . لأنه لذة . ومتعة . ومشاركة بالعين فقط .. ! .

وفى هذه المناظر حماية للأسرة وتعجيل بأن تكون لكل إنسان أسرة أيضا !

وفى البلاد التى يسمحون فيها بالدعارة .. نجد أن هذه الدعارة تحمى الأسرة

وفى البلاد التى يسمحون فيها بالدعارة .. نجد أن هذه الدعارة تحمى الأسرة أيضا . فالرجل يذهب إلى إحدى الغانيات بلا حب ولا مقدمات فتمتد يده دون أن يراها .. أى يكون طويل اليد قصير النظر .. ولذلك لا يفكر فى أن يتزوج غانية .. أو يترك زوجته وأولاده وبيته من أجل غانية .. أو من أجل واحدة تملأ الذراعين وتسقط من العينين ! .

والدعارة هذا العفن الاجتماعى والأخلاقى ـ هو أحد السموم التى يحمون بها الأسرة ـ أو كأنه أحد الأسمدة العضوية التى يستخدمونها لتغذية التربة ؟ ! .

ورغم المحاولات الكثيرة للتخلص من القيود العائلية . أو التخفيف منها تعيش الأسرة أقوى وأبقى علاقة اجتماعية . فقد حاول المفكرون أن يبحثوا عن وسائل للحمل بدون أب معروف .. وحاولوا وضع الأطفال فى مكان عام دون حاجة إلى أم أو أب .. كل هذه المحاولات الفكرية والعلمية قرأ الإنسان عنها ولكن لم يتحمس لها . فما يزال الإنسان حيوانا اجتماعيا .. يريد الزوجة الواحدة والطفل والبيت الخاص . وأن تكون له خصوصيات . وأن تكون هناك ، حدود عليه وحدود له .. وأن يكون له أطفال . وأن يتولى هو تربية أطفاله وهذه هى احدى مشكلات الأسرة وأحد أعباء الزوجين .. والمجتمع والدولة .. وتربية الطفل ليست مشكلة حيوانية .. فلا شكوى للقرود منها .. وإنما هى مشكلة إنسانية جديدة ومتطورة كما سنرى ! .

من قلوب الأمهات خرجت موسيقى الخنافس

- ٢ -

عندما يولد القرد ، فإنه يمسك بأمه . يمسك بشعرها وجلدها . ويتعلق بها . كأنه تدرب على هذه العملية فى بطن أمه ومنذ وقت طويل .. ولا يستطيع الطفل الإنسانى أن يفعل ذلك إلا بعد وقت طويل .

فالقرد الصغير لايحتاج من أمه إلى تربية أو تدريب .. ثم إنه ليس عبئا يصيبها بالقرف والغثيان وينخفض ضغط الدم عندها.. وينفخ صدرها .. ويعتمد عليها .. أما الطفل الإنسانى فإنه عبء قبل أن يولد فلا تكاد أمه تحمل فيه ٢٦٦ يوما حتى تطلق هذا الجنين كأنه قذيفة .. ولابد أن تصرخ الأم بأعلى صوتها . ولابد أن يبكى الطفل . فإذا حدث ذلك تلفت الطبيب يتلقى التهانى من الأهل على أنه أبكى الأم وطفلها .

وينزل طفل القرد ومعه « خلاصه » هذا الخلاص تقوم أم القرد بقطعه ثم ابتلاعه . وبعد ذلك تقوم بلعق السائل الذى يغرق جسم الطفل ثم تغسل جسمه تماما .. أما الطفل الإنسانى فإنه يولد عاجزا تماما على فعل أى شىء .. وأمه كذلك مرهقة لا تقوى على عمل شىء لهذا المولود ..

ولابد أن قطع الخلاص على طريقة القرود كان أسلوب أجدادنا من ألوف السنين ، فيما عدا أنهم لايأكلون الخلاص . ولابد أن حاجة الأم إلى مساعدة الآخرين فى هذا الموقف ترجع إلى مئات الألوف من السنين عندما كان الإنسان صيادا يترك زوجته أياما حتى يعود إليها بالطعام . فكان يجتمع حولها نساء كثيرات يساعدنها على ولادة الطفل والعناية به حتى تفيق الأم من آلام الولادة ..

وبعد يومين من ميلاد الطفل الإنسانى يبدأ لبن الأم فى السيولة النشطة . فإذا أعطت الأم ثديها لابنها ، ظل يرضع حوالى العشرين شهرا .. والرضاعة الحديثة تكتفى بسبعة أو تسعة شهور فقط .

وعندما تتوقف الأم عن ارضاع طفلها يعاودها المرض الشهرى وتصبح قادرة على الحمل من جديد .. ولذلك تعتبر الرضاعة الطويلة محاولة لتحديد النسل أيضا .

والرضاعة عند القرود ليست مشكلة .. ولكنها عند الإنسان ـ هذا القرد العريان ـ مشكلة كبرى . فالطفل الإنسانى غير قادر على أن يطعم نفسه ، وعلى الأم أن تساعده فهى تحمله على صدرها . وهى تضع ثديها فى فمه . وهذه مشكلة . فحلمة الثدى ليست ممدودة بدرجة كافية . وليس من السهل ادخالها فى فم الرضيع . ولذلك فالأم تضع ثديها بين شفتيه بحيث تكون حلمة الثدى بين سقف الفم وبين لسانه . ثم إنه يجب أن تكون الرضاعة سهلة فى الأيام الخمسة الأولى ، وإذا فشلت الأم فى ذلك فسوف تكون هذه مشكلة معقدة للطفل بعد ذلك ..

وأحيانا تشعر الأم أن طفلها يرفض ثديها . وهى لاتدرى . ولكن عند

الطفل أسباب وجيهة جدا . كأن تضغط الأم بطفلها على صدرها . فلا يعرف كيف يتنفس : ففمه الصغير مليان باللبن وأنفه الصغير ملتصق بصدرها .. ولذلك يجب أن تراعى الأم ذلك . وهذا يجعلنا نقول مرة أخرى إن صدر الأم - نهديها - ليس جهازا للأمومة . وإنما هو علامة من علامات الأنوثة .. والجنس . فهذه الاستدارة المرنة . وهذا البروز وهذه الحلمة غير الممدودة لا تجعل الرضاعة سهلة على الطفل . ويكفى أن ننظر إلى زجاجات اللبن التى يرضع منها الطفل . فحلمة الزجاجة طويلة ممدودة ولذلك يسهل على الطفل أن يرضع منها . ولو عرف الزجاجة لرفض ثدى الأم .. وتشبه هذه الزجاجة النموذجية ثدى القردة .. فثدى القرد مترهل يسهل على الطفل أن يمسكه . كما أن حلمة الثدى طويلة ممدودة تدخل بين شفتيه بسهولة تامة . بينما الطفل الإنسانى يجد صعوبة فى وضع الحلمة فى فمه . ولا يقوى على إمساك الثدى بسهولة القرود .. فكأن ثدى المرأة خلق للرجل وليس للطفل ..!

وهناك ملحوظة هامة وتحتاج إلى تفسير جديد . فقد دلت الأبحاث على أن ٨٠٪ من الأمهات يضعن أطفالهن الصغار أثناء الرضاعة على الذراع اليسرى .. وقد يكون تفسير ذلك أننا نعتمد على الذراع اليمنى أكثر من الذراع اليسرى فتضع الأم طفلها على الذراع التى لاتستخدمها عادة .

ولكن لوحظ أيضا أن ٧٨٪ من الأمهات اللاتى يستخدمن الذراع اليسرى يضعن الطفل أثناء الرضاعة على هذه الذراع اليسرى أيضا !!

أما تفسير ذلك فهو أن القلب على الجانب الأيسر من الجسم . وأن الطفل وهو جنين قد اعتاد على سماع دقات قلب الأم . وعندما يولد الطفل عاجزا ضائعا فى هذا العالم الكبير فإن الأم تعيده إلى جنبها إلى حضنها كأنها تعيده إلى أحشائها فى ذلك المكان الأمين الذى يستمع فيه إلى دقات قلبها من جديد ..

ودقات قلب الأم هى الصوت الوحيد الذى يجعله يشعر بالأمن فينام . والمرأة تفعل ذلك بالغريزة أو نتيجة لمحاولات طولها عشرات الألوف من السنين .

وقد أجريت تجارب على أطفال صغار وضعوا فى غرفة واحدة فى الوقت الذى وضع جهاز تسجيل يذيع دقات قلب ـ أى ٧٢ دقة فى الدقيقة ـ فلوحظ أن الأطفال ينامون بسهولة . ولوحظ أيضا أن هؤلاء الأطفال يرضعون كثيرا . كما أن وزنهم قد زاد .. على عكس الأطفال الذين وضعوا معا بلا جهاز تسجيل فى غرفهم . فهؤلاء الأطفال يبددون طاقتهم فى البكاء .

وأجريت تجربة أخرى على ثلاث مجاميع من الأطفال : أطفال فى غرفة بها جهاز يدق ٤٠ دقة فى الدقيقة .. وأطفال فى غرفة بها جهاز يدق ٥٢ دقة فى الدقيقة .. والغرفة الثالثة بها جهاز مسجل عليه دقات قلب حقيقى .. فلوحظ أن أطفال الغرفة الثالثة هم أسرع الجميع إلى الهدوء وإلى النوم .

ولابد أننا حين نتحدث عن أن الحب مصدره القلب وليس الرأس ، نشير إلى أن هذه الحقيقة التى عرفناها أثناء الطفولة .. فنحن نشير إلى الأمن والأمان إلى جوار الأم .

ولابد أن تكون « مرجحة » الطفل .. وهدهدته حتى ينام .. سببها أن الطفل يستشعر خفقات قلب الأم .. ولابد أن هذا هو الذى يجعله ينام .. وهذا الاهتزاز أو هذا الصوت الذى يسمعه يعيده إلى هدوئه عندما كان فى بطن أمه .. وهذا ما نفعله نحن الكبار .

فلا يكاد الإنسان يجلس إلى مقعده حتى يحاول أن يتأرجح به .. أو عندما نهز أرجلنا .. كل هذه محاولات لأن نهدئ أنفسنا .. أو محاولات لأن نعيد هزات وصوت قلب الأم .

وليس من الصدفة أن تكون كل الموسيقى الجديدة التى يستريح إليها الشباد

هى موسيقى الدقات العالية .. دقات الطبول .. دقات القلوب المصنوعة من الجلد .. هذه الدقات تهز الأذن وتتأرجح لها المشاعر .. وقد اختار الشبان فى العالم اسما لهذه الموسيقى هو : موسيقى الخفقان .. موسيقى دقات القلب . ومن الغريب أيضا أن الكثير من الشبان بعد حفلاتهم الموسيقية الصاخبة ينامون .. ولذلك يحرص هؤلاء الشبان على أن يناموا أثناء العزف الموسيقى .. ثم يصحون بعد ذلك بعد أن استراحت أجسامهم وأعصابهم أيضا .. إن هذه الموسيقى قد أعادتهم إلى طفولتهم .. إلى قلب الأم .. وإلى حنان النغم .. فناموا كأنهم أطفال صغار كأن موسيقى الخنافس قد صدرت من قلوب الأمهات ! .

وبعد ذلك يتوالى نمو الطفل: بعد شهر واحد يستطيع أن يرفع رأسه إذا نام على الأرض . وبعد شهرين يرفع صدره وبعد ثلاثة يمد يده إلى الأشياء . وبعد أربعة يستطيع أن يجلس فى حجر أمه . وفى الخامس يمكن وضعه فى مقعد . وفى السادس يمكن أن يجلس وحده وفى السابع يعتمد على أمه فى الوقوف . وفى الثامن يعتمد على أثاث الغرفة فى الوقوف . وفى التاسع يزحف . وفى العاشر تساعده أمه على المشى . وفى الحادى عشر يعتمد على أثاث الغرفة فى المشى . وفى الثانى عشر يستطيع أن يصعد السلم بيديه ورجليه وفى الثالث عشر يقف دون مساعدة . وفى الرابع عشر تجىء اللحظة الكبرى .

أنه يستطيع أن يمشى دون مساعدة ! وفى هذه الأثناء يكون قد عرف الطفل بعض الكلمات . ويصبح قادرا على أن يحفظ بسرعة وفى السنة الثانية يعرف ٣٠٠ كلمة وفى الثالثة ٥٠٠ كلمة وفى الرابعة ١٦٠٠ كلمة . وفى الخامسة ٢١٠٠ كلمة وهذه مقدرة فذة عند الإنسان انفرد بها عن كل الحيوانات الأخرى . وقد أجريت تجارب كثيرة على تدريب القرود على الكلام .

فمثلا : أتوا بقرد وجعلوه يعيش فى نفس بيئة طفل إنسانى . وبعد سنتين لم

يستطع القرد أن ينطق أكثر من بابا .. وماما .. كوب .. وإن كان الشمبانزى عنده مقدرة على تقليد الحركات ، فإنه عاجز تماما عن تقليد الأصوات . على الرغم من أن الأجهزة الصوتية عند الشمبانزى أقوى من أجهزة الإنسان .. ومعنى ذلك أن الجهاز الصوتى لايكفى .

ولكن العقل هو الفارق بين الإنسان والقرد . وهناك طيور أقدر من الشمبانزى على تقليد الأصوات .

فالببغاء يستطيع أن ينطق جملة طويلة ولكنه لا يستطيع أن يضيف كلمات أخرى ولا يستفيد من هذه الكلمات المحدودة التى عنده .. ولكن هذه اللغة ضرورة عند الإنسان الذى كان يجب أن يخرج فى جماعات للصيد . وكان لابد أن توجد هناك وسائل للتفاهم والتخاطب بين الصيادين .. فاللغة ضرورة حيوية عند الإنسان ..

والطفل الإنسانى ككل أطفال الحيوانات الثديية له صرخة معروفة هذه الصرخة تدل على أنه يشكو من ألم . وبعض الطيور لها صرخات أيضا . والطفل الإنسانى عندما يتألم أو يجوع أو نتركه وحده أو إذا ظهر أمامه أو حوله شيء غير مألوف أو إذا سحبنا من تحته شيئا يستند عليه .. فإنه يصرخ .

فهو يصرخ إذن بسبب : التعب أو الخوف . وإذا صرخ الطفل الإنسانى يجب أن يكون هناك من يساعده ويحميه . وفى هذه الحالة يجب الاقتراب منه وهزه هو أو السرير الذى ينام عليه. وصرخة الطفل توتر عصبى واحمرار فى الرأس ودموع فى العين ، وفتح للفم وسحب للشفتين إلى الخلف وتنفس مرتفع وعندما يكبر الطفل فإنه عندما يصرخ يتجه إلى أمه ويتعلق بها. وكل هذه معلومات معروفة. ولكنها ضرورية لمشكلة أخرى سوف أعرضها حالا .. مشكلة الابتسام والضحك .. فالابتسام له علاقة بالصراخ. فالصراخ نداء إلى شخص بعيد.

والابتسام حديث مع شخص قريب . وملامح الوجه عند الصراخ هي نفسها ملامح الوجه عند الابتسام أو الضحك : صراخ وفتح للفم وسحب للشفتين إلى الخلف وتقلص عضلي واحمرار فى الوجه .

وإذا استطاع الطفل أن يميز أبويه فى الشهر الثالث ، فإن البكاء يتحول إلى ضحك . فالطفل الضاحك هو الذى يعرف أباه ، والطفل العاقل هو الذى يعرف أمه . وعندما يعرف الطفل أمه فإنه يخاف من الآخرين .

والضحك معناه : أن الخطر ليس حقيقيا . وإذا عرف الطفل الضحك ، فإن الأم تستطيع أن تلعب معه دون أن يصرخ .

وهناك أناس كثيرون إذا ضحكوا لاتعرف إن كانوا يضحكون أو يبكون .. فملامح الوجه واحدة . والصوت نفسه واحد . وإذا كنا نقول عادة : إن فلانا ضحك حتى بكت عيناه ، فيمكن ان يقال عن الطفل : إنه بكى حتى ضحك .. فالطفل يبكى حتى يجيء أحد . فإذا جاء توقف عن البكاء . فإذا عرف هذا الذى جاء فإنه يبتسم .. ثم يضحك .. وكثيرا ما يتوقف الطفل عن البكاء فجأة ويضحك .. نفس الملامح مع خلاف بسيط فى لمعان العينين ..

وعندما يعرف الطفل كيف يضحك فإنه يصبح لعبة الأبوين والأقارب .. ويدخل الطفل مرحلة هامة من حياته .. مرحلة الكائن الاجتماعى الصغير ..

والشمبانزى يبتسم ويضحك ويلعب مع صغاره .. والشمبانزى إذا ضحك فإنه يمد شفتيه إلى الأمام . وهى قريبة من الضحك الإنسانى وعندما يخاف الشمبانزى فإنه يسحب شفتيه إلى الخلف ويكشف عن اسنانه . فالحيوانات تضحك وتلعب . والإنسان أبرع الحيوانات كلها فى اللعب وفى فنون اللعب .. وكلما كبر الإنسان اتسعت أمامه فرص اللعب بأنواعه المختلفة .. اللعب جسميا وعقليا وفنيا .

وإذا نحن نظرنا إلى الشبان عندما يستمعون إلى مطربهم المحبوب .. أو يتفرجون على العازفين الذين يعشقونهم . نجد أن هؤلاء الشبان يصرخون . ويشدون شعورهم ويدقون صدورهم ويمسك الواحد منهم الآخر .. إنهم يصرخون كأنهم يتألمون مع أنهم سعداء . ولكن الانفعال إذا ما كان بالغ الشدة فإنه يتحول إلى شعور بالألم .. فصرخاتهم ليست استغاثة بأحد . وإنما صرخات بقصد تنبيه الآخرين إلى أن هذا هو شعورهم واحساسهم .. وأنهم فى شدة السعادة التى بلغت أقصى درجات الألم ..

ولو أتينا بشاب أو شابة وأجلسناها مع المطرب الذى هو فتى أحلامها فإنها لاتصرخ ولا تشد شعرها ولا تدق صدرها .. فالصرخة ليس لها معنى هنا . لأن الصرخة نداء إلى الآخرين .. لأن الصرخة .. لغة .. عبارة .. كلام لابد أن يسمعه إنسان آخر .. أو آخرون ! .

ومن العجيب أن الطفل الصغير يتوقف عن الصراخ فى الشهر الثالث فجأة . وسبب ذلك أن الطفل يكون قد عرف أمه . والأم الهادئة قادرة على تهدئة الطفل . والأم العصبية تجعل طفلها عصبيا أيضا ..

الأم التى تبتسم لطفلها فإنها تهدئه . ولكن إذا فوجئ الطفل بأن أمه تضحك بصوت مرتفع على غير العادة ، فإنه يرتبك ويضطرب ولايعرف ما الذى تقصده أمه .

وإذا الأم افتعلت ضحكة أو ابتسامة ، فإن الطفل يدرك ذلك أيضا ، ومن المستحيل خداع طفل صغير . وهذه حقيقة تعرفها الأمهات . وسبب ذلك أن الطفل جهاز شديد الحساسية شديد الملاحظة . وأنه إذا اعتاد على صوت ولهجة ونبرة وملامح الأم . فإذا تغيرت لأى سبب فإنه يدرك ذلك وبسرعة وبدقة !

والابتسام تفاهم متبادل .

ومعناه : لاخوف . وعند الشمبانزى علامات تدل على المودة . ولكن الابتسام عند الإنسان ميزة خاصة . ولكن لماذا انفرد الإنسان بالابتسام ؟ سبب ذلك أن جلدنا ناعم .

عريان من الشعر . فالقرد الصغير عندما يولد فإنه يتعلق بأمه . ساعة ولادته ويوما بعد يوم يظل القرد متعلقا بأمه . وعندما يتركها لأول مرة ، فإنه بسرعة يعود إليها ويمسك بها . فالقرد الصغير عنده طريقة للوصول إلى منطقة الأمان حتى عندما يكبر القرد ويزداد وزنه وتطرده أمه فإنه يعود إلى صدرها يتعلق به والطفل الإنسانى عندما يولد فإنه يكون عاجزا عن عمل شىء . وليس لديه شىء يمسكه أو يتعلق به . ولذلك لابد أن يعتمد على الأم نفسها . وعلى اقترابها منه ومعاملتها له . ويجب أن يصرخ حتى تجىء . والشمبانزى لايحتاج إلى هذه الصرخات ، لأن أمه أمامه موجودة . أو لأنه يتعلق بها . ولذلك فالإنسان الصغير محتاج إلى علامة إلى إشارة تدل على أنه فى حاجة إلى معونة ومحتاج إلى اشارة أخرى فيقول إنه قد تحققت له المعونة وانه استراح إلى ذلك .. والابتسام هو المكافأة التى يمنحها الطفل لأمه .. فهو إذا ابتسم كأنه قال لها : شكرا .. وإذا ابتسمت هى فكأنها قالت له : عفوا ! .

وابتسامة الطفل فى الأسابيع الأولى تكون غير مركزة .. إنها ابتسامة عامة .. ولكن بعد ذلك تصبح للطفل قدرة على التركيز : على عينى الأم .. ولو قدمنا للطفل فى هذه المرحلة ورقة مرسومة عليها عينان .. لابتسم لها أيضا .. وفى الشهر الرابع تتركز نظرة الطفل على وجه الأم .. وفى الشهر السابع يتعرف الطفل على أمه .. وابتداء من هذا الشهر ينطبع فى نفس الطفل كل ماتفعله الأم حتى نهاية حياته .. إنه ابتداء من هذه اللحظة تتحدد مسئوليتها الكبرى .

وتظهر عند الطفل نزعات عدوانية يصاحبها الصراخ المتقطع . وتقلص

اليدين والرجلين . وأحيانا يبصق الطفل ويخربش . تكون هذه الحركات غير متناسقة أول الأمر .

وبعد ذلك تتركز على العدو .. أو الشخص المخيف . وهذا يدل على أن الطفل بدأ يثق بنفسه وبقدراته .

وعندما يكون هناك أطفال كثيرون معا ، فإن استعدادهم للعدوان يكون أشد وأعنف .. ومهمة الأم هنا هى تلقين الطفل وتدريبه وتعليمه وتصحيح سلوكه . والطفل الإنسانى يتعلم بالتقليد والتلقين .. وهذه موهبة لم تتطور عند الحيوانات الأخرى .

ومن المؤكد أن كل تصرفاتنا هى ثمرات لبذور غرست فى الطفولة .

ولكننا ننسى ذلك .. كل ما يفعله الإنسان من تلقاء نفسه ويسمى ذلك سلوكا اخلاقيا ، ليس فى الحقيقة إلا ما ترسب فى نفسه منذ الطفولة .. ومن الصعب أن نغير آثار الطفولة وآثار الغريزة أيضا .. كما أنه من الصعب أن نغير التقاليد والعادات التى ترسبت فى طفولة المجتمع الإنسانى . فإذا ظهرت أفكار جديدة تهز القديم ، فإن القديم يقاوم ويتحمس له الناس . لأن الجديد يريد أن يقتلعهم من طفولتهم أو يجردهم من تاريخهم .. ولكن الجديد يسود مع بقاء القديم أيضا ..

وهناك مجتمعات تجردت من كل القديم ، وتعلقت بالجديد .. هذه المجتمعات انهارت وانحلت وابتعدت عن الرواسب القوية الأخلاقية والاجتماعية . وهناك مجتمعات تجمدت طفولتها على ماضيها .. ولكن المجتمعات السعيدة ـ كالإنسان السعيد أيضا ـ هى التى تأخذ من الجديد ماينفعها ، وتحتفظ من القديم بما ينفعها أيضا .. أى المجتمعات التى اكتسبت هذه القدرة المتوازنة بين الماضى الكريم والمستقبل الباهر .. ولذلك كانت مهمة الأم صعبة ..

كيف تغرس فى نفس طفلها ما هو نافع له وللناس ، وتبعده عن الذى يضره ويضر غيره ..

ولكن الإنسان كائن محب للاستطلاع حتى ولو أدى ذلك إلى ضرره .. يريد أن يعرف .. أن يمد عينيه ويده .. وخياله .. ويلعب أول الأمر ، ثم يحول اللعب إلى فن : رسم . نحت .. تمثيل .. موسيقى !

القرد والسلسلة والقرداتى

- ٣ -

كل الحيوانات الثديية عندها رغبة شديدة فى أن تشمشم فى كل ما تجده كأنها تريد أن تعرف : ما هذا ! ولماذا ! وهل الذى تجده شىء يصلح للأكل . والقرد هو أكثر هذه الحيوانات رغبة فى الاستطلاع . أما الإنسان فهو أكثرها شراهة ويمكن أن يقال إن الإنسان حيوان « دباغ » أى يأكل أى شىء وفى أى وقت ..

وكلما أصبح الحيوان متخصصا فى طعام معين ، أصبح عالمه ضيقا محدودا وفى نفس الوقت خانقا أيضا .. فالحيوان الذى يأكل النمل لايرى إلا هذه الحشرة . وتصبح الدنيا من أولها لآخرها لامعنى لها إلا إذا كانت على شكل نملة .. وإذا اختفى هذا النمل لأى سبب مات هذا الحيوان ..!

ولأن بعض الحيوانات تخصصت فى بعض الطعام ، فإن الطبيعة قد أعطتها نوعا من الحماية . فحيوان القنفد يستطيع أن يحدث أصواتا وضوضاء كما يحلو له وهو آمن تماما . لأن له درعا من الشوك يحميه من الأعداء .. لكن الحيوانات الأخرى التى ليست لها حماية يجب أن تكون فى حالة يقظة مستمرة .. فالإنسان يجب أن يبحث عن طعامه فى كل مكان ، وأن يكون البحث واعيا وإلا مات .

والقرود عندها حب استطلاع شديد . تماما كالإنسان ، ولكن عندما تكبر القرود ، فإن هذا الاستطلاع يتوقف ، ولايتطور على عكس الإنسان الذى يقوده السؤال إلى جواب ثم إلى سؤال آخر وهكذا ..

وهناك نوعان من السلوك عند الإنسان : حب الجديد والخوف من الجديد .. فكل شيء جديد ربما كان خطرا .

ولذلك يجب أن يقترب منه باحتراس وان يبتعد عنه باحتراس أيضا ، ولكن إذا تجنبنا كل ماهو جديد أوكل ماهو مخيف فكيف نعرف أوكيف نتعلم أو كيف نوسع مجال الاستطلاع عندنا من أجل العثور على الطعام والوقاية والدفاع والسيطرة ؟ هذه الرغبة فى أن نعرف هى التى تجعل ما ليس مألوفا شيئا مألوفا ، وبذلك نكتسب تجربة جديدة ، وندخرها ونختزنها ونتذكرها فيما بعد ..

فالطفل الإنسانى يريد أن يعرف ، يمد يده إلى كل شيء ، ويضع أذنه على كل باب ويلتقط كل ما يدور حوله ، ويجرب ، وقبل أن تصبح هذه الرغبة الشديدة عند الطفل شيئا خطرا يجب أن يتدخل الوالدان .. ونحن نقول عادة عن هؤلاء الأطفال الذين يستطلعون كل شيء بشراهة : إنهم يتصرفون كالوحوش .. ولكن الأصح أن يقال : إن الوحوش هى التى تتصرف كالأطفال ـ أى عندما تحاول الحيوانات أن تعرف وترتق بمعرفتها يختلط لديها الاندفاع بالاحتراس ..

ومن مظاهر الاستطلاع عند القرد وعند الإنسان أيضا : اللعب ، فاللعب عند القرود يشبه اللعب عند الطفل الإنسانى ، فالصغار عموما يحبون الشيء الجديد . يمسكونه ، ويرمونه ويكسرونه ، ويخترعون أشكالا جديدة من اللعب وليست لديهم قدرة على التركيز ولاقدرة على أن ينقلوا إلى آبائهم معنى الألعاب أو الحركات التى اكتشفوها . أما الطفل الإنسانى فيستطيع إلى حد ما ، والفرق

بين القرود الصغيرة والأطفال الصغار : إن القرود كلما كبرت قويت عضلاتها والأطفال الصغار كلما كبروا قويت عقولهم ..

وإذا أعطينا القرد الصغير ورقة وقلما ، فإنه يمسك القلم ويرسم به على الورق ، وعندما ينظر إلى ما أحدثه القلم على الورق يفرح به .. فهذه الخطوط شيء جديد ، ويظل يرسم بالقلم على الورق ، وأحيانا يرسم دوائر ناقصة .. وأحيانا خطوطا متقطعة .. أما الطفل الإنسانى فيهتدى إلى الدوائر والمربعات .

والأطفال والقرود يحبون الخبط والرقع .. أى يحبون أن يلعبوا بالأشياء التى لها صوت ، وكلما كان الصوت مدويا كان تعلقهم بهذه اللعب أكثر .. يحبون البمب .. والبالونات ومسدسات الفل ..

والطفل الإنسانى عندما يبلغ الثالثة من عمره يعرف كيف يرسم الدائرة ، ويرسم الوجه الإنسانى .وذلك بأن يجعل له عينين وفما وأذنين .. ثم يجعل الذراعين والساقين تخرج من الرأس ..

وهذه مرحلة استكشاف واكتشاف أيضا ، فالطفل يستكشف قدراته على اللعب ، ويكتشف أنه قادر على أن يلعب ، ولكنه لايقدر على أن ينقل هذا الذى يمارسه إلى والديه فيقول لهما ما الذى صنعه أو اهتدى إليه ، وإنما هو يرسم فقط ! . إنه كالذى وجد قرشا على الأرض . وراح يلعب به فقط ولكن لايعرف إن كان هذا القرش له معنى آخر .. أو يستطيع أن يشترى به أى شيء .. أو بعبارة أخرى : إن القرش لعبة ، أى أنه يساوى ثمنه لعبا ، أى أن اللعب لذة مدفوعة الثمن فورا . فهو فى مرحلة اللعب لمجرد اللعب .

وفى عالم الأصوات : لانجد أن للقرد الصغير أو الكبير تجارب فى عالم الصوت ، فهو غير قادر على أن يكتشف شيئا جديدا ، ولا أن يقوم بتركيب كلمات أو حروف ، ولا هو قادر على التلاعب بالحروف والكلمات ، كما يفعل

الأطفال عندما يكتشفون قدرتهم على الكلام ، فإنهم يفرحون باختراع كلمات أخرى : أى بقلب الحروف ولخبطتها .. إنها مهارة جديدة اكتشفوها فى أنفسهم .. وإن كانت القرود لها أصوات معروفة ثابتة .

وإن كانت لها أيضا عادة دق الأرض بالأرجل والأيدى للتعبير عن الضيق أو الفرح ، ولكنها دقات معروفة محدودة ، كما أن القرود فى بعض الأحيان تنفخ فى الأجسام المفرغة الجوف .. ولكن القردة لم تستطع أن تجعل الشىء المفرغ عودا أو قيثارا!، ولم تجعل لهذه الأصوات قواعد ومعنى .

ولم تحاول القردة أن تجعل فرحتها منظمة .. أو حركاتها مدروسة كالرقص عند الإنسان . أو كالألعاب الرياضية .. فالرياضة هى حركات ذات إيقاع ، هذا الإيقاع متنوع من لعبة إلى لعبة ..

حتى الكتابة هى أيضا نوع من الرسم ، فالحروف عبارة عن رسوم والكتابة أصلها لعب أيضا .

وعن طريق هذه الاكتشافات نقلنا أفكارنا إلى غيرنا ، ونقلنا أفكارنا من جيل إلى جيل ، وأصبح لنا تاريخ مشترك . ثم وضعنا لكل هذه الألعاب قواعد ..

ولاشىء جديد فى عالم الحيوان .

ولكن الجديد فى عالم الإنسان .

فهو دائما يبحث عن الجديد ويتمسك به ، فإذا أصبح مألوفا اتجه إلى غيره ، ولو وقفنا عند الذى نعرفه لتجمدنا وليس الجديد فقط فى خطوط الأزياء والتسريحات والسيارات والأثاث ، ولكن الجديد فى أسلوب التفكير

نفسه فالبحث عن الجديد والبعيد هو جوهر الحضارة الإنسانية .. وهو الفارق بين الإنسان والقرد ، أو بين القرد العريان والقرد ..

وإذا رجعنا إلى لعب الأطفال لوجدناه موجها إلى الآباء فى أول الأمر ، فالأب يلاعب طفله ، والطفل يلاعب والديه ، وعندما يكبر الطفل ، فإن اللعب يتجه إلى غيره من الأطفال .. أى يكون للطفل نشاط اجتماعى ، فيكون للطفل شلة من الأطفال يلعبون معا ، وهذه مرحلة دقيقة جدا فى حياة الطفل وسوف يكون لها أثر خطير فى حياته ، فالطفل الذى يحاول أن يعزف على الآلات الموسيقية ويفشل وهو صغير ، سيجد صعوبة شديدة فى محاولة ذلك عندما يكبر والطفل الذى يفشل فى أن يكون له أصدقاء وهو صغير ، ستصبح الصداقة صعبة عليه عندما يكبر. وإذا كانت علاقة الطفل بالأشياء المادية كالبيانو أو كالناى صعبة فى الطفولة ، فإن علاقته بالأطفال سوف تكون أصعب وأعقد .

والطفل الذى انعزل عن مجتمع الأطفال ، أى الذى ليست له علاقات اجتماعية ، سيجد نفسه فى وضع سيئ وسوف تكون علاقاته الاجتماعية معقدة ومرهقة أيضا ..

ومن التجارب التى أجريت على القرود مثلا : أننا إذا عزلنا قردا من القرود الأخرى .. سنة وراء سنة ثم أتينا له بعد ذلك بقرود فإنه يظل عاجزا عن المشاركة معها فى اللعب أو اللهو حتى فى الجنس .. بل إنه يفقد رغبته الجنسية تماما ، وقد لاحظ العلماء أن القرود التى تنعزل طويلا إذا وضعت فى مجتمع القرود فإنها تقف إلى جوار الحائط وتدق الأرض برجلها .. وأحيانا تخفى وجهها بيديها .. كأنها فى حالة خوف أو خجل أو عجز عن الاشتراك فى أى عمل جماعى ..

وتربية الطفل لها جانبان : تربية داخلية وتربية خارجية ، ولننظر ماذا يحدث فى عالم القرود : فالأم تترك طفلها يتعلق بها ، فإذا خاف عاد إليها فالأم تحميه بحنانها وترضعه مكافأة على سلوكه الذى لايضره ، وهذه هى مرحلة الأمان عن طريق الحنان ، أما عندما يكبر القرد فإن الأم تطرده بعيدا عنها ، لكى يشترك مع القرود الأخرى فى اللعب فإذا عاد إليها فإنها تضربه وتقسو عليه .. كأنها تريد أن تقول له : إنك كبرت على حضن الأم ، فابحث لك عن حضن آخر .. وفى هذه المرحلة نجد الأم أقل حبا لطفلها . ولاتنطلق لحمايته إلا فى حالة الخطر الشديد أما إذا لم يكن هناك خطر ، وجاء طفلها الصغير يتعلق بها فإنها تطرده وتضربه ، وبعد ذلك يتعلم القرد الصغير أن يبعد عن أمه ، وأن يدافع هو عن نفسه ..

وكذلك الطفل الإنسانى تماما ، إذا لم تحسن الأم تربية طفلها فى المرحلتين فإن النتيجة سوف تكون سيئة وقاسية ..

والطفل الإنسانى الذى يفقد الحنان وهو صغير ، ثم أصبحت له علاقات اجتماعية بعد ذلك ، فإنه سوف يكون عاجزا عن تعميق هذه العلاقات الاجتماعية ..

وإذا عرف الحنان فى الطفولة وعرف الحماية الرائدة والعناية البالغة فمن الصعب عليه أن يجد الشجاعة على خلق علاقات اجتماعية جديدة ، وإنما سيظل كالطفل متعلقا بأمه ..

ولايريد أحدا آخر غير الأم ، فإذا فقد الأم فإنه يظل يبحث عن الأم أو بديل عن الأم . وسوف يصدمه المجتمع لأنه بطبعه قاس ، ولأنه ليس أما لأحد ..

والإنسان الذى يخاف من المجتمع يكون إنسانا انسحابيا أو هروبيا ، وهذا

الإنسان الهروبي لايريد أن يعرف شيئا جديدا ، لأن الجديد مخيف وهو لايريد أن يخاف .

فالذى يعرفه أحسن ، وهو لذلك ليس اجتماعيا ، ولا يحب أن يكون وقد يكون له نشاط جسمي ، ولكن نشاطه يجب أن يكون متكررا ، أى لا يأتى بحركات جديدة ، وإنما هو أسير العادة التى استراح إليها .

بل إننا نجد الكثيرين من الهروبيين لهم حركات ثابتة .. يهزون رءوسهم أو أيديهم أو أرجلهم بصورة متكررة أو يرضعون أصابعهم ، وتكون لكل واحد منهم « لأزمة » .. لماذا ؟ لأن هؤلاء الهروبيين قد وجدوا البيئة مخيفة ، معادية ، لا ترحب بهم ، ولذلك وجدوا الراحة فى أن يجعلوا سلوكهم مألوفا ، مألوفا أكثر من اللازم . أى جعلوا أنفسهم مفهومين .. عاديين .. لايخاف منهم أحد أو لايلتفت إليهم .. ومن الممكن أن تلاحظ ذلك فى الناس الذين حولك . فالذى يقول عبارات واحدة لايغيرها فى الرد على كل شىء هو إنسان (عادى) ـ أى يجعل العادة تتحكم فيه . حتى أصبح هو نفسه (عادة) اجتماعية ، لايخيف أحدا ، ولا يخاف من أحد ، وهناك مثل شعبى يقول : آفتى : معرفتى ، وراحتى : ما اعرفش ـ ومعناه أنه لاشىء يخيف أكثر من المعرفة ، ولا شىء يريح أكثر من الجهل !..

ولابد أن يكون المثل الأعلى عند هذا الطراز من الناس هو أن يأتى بالأفعال الرتيبة .. مثل دقات القلب فدقات قلب الأم تريح الطفل . وكل عمل يكون متكررا على شكل دقات القلب هو شىء مريح أيضا . أو هو شىء يجعلنا نخفف من حدة التوتر .

وفى استطاعتك أن تلاحظ من ينتظر مكالمة تليفونية أنه يدق بأصابعه بشكل منتظم أو يهز قدميه .. أو يتحرك فى الغرفة .. والطالب أثناء الامتحان يضع القلم

فى فمه .. أو يلعب بشاربه .. ويكون ذلك بإيقاع متكرر مثل دقات القلب ..

وهذه الحركات .. أو هذه (اللازمة) لها فائدة : فهى تساعدنا على احتمال الشىء الجديد الذى ننتظره فى خوف .

وإذا نحن أسرفنا فى استخدام هذه (اللازمة) فإنها تصبح فكرة متسلطة علينا .. أى أننا نضع القلم فى أفواهنا دون أن يكون هناك امتحان .. أو نروح ونجىء فى الغرفة من غير مناسبة .. من غير أن تكون لنا قدرة ارادية على ضبط هذه الحركات والتوقف عنها !..

وهذه (اللازمة) تولد من الملل .. وإذا ذهبنا إلى حديقة الحيوانات وجدنا الحيوانات منعزلة فى أقفاصها الحديدية .. وهى منعزلة عن العالم الواسع . وعن العلاقات الجماعية .. أى عن الاتصال بالحيوانات الأخرى ، فهى فى حالة انسحاب وانزواء ، كأنها هربت من الحيوانات الأخرى ، أو هربت منها الحيوانات الأخرى .

ومن الأفضل أن ننظر لأنفسنا ونحن نقف أمام أقفاص الحيوانات .. إن هذه الأقفاص الحديدية تشبه الموانع النفسية الشديدة التى نحيط بها أنفسنا وننسحب وراءها ، وننكمش وننطوى ونتوقع ونجتر تجاربنا ولانضيف إلى أنفسنا شيئا اجتماعيا جديدا . وإنما نفرز من أنفسنا نسيج دودة القز ونتوارى وراءها .. أو نندفن ، ومن مظاهر هذا السلوك الانسحابى عند الحيوانات : أنها تدور حول نفسها وتثير نفسها جنسيا .. والإنسان يفعل ذلك أيضا فى المعسكرات والسجون والمستشفيات والأقسام الداخلية للمدارس ، ونجد القرود تلعب فى أذنيها بأعواد الشجر ، ونجد الفيل واقفا فى مكانه يهز رأسه يمينا وشمالا ساعات طويلة ، وبعض الحيوانات تشد شعرها ، أو تعض نفسها أو ترضع ثديها .

وقد يكون السبب أيضا هو التوتر الشديد أو تكون النشأة غير السليمة .

يمكننا أن نقوم بتجربة بسيطة وذلك بأن نلقى شيئا فى قفص قرد اعتاد أن ينعزل فإن هذا القرد لا يحاول أن يتجه إلى هذا الشىء الذى ألقيناه في قفصه ، ومعنى ذلك أنه لاشىء يثيره أى لاشىء جديد يثيره .. وإذا كان الحيوان لايلتفت إلى الشىء الجديد ، فلن يعرف شيئا وإذا كان الإنسان لايثيره الشىء الجديد ، فسوف يظل محدود المعالم ويكون بذلك أقرب إلى الحيوان .

وإذا ذهبنا إلى حديقة الحيوانات يجب أن نتذكر المدن الإنسانية التى نعيش فيها ، إنها أيضا مثل حدائق الحيوانات : كل إنسان له قفص ، هذا القفص من أعواد حديدية ، هذه الأعواد هى الممنوعات النفسية والاجتماعية وهى تحصرنا وتعصرنا ..

والصحة النفسية والاجتماعية إنما تتحقق إذا ما نحن ركبنا عربة يجرها حصانان : أحدهما حب الجديد والآخر الخوف من الجديد .. والعقل الإنسانى قد علمنا أن نتيجه إلى الجديد ، بخوف .. أو على الأصح باحتراس . وإذا كان الإنسان قد مات بسبب رغبته فى المعرفة . فإن الإنسان حى لأن بعض الناس مات من أجل أن يعيش غيره ليعرف أكثر وأكثر..

وإذا نحن نظرنا إلى (القرداتى) فماذا نجد ؟ نجد قردا مربوطا فى سلسلة وإذا وقف القرداتى ونحن أيضا ، وجدنا القرد يأتى بحركات من الشقلبة والرقص ، ومعنى ذلك أن القرداتى قد علم القرد أن يأتى بهذه الحركات . أى أن القرد مربوط بسلسلة أخرى هى : العادة على إتيان هذه الحركات ..

فكأن القرد مشدود بسلسلتين واحدة تراها وواحدة أخرى لاتراها ولكن هناك سلسلة أخرى تشد القرداتى إلى القرد : فهذا الرجل يعيش فى عالم محدود ، عالم القرود ، ويمشى فى أماكن محدودة . ويعود إلى بيته ويجلس إلى جوار الحائط ولاينام إلا والقرد إلى جواره وإلا على صوته ، ولو قطع القرد

السلسلة وهرب لأحس الرجل أن قلبه هو الذى انقطع .. فأى الاثنين هو القرد ؟ أيهما هو المربوط بالآخر .. من المؤكد أن القرد هو المربوط فى الرجل . ومن المؤكد أيضا أن هذا الرجل العاقل مربوط من القرد .. وبالقرد ..

فليست الحيوانات هى وحدها المحبوسة فى أقفاص ، وليس الإنسان هو الذى يذهب إلى الحديقة ليتفرج على القرود .. إنها أيضا تتفرج عليه وعلى قيوده التى لايدرى بها ! ..

فكما أن هذا الرجل اسمه (قرداتى) فهذا القرد اسمه «انساناتى» !

وكلنا كذلك !! ..

لولا سلامك سبق كلامك

- ٤ -

لسببين يعتدى حيوان على آخر : دفاعا عن الأرض التى يعيش عليها ، أو حرصا على السلطة التى يتمتع بها فى القبيلة أى أنه يدافع عن السلطة أو عن اللقمة .

وهناك حيوانات تدافع عن الأرض ولا تهمها السلطة .. وحيوانات تدافع عن مركزها ولا تهمها الأرض . أما الإنسان فإنه يدافع عن الأرض والعرض والسلطة .

وفى جبلاية القرود نجد أن القرد الأقوى هو الذى يسيطر . أما قوته فهى فى عضلاته أو فى حيويته . فإذا كانت حيويته هى مصدر قوته فإنه يعتلى كل الاناث وكل الذكور أيضا . ولكنه عندما يأكل يكون سخيا يترك طعامه لغيره من ضعاف الجبلاية !

وكما تطور الإنسان فى علاقاته الجنسية فأصبحت له أنثى واحدة، تطور أيضا ، ممتلكاته. فكل واحد له شىء يملكه : أرض أو بيت. وقد وصل الإنسان إلى هذا الوضع منذ كان الأقوياء من الرجال يسافرون بعيدا للصيد . وكانوا يتركون

بيوتهم وأولادهم . ولذلك كان لابد أن يتفقوا على قاعدة يحترمها القوى والضعيف وخصوصا الضعيف عندما يغيب القوى . إذا كان القانون يحمى الضعيف من القوى ، فكأنه يحمى الأقوياء ـ وهم أقلية ـ من الضعفاء وهم الأغلبية الساحقة ..

وعندما يشعر الحيوان برغبة فى العدوان فإن تغيرات هائلة تجرى فى داخله . هذه التغيرات هى نوع من التعبئة العامة لكل قوى الحيوان المختزنة ويأخذ هذا الاستعداد شكلين : قوة تدفعه إلى الهجوم وقوة أخرى تسحبه وتمسكه . قوة تقول له تقدم . وقوة أخرى تقول : حاسب ! .

ومن هذا الصراع فى داخله يتقرر موقف الحيوان .

ولكن عندما يتهيأ الحيوان للهجوم يفرز الجسم مادة الاردنالين فى الدم وتنشط الدورة الدموية كلها .

فالقلب يدق بسرعة . وينسحب الدم من الجلد والأحشاء إلى العضلات والمخ . ويرتفع ضغط الدم . وتزداد الكريات الحمراء . وتصبح للدم خاصية التجلط بسرعة . ويتوقف الهضم . ويجف اللعاب . ويتوقف نشاط المعدة تماما وحركة الأمعاء . ويصعب على الحيوان أن يتبول . ثم إن الكبد تفرز السكر فى الدم. وينشط الجهاز التنفسى. ويقف الشعر ويتبلل بالعرق. وبسرعة السحر يختفى التعب . ويحشد الجسم كل قدراته من أجل البقاء . والدم يندفع إلى الأماكن التى تحتاج إليه . وإلى المخ لكى يتمكن الحيوان من تقدير الموقف . كما أن سرعة التجلط معناها أن أى جرح سوف يجف بسرعة وبذلك لا يضيع الدم عبثا . ونشاط الرئتين معناه أن الحيوان يسحب كميات كبيرة من الأوكسجين . ووقوف الشعر يعرض الجلد للهواء الذى يقوم بتبريد هذا الجسم الملتهب . ولذلك لا يكون هناك خوف على الحيوان من درجات الغليان التى يصل إليها ! .

وكلما ارتقت الحيوانات أصبحت لها عادات وتقاليد أو طقوس فى التهديد . فالحيوان يتقدم ويتأخر ويدور وينحني . وهذه الحركات تبين كيف استعد الحيوان للمعركة ، وهى فى نفس الوقت تخفف من حدة الحيوان .. وكثيرا ما تنتهت هذه الرغبات العدوانية عند هذا الحد !

وإذا انسحب الحيوان من المعركة بلا قتال أو بقتال ، استعاد جسمه نشاطه العادى .. فريقه يجرى وبوله أيضا ! .

والتبول عند الحيوان له دلالة خاصة عند الثدييات : فالتبول دليل على أن هذه المنطقة التى يتبول فيها خاصة به . فهو يترك أثره فيها . والكلاب عندما ترفع رجلها عند أحد أعمدة النور، فهذا هو المعنى. وإذا كانت الكلاب تفعل ذلك بإسراف فى المدن ، فلأن فى المدن عددا كبيرا من الكلاب . وهذا يثيرها ويدفعها إلى أن يحدد كل كلب مكانه وأرضه ! وقد اكتسب السيد قشطة عادة أخرى : فله ذيل عريض ، وهذا الذيل يتحرك بسرعة يمينا وشمالا ينثر مخلفاته على أوسع نطاق ممكن . وبذلك يحدد الأرض التى تخصه . وبعض الحيوانات لها غدد تفرز رائحة كريهة . هذه الروائح هى انذار لكل الحيوانات الأخرى . هذه أرض تخص حيوانا آخر .. فاحترس ! .

وقد اتخذ التهديد شكلا صوتيا آخر عند بعض الحيوانات : النباح والعواء والفحيح والزئير.. وأحيانا الانتفاخ : عند الطيور فلها أكياس هوائية تجعل حجمها أكبر وشكلها مخيفا ! .

وهناك اشارات للتفاهم بين الحيوانات : فعندما يقف الشعر يدرك الحيوان الآخر أن هناك خطرا .

ولذلك فالديك له عرف والأسد له معرفة تجعل الرأس أكبر. وكذلك العرق عند الحيوانات تكون له رائحة خاصة تؤكد النزعة العدوانية ..

كل هذا يحدث للحيوانات داخليا أما التغيرات الظاهرة فهى أن عضلات الحيوانات تكون فى غاية القوة والمرونة فالحيوان يروح ويجىء ويدور وبعض الحيوانات لها طقوس فى الرقص .

رقصة القتال . أو رقصة الحرب .

فالحيوان يدور حول الحيوان الآخر . وحول نفسه . وهذا الدوران معناه أن هناك توازنا بين رغبته فى العدوان وبين رغبته فى الامتناع عن ذلك .. وخصوصا عندما يلوى جسمه ويحنى رأسه ويدق الأرض بقدميه ! .

وأحيانا نرى نوعا من التراجع أو المراجعة . ولذلك يقوم الحيوان بحركات غريبة لا علاقة لها بالعدوان كأن الحيوان قد وضع « غله فى شىء آخر » فيأكل مثلا أو يهرش فى جسمه .. أو ينظف فروته أو يجمع الأعشاب أو الأخشاب كأنه يبنى عشا وهميا . وبعض الحيوانات تنام فجأة .. أو تتثاءب وتتمدد ..

بعض العلماء يقول : إن الحيوان إذا أكل فهو جائع حتما . وإذا هرش فإن حشرة تلسعه . ومن الطبيعى أن يجوع الحيوان عندما تتبدد طاقته الهائلة فى حالة التعب أو العدوان ! .

ولكن هذه الحركات التى يأتيها الحيوان ليست إلا محاولة لتخفيف درجة التوتر . أو ليست إلا نوعا من الانسحاب . وقد ينتهى الموقف هكذا . وينصرف كل حيوان إلى سبيله .. ولكن إذا فشلت هذه الحركات فى تهدئة الحيوانات كأن تكون قطعانا كبيرة . وكأن يكون هناك زحام على الأرض والطعام والسيادة استخدمت الحيوانات أنيابها وأظفارها وقرونها .. وذيلها يكون كالكرباج .

ولكن من النادر أن يقتل الحيوان حيوانا آخر . ومن النادر أن يفعل حيوان ما يفعله مع فريسته . فالأسد إذا التقى بأسد فإنه يضربه ويجرحه ولا يقتله ولا يأكله .. أى أن الأسد لا يقتل الأسد كما يفعل بفريسته من الغزلان .. فإذا

انتصر الأسد القوى على الأسد الضعيف اكتفى بهذا النصر. وتركه. أما المنهزم فعليه أن يؤكد أنه انهزم! وعليه أن يهرب إذا استطاع.

وهناك لغة للتفاهم بين الحيوانات: من بينها أن ينكمش المهزوم وأن ينام على الأرض ويحنى رأسه ويغمض عينيه ولا يزأر.. وأحيانا نجد الحيوان المنهزم يعرض جسمه للحيوان المنتصر. كأن يقدم له إحدى يديه.. وقد ينقض الحيوان المنتصر فيعض يد خصمه. أو يضربها. أو يكتفى بهذا الاستسلام.

وبين القرود نجد الشمبانزى يمد يده كأنه يتسول.. وخصوصا الاناث، والاناث تعطى نفسها للذكر. وفى هذه الحالة يتم الاستسلام والسلام وينحسم الموقف والذكور الضعاف تفعل ذلك أيضا!.

وهذا هو قانون الغابة: الحيوان يهزم الحيوان ولا يقتله. وإذا استسلم له تركه. وانتهى الخلاف..

وكل هذه التغيرات الداخلية تحدث للانسان. مع فارق أن كل هذه الاضطرابات تبدو على وجهه. وهذه مزايا القرد العريان ـ أى.. الانسان.

فوجهه يصفر ويحمر.. من الغضب ومن الخجل. أما شعر الانسان فلا يقف.. رغم أننا نستخدم هذا التعبير!.

وعند الغضب تنحنى الذراع وتجتمع أصابع اليد على شكل قبضة وهذا استعداد من بعيد. أو تهديد من بعيد. وأحيانا نضرب المنضدة أو الحائط أو نضرب رءوسنا. ولكن ما نزال على مسافة من الخصم.

وكثيرا ما نوجه هذا الغضب إلى الشخص الذى جاء يخلصنا.

ولذلك نقول: ما ينوب المخلص إلا تقطيع هدومه.. والسيدة التى تكسر الأطباق فى حالة غضب مع زوجها، لم تقصد تحطيم هذه الآنية وإنما هى

تقصد أن تحطم رأس زوجها ! وهذا بالضبط ما تفعله القرود فهى فى حالة الغضب تحطم الأغصان والثمار وجدران القفص ! .

والسلام باليد هو نوع من الاستسلام . فالذى كان فى نيته أن يضرب بيده يجدها مفرودة . وأصابعة متراخية . وهى عملية تحويل الغضب إلى تهدئة .. وهدوء . وكذلك « الطبطبة » على الكتف تهدئة أيضا . وخلع البرنيطة عند السلام تشبه الديك عندما يخفض « عرفه » والأسد عندما يخفض شعر رأسه .. وخلع البرنيطة مع انحناء الرأس يجعل جسم الانسان أقل طولا ، وأقل صلابة .. على خلاف ما يحدث عند العدوان أو القتل . وعند العدوان نبحلق فى الخصم . فإذا أغمضنا العين أو نظرنا إلى الأرض كنا بذلك نهدئ أنفسنا أو نعلن أن الحالة لم تعد فى حاجة إلى الحذر والترقب . ونحن فى حديثنا العادى لا ننظر إلى الذين نتحدث إليهم طوال الوقت ، وإنما فقط فى نهاية كل جملة لنعرف وقع لكلام ..

وكذلك وضع النظارة السوداء على العينين يجعلنا نبدو متربصين أو عدوانيين . ولذلك فالذى ينظر الينا من وراء منظار يجعلنا نشعر بأنه ليس وديا .. فالنظارة عبارة عن عينين مفتوحتين بلا أجفان ولا رموش !

وقد اكتسبت بعض الحشرات مثل هذه النظارات .. أو مثل هذه العيون نجد أن العيون مرسومة على أجنحة الحشرات . فإذا أحست خطرا نشرت أجنحتها فظهرت هذه العيون لامعة باهرة رهيبة تخيف أعداءها ! .

وبعض الأسماك لها أيضا هذه العيون وكذلك الطيور . ونحن نستخدم الأقنعة ذات العيون . وبعض شركات السيارات تجعل المصابيح الأمامية ذات أشكال مخيفة . وهذا ضرورى فى الزحام فى المدن .

بل إن الشركات لم تكتف بهذه « العيون المخيفة » وإنما جعلت للسيارات أسماء مخيفة أيضا ! .

ولذلك فالسلام باليد هو اعلان وقف اطلاق النار من العينين وتجىء القبلات بعد السلام .. كما نفعل مع رجال الدين أو الآباء ، أما تقبيل يد السيدات فله معنى آخر : فالرغبة العدوانية الجنسية قد تحولت إلى مجرد لمس اليد باليد وبالشفتين ـ أى الحد الأدنى من تحقيق رغباتنا الخفية .

ومن الغريب أن الأحاديث بين الرجل والمرأة تتخذ شكلا « طفوليا » .. فيتحول الرجل إلى طفل .. أو يقول كلاما مثل كلام الأطفال فيكون ضعيفا بطيئا مثيرا للشفقة . أى أنه يحول نزعاته العدوانية إلى نزعات استسلامية أو سلامية .. ويتحول الرجل والمرأة إلى أسلوب الحمام . فيشرب الواحد من كوب الآخر .. أو يمسك الواحد بمنقار الآخر : وهذا نوع من التقبيل ! .

والمثل الذى يقول : لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عظامك مثل سليم وصحيح .

أما «الطبطبة » فلها معنى آخر : نحن نجد عند القرود أن القرد الذى انهزم أو استسلم يقترب من القرد الآخر « ويفليه » .. وهذه « التفلية » تهدئ أعصابه . وكذلك الطبطبة هى نوع من الاقتراب البرىء .. وقبول لهذا الاقتراب . فلا خوف ولا عدوان !

وفى مواجهة العدوان أو الغضب نقوم نحن بأعمال أخرى لا علاقة لها مطلقا بالعدوان . مثلا نشعل سيجارة . أو نمسح النظارة . أو نلعب فى شواربنا أو ننظر إلى الساعة أو نحرك عقاربها . أو نرتب الأوراق التى أمامنا أو ننظر من النافذة . أو نطلب أى رقم فى التليفون . أو نقضم أظافرنا بأسناننا أو نطقطق أصابعنا .

ونحن قادرون على الكذب بملامحنا ولكن لا نقدر على الكذب بانفعالاتنا أ

بهذا النشاط الفسيولوجى فى داخل الجسم . وهناك أناس كذابون محترفون : الممثلون . فهم قادرون على الكذب بالملامح وعلى توجيه نشاط الجسم وجهة أخرى لا نقدر نحن عليها فى ظروفنا العادية .

والإنسان لأنه يحرص على أن تكون له أرض خاصة وبيت خاص وزوجة خاصة . وأن يكون خاصا فى كل مكان يشغله ، نجده يضع صورة أولاده على مكتبه أو صورة زوجته . وكذلك يحرص على أن يضع فى سيارته نوعا من العرائس أو الزينات لكى يجعل سيارته مختلفة عن السيارات الأخرى .. ملايين السيارات الأخرى التى تشبهها . وكذلك السائق الذى يضع عبارات على سيارته من الخلف ومن الجوانب . إنه يريد أن يجعلها مختلفة عن السيارات الأخرى .. وإذا سألته لماذا ؟ قال لك : إنها هكذا ألطف وأجمل .

ولكن هذا الجواب ليس صحيحا . وإنما الصحيح أنه يريد أن يجعلها مختلفة . يريد أن يجعلها خاصة به هو .. ومن الضرورى أن نتذكر هنا ما تفعله الكلاب على أعمدة النور . نفس الموقف وإن كان الأسلوب مختلفا فكلاهما ـ كلانا نحن والكلاب ـ يريد أن يؤكد أنه هنا ـ وأن هذا المكان خاص به وحده . وأنه مضطر أن يفعل ذلك فى مواجهة الزحام الشديد بين الناس والكلاب !

وهناك تصرفات يومية بسيطة ولكن معناها أبعد مما نتصور .. مثلا عندما نكسر اشارة المرور . ويدركنا عسكرى المرور . فما الذى نفعله ؟ الأفضل أن تتحدث إلى عسكرى المرور وأنت فى سيارتك . أى فى مكانك . فى أرضك . فى بيتك . هذا يعطيك شيئا من الطمأنينة . وفى هذه الحالة يحسن أن تجعل أسلوبك متوسطا لطيفا . سوف يجىء العسكرى إليك .. أى إلى حدود مملكتك .. وهو مضطر أن يحول هذا الاقتراب العدوانى إلى اقتراب ودى . وبذلك تكون وديا وهو أيضا . ولذلك يمكن تسوية الموقف لصالحك . ولكن

نزلت من سيارتك ، أى تركت أرضك . وذهبت إلى أرضه . فالموقف فى
، . وهو سيده .. والنتيجة ضدك عادة ! .

وقد تطورت وسائل الأقتراب من أرض أعدائنا .. ومن أعدائنا فكان لابد
يقترب الانسان من عدوه جدا ليشتبك معه ثم اخترع السهام والنبال ،
صبح فى الامكان قتله عن بعد .. والآن تحولت السهام إلى صواريخ وقنابل
ى هذه الحالة نحن لا نصيب العدو وإنما نقتله .. أما الحيوانات فهى تهزم
ـوها فقط ..

المحتويات

الصفحة

رقم الايداع . ٨٩/٤٩٧٣
الترقيم الدولى : ١ - ٣٧٨ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق
القاهرة. ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

